



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبحان

للغافل



عليه
صباح
الرمضان

WWW. **Ghaemiyeh** .com
WWW. **Ghaemiyeh** .org
WWW. **Ghaemiyeh** .net
WWW. **Ghaemiyeh** .ir

السيرة

نفسية القليل

للمعلمة تريا الشيد محمد حسين الطيب البستاني

المجلد الثالث

منشورات

مؤسسة الأمل للطبوعات

بغداد - العراق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الميزان في تفسير القرآن

كاتب:

محمد حسين طباطبائي

نشرت في الطباعة:

علامة طباطبائي

رقم الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٠	تفسیر المیزان المجلد ٣
١٠	اشاره
١٠	اشاره
١٤	(٣)سوره آل عمران مدنيه و هي مائتا آيه (٢٠٠) ..
١٤	[سوره آل عمران (٣): الآيات ١ الى ٦]
١٤	اشاره
١٤	بيان
١٩	كلام فى معنى العذاب فى القرآن
٢٢	[بيان]
٢٤	بحث روائى
٢٨	[سوره آل عمران (٣): الآيات ٧ الى ٩]
٢٨	اشاره
٢٨	بيان
٤٠	كلام تفصيلى فى المحكم و المتشابه و التأويل
٤٠	اشاره
٤١	١ المحكم و المتشابه
٥٢	٢ ما معنى كون المحكمات أم الكتاب
٥٣	٣ ما معنى التأويل؟
٥٨	٤ هل يعلم تأويل القرآن غير الله سبحانه
٦٥	٥ ما هو السبب فى اشتغال الكتاب على المتشابه؟
٧٢	[نتائج هذه الأبحاث و هي عشرة]
٧٦	بحث روائى
٨٤	بحث آخر روائى [فى المراد من تفسير القرآن بالرأى و ما هو حق التفسير]

٩٦	[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٠ الى ١٨]
٩٦	اشاره
٩٨	بيان
١٢٨	بحث روائى
١٢٩	[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٩ الى ٢٥]
١٢٩	اشاره
١٣٠	بيان
١٣٦	بحث روائى
١٣٨	[سوره آل عمران (٣): الآيات ٢٦ الى ٢٧]
١٣٨	اشاره
١٣٨	بيان
١٤٧	معنى الرزق فى القرآن
١٥٢	بحث روائى
١٥٤	بحث علمى [فى معنى الملك و اعتباره]
١٥٩	بحث فلسفى [فى استناد الملك و سائر الأمور الاعتباريه إليه تعالى].
١٦٠	[سوره آل عمران (٣): الآيات ٢٨ الى ٣٢]
١٦٠	اشاره
١٦١	بيان
١٧٢	بحث روائى
١٧٤	[سوره آل عمران (٣): الآيات ٣٣ الى ٣٤]
١٧٤	اشاره
١٧٤	بيان
١٧٨	بحث روائى
١٧٩	[سوره آل عمران (٣): الآيات ٣٥ الى ٤١]
١٧٩	اشاره
١٨٠	بيان

- ١٩١ كلام فى الخواطر الملكيه و الشيطانيه و ما يلحق بها من التكليم
- ١٩٣ بحث روائى
- ١٩٥ بحث روائى آخر [كلام فى الخواطر الملكيه و الشيطانيه و ما يلحق بهما من التكليم].
- ١٩٦ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٤٢ الى ٤٠]
- ١٩٦ اشاره
- ١٩٩ بيان
- ٢٢٥ بحث روائى
- ٢٣٠ بحث روائى آخر فى معنى المحدث
- ٢٣٣ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٤١ الى ٤٣]
- ٢٣٣ اشاره
- ٢٣٣ بيان
- ٢٣٩ بحث روائى [المباهله مع نصارى نجران]
- ٢٥٥ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٤٤ الى ٧٨]
- ٢٥٥ اشاره
- ٢٥٧ بيان
- ٢٧٧ بحث روائى
- ٢٨٤ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٧٩ الى ٨٠]
- ٢٨٤ اشاره
- ٢٨٥ بيان
- ٢٩٠ (خاتمه فيها فصول)
- ٢٩٠ ١- ما هى قصه عيسى و أمه فى القرآن؟
- ٢٩٢ ٢- منزله عيسى عند الله و موقفه فى نفسه:
- ٢٩٣ ٣- ما الذى قاله عيسى(ع)؟ و ما الذى قيل فيه؟
- ٢٩٨ ٤- احتجاج القرآن على مذهب التثليث
- ٣٠٢ ٥- المسيح من الشفعاء عند الله و ليس بفاد:
- ٣١٦ ٦ من أين نشأ هذه الآراء؟

٧- ما هو الكتاب الذي ينتسب إليه أهل الكتاب و كيف هو؟ ٣١٧

بحث تاريخي ٣١٩

١- قصة التوراه الحاضره: ٣١٩

٢- قصة المسيح و الإنجيل: ٣٢١

اشاره ٣٢١

[الأنجيل الأربعة] ٣٢٢

[إنجيل برنابا] ٣٢٤

[انشعاب الكنائس] ٣٣٧

بحث روائي ٣٤١

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٨١ الى ٨٥] ٣٤٢

اشاره ٣٤٢

بيان ٣٤٢

بحث روائي ٣٤٨

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٨٦ الى ٩١] ٣٥٠

اشاره ٣٥٠

بيان ٣٥١

بحث روائي ٣٥٣

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٢ الى ٩٥] ٣٥٤

اشاره ٣٥٤

بيان ٣٥٤

(بحث روائي) ٣٦٠

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٦ الى ٩٧] ٣٦٠

اشاره ٣٦٠

بيان ٣٦٠

(بحث روائي) ٣٦٦

(بحث تاريخي) [ملخص تاريخ الكعبه] ٣٦٩

- ٣٦٩ [بناء الكعبه]
- ٣٧١ شكل الكعبه:
- ٣٧٢ كسوه الكعبه:
- ٣٧٢ منزله الكعبه:
- ٣٧٣ ولايه الكعبه:
- ٣٧٥ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٨ الى ١٠١] - - - - -
- ٣٧٥ اشاره
- ٣٧٥ بيان
- ٣٧٨ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٠٢ الى ١١٠] - - - - -
- ٣٧٨ اشاره
- ٣٧٩ بيان
- ٣٨٩ (بحث روائى)
- ٣٩٤ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١١١ الى ١٢٠] - - - - -
- ٣٩٤ اشاره
- ٣٩٥ بيان
- ٤٠٥ تعريف مركز

سرشناسه : طباطبائی، سید محمد حسین، ۱۲۸۱ - ۱۳۶۰.

عنوان و نام پدید آور : تفسیر المیزان / محمد حسین طباطبائی؛ ترجمه ناصر مکارم شیرازی... [و دیگران].

وضعیت ویراست : [ویراست ۲؟]

مشخصات نشر : قم: بنیاد علمی و فکری علامه طباطبائی؛ تهران: مرکز نشر فرهنگی رجاء: امیر کبیر، ۱۳۶۳-

مشخصات ظاهری : ۲۰ ج.

شابک : ۱۶۰۰۰ ریال (دوره کامل)

یادداشت : جلد ۱۱ و ۱۹ کتاب توسط سید محمد باقر موسوی همدانی ترجمه شده است.

یادداشت : ج. ۱۱ (چاپ صد و بیست و هشتم: ۱۳۶۳).

یادداشت : ج. ۱۹ (چاپ اول؟: ۱۳۶۳).

یادداشت : عنوان عطف: ترجمه تفسیر المیزان.

عنوان عطف : ترجمه تفسیر المیزان.

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -، مترجم

رده بندی کنگره : BP۹۸/ط۲۵ م ۹۰۴۱ ۱۳۶۳

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی : م ۶۳-۳۵۴۹

ص : ۱

(٣) سورة آل عمران مدنيه و هي مائتا آيه (٢٠٠)

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١ الى ٦]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُيْدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤) إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)

بيان

غرض السوره دعوه المؤمنين إلى توحيد الكلمه في الدين، و الصبر و الثبات في حمايه حماه بتنبيهم بما هم عليه من دقه الموقف لمواجهتهم أعداء كاليهود و النصرارى و المشركين و قد جمعوا جمعهم و عزموا عزمهم على إطفاء نور الله تعالى بأيديهم و بأفواههم.

و يشبه أن تكون هذه السوره نازله دفعه واحده فإن آياتها و هي مائتا آيه- ظاهره الاتساق و الانتظام من أولها إلى آخرها، متناسبه آياتها، مرتبطه أغراضها.

و لذلك كان مما يترجح في النظر أن تكون السوره إنما نزلت على رسول الله ص و قد استقر له الأمر بعض الاستقرار و لما يتم استقراره، فإن فيها ذكر غزوه أحد، و فيها ذكر المباهله مع نصرارى نجران و ذكرا من أمر اليهود، و حثا على

ص: ٥

المشركين، ودعوه إلى الصبر و المصابرة و المرابطه، و جميع ذلك يؤيد أن السوره نزلت أيام كان المسلمون مبتلين بالدفاع عن حمى الدين بعامة قواهم و جميع أركانهم، فمن جانب كانوا يقاومون الفشل و الفتور اللذين يبدان في داخل جماعتهم بفتنه اليهود و النصرارى، و يحاجونهم و يجاوبونهم، و من جانب كانوا يقاتلون المشركين، و يعيشون في حال الحرب و انسلاب الأمن، فقد كان الإسلام في هذه الأيام قد انتشر صيته فثارت الدنيا عليه من اليهود و النصرارى و مشركى العرب، و وراء ذلك الروم و العجم و غيرهم.

و الله سبحانه يذكر المؤمنين في هذه السوره من حقائق دينه الذى هداهم به ما يطيب به نفوسهم، و يزول به رين الشبهات و الوسوس الشيطانيه و تسويلات أهل الكتاب عن قلوبهم، و يبين لهم: أن الله سبحانه لم يغفل عن تدبير ملكه، و لم يعجزه خلقه، و إنما اختار دينه و هدى جمعا من عباده إليه على طريقه العاده الجاريه، و السنه الدائمه، و هى سنه العلل و الأسباب، فالؤمن و الكافر جاريان على سنه الأسباب، فيوم للكافر و يوم للمؤمن، فالدار دار الامتحان، و اليوم يوم العمل، و الجزاء غدا.

قوله تعالى **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**، قد مر الكلام فيه في تفسير آيه الكرسي، و تحصل من هناك أن المراد به بيان قيامه تعالى أتم القيام على أمر الإيجاد و التدبير، فنظام الموجودات بأعيانها و آثارها تحت قيمومه الله لا مجرد قيمومه التأثير كالقيمومه فى الأسباب الطبيعیه الفاقده للشعور بل قيمومه حياه تستلزم العلم و القدره، فالعلم الإلهي نافذ فيها لا يخفى عليه شىء منها و القدره مهيمنه عليها لا يقع منها إلا ما شاء وقوعه و أذن فيه، و لذلك عقبه بقوله بعد آيتين: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ**.

و لما كانت هذه الآيات الست فى أول السوره على طريق براعه الاستهلال مشتمله على إجمال ما تحتويه السوره من التفصيل - و قد مر ذكر غرض السوره - كانت هذه الآيه بمنزله تصدير الكلام بالبيان الكلى الذى يستنتج به الغرض، كما أن الآيتين الأخيرتين أعنى قوله: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ** «إلخ» بمنزله التعليل بعد البيان، و على هذا فالكلام التى يتم به أمر براعه الاستهلال هما الآيتان المتوسطتان أعنى قوله: **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَى قَوْلِهِ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ**. و على هذا فيعود المعنى إلى أنه يجب على المؤمنين أن يتذكروا أن الله الذى آمنوا به واحد فى ألوهيته قائم على الخلق و التدبير قيام حياه، لا

يغلب في ملكه و لا- يكون إلا ما شاء و أذن فيه فإنهم إذا تذكروا ذلك علموا أنه هو المنزل للكتاب الهادى إلى الحق، و الفرقان المميز بين الحق و الباطل، و أنه إنما جرى فى ذلك على ما أجرى عليه عالم الأسباب، و ظرف الاختيار، فمن آمن فله أجره، و من كفر فإن الله سيجزيه لأنه عزيز ذو انتقام، و ذلك أنه الله الذى لا إله غيره حتى يحكم فى هذه الجهات، و لا يخفى عليه أمرهم، و لا يخرج عن إرادته و مشيئته فعالهم و كفرهم.

قوله تعالى: نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، قد مر أن التنزيل يدل على التدرج كما أن الإنزال يدل على الدفعه.

و ربما ينقض ذلك بقول: «لَوْ لَا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً» :الفرقان-٣٢، و بقوله تعالى: «أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً» :المائدة-١١٢، و قوله تعالى: «لَوْ لَا نَزَّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ» :الأنعام-٣٧، و قوله تعالى: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً» :الأنعام-٣٧، و لذلك ذكر بعض المفسرين: أن الأولى أن يقال: إن معنى نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ: أنزله إنزالا بعد إنزال دفعا للنقض.

و الجواب: أن المراد بالتدرج فى النزول ليس هو تخلل زمان معتد به بين نزول كل جزء من أجزاء الشىء و بين جزئه الآخر بل الأشياء المركبه التى توجد بوجود أجزائها لوجودها نسبه إلى مجموع الأجزاء و بذلك يصير الشىء أمرا واحدا غير منقسم، و التعبير عنه من هذه الجهه بالنزول كقوله تعالى: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» :الرعد-١٧ و هو الغيث. و نسبه من حيث وجوده بوجود أجزائه واحدا بعد واحد سواء تخلل بينهما زمان معتد به أو لم يتخلل و هو التدرج، و التعبير عنه بالتنزيل كقوله تعالى:

«وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ» :الشورى-٢٨.

و من هنا يظهر: أن الآيات المذكوره للنقض غير ناقضه- فإن المراد بقوله لَوْ لَا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً الآية: أن ينزل عليه القرآن آيه بعد آيه فى زمان متصل واحد من غير تخلل زمان معتد به كما كان عليه الأمر فى نزول القرآن فى الشئون و الحوادث و الأوقات المختلفه، و بذلك يظهر الجواب عن بقيه الآيات المذكوره.

و أما ما ذكره البعض المزبور فهو على أنه استحسان غير جائز فى اللغه البته،

لا يدفع شيئاً من النقص بالآيات المذكوره، بل هي بحالها و هو ظاهر.

و قد جرى كلامه تعالى أن يعبر عن إفاضه الكتاب على النبي ص بالتنزيل و النزول، و النزول يستلزم مقاما أو مكانا عاليا رفيعا يخرج منه الشيء نوعا من الخروج و يقصد مقاما أو مكانا آخر أسفل فيستقر فيه، و قد وصف نفسه تعالت ذاته بالعلو و رفعه الدرجات و قد وصف كتابه أنه من عنده، قال تعالى: «إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ» الشورى- ٥١، و قال تعالى: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَيِّدًا لِمَا مَعَهُمْ» البقره - ٨٩، فصح بذلك استعمال لفظ النزول في مورد استقرار الوحي في قلب رسول الله ص، و قد ذكروا أن الحق هو الخبر من حيث إن بحدائه خارجا ثابتا كما أن الصدق هو الخبر من حيث إنه مطابق للخارج، و على هذا فإطلاق الحق على الأعيان الخارجيه و الأمور الواقعيه كما يطلق على الله سبحانه: أنه حق، و على الحقائق الخارجيه أنها حقه إنما هو من جهه أن كلا منها حق من جهه الخبر عنها، و كيف كان فالمراد بالحق في الآيه: الأمر الثابت الذي لا يقبل البطلان.

و الظاهر أن الباء في قوله: بِالْحَقِّ للمصاحبه و المعنى: نزل عليك الكتاب تنزيلا يصاحب الحق و لا يفارقه، فيوجب مصاحبه الحق أن لا يطرأ عليه و لا يخالطه باطل فهو في أمن من جهه ظهور الباطل عليه، ففي قوله: نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ استعاره بالكنايه، و قد قيل في معنى الباء وجوه أخر لا يخلو عن سقم.

و التصديق من الصدق يقال صدقت مقالا كذا أى قررته على الصدق و اعترفت بكونه صدقا و صدقت فلانا أى اعترفت بصدقه فيما يخبر به.

و المراد مما بين يديه التوراه و الإنجيل كما قال تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى X إلى أن قال X: وَ آتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى X إلى أن قال X: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَيِّدًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ:» X آياته X المائده- ٤٨، و الكلام لا يخلو عن دلالة على أن ما بأيدي اليهود و النصارى من التوراه و الإنجيل لا- يخلو عن بعض ما أنزله الله على موسى و عيسى (ع)، و إن كانا لا يخلوان عن السقط و التحريف، فإن الدائر بينهم في عصر رسول الله ص هو التوراه الموجوده اليوم و الأنجيل الأربعة المشهوره، فالقرآن يصدق التوراه و الإنجيل الموجودين، لكن في الجملة لا بالجملة لمكان الآيات

الناطقه بالتحريف و السقط فيهما قال تعالى: «وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ X إلى أن قال X: وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ X إلى أن قال X: وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ X الآيه X: المائدة-١٤.

قوله تعالى: «وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ ، التوراه كلمه عبرانيه بمعني الشريعة، و الإنجيل لفظ يوناني، و قيل فارسي الأصل معناه البشاره، و سيجيء استيفاء البحث عن الكتابين في قوله تعالى: «إِذَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدى وَ نُورٌ» X الآيات X المائدة-٤٤.

و مما أصر عليه القرآن تسميه كتاب عيسى (ع) بالإنجيل بصيغه الإفراد و القول بأنه نازل من عند الله سبحانه مع أن الأنجيل كثيره، و المعروفه منها أعني الأنجيل الأربعة كانت موجوده قبل نزول القرآن و في عهده، و هي التى ينسب تأليفها إلى لوقا و مرقس و متى و يوحنا، و لا يخلو ما ذكرناه من إفراد الاسم و التوصيف بالنزول عن دلالة على التحريف و الإسقاط، و كيف كان لا- يخلو ذكر التوراه و الإنجيل فى هذه الآيه و فى أول السوره من التعريض لليهود و النصارى على ما سيدكره من أمرهم و قصص تولد عيسى و نبوته و رفعه.

قوله تعالى: «وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، الفرقان ما يفرق به بين الحق و الباطل على ما فى الصحاح، و اللفظ بمادته يدل على الأعم من ذلك، و هو كل ما يفرق به بين شىء و شىء.

قال تعالى: «يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّمَيِّزِ الْجَمْعَانِ» الأنفال-٤١، و قال تعالى: «يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا» الأنفال-٢٩. و إذا كان الفرق المطلوب عند الله فيما يرجع إلى معنى الهدايه هو الفرق بين الحق و الباطل فى العقائد و المعارف و بين وظيفه العبد و ما ليس بوظيفه له بالنسبه إلى الأعمال الصادره عنه فى الحياه الدنيا انطبق معناه على مطلق المعارف الأصلية و الفرعية التى أنزلها الله تعالى على أنبيائه بالوحى، أعم من الكتاب و غيره.

قال تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ» الأنبياء-٤٨، و قال تعالى:

«وَ إِذِ اتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ الْفُرْقَانَ» البقره-٥٣، و قال تعالى «بِبَارِكِ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا» الفرقان-١.

و قد عبر تعالى عن هذا المعنى بالميزان فى قوله: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ

وَ أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَ الْمِيزَانَ لِيُقِيمَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ: الحديد-٢٥. و هو فى وزن قوله: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ: البقره-٢١٣. فالميزان كالفرقان هو الدين الذى يحكم بين الناس بالعدل مع ما ينضم إليه من المعارف و وظائف العبوديه، و الله أعلم.

و قيل: المراد بالفرقان القرآن. و قيل: الدلاله الفاصله بين الحق و الباطل.

و قيل: الحجه القاطعه لرسول الله ص على من حاحه فى أمر عيسى. و قيل النصر.

و قيل: العقل. و الوجه ما قدمناه.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ ذُو انْتِقَامٍ، الانتقام على ما قيل مجازاه المسىء على إساءته، و ليس من لازم المعنى أن يكون للتشفى، فإن ذلك من لوازم الانتقامات التى بيننا حيث إن إساءه المسىء يوجب منقصه و ضررا فى جانبنا فتتدارك ذلك بالمجازاه الشديده التى توجب تشفى قلوبنا، و أما هو تعالى فأعز ساحة من أن ينتفع أو يتضرر بشىء من أعمال عباده لكنه وعد- و له الوعد الحق- أن سيقضى بين عباده بالحق إن خيرا فخيروا و إن شرا فشريروا. قال تعالى: «وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ» المؤمن-٢٠، و قال تعالى: «لِيُجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى»: النجم-٣١. كيف و هو عزيز على الإطلاق منيع الجانب من أن ينتهك محارمه. و قد قيل إن الأصل فى معنى العزه الامتناع.

و قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، من حيث إطلاق العذاب و عدم تقييده بالآخره أو يوم القيامه ربما تضمن الوعيد بالعذاب فى الدنيا كما فى الآخره. و هذا من الحقائق القرآنيه التى ربما قصر الباحثون فى استيفاء البحث عنه و ليس ذلك إلا لكوننا لا نعد شيئا عذابا إلا إذا اشتمل على شىء من الآلام الجسمانيه، أو نقص أو فساد فى النعم الماديه كذهاب الأموال و موت الأعزّه و نقاهه الأبدان، مع أن الذى يعطيه القرآن بتعليمه أمر وراء ذلك.

كلام فى معنى العذاب فى القرآن

القرآن يعد معيشه الناسى لربه ضنكا و إن اتسعت فى أعيننا كل الاتساع.

قال تعالى: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا» طه-١٢٤، ويعد الأموال والأولاد عذابا وإن كنا نعدّها نعمه هنيئته قال تعالى: «وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ»: التوبه-٨٥.

و حقيقته الأمر كما مر إجمال بيانه في تفسير قوله تعالى: «وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ»: البقره-٣٥، أن سرور الإنسان و غمه و فرحه و حزنه و رغبته و رهبته و تعذبه و تنعمه كل ذلك يدور مدار ما يراه سعادته أو شقاوه، هذا أولا.

و أن النعمه و العذاب و ما يقاربهما من الأمور تختلف باختلاف ما تنسب إليه فللروح سعادته و شقاوه و للجسم سعادته و شقاوه و كذا للحيوان منهما شيء و للإنسان منهما شيء و هكذا، و هذا ثانيا. و الإنسان المادى الدنيوى الذى لم يتخلق بأخلاق الله تعالى، و لم يتأدب بأدبه يرى السعاده الماديه هى السعاده و لا يعبأ بسعاده الروح و هى السعاده المعنويه.

فيتولع فى اقتناء المال و البنين و الجاه و بسط السلطه و القدره. و هو و إن كان يريد من قبل نفس هذا الذى ناله لكنه ما كان يريد إلا الخالص من التمتع و اللذه على ما صورته له خياله و إذا ناله رأى الواحد من اللذه محفوظا بالألوف من الألم. فما دام لم ينل ما يريده كان أمنيه و حسره و إذا ناله وجدّه غير ما كان يريده لما يرى فيه من النواقص و يجد معه من الآلام و خذلان الأسباب التى ركن إليها و لم يتعلق قلبه بأمر فوقها فيه طمأنينه القلب و السلوه عن كل فائته فكان أيضا حسره فلا يزال فيما وجدّه متألما به معرضا عنه طالبا لما هو خير منه لعله يشفى غليل صدره و فيما لم يجده متقلبا بين الآلام و الحسرات.

فهذا حاله فيما وجدّه، و ذاك حاله فيما فقده.

و أما القرآن فإنه يرى أن الإنسان أمر مؤلف من روح خالد و بدن مادى متحول متغير، و هو على هذا الحال حتى يرجع إلى ربه فيتم له الخلود من غير زوال، فما كان فيه سعادته الروح محضا كالعلم و نحو ذلك فهو من سعاداته، و ما كان فيه سعادته جسمه و روحه معا كالجمال و البنين إذا لم تكن شاغله عن ذكر الله، و موجه للإخلاق إلى الأرض فهو أيضا من سعاداته و نعمت السعاده. و كذا ما كان فيه شقاء الجسم و نقص لما يتعلق بالبدن و سعادته الروح الخالد كالقتل فى سبيل الله و ذهاب المال و اليسار لله تعالى فهو أيضا من سعاداته بمنزله التحمل لمر الدواء ساعه لحيازه الصحه دهرا.

و أما ما فيه سعادته الجسم و شقاء الروح فهو شقاء للإنسان و عذاب له و القرآن

يسمى سعادة الجسم فقط متاعا قليلا لا ينبغي أن يعبا به قال تعالى: «لَا يَغُرَّنْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ»: آل عمران- ١٩٦ ١٩٧.

و كذا ما فيه شقاء الجسم و الروح معا يعده القرآن عذابا كما يعدونه عذابا لكن وجه النظر مختلف، فإنه عذاب عنده لما فيه من شقاء الروح و عذاب عندهم لما فيه من شقاء الجسم، و ذلك كأنواع العذاب النازل على الأمم السالفة، قال تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لِبَالِمٍ صَادٍ»: الفجر- ١٤٦.

و السعادة و الشقاوه لذوى الشعور يتقومان بالشعور و الإدراك فإننا لا نعد الأمر اللذيذ الذى نلناه و لم نحس به سعادة لأنفسنا كما لا نعد الأمر المؤلم غير المشعور به شقاء، و من هنا يظهر أن هذا التعليم القرآنى الذى يسلك فى السعادة و الشقاوه غير مسلك المادة، و الإنسان المولع بالمادة لا بد من أن يستتبع نوع تربيته يرى بها الإنسان السعادة الحقيقية التى يشخصها القرآن سعادة و الشقاوه الحقيقية شقاوه، و هو كذلك، فإنه يلحق على أهله: أن لا يتعلق قلوبهم بغير الله، و يروا أن ربهم هو المالك الذى يملك كل شىء فلا يستقل شىء إلا به، و لا يقصد شىء إلا له.

و هذا الإنسان لا يرى لنفسه فى الدنيا إلا السعادة بين ما كان فيه سعادة روحه و جسمه، و ما كان فيه سعادة روحه محضا، و أما ما دون ذلك فإنه يراه عذابا و نكالا و أما الإنسان المتعلق بهوى النفس و مادة الدنيا فإنه و إن كان ربما يرى ما اقتناه من زينه الدنيا سعادة لنفسه و خيرا و لذه فإنه سوف يطلع على خبطه فى مشيه، و انقلبت سعادته المظنونه بعينها شقاوه عليه قال تعالى: «فَذَرَهُمْ يَخوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ: المعارج- ٤٢» و قال تعالى: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ»: ق- ٢٢، و قال تعالى: «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ»: النجم- ٣٠، على أنهم لا يصفو لهم عيش إلا و هو منغص بما يربو عليه من الغم و الهم.

و من هنا يظهر: أن الإدراك و الفكر الموجود فى أهل الله و خاصه القرآن

غيرهما في غيرهم مع كونهم جميعا من نوع واحد هو الإنسان، و بين الفريقين وسائط من أهل الإيمان ممن لم يستكمل التعليم و التريه الإلهيين.

فهذا ما يتحصل من كلامه تعالى في معنى العذاب و كلامه تعالى مع ذلك لا يستنكف عن تسميه الشقاء الجسماني عذابا لكن نهايته أنه عذاب في مرحله الجسم دون الروح، قال تعالى حكاية عن أيوب (ع): «أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ»: ص- ٤١، و قال تعالى: «وَ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ»: الأعراف- ١٤١، فسمى ما يصنعون بهم بلاء و امتحانا من الله و عذابا في نفسه لا منه سبحانه.

[بيان]

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ إلخ، قد علل تعالى عذاب الذين كفروا بآياته بأنه عزيز ذو انتقام لكن لما كان هذا التعليل لا يخلو عن حاجه إلى ضميمه تنضم إليه ليتم المطلوب فإن العزيز ذا الانتقام يمكن أن يخفى عليه كفر بعض من كفر بنعمته فلا يبادر بالعذاب و الانتقام، فعقب لذلك الكلام بقوله:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ

، فبين أنه عزيز لا- يخفى عليه شيء ظاهر على الحواس و لا- غائب عنها، و من الممكن أن يكون المراد مما في الأرض و ما في السماء الأعمال الظاهره القائمه بالجوارح و الخفيه الكامنه في القلوب على حد ما نبهنا عليه في قوله تعالى: «لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِن تُبَدَّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ الْآيَة X:

البقره- ٢٨٤.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ، التصوير إلقاء الصورة على الشيء و الصورة تعم ما له ظل كالتمثال و ما لا ظل له. و الأرحام جمع رحم و هو مستقر الجنين من الإناث.

و هذه الآيه في معنى الترقى بالنسبه إلى ما سبقها من الآيتين، فإن محصل الآيتين:

أن الله تعالى يعذب الذين كفروا بآياته لأنه العزيز المنتقم العالم بالسر و العلانيه فلا يغلب في أمره بل هو الغالب و محصل هذه الآيه أن الأمر أعظم من ذلك، و من يكفر بآياته و يخالف عن أمره أذل و أوضع من أن يكفر باستقلال من نفسه و اعتماد على قدرته من غير أن يأذن الله في ذلك فيغلب هو على أمره تعالى، و يبطل النظام الأحسن الذي نظم الله سبحانه عليه الخلقه فتظهر إرادته على إرادته ربه بل الله سبحانه هو أذن

له فى ذلك،بمعنى أنه نظم الأمور نوع نظم يؤدى إلى وجود الاختيار فى الإنسان، و هو الوصف الذى يمكنه به ركوب صراط الإيمان و الطاعة أو التزام طريق الكفر و المعصية،ليتم بذلك أمر الفتنه و الامتحان،فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر، و ما يشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين.

فما من كفر و لا إيمان و لا غيرهما إلا عن تقدير،و هو نظم الأشياء على نحو يتيسر لكل شىء ما يتوجه إليه من مقاصده التى سوف يستوفىها بعمله بتصويره بصورته الخاصه التى تمهد له السلوك إلى ما يسلك إليه.فالله سبحانه هو الغالب على أمره القاهر فى إرادته المهيمن على خلقه،يظن الإنسان أنه يفعل ما يشاء و يتصرف فيما يريد، و يقطع بذلك النظم المتصل الذى نظمه الله فى الكون فيسبق التقدير،و هذا بعينه من القدر.

و هذا هو المراد بقوله: يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ، أى ينظم أجزاء وجودكم فى بدء الأمر على نحو يؤدى إلى ما يشاءه فى ختمه مشيه إذن لا مشيه حتم.

و إنما خص الكلام بالتقدير الجارى فى الإنسان و لم يذكر التقدير العام الجارى فى العالم كله لينطبق على المورد،و لما مر أن فى الآيات تعريضا للنصارى فى قولهم فى المسيح(ع)و الآيات منتهيه إلى ما هو الحق من أمره،فإن النصارى لا ينكرون كينونته(ع)فى الرحم و أنه لم يكون نفسه.

و التعميم بعد التخصيص فى الخطاب أعنى قوله: يُصَوِّرُكُمْ بعد قوله: نَزَّلَ عَلَيْكَ ، للدلاله على أن إيمان المؤمنين أيضا ككفر الكافرين غير خارج عن حكم القدر،فتطيب نفوسهم بالرحمه و الموهبه الإلهيه فى حق أنفسهم،و يتسلوا بما سمعوه من أمر القدر و من أمر الانتقام فيما يعظم عليهم من كفر الكافرين.

قوله تعالى: لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، فيه عود إلى ما بدئ به الكلام فى الآيات من التوحيد،و هو بمنزله تلخيص الدليل للتأكيد.

فإن هذه الأمور المذكوره أعنى هدايه الخلق بعد إيجادهم،و إنزال الكتاب و الفرقان،و إتقان التدبير بتعذيب الكافرين أمور لا بد أن تستند إلى إله يدبرها و إذ لا إله إلا الله تعالى شأنه فهو الذى يهدى الناس و هو الذى ينزل الكتاب و الفرقان،

و هو يعذب الكافرين بآياته، وإنما يفعل ما يفعل من الهدايه و الإنزال و الانتقام و التقدير بعزته و حكمته.

بحث روائى

فى المجمع، عن الكلبي و محمد بن إسحاق و الربيع بن أنس: نزلت أوائل السوره إلى نيف و ثمانين آيه فى وفد نجران، و كانوا ستين راكبا، قدموا على رسول الله ص - و فيهم أربعة عشر رجلا من أشرفهم، و فى الأربعة عشر ثلاثة نفر يئول إليهم أمرهم:

العاقب أمير القوم و صاحب مشورتهم - الذى لا يصدرون إلا عن رأيه، و اسمه عبد المسيح و السيد ثمالهم و صاحب رحلهم، و اسمه الأيهم، و أبو حارثه بن علقمه أسقفهم - و حبرهم و إمامهم و صاحب مدارسهم، و كان قد شرف فيهم و درس كتبهم، و كانت ملوك الروم قد شرفوه و مولوه - و بنوا له الكنائس لعلمه و اجتهاده، فقدموا على رسول الله ص المدينة - و دخلوا مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات: - جيب و أردية فى جمال رجال بلحراث بن كعب، يقول بعض من رأهم من أصحاب رسول الله ص: - ما رأينا وفدا مثلهم، و قد حانت صلاتهم، فأقبلوا يضربون بالناقوس، و قاموا فصلوا فى مسجد رسول الله ص، فقالت الصحابه: يا رسول الله هذا فى مسجدك؟ فقال رسول الله ص: دعوهم، فصلوا إلى المشرق، فكلم السيد و العاقب رسول الله ص، فقال لهما رسول الله ص: أسلما، قالوا: قد أسلما قبلك. قال: كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله و لدا - و عبادتكما الصليب و أكلكما الخنزير. قالوا: إن لم يكن ولدا لله فمن أبوه؟ و خاصموه جميعا فى عيسى، فقال لهما النبي ص: أ لستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا و يشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: أ لستم تعلمون - أن ربنا حتى لا يموت و أن عيسى يأتيه الفناء؟ قالوا: بلى، قال: أ لستم تعلمون - أن ربنا قيم على كل شىء و يحفظه و يرزقه؟ قالوا: بلى، قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟ قالوا: لا، قال: أ لستم تعلمون - أن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض و لا فى السماء؟ قالوا: بلى، قال: فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علم؟ قالوا: لا، قال: فإن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء، و ربنا لا يأكل و لا يشرب و لا يحدث قالوا: بلى، قال: أ لستم تعلمون أن عيسى حملته أمه - كما تحمل المرأه ثم وضعته كما تضع المرأه ولدها - ثم غذى كما

يغذى الصبي- ثم كان يطعم و يشرب و يحدث؟ قالوا: بلى، قال فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا فأنزل الله فيهم صدر سوره آل عمران- إلى بضع و ثمانين آيه.

أقول: و روى هذا المعنى السيوطى فى الدر المنثور، عن أبى إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر عن محمد بن جعفر بن الزبير و عن ابن إسحاق عن محمد بن سهل بن أبى أمامه، أما القصة فسيجيء نقلها، و أما نزول أول السوره فى ذلك فكأنه اجتهاد منهم و قد تقدم: أن ظاهر سياقها نزولها دفعه.

عن النبى ص: الشقى من شقى فى بطن أمه، و السعيد من سعد فى بطن أمه.

و فى الكافى، عن الباقر(ع) قال: إن الله إذا أراد أن يخلق النطفه- التى هى مما أخذ عليه الميثاق من صلب آدم- أو ما يبدو له فيه و يجعلها فى الرحم- حرك الرجل للجماع- و أوحى إلى الرحم أن افتحى بابك- حتى يلج فيك خلقى و قضائى النافذ و قدرى، فتفتح بابها، فتصل النطفه إلى الرحم، فتردد فيه أربعين يوما، ثم تصير علقه أربعين يوما، ثم تصير مضغه أربعين يوما، ثم تصير لحما تجرى فيه عروق مشتبهه، ثم يبعث الله ملكين خلاقين يخلقان فى الأرحام- ما يشاء الله، يقتحمان فى بطن المرأه من فم المرأه، فيصلان إلى الرحم- و فيها الروح القديمه المنقوله- فى أصلاب الرجال و أرحام النساء، فينفخان فيها روح الحياه و البقاء- و يشقان له السمع و البصر و الجوارح- و جميع ما فى البطن بإذن الله تعالى، ثم يوحى الله إلى الملكين: اكتبنا عليه قضائى و قدرى و نافذ أمرى- و اشترطنا لى البداء فيما تكتبان. فيقولان: يا رب ما نكتب؟ فيوحى الله عز و جل إليهما: أن ارفعا رءوسكما إلى رأس أمه، فيرفعا رءوسهما فإذا اللوح يقرع جبهه أمه، فينظران فيه، فيجدان فى اللوح صورته و زينته- و أجله و ميثاقه سعيدا أو شقيا و جميع شأنه، فيملى أحدهما على صاحبه- فيكتبان جميع ما فى اللوح- و يشترطان البداء فيما يكتبان، ثم يختمان الكتاب و يجعلانه بين عينيه، ثم يقيمانه قائما فى بطن أمه، قال: فربما عتا فانقلب، و لا يكون ذلك إلا فى كل عات أو مارد، و إذا بلغ أوان خروج الولد تاما أو غير تام- أوحى الله إلى الرحم: أن افتحى بابك حتى يخرج خلقى إلى أرضى- و ينفذ فيه أمرى فقد بلغ أوان خروجه، قال: فتفتح الرحم باب الولد- فينقلب فتصير رجلاه فوق رأسه و رأسه فى أسفل البطن- ليسهل الله على المرأه و على الولد الخروج، فبعث الله عز و جل إليه ملكا يقال له: زاجر فيزجره زجره

فيفزع منها الولد- فإذا احتبس زجره الملك زجره أخرى فيفزع منها، فيسقط الولد إلى الأرض باكيا فزعا من الزجره.

أقول: قوله: إذا أراد أن يخلق النطفه، أى يجعلها بشرا تاما سويا، و تقييدها بقوله: التى هى مما أخذ عليها الميثاق إشارة إلى ما سيجىء بيانه: أن الإنسان الذى فى هذه النشأه الدنيويه و أحواله مسبوقة الوجود بنشأه أخرى سابقه عليه تجرى هذه على صراط تلك، و هى المسماه فى لسان الأخبار بعالم الذر و الميثاق، فما أخذ عليه الميثاق لا بد من أن يخلق فى هذه النشأه الدنيويه، و ما يخلق فى هذه النشأه هو مما أخذ عليه الميثاق من غير أن يقبل التغيير و التبديل فذلك من القضاء المحتوم. و لذلك ردد الكلام بينه و بين قوله: أو ما يبدو له فيه أى يبدو له البداء فى تمام خلقه، فلا يتم، و يعود سقطا، فالقسم المقابل له لا بداء فيه كما ذكرنا. و قوله و يجعلها فى الرحم عطف على قوله: يخلق النطفه.

قوله (ع) يقتحمان فى بطن المرأه من فم المرأه، يمكن أن يكون قوله من فم المرأه من كلام الراوى كما يؤيده وضع الظاهر موضع المضمرة. و على ظاهر الحال من كونه من كلام الإمام (ع) هو من الشواهد على كون دخولهما و اقتحامهما فى بطن المرأه من غير سنخ دخول الجسم، فى الجسم إذ لا طريق إلى الرحم من غير الفرج إلا العروق، و منها العرق الذى يدر منه دم الحيض فينصب فى الرحم، و ليس هذا المنفذ بأسهل للدخول من جدران الرحم، فللدخول من الفم سبب غير سهوله الطريق و هو ظاهر.

قوله (ع): و فيها الروح القديمه المنقوله فى أصلاب الرجال و أرحام النساء، كأنها الروح النباتيه التى هى المبدأ للتغذى و التنمى.

قوله (ع): فينفخان فيها روح الحيوه و البقاء، ظاهره رجوع الضمير إلى الروح القديمه، فروح الحيوه و البقاء منقوخه فى الروح النباتيه، و لو فرض رجوعه إلى المضغه مثلا كانت منقوخه فى المضغه الحيه بالروح النباتيه فتصير المضغه النباتيه منقوخه فيها، و على أى حال يفيد الكلام أن نفخ الروح الإنسانى إنما هو نوع ترق للروح النباتيه بالاشتداد (على ما يقتضيه القول بالحركه الجوهرية).

و بذلك يظهر معنى انتقال الروح القديمه فى أصلاب الرجال و أرحام النساء، فالروح متحد الوجود مع البدن بوجه و هو النطفه و ما يمدّها من دم الحيض و هى المتحدّه مع بدنى الأبوين و هما مع النطفه و هلم جرا، فما يجرى على الإنسان متعين فى الجملة فى وجود آبائه و أمهاته، مشهود فى صور أشخاصهم، و هو بوجه كالفهرس المأخوذ من الكتاب الموضوع قبله.

و به يظهر معنى قوله (ع): فيوحى الله عز و جل إليهما أى إلى الملكين أن ارفعا رءوسكما إلى رأس أمه، و ذلك أن الذى لأبيه من شرح قضائه و قدره قد انقطع عنه بانفصال النطفه، فما بقى متصلا به إلا- أمه، و هو قوله (ع): فإذا اللوح يقرع جبهه أمه و الجبهه مجتمع حواس الإنسان و طليعه و وجهه فينتظران فيه فيجدان فى اللوح صورته و زينته و أجله و ميثاقه سعيدا أو شقيا و جميع شأنه، فيملى أحدهما على صاحبه فنسبتهما شبيهه نسبة الفاعل و القابل فيكتبان جميع ما فى اللوح.

قوله (ع): و يشترطان البداء فيما يكتبان، و ذلك لعدم اشتمال صورته على تمام علل حوادثه المستقبله، فإن صورته و إن كانت مبدأ لجميع ما يجرى على الإنسان من أحواله و الحوادث المختصه به لكن ليست بالمبدأ كله بل للأمور و الحوادث الخارجه عنه دخاله فى ذلك، و لذلك كان الذى يتراءى منها من الحوادث غير حتمى الوقوع، فكانت مظنه للبداء.

و اعلم: أن نسبه تفاصيل الولاده إلى تحريك الله سبحانه الرجل، و وحيه إلى الرحم، و إرسال الملكين الخلاقين و الملك الزاجر إلى غير ذلك لا ينافى استناد هذه الحوادث و منها الولاده إلى أسبابها الطبيعه، فإن هذين القبيلين من الأسباب أعنى الأسباب المعنويه و الأسباب الماديه واقعان أحدهما فى طول الآخر لا فى عرضه حتى يبطل أحدهما الآخر، أو يتدافعا فيبطلا معا، أو يعود الأمر إلى تركيب العله التامه من مجموع السببين، بل كل منهما عله تامه لكن فى مرتبه.

فمن أقامه الله سبحانه لهدايه الناس إلى سعادتهم المعنويه و سلوكهم إلى مرضاته و هم الأنبياء (ع) و الطريق طريق الباطن- فإنما وظيفته أن يكلم الناس بلسان يسلك بهم مسلك الباطن و يذكرهم مقام ربهم فى جميع بياناته، و هو توسط الملائكه و استناد الحوادث إلى أعمالهم، و نسبه السعاده إلى تأييدهم، و نسبه الشقاء

بخصوصياته إلى الشياطين و تسويلهم، و نسبه الجميع إلى الله سبحانه على ما يليق بساحه قدسه و حضره ربوبيته، ليستنتج من ذلك صور الهدايه و الضلال و الريح و الخسران، و بالجمله جميع شئون الحيوه الآخره، و هم مع ذلك لم يهملوا أمر الأسباب الطبيعيه و لم يضيعوا حقها، فإنها أحد ركنى حيوه الإنسان و الأساس الذى تستند إليه الحيوه الدنيا، و لا بد للإنسان أن يعرف جملة أمرها كما لا بد له أن يعرف جملة الأمر فى الأسباب المعنويه حتى يتم له معرفه نفسه فيعرف ربه.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٧ الى ٩]

اشاره

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ (٩)

بيان

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، عبر تعالى بالإنزال دون التنزيل لأن المقصود بيان بعض أوصاف مجموع الكتاب النازل و خواصه، و هو أنه مشتمل على آيات محكمه و آخر متشابهه ترجع إلى المحكمات و تبين بها، فالكتاب مأخوذ بهذا النظر أمرا واحدا من غير نظر إلى تعدد و تكثر فناسب استعمال الإنزال دون التنزيل.

قوله تعالى: مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، ماده حكم

تفيد معنى كون الشيء بحيث يمنع ورود ما يفسده أو يبعثه أو يخل أمره عليه، ومنه الإحكام والتحكيم، والحكم بمعنى القضاء، والحكمة بمعنى المعرفة التامة والعلم الجازم النافع، والحكمة بفتح الحاء لزمام الفرس، ففى الجميع شىء من معنى المنع والإتقان، وربما قيل: إن المادة تدل على معنى المنع مع إصلاح.

والمراد هاهنا من إحكام المحكمات إتقان هذه الآيات من حيث عدم وجود التشابه فيها كالمتشابهات فإنه تعالى وإن وصف كتابه بإحكام الآيات فى قوله: «كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَمَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» هود-١، لكن اشتمال الآيه على ذكر التفصيل بعد الإحكام دليل على أن المراد بالإحكام حال من حالات الكتاب كان عليها قبل النزول وهى كونه واحدا لم يطرأ عليه التجزى والتبعض بعد بتكثر الآيات، فهو إتقانه قبل وجود التبعض، فهذا الإحكام وصف لتمام الكتاب، بخلاف وصف الإحكام والإتقان الذى لبعض آياته بالنسبه إلى بعض آخر من جهه امتناعها عن التشابه فى المراد.

و بعبارة أخرى لما كان قوله مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ مشتملا على تقسيم آيات الكتاب إلى قسمى المحكم والمتشابه علمنا به أن المراد بالإحكام غير الإحكام الذى وصف به جميع الكتاب فى قوله: كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ الْآيَةُ وَ كَذَا الْمَرَادُ بِالتَّشَابُه فِيهِ غَيْرُ التَّشَابُه الَّذِى وَصَفَ بِهِ جَمِيعَ الْكِتَابِ فِي قَوْلِهِ:

« كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي »: الزمر-٢٣.

وقد وصف المحكمات بأنها أم الكتاب، والأم بحسب أصل معناه ما يرجع إليه الشىء، وليس إلا أن الآيات المتشابهه ترجع إليها فالبعض من الكتاب وهى المتشابهات ترجع إلى بعض آخر وهى المحكمات ومن هنا يظهر أن الإضافه فى قوله أم الكتاب ليست لاميه كقولنا: أم الأطفال، بل هى بمعنى من، كقولنا نساء القوم وقدماء الفقهاء ونحو ذلك، فالكتاب يشتمل على آيات هى أم آيات أخرى، وفى أفراد كلمه الأم من غير جمع دلالة على كون المحكمات غير مختلفه فى أنفسها بل هى متفقه مؤتلفه.

وقد قوبلت المحكمات فى الآيه بقوله: وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ، والتشابه توافق أشياء مختلفه واتحادها فى بعض الأوصاف والكيفيات، وقد وصف الله سبحانه جميع القرآن

بهذا الوصف حيث قال: «كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ» X الآية X: الزمر- ٢٣، والمراد به لا محاله كون آيات الكتاب ذات نسق واحد من حيث جزاله النظم، وإتقان الأسلوب، وبيان الحقائق والحكم، والهداية إلى صريح الحق كما تدل عليه القيود المأخوذة في الآية، فهذا التشابه وصف لجميع الكتاب، وأما التشابه المذكور في هذه الآية، أعنى قوله: وَ أُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فمقابلته لقوله: مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، وذكر اتباع الذين في قلوبهم زيغ لها ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل، كل ذلك يدل على أن المراد بالتشابه كون الآية بحيث لا يتعين مرادها لفهم السامع بمجرد استماعها بل يتردد بين معنى ومعنى حتى يرجع إلى محكمات الكتاب فتعين هي معناها وتبينها بيانا، فتصير الآية المتشابهة عند ذلك محكمه بواسطة الآية المحكمه، والآيه المحكمه محكمه بنفسها، كما أن قوله: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» طه- ٥، يشبهه المراد منه على السامع أول ما يسمعه، فإذا رجع إلى مثل قوله تعالى:

«لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»: الشورى- ١١، استقر الذهن على أن المراد به التسلط على الملك والإحاطة على الخلق دون التمكن والاعتماد على المكان المستلزم للتجسم المستحيل على الله سبحانه، وكذا قوله تعالى: «إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ»: القيامة- ٢٣، إذا رجع إلى مثل قوله: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ»: الأنعام- ١٠٣، علم به أن المراد بالنظر غير النظر بالبصر الحسى، وكذا إذا عرضت الآية المنسوخة على الآية الناسخة تبين أن المراد بها حكم محدود بحد الحكم الناسخ وهكذا.

فهذا ما يتحصل من معنى المحكم والمتشابه، ويتلقاه الفهم الساذج من مجموع قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فإن الآية محكمه بلا شك ولو فرض جميع القرآن غيرها متشابهة.

ولو كانت هذه الآية متشابهة عادت جميع آيات القرآن متشابهة وفسد التقسيم الذى يدل عليه قوله: مِنْهُ آيَاتٌ إِنْخِ، وبطل العلاج الذى يدل عليه قوله: هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، ولم يصدق قوله: «كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا»: حم السجده- ٤، ولم يتم الاحتجاج الذى يشتمل عليه قوله: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا»: النساء- ٨٢، إلى غير ذلك من الآيات الداله على أن القرآن نور وهدى وتبيان وبيان ومبين وذكر ونحو ذلك.

على أن كل من يرعى نظره في آيات القرآن من أوله إلى آخره لا يشك في أن ليس بينها آية لها مدلول و هي لا تنطق بمعناها و تفضل في مرادها، بل ما من آية إلا و فيها دلالة على المدلول: إما مدلول واحد لا يرتاب فيه العارف بالكلام، أو مدليل يلتبس بعضها ببعض، و هذه المعاني الملتبسة لا- تخلو عن حق المراد بالضرورة و إلا بطلت الدلالة كما عرفت، و هذا المعنى الواحد الذى هو حق المراد لا- محاله لا يكون أجنبيا عن الأصول المسلمه في القرآن كوجود الصانع و توحيده و بعثه الأنبياء و تشريع الأحكام و المعاد و نحو ذلك، بل هو موافق لها و هي تستلزمه و تنتجه و تعين المراد الحق من بين المدليل المتعدده المحتمله، فالقرآن بعضه يبين بعضا، و بعضه أصل يرجع إليه البعض الآخر.

ثم إن هذا الناظر إذا عثر بعد هذه النظرة على قوله تعالى: مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، لم يشك في أن المراد بالمحكمات هي الآيات المتضمنه للأصول المسلمه من القرآن و بالمتشابهات الآيات التى تتعين و تتضع معانيها بتلك الأصول.

فإن قلت: رجوع الفروع إلى الأصول مما لا- ريب فيه فيما كان هناك أصول متعرقه و فروع متفرقه سواء فيه المعارف القرآنيه و غيرها، لكن ذلك لا- يستوجب حصول التشابه، فما وجه ذلك؟ قلت: وجه أحد أمرين، فإن المعارف التى يلقىها القرآن على قسمين: فمنها معارف عاليه خارجه عن حكم الحس و الماده، و الأفهام العاديه لا تلبث دون أن تتردد فيها بين الحكم الجسمانى الحسى و بين غيره كقوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَاتِ» الفجر- ١٤ و قوله تعالى: «وَجَاءَ رَبُّكَ» الفجر- ٢٢، فيتبادر منها إلى الذهن المستأنس بالمحسوس من الأحكام معان هي من أوصاف الأجسام و خواصها، و تزول بالرجوع إلى الأصول التى تشتمل على نفى حكم الماده و الجسم عن المورد، و هذا مما يطرد فى جميع المعارف و الأبحاث غير الماديه و الغائبه عن الحواس، و لا يختص بالقرآن الكريم بل يوجد فى غيره من الكتب السماويه بما تشتمل عليه من المعارف العاليه من غير تحريف، و يوجد أيضا فى المباحث الإلهيه من الفلسفه، و هو الذى يشير إليه القرآن بلسان آخر فى قوله تعالى:

«أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا» X الآية X: الرعد- ١٧، و قوله: «إِنَّا جَعَلْنَا قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ»: الزخرف- ٤

و منها ما يتعلق بالنواميس الاجتماعيه و الأحكام الفرعيه، و اشتمال هذا القسم من المعارف على الناسخ و المنسوخ بالنظر إلى تغير المصالح المقتضيه للتشريعات و نحوها من جهه، و نزول القرآن نجوما من جهه أخرى يوجب ظهور التشابه في آياتها، و يرتفع التشابه بإرجاع المتشابه إلى المحكم، و المنسوخ إلى الناسخ.

قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، الزيغ هو الميل عن الاستقامه، و يلزمه اضطراب القلب و قلقه بقرينه ما يقابله في ذيل الآيه من قوله: وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، فإن الآيه تصف حال الناس بالنسبه إلى تلقي القرآن بمحكمه و متشابهه، و أن منهم من هو زائغ القلب و مائله و مضطربه فهو يتبع المتشابه ابتغاء للفتنه و التأويل، و منهم من هو راسخ العلم مستقر القلب يأخذ بالمحكم و يؤمن بالمتشابه و لا يتبعه، و يسأل الله تعالى أن لا يزيغ قلبه بعد الهدايه.

و من هنا يظهر: أن المراد باتباع المتشابه اتباعه عملا- لا- إيمانا، و أن هذا الاتباع المذموم اتباع للمتشابه من غير إرجاعه إلى المحكم، إذ على هذا التقدير يصير الاتباع اتباعا للمحكم و لا ذم فيه.

و المراد بابتغاء الفتنة طلب إضلال الناس، فإن الفتنة تقارب الإضلال في المعنى، يقول تعالى: يريدون اتباع المتشابه إضلال الناس في آيات الله سبحانه، و أمرا آخر هو أعظم من ذلك، و هو الحصول و الوقوف على تأويل القرآن و مآخذ أحكام الحلال و الحرام حتى يستغنوا عن اتباع محكمات الدين فينتسخ بذلك دين الله من أصله.

و التأويل من الأول و هو الرجوع فتأويل المتشابه هو المرجع الذي يرجع إليه، و تأويل القرآن هو المأخذ الذي يأخذ منه معارفه.

و قد ذكر الله سبحانه لفظ التأويل في موارد من كلامه فقال سبحانه: «وَ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِكِتَابٍ فَضَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا- تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ»: الأعراف- ٥٣، أى بالحق فيما أخبروا به و أنبئوا أن الله هو مولاهم الحق، و أن ما يدعون من دونه هو الباطل، و أن النبوه حق، و أن الدين حق، و أن الله يبعث من في القبور، و بالجملة

كل ما يظهر حقيقته يوم القيامة من أنباء النبوه و أخبارها.

و من هنا ما قيل: إن التاويل فى الآيه هو الخارج الذى يطابقه الخبر الصادق كالأمر المشهوده يوم القيامة التى هى مطابقات (اسم مفعول) أخبار الأنبياء و الرسل و الكتب.

و يردده: أن التاويل على هذا يختص بالآيات المخبره عن الصفات و بعض الأفعال و عن ما سيقع يوم القيامة، و أما الآيات المتضمنه لتشريع الأحكام فإنها لاشتمالها على الإنشاء لا مطابق لها فى الخارج عنها، و كذا ما دل منها على ما يحكم به صريح العقل كعده من أحكام الأخلاق فإن تأويلها معها، و كذا ما دل على قصص الأنبياء و الأمم الماضيه فإن تأويلها على هذا المعنى يتقدمها من غير أن يتأخر إلى يوم القيامة مع، أن ظاهر الآيه يضيف التاويل إلى الكتاب كله لا إلى قسم خاص من آياته.

و مثلها قوله تعالى: «وَ مَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ إِلَىٰ أَنْ يَأْتِيَ الْبُرْهَانَ إِلَىٰ أَنْ يَأْتِيَ الْبُرْهَانَ» قَالَ X: أَمْ يَقُولُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِلَىٰ أَنْ يَأْتِيَ الْبُرْهَانَ: بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ» يونس-٣٩، و الآيات كما ترى تضيف التاويل إلى مجموع الكتاب.

و لذلك ذكر بعضهم أن التاويل هو الأمر العينى الخارجى الذى يعتمد عليه الكلام، و هو فى مورد الأخبار المخبر به الواقع فى الخارج، إما سابقا كقصص الأنبياء و الأمم الماضيه، و إما لاحقا كما فى الآيات المخبره عن صفات الله و أسمائه و مواعيده و كل ما سيظهر يوم القيامة، و فى مورد الإنشاء كآيات الأحكام المصالح المتحققه فى الخارج كما فى قوله تعالى: «وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْبَابِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا» :إسراء-٣٥، فإن تأويل إيفاء الكيل و إقامه الوزن هو المصلحه المترتبه عليهما فى المجتمع و هو استقامه أمر الاجتماع الإنسانى.

و فيه أولا: أن ظاهر هذه الآيه: أن التاويل أمر خارجى و أثر عينى مترتب على فعلهم الخارجى الذى هو إيفاء الكيل و إقامه الوزن لا الأمر التشريعى الذى يتضمنه قوله. «وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْبَابِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا» :إسراء-٣٥، فالأمر الخارجى هو مرجع و مآل لأمر خارجى آخر فتوصيف آيات الكتاب بكونها ذات تأويل من جهه حكايتها

عن معان خارجيه (كما فى الإخبار) أو تعلقها بأفعال أو أمور خارجيه (كما فى الإنشاء) لها تأويل، فالوصف وصف بحال متعلق الشئ لا بحال نفس الشئ.

و ثانياً: أن التأويل وإن كان هو المرجع الذى يرجع و يثول إليه الشئ لكنه رجوع خاص لا كل رجوع، فإن المرئوس يرجع إلى رئيسه و ليس بتأويل له، و العدد يرجع إلى الواحد و ليس بتأويل له، فلا محاله هو مرجع بنحو خاص لا مطلقاً. يدل على ذلك قوله تعالى فى قصه موسى و الخضر (ع): «سَأْتَبُّكَ بِتَأْوِيلٍ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا»: الكهف-٧٨، و قوله تعالى: «ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا»: الكهف-٨٢، و الذى نبأه لموسى صور و عناوين لما فعله (ع) فى موارد ثلاث كان موسى (ع) قد غفل عن تلك الصور و العناوين، و تلقى بدلها صوراً و عناوين أخرى أوجبت اعتراضه بها عليه، فالمراد الثلاث: هى قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقْنَاهَا» الكهف-٧١، و قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ» الكهف-٧٤، و قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ» الكهف-٧٧.

و الذى تلقاه موسى (ع) من صور هذه القضايا و عناوينها قوله: «أَخْرَقْنَاهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْرًا»: الكهف-٧١، و قوله: «أَقْتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْرًا»: الكهف-٧٤، و قوله: «لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا»: الكهف-٧٧.

و الذى نبأ به الخضر من التأويل قوله: «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَ كَانَ وِزَارَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً وَ أَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَ كُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَ أَقْرَبَ رُحْمًا، وَ أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ، وَ كَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَ كَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَ يَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ»: الكهف-٨٢، ثم أجاب عن جميع ما اعترض عليه موسى (ع) جملة بقوله: «وَ مَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي»: الكهف-٨٢، فالذى أريد من التأويل فى هذه الآيات كما ترى هو رجوع الشئ إلى صورته و عنوانه نظير رجوع الضرب إلى التأديب و رجوع الفصد إلى العلاج، لا نظير رجوع قولنا: جاء زيد إلى مجيء زيد فى الخارج.

و يقرب من ذلك ما ورد من لفظ التأويل في عدة مواضع من قصه يوسف (ع) كقوله تعالى: «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» : يوسف-٤، وقوله تعالى: وَرَفَعَ أَبُوتِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا» : يوسف-١٠٠، فرجوع ما رآه من الرؤيا إلى سجود أبويه و إخوته له و إن كان رجوعا لكنه من قبيل رجوع المثال إلى الممثل، وكذا قوله تعالى: «وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُيُوفَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ، قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ، وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعِيدَ أُمَّهٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا X إلى أن قال X: قَالَ تَزْمَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ ذَا بَأْسًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ» : يوسف-٤٨.

وكذا قوله تعالى: «وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَيَأْتِيهِمْ فِيهَا خُبْرًا قَالَ مَا أَتَيْتُمُونِي بِهَذَا إِلَّا كَلُفًّا وَأَنْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَأُحْمِلَكُمْ مِنْهُ أَخْقًا وَلَأَظْلَمَنَّ الْفِرْعَوْنَ إِنَّهُ لَأَكْبَرُ الْكُفْرَانِ» : يوسف-٤١، وقال X: يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فِي سَبِيلِي رَبُّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ» : يوسف-٤١.

وكذا قوله تعالى: «وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» : يوسف-٦١، وقوله تعالى: «وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» : يوسف-٢١، وقوله تعالى: «وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» : يوسف-١٠١، فقد استعمل التأويل في جميع هذه الموارد من قصه يوسف (ع) فيما يرجع إليه الرؤيا من الحوادث، وهو الذي كان يراه النائم فيما يناسبه من الصوره و المثال، فنسبه التأويل إلى ذى التأويل نسبة المعنى إلى صورته التي يظهر بها، والحقيقه المتمثله إلى مثالها الذي تتمثل به، كما كان الأمر يجرى هذا المجرى فيما أوردناه من الآيات في قصه موسى و الخضر (ع)، وكذا في قوله تعالى: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ إِلَى قَوْلِهِ X وَأَحْسِنُوا تَأْوِيلًا X آيَهُ X: إسرء-٣٥.

و التدبر في آيات القيامه يعطى أن المراد هو ذلك أيضا في لفظه التأويل في قوله تعالى: بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَا تَهُمُ تَأْوِيلُهُ الْآيَهُ، وقوله تعالى «هَلْ يَنْظُرُونَ

إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ» (الآية) فإن أمثال قوله تعالى: «لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمْ فَبَصَرُكُمُ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» ق-٢٢، تدل على أن مشاهدته وقوع ما أخبر به الكتاب و أنبأ به الأنبياء يوم القيامة من غير سنخ المشاهده الحسيه التي نعدها في الدنيا كما أن نفس وقوعها و النظام الحاكم فيها غير ما نألفه في نشأتنا هذه، و سيجيء مزيد بيان له فرجوع أخبار الكتاب و النبوه إلى مضامينها الظاهره يوم القيامة ليس من قبيل رجوع الإخبار عن الأمور المستقبلة إلى تحقق مضامينها في المستقبل.

فقد تبين بما مر: أولاً: أن كون الآية ذات تأويل ترجع إليه غير كونها متشابهه ترجع إلى آيه محكمه.

و ثانياً: أن التأويل لا يختص بالآيات المتشابهه بل لجميع القرآن تأويل فللايه المحكمه تأويل كما أن للمتشابهه تأويلاً.

و ثالثاً: أن التأويل ليس من المفاهيم التي هي مداليل للألفاظ بل هو من الأمور الخارجيه العينيّه، و اتصاف الآيات بكونها ذات تأويل من قبيل الوصف بحال المتعلق، و أما إطلاق التأويل و إرادته المعنى المخالف لظاهر اللفظ، فاستعمال مولد نشأ بعد نزول القرآن لا- دليل أصلاً على كونه هو المراد من قوله تعالى: «وَ ابْتَغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ الْآيَهُ، كما لا دليل على أكثر المعاني المذكوره للتأويل مما سنقله عن قريب.

قوله تعالى: «وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ» ظاهر الكلام رجوع الضمير إلى ما تشابه، لقربه كما هو الظاهر أيضا في قوله: «وَ ابْتَغَاءَ تَأْوِيلِهِ» ، و قد عرفت أن ذلك لا- يستلزم كون التأويل مقصوراً على الآيات المتشابهه. و من الممكن أيضا رجوع الضمير إلى الكتاب كالضمير في قوله: «وَ ابْتَغَاءَ تَأْوِيلِهِ» .

و ظاهر الحصر كون العلم بالتأويل مقصوراً عليه سبحانه و أما قوله: «وَ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ» ، فظاهر الكلام أن الواو للاستيناف بمعنى كونه طرفاً للترديد الذي يدل عليه قوله في صدر الآية: «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ» ، و المعنى: أن الناس في الأخذ بالكتاب قسمان: فمنهم من يتبع ما تشابه منه و منهم من يقول إذا تشابه عليه شيء منه: «آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» ، و إنما اختلفا لاختلافهم من جهة زيغ القلب و رسوخ العلم.

على أنه لو كان الواو للعطف و كان المراد بالعطف تشريك الراسخين فى العلم بالتأويل كان منهم رسول الله ص و هو أفضلهم و كيف يتصور أن ينزل القرآن على قلبه و هو لا يدرى ما أريد به و من دأب القرآن إذا ذكر الأمه أو وصف أمر جماعه و فيهم رسول الله ص أن يفرد بالذكر أولا و يميزه بالشخص تشريفا له و تعظيما لأمره ثم يذكرهم جميعا كقوله تعالى: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ» :البقره-٢٨٥، و قوله تعالى: «ثُمَّ أُنزِلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» :التوبه-٢٦، و قوله تعالى: «لَكِنَّ الرَّسُولَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ» :التوبه-٨٨، و قوله تعالى: «وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» :آل عمران-٦٨، و قوله تعالى: «لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ» :التحریم-٨، إلى غير ذلك، فلو كان المراد بقوله: «وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» أنهم عالمون بالتأويل -و رسول الله ص منهم قطعاً- كان حق الكلام كما عرفت أن يقال:

و ما يعلم تأويله إلا- الله و رسوله و الراسخون فى العلم، هذا و إن أمكن أن يقال: إن قوله فى صدر الآيه: هُوَ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ «إلخ» يدل على كون النبى عالما بالكتاب فلا حازه إلى ذكره ثانيا.

فالظاهر أن العلم بالتأويل مقصور فى الآيه عليه تعالى، و لا ينافى ذلك ورود الاستثناء عليه كما أن الآيات داله على انحصار علم الغيب عليه تعالى مع ورود الاستثناء عليه كما فى قوله تعالى: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ» :الجن-٢٧، و لا- ينافيه أيضا كون المستثنى الراسخين فى العلم بعينهم، إذ لا منافاه بين أن تدل هذه الآيه على شأن من شئون الراسخين فى العلم، و هو الوقوف عند الشبهه و الإيمان و التسليم فى مقابل الزائعين قلبا و بين أن تدل آيات أخر على أنهم أو بعضا منهم عالمون بحقيقه القرآن و تأويل آياته على ما سيجىء بيانه.

قوله تعالى: «وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» ، الرسوخ هو أشد الثبات، و وقوع الراسخين فى العلم فى مقابله الذين فى قلوبهم زيغ ثم توصيفهم بأنهم يقولون آمنا به كل من عند ربنا يدل على تمام تعريفهم، و هو أن لهم علما بالله و بآياته لا يدخله ريب و شك، فما حصل لهم من العلم بالمحكمات ثابت لا يتزلزل، و هم يؤمنون به و يتبعونه أى يعلمون به و إذا وردت عليهم آيه متشابهه لم يوجب تشابهها اضطراب قلوبهم فيما عندهم من العلم الراسخ بل آمنوا بها و توقفوا عن اتباعها عملا.

و في قولهم: آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ذكر الدليل و النتيجة معا فإن كون المحكم و المتشابه جميعا من عند الله تعالى يوجب الإيمان بالكل: محكمه و متشابهه، و وضوح المراد في المحكم يوجب اتباعه عملا، و التوقف في المتشابه من غير رده لأنه من عند الله و لا يجوز اتباع ما ينافي المحكم من معانيه المتشابهه لسطوع البيان في المحكم فيجب أن يتبع من معانيه المحتمله ما يوافق معنى المحكم، و هذا بعينه إرجاع المتشابه إلى المحكم فقوله: كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا بمنزله الدليل على الأمرين جميعا، أعنى: الإيمان و العمل في المحكم، و الإيمان فقط في المتشابه و الرجوع في العمل إلى المحكم.

قوله تعالى: وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ، التذکر هو الانتقال إلى دليل الشيء لاستنتاجه، و لما كان قولهم: كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا كما مر استدلالا منهم و انتقالا لما يدل على فعلهم سماه الله تعالى تذکرا و مدحهم به.

و الألباب جمع لب و هو العقل الزكى الخالص من الشوائب، و قد مدحهم الله تعالى مدحا جميلا في موارد من كلامه، و عرفهم بأنهم أهل الإيمان بالله و الإنابة إليه و اتباع أحسن القول ثم وصفهم بأنهم على ذكر من ربهم دائما فأعقب ذلك أنهم أهل التذکر أى الانتقال إلى المعارف الحقه بالدليل و أهل الحكمة و المعرفة، قال تعالى: «وَالَّذِينَ اخْتَبَتُوا الطَّاعُونَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَ أَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَ أُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ» الزمر-١٨، و قال تعالى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ حِينَ مَا وَ قُودًا وَ عَلَى جُنُوبِهِمْ» آل عمران-١٩١، و هذا الذكر الدائم و ما يتبعه من التذلل و الخضوع هو الإنابة الموجهة لتذکرهم بآيات الله و انتقالهم إلى المعارف الحقه كما قال تعالى: «وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ» الغافر-١٣، و قد قال: «وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ» البقره-٢٦٩ آل عمران-٧.

قوله تعالى: رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ، و هذا من آثار رسوخهم في العلم فإنهم لما علموا بمقام ربهم، و عقلوا عن الله سبحانه أيقنوا أن الملك لله وحده و أنهم لا يملكون لأنفسهم شيئا فمن الجائز أن يزيغ قلوبهم بعد رسوخ العلم فالتجئوا إلى ربهم، و سألوه أن لا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم، و أن يهب لهم من لدنه رحمه تبقى لهم هذه النعمه و يعينهم على السير في

صراط الهدايه و السلوك فى مراتب القرب.

و أما سؤال أن يهبهم رحمه بعد سؤال أن لا يزيغ قلوبهم فلأن عدم إزاعه القلب لا يستلزم بقاء الرسوخ فى العلم فمن الجائز أن لا يزاغ قلوبهم و ينتزع عنها العلم فتبقى سدى مهمله لا سعداء بالعلم و لا أشقياء بالإزاعه بل فى حال الجهل و الاستضعاف، و هم فى حاجه مبرمه إلى ما هم عليه من العلم، و مع ذلك لا تقف حاجتهم فى ما هم عليه من الموقف بل هم سائروا طريق يحتاجون فيه إلى أنواع من الرحمه لا- يعلمها و لا يحصيها إلا الله سبحانه، و هم مستشعرون بحاجتهم هذه و الدليل عليه قولهم بعد: رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ .

فقولهم: رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعِيدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، استعاذه من نزول الزيغ إلى قلوبهم و إزاحتها العلم الراسخ الذى فيها و قولهم وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ استمطار لسحاب الرحمه حتى تدوم بها حياه قلوبهم و تنكير الرحمه، و توصيفها بكونها من لدنه إظهار منهم الجهل بشأن هذه الرحمه، و أنها كيف ينبغى أن تكون غير أنهم يعلمون أنه لو لا رحمه من ربهم و لو لا كونها من لدنه لم يتم لهم أمر.

و فى الاستعاذه من الزيغ إلى الله محضا و استيهاب الرحمه من لدنه محضا دلالة على أنهم يرون تمام الملك لله محضا من غير توجه إلى أمر الأسباب.

قوله تعالى: رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ، هذا منهم بمنزله التعليل لسؤال الرحمه و ذلك لعلمهم بأن إقامه نظام الخلقه و دعوه الدين و كدح الإنسان فى مسير وجوده كل ذلك مقدمه لجمعهم إلى يوم القيامه الذى لا يغنى فيه و لا ينصر أحد إلا بالرحمه كما قال تعالى: «إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ»: الدخان-٤٢ و لذلك سألوا رحمه من ربهم و فوضوا تعيينها و تشخيصها إليه لينفعهم فى أمرهم.

و قد وصفوا هذا اليوم بأنه لا ريب فيه ليتجه بذلك كمال اهتمامهم بالسؤال و الدعاء، و عللوا هذا التوصيف أيضا بقولهم: إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ لأن شأنهم الرسوخ فى العلم، و لا يرسخ العلم بشيء و لا يستقر تصديق إلا مع العلم بعلته المنتجه، و عله عدم ارتيابهم فى تحقق هذا اليوم هو ميعاد الله سبحانه به فذكروه.

و نظير هذا الوجه جار في تعليلهم قولهم وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً يَقُولُهُمْ:

إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ

فكونه تعالى وهاجا يعلل به سؤالهم الرحمة، وإتيانهم بلفظه أنت و تعريف الخبر باللام المفيد للحصر يعلل به قولهم: مِنْ لَدُنْكَ ،المدال على الاختصاص، و كذا يجرى مثل الوجه في قولهم: رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا، حيث عقبوه بما يجرى مجرى العله بالنسبه إليه، و هو قولهم: بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، و قد مر آنفا أن قولهم: آمَنَّا بِهِ، من حيث تعقيه بقولهم: كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا، من هذا القبيل أيضا.

فهؤلاء رجال آمنوا بربهم و ثبتوا عليه فهداهم الله سبحانه، و كمل عقولهم فلا- يقولون إلا- عن علم و لا- يفعلون إلا- عن علم فسماهم الله تعالى راسخين في العلم، و كنى عنهم بأولى الألباب، و أنت إذا تدبرت ما عرف الله به أولى الألباب وجدته منطبقا على ما ذكره من شأنهم في هذه الآيات، قال تعالى: وَ الَّذِينَ أَحْتَبَبُوا الطَّاعُونَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَ أُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ»: الزمر- ١٨. فوصفهم بالإيمان و اتباع أحسن القول، و الإنابة إلى الله سبحانه، و قد وصف بهذه الأوصاف الراسخين في العلم في هذه الآيات.

و أما الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْمِعَادَ فَلَأَنَّ هَذَا الْمِعَادَ لَا يَخْتَصُّ بِهِمْ بَلْ يَعْمَهُمْ وَ غَيْرَهُمْ فَكَانَ الْأُولَى تَبْدِيلَ قَوْلِهِمْ: رَبَّنَا، إلى لفظه الجلاله لأن حكم الألوهيه عام شامل لكل شىء.

كلام تفصيلي في المحكم و المتشابه و التأويل

إشارة

هذا الذى أوردناه من الكلام فى معنى المحكم و المتشابه و التأويل فيما مر هو الذى يتحصل من تدبر كلامه سبحانه و يستفاد من المأثور عن أئمة أهل البيت (ع) سيجىء فى البحث الروائى.

لكن القوم اختلفوا فى المقام، و قد شاع الخلاف و اشتد الانحراف بينهم، و ينسحب ذيل النزاع و المشاجره إلى الصدر الأول من مفسرى الصحابه و التابعين، و قلما يوجد فى ما نقل إلينا من كلامهم ما يقرب مما مر من البيان فضلا عن أن ينطبق

عليه تمام الانطباق.

و السبب العمده فى ذلك الخلط بين البحث عن المحكم و المتشابه و بين البحث عن معنى التأويل، فأوجب ذلك اختلافا عجبيا فى عقد المسأله و كيفيه البحث و النتيجه المأخوذه منه، و نحن نورد تفصيل القول فى كل واحد من أطراف هذه الأبحاث و ما قيل فيها و ما هو المختار من الحق مع تمييز مورد البحث بما تيسر فى ضمن فصول

١ المحكم و المتشابه

الإحكام و التشابه من الألفاظ المبينه المفاهيم فى اللغه، و قد وصف بهما الكتاب كما فى قوله تعالى: «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ» هود-١، و قوله تعالى: «كِتَابًا مُّشَابِهًا مَّثَانِيًّا» الزمر-٢٣، و لم يتصف بهما إلا- جمله الكتاب من جهه إتقانه فى نظمه و بيانه و من جهه تشابه نظمه و بيانه فى البلوغ إلى غايه الإتقان و الإحكام.

لكن قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَ أُخْرُ مُّشَابِهَاتٌ الْآيَةِ لَمَّا اشْتَمَل عَلَى تَقْسِيمِ نَفْسِ آيَاتِ الْكِتَابِ إِلَى الْمُحْكَمَاتِ وَ الْمُتَشَابِهَاتِ عَلِمْنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِحْكَامِ وَ التَّشَابُهِ هَاهُنَا غَيْرَ مَا يَتَّصِفُ بِهِ تَمَامُ الْكِتَابِ، وَ كَانَ مِنَ الْحَرَى الْبَحْثُ عَنْ مَعْنَاهُمَا وَ تَشْخِصِ مَصْدَقَهُمَا مِنَ الْآيَاتِ، وَ فِيهِ أَقْوَالٌ رُبَّمَا تَجَاوَزَتْ الْعِشْرَةَ:

أحدها: أَنَّ الْمُحْكَمَاتِ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: «قُلْ نَعَالُوا أَتَلُمَّا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» X إلى آخر الآيات الثلاث X الأنعام-١٥٢ و المتشابهات هى التى تشابهت على اليهود، و هى الحروف المقطعه النازله فى أوائل عده من السور القرآنيه مثل الم و الر و حم، و ذلك أَنَّ الْيَهُودَ أَوْلَوْهَا عَلَى حِسَابِ الْجَمَلِ، فَطَلَبُوا أَنْ يَسْتَخْرِجُوا مِنْهَا مَدَّةَ بَقَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَ عَمَرَهَا فَاشْتَبَهَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ. نَسَبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ.

و فيه: أَنَّهُ قَوْلٌ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ وَ لَوْ سَلِمَ فَلَا دَلِيلَ عَلَى انْحِصَارِهِمَا. فِيهِمَا، عَلَى أَنَّ لَازِمَهُ وَجُودُ قِسْمٍ ثَالِثٍ لَيْسَ بِمُحْكَمٍ وَ لَا مُتَشَابِهٍ مَعَ أَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ يَدْفَعُهُ.

لكن الحق أن النسبه فى غير محلها، و الذى نقل عن ابن عباس: أنه قال إن

الآيات الثلاث من المحكمات لا أن المحكمات هي الآيات الثلاث،

ففى الدر المنثور، أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن عبد الله بن قيس سمعت ابن عباس يقول: " فى قوله مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ، قال: الثلاث آيات من آخر سورة الأنعام محكمات: قُلْ تَعَالَوْا ، و الآيتان بعدها.

و يؤيد ذلك

ما رواه عنه أيضا فى قوله " :آيات محكمات قال: من هاهنا:

قُلْ تَعَالَوْا إِلَى آخِرِ ثَلَاثِ آيَاتٍ ، و من هاهنا: وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ إِلَى آخِرِ ثَلَاثِ آيَاتٍ . فالروايتان تشهدان أنه إنما ذكر هذه الآيات مثلا لسائر المحكمات لا أنه قصرها فيها.

و ثانيها عكس الأول و هو أن المحكمات هي الحروف المقطعة فى فواتح السور و المتشابهات غيرها. نقل ذلك

عن أبى فاخته حيث ذكر فى قوله تعالى " : هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ :

إنهن فواتح السور منها يستخرج القرآن: الم ذَلِكَ الْكِتَابُ ، منها استخراج البقره- و الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، منها استخراج آل عمران

و عن سعيد بن جبیر مثله فى معنى قوله " : هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ، قال: أصل الكتاب لأنهن مكتوبات فى جميع الكتب ، انتهى. و يدل ذلك على أنهما يذهبان فى معنى فواتح السور إلى أن المراد بها ألفاظ الحروف بعنايه أن الكتاب الذى نزل عليكم هو هذه الحروف المقطعة التى تتألف منها الكلمات و الجمل ، كما هو أحد المذاهب فى معنى فواتح السور.

و فيه: مضافا إلى أنه مبنى على ما لا دليل عليه أصلا أعنى تفسير الحروف المقطعة فى فواتح السور بما عرفت أنه لا ينطبق على نفس الآية فإن جميع القرآن غير فواتح السور يصير حينئذ من المتشابه، و قد ذم الله سبحانه اتباع المتشابه، و عده من زيغ القلب مع أنه تعالى مدح اتباع القرآن بل عده من أوجب الواجبات كقوله تعالى:

«وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ» : الأعراف- ١٥٧، و غيره من الآيات.

و ثالثها: أن المتشابه هو ما يسمى مجملا و المحكم هو المبين.

و فيه: أن ما بين من أوصاف المحكم و المتشابه فى الآية لا- ينطبق على المجمل و المبين. بيان ذلك: أن إجمال اللفظ هو كونه بحيث يختلط و يندمج بعض جهات

معناه ببعض فلا ينفصل الجبهه المراده عن غيرها،و يوجب ذلك تحير المخاطب أو السامع فى تشخيص المراد وقد جرى دأب أهل اللسان فى ظرف التفاهم أن لا يتبعوا ما هذا شأنه من الألفاظ بل يستريحون إلى لفظ آخر مبين يبين هذا المجمل فيصير بذلك مبينا فيتبع فهذا حال المجمل مع مبينه،فلو كان المحكم و المتشابه هما المجمل و المبين بعينهما كان المتبع هو المتشابه إذا رد إلى المحكم،دون نفس المحكم،و كان هذا الاتباع مما لا يجوزه قريحه التكلم و التفاهم فلم يقدم على مثله أهل اللسان سواء فى ذلك أهل الزيغ منهم و الراسخون فى العلم و لم يكن اتباع المتشابه أمرا يلحقه الذم و يوجب زيغ القلب.

رابعها أن المتشابهات هى الآيات المنسوخه لأنها يؤمن بها و لا يعمل بها، و المحكمات هى الآيات الناسخه لأنها يؤمن بها،و يعمل بها و نسب إلى ابن عباس و ابن مسعود و ناس من الصحابه،و لذلك كان ابن عباس يحسب أنه يعلم تأويل القرآن.

و فيه:أنه على تقدير صحته لا- دليل فيه على انحصار المتشابهات فى الآيات المنسوخه فإن الذى ذكره تعالى من خواص اتباع المتشابه من ابتغاء الفتنة و ابتغاء التأويل جار فى كثير من الآيات غير المنسوخه كآيات الصفات و الأفعال،على أن لازم هذا القول وجود الواسطه بين المحكم و المتشابه .

و فيما نقل عن ابن عباس ما يدل على أن مذهبه فى المحكم و المتشابه أعم مما ينطبق على الناسخ و المنسوخ،و أنه إنما ذكرهما من باب المثال

ففى الدر المنثور:أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق على عن ابن عباس قال:" المحكمات ناسخه و حلاله و حرامه-و حدوده و فرائضه و ما يؤمن به،و المتشابهات منسوخه و مقدمه و مؤخره و أمثاله و أقسامه و ما يؤمن به و لا يعمل به ،انتهى.

خامسها:أن المحكمات ما كان دليله واضحا لاثحا كدلائل الوحدانيه و القدره و الحكمه،و المتشابهات ما يحتاج فى معرفته إلى تأمل و تدبر.

و فيه:أنه إن كان المراد من كون الدليل واضحا لاثحا أو محتاجا إلى التأمل و التدبر كون مضمون الآيه ذا دليل عقلى قريب من البداهه أو بديهى و عدم كونه كذلك كان لازمه كون آيات الأحكام و الفرائض و نحوها من المتشابه لفقدانها الدليل العقلى اللائح الواضح،و حينئذ يكون اتباعها مذموما مع أنها واجبه الاتباع،و إن

كان المراد به كونه ذا دليل واضح لائح من نفس الكتاب و عدم كونه كذلك فجميع الآيات من هذه الجهة على وتيره واحده، و كيف لا؟ و هو كتاب متشابه مثانى، و نور، و مبین، و لازمه كون الجميع محكما و ارتفاع المتشابه المقابل له من الكتاب و هو خلف الفرض و خلاف النص.

سادسها: أن المحكم كل ما أمكن تحصيل العلم به بدليل جلى أو خفى، و المتشابه ما لا سبيل إلى العلم به كوقت قيام الساعه و نحوه.

و فيه: أن الإحكام و التشابه وصفان لآيه الكتاب من حيث إنها آيه أى داله على معرفه من المعارف الإلهيه، و الذى تدل عليه آيه من آيات الكتاب ليس بعام للسهيل، و لا ممتنع الفهم إما بنفسه أو بضميمه غيره، و كيف يمكن أن يكون هناك أمر مراد من لفظ الآيه و لا يمكن نيله من جهه اللفظ؟ مع أنه وصف كتابه بأنه هدى، و أنه نور، و أنه مبین، و أنه فى معرض فهم الكافرين فضلا عن المؤمنين حيث قال: «تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَيِّنَاتٍ وَ نَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» حم السجده- ٤، و قال تعالى: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» النساء- ٨٢، فما تعرضت له آيه من آيات الكتاب ليس بممتنع الفهم، و لا الوقوف عليه مستحيل، و ما لا سبيل إلى الوقوف عليه كوقت قيام الساعه و سائر ما فى الغيب المكنون لم يتعرض لبيان آيه من الآيات بلفظها حتى تسمى متشابها.

على أن فى هذا القول خلطا بين معنى المتشابه و تأويل الآيه كما مر.

سابعها: أن المحكمات آيات الأحكام و المتشابهات غيرها مما يصرف بعضها بعضا، نسب هذا القول إلى مجاهد و غيره.

و فيه: أن المراد بالصرف الذى ذكره إن كان مطلق ما يعين على تشخيص المراد باللفظ حتى يشمل مثل التخصيص بالمخصص، و التقييد بالمقيد و سائر القرائن المقاميه كانت آيات الأحكام أيضا كغيرها متشابها، و إن كان خصوص ما لا إبهام فى دلالتها على المراد و لا- كثره فى احتمالاته حتى يتعين المراد به بنفسه، و يتعين المراد بغيره بواسطته كان لازم كون ما سوى آيات الأحكام متشابها أن لا يحصل العلم بشيء

من معارف القرآن غير الأحكام لأن المفروض عدم وجود آية محكمه فيها ترجع إليها المتشابهات منها و يتبين بذلك معانيها.

ثامنها: أن المحكم من الآيات ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهها واحدا و المتشابه ما احتمل من التأويل أوجها كثيره و نسب إلى الشافعي، و كان المراد به أن المحكم ما لا ظهور له إلا فى معنى واحد كالنص و الظاهر القوى فى ظهوره و المتشابه خلافه.

و فيه: أنه لا يزيد على تبديل اللفظ باللفظ شيئا، فقد بدل لفظ المحكم بما ليس له إلا معنى واحد، و المتشابه بما يحتمل معانى كثيره، على أنه أخذ التأويل بمعنى التفسير أى المعنى المراد باللفظ و قد عرفت أنه خطأ، و لو كان التأويل هو التفسير بعينه لم يكن لاختصاص علمه بالله، أو بالله و بالراسخين فى العلم وجه فإن القرآن يفسر بعضه بعضا، و المؤمن و الكافر و الراسخون فى العلم و أهل الزيغ فى ذلك سواء.

تاسعها: أن المحكم ما أحكم و فصل فيه خبر الأنبياء مع أممهم، و المتشابه ما اشتبهت ألفاظه من قصصهم بالتكرير فى سور متعدده، و لازم هذا القول اختصاص التقسيم بآيات القصص.

و فيه: أنه لا دليل على هذا التخصيص أصلا، على أن الذى ذكره تعالى من خواص المحكم و المتشابه و هو ابتغاء الفتنة و ابتغاء التأويل فى اتباع المتشابه دون المحكم لا ينطبق عليه، فإن هذه الخاصه توجد فى غير آيات القصص كما توجد فيها، و توجد فى القصة الواحده كقصه جعل الخلافه فى الأرض كما توجد فى القصص المتكرره.

عاشرها: أن المتشابه ما يحتاج إلى بيان و المحكم خلافه، و هذا الوجه منسوب إلى الإمام أحمد.

و فيه: أن آيات الأحكام محتاجه إلى بيان النبى ص مع أنها من المحكمات قطعا لما تقدم بيانه مرارا، و كذا الآيات المنسوخه من المتشابه كما تقدم مع عدم احتياجها إلى بيان لكونها نظائر لسائر آيات الأحكام.

الحادى عشر: أن المحكم ما يؤمن به و يعمل به و المتشابه ما يؤمن به و لا- يعمل به، و نسب إلى ابن تيميه، و لعل المراد به: أن الأخبار متشابهات و الإنشاءات

محكمات كما استظهره بعضهم و إلا لم يكن قولاً برأسه لصحة انطباقه على عدة من الأقوال المتقدمة.

وفيه: أن لازمه كون غير آيات الأحكام متشابهات، ولازمه أن لا يمكن حصول العلم بشيء من المعارف الإلهية في غير الأحكام إذ لا- يتحقق فيها عمل مع عدم وجود محكم فيها يرجع إليه ما تشابه منها، ومن جهة أخرى: الآيات المنسوخة بإنشاءات و ليست بمحكمات قطعاً.

و الظاهر أن مراده من الإيمان و العمل بالمحكم و الإيمان من غير عمل بالمتشابه ما يدل عليه لفظ الآية: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ... وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، إلا أن الأمرين أعنى الإيمان و العمل معا في المحكم و الإيمان فقط في المتشابه لما كانا وظيفتين لكل من آمن بالكتاب كان عليه أن يشخص المحكم و المتشابه قبلاً حتى يؤدي وظيفته، و على هذا فلا يكفي معرفه المحكم و المتشابه بهما في تشخيص مصداقهما و هو ظاهر.

الثاني عشر: إن المتشابهات هي آيات الصفات خاصة أعم من صفات الله سبحانه كالعليم و التقدير و الحكيم و الخبير و صفات أنبيائه كقوله تعالى في عيسى بن مريم (ع): «وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ»: النساء- ١٧١، و ما يشبه ذلك، نسب إلى ابن تيمية.

و فيه: أنه مع تسليم كون آيات الصفات من المتشابهات لا دليل على انحصارها فيها.

و الذي يظهر من بعض كلامه المنقول على طوله أنه يأخذ المحكم و المتشابه بمعناهما اللغوي و هو ما أحكمت دلالته و ما تشابهت احتمالاته و المعنيان نسيان فربما اشتبهت دلالة آية على قوم كالعامه و علمها آخرون بالبحث و هم العلماء، و هذا المعنى في آيات الصفات أظهر فإنها بحيث تشبه مراداتها لغالب الناس لكون أفهامهم قاصره عن الارتقاء إلى ما وراء الحس، فيحسبون ما أثبتته الله تعالى لنفسه من العلم و القدره و السمع و البصر و الرضا و الغضب و اليد و العين و غير ذلك أموراً جسمانية أو معاني ليست بالحق، و تقوم بذلك الفتن، و تظهر البدع، و تنشأ المذاهب، فهذا معنى المحكم

و المتشابه، و كلاهما مما يمكن أن يحصل به العلم، و الذى لا يمكن نيله و العلم به هو تأويل المتشابهات بمعنى حقيقه المعانى التى تدل عليها أمثال آيات الصفات، فهب أنا علمنا معنى قوله: **إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**، و **إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** و نحو ذلك لكننا لا ندري حقيقه علمه و قدرته و سائر صفاته و كيفية أفعاله الخاصه به، فهذا هو تأويل المتشابهات الذى لا يعلمها إلا الله تعالى، انتهى ملخصاً، و سيأتى ما يتعلق بكلامه من البحث عند ما نتكلم فى التأويل إن شاء الله.

الثالث عشر: أن المحكم ما للعقل إليه سبيل و المتشابه بخلافه.

و فيه: أنه قول من غير دليل، و الآيات القرآنيه و إن انقسمت إلى ما للعقل إليه سبيل و ما ليس للعقل إليه سبيل، لكن ذلك لا يوجب كون المراد بالمحكم و المتشابه فى هذه الآيه استيفاء هذا التقسيم، و شىء مما ذكر فيها من نعوت المحكم و المتشابه لا ينطبق عليه انطباقاً صحيحاً، على أنه منقوض بآيات الأحكام فإنها محكمه و لا سبيل للعقل إليها.

الرابع عشر: أن المحكم ما أريد به ظاهره و المتشابه ما أريد به خلاف ظاهره، و هذا قول شائع عند المتأخرين من أرباب البحث، و عليه يبتنى اصطلاحهم فى التأويل :

أنه المعنى المخالف لظاهر الكلام و كأنه أيضاً مراد من قال: إن المحكم ما تأويله تنزيهه، و المتشابه ما لا يدرك إلا بالتأويل.

و فيه: أنه اصطلاح محض لا ينطبق عليه ما فى الآيه من وصف المحكم و المتشابه فإن المتشابه إنما هو متشابه من حيث تشابه مراده و مدلوله، و ليس المراد بالتأويل المعنى المراد من المتشابه حتى يكون المتشابه متميزاً عن المحكم بأن له تأويلاً، بل المراد بالتأويل فى الآيه أمر يعم جميع الآيات القرآنيه من محكمها و متشابهها كما مر بيانه.

على أنه ليس فى القرآن آيه أريد فيها ما يخالف ظاهرها، و ما يوهم ذلك من الآيات إنما أريد بها معان يعطيها لها آيات آخر محكمه، و القرآن يفسر بعضه بعضاً، و من المعلوم أن المعنى الذى تعطيه القرائن متصله أو منفصله للفظ ليس بخارج عن ظهوره و بالخصوص فى كلام نص متكلمه على أن ديدنه أن يتكلم بما يتصل بعضه ببعض، و يشهد بعضه على بعض و يرتفع كل اختلاف و تناف مترائى بالتدبر فيه، قال تعالى:

«أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» :النساء- ٨٢

الخامس عشر: ما عن الأصم: أن المحكم ما أجمع على تأويله و المتشابه ما اختلف فيه و كان المراد بالإجماع و الاختلاف كون مدلول الآيه بحيث يختلف فيه الأنظار أو لا يختلف.

و فيه: أن ذلك مستلزم لكون جميع الكتاب متشابهها و ينافيه التقسيم الذى فى الآيه إذ ما من آيه من آى الكتاب إلا و فيه اختلاف ما: إما لفظاً أو معنى أو فى كونها ذات ظهور أو غيرها، حتى ذهب بعضهم إلى أن القرآن كله متشابه مستدلاً بقوله تعالى: «كِتَابًا مُّتَشَابِهًا»: الزمر- ٢٣، غفله عن أن هذا الاستدلال منه يبتنى على كون ما استدل به آيه محكمه و هو يناقض قوله و ذهب آخرون إلى أن ظاهر الكتاب ليس بحجه أى أنه لا ظاهر له.

السادس عشر: أن المتشابه ما أشكل تفسيره لمشابهته غيره سواء كان الإشكال من جهه اللفظ أو من جهه المعنى، ذكره الراغب.

قال فى مفردات القرآن: و المتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره، إما من حيث اللفظ، أو من حيث المعنى، فقال الفقهاء: المتشابه ما لا- ينبئ ظاهره عن مراده، و حقيقه ذلك: أن الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثه أضرب: محكم على الإطلاق، و متشابه على الإطلاق، و محكم من وجه متشابه من وجه.

فالمتشابه فى الجمله ثلاثه أضرب: متشابه من جهه اللفظ فقط، و متشابه من جهه المعنى فقط، و متشابه من جهتهما. و المتشابه من جهه اللفظ ضربان: أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة، و ذلك إما من جهه غرابته نحو الأب و يزفون، و إما من جهه مشاركته فى اللفظ كاليد و العين، و الثانى يرجع إلى جمله الكلام المركب، و ذلك ثلاثه أضرب: ضرب لاختصار الكلام نحو «وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ» و ضرب لبسط الكلام نحو لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لأنه لو قيل ليس مثله شيء كان أظهر للسامع، و ضرب لنظم الكلام نحو «أَنْزَلَ عَلَيْنَا عِبْدَهُ الْكِتَابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَوْجًا قَيِّمًا» تقديره الكتاب قيما و لم يجعل له عوجاً و قوله: وَ لَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ إِلَىٰ قَوْلِهِ لَوْ تَزَيَّلُوا .

و المتشابه من جهه المعنى أو صاف الله تعالى و أوصاف يوم القيامة، فإن تلك

الصفات لا تتصور لنا، إذ كان لا يحصل في نفوسنا صورته ما لم نحسه، أو لم يكن من جنس ما لم نحسه.

والمتشابه من جهة المعنى واللفظ جميعا خمسة أضرب: الأول: من جهة الكمية كالعموم والخصوص نحو فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ، و الثاني: من جهة الكيفية كالوجوب والندب نحو فَاذْكُرُوا مَا طَابَ لَكُمْ ، و الثالث من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ نحو اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ، و الرابع: من جهة المكان أو الأمور التي نزلت فيها نحو وَ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ، و قوله: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ، فإن من لا يعرف عادتهم في الجاهلية يتعذر عليه معرفته تفسير هذه الآية، و الخامس: من جهة الشروط التي بها يصح الفعل أو يفسد كشروط الصلوة و النكاح.

و هذه الجملة إذا تصورت علم: أن كل ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم نحو قول من قال المتشابه الم، و قول قتاده: المحكم الناسخ و المتشابه المنسوخ، و قول الأصم: المحكم ما أجمع على تأويله و المتشابه ما اختلف فيه.

ثم جميع المتشابه على ثلاثة أضرب ضرب لا سبيل للوقوف عليه كوقت الساعه و خروج دابة الأرض و كيفية الدابة و نحو ذلك. و ضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة و الأحكام الغلقة و ضرب متردد بين الأمرين، يجوز أن يختص بمعرفه حقيقته بعض الراسخين في العلم و يخفى على من دونهم، و هو الضرب المشار إليه

بقوله (ع) في على رضى الله عنه: اللهم فقهه في الدين و علمه التأويل، و قوله لابن عباس مثل ذلك، انتهى كلامه و هو أعم الأقوال في معنى المتشابه جمع فيها بين عدة من الأقوال المتقدمه.

و فيه: أولا: أن تعميمه المتشابه لموارد الشبهات اللفظية كغرابه اللفظ و إغلاق التركيب و العموم و الخصوص و نحوها لا يساعد عليه ظاهر الآية، فإن الآية جعلت المحكمات مرجعا يرجع إليه المتشابهات، و من المعلوم أن غرابه اللفظ و أمثالها لا تنحل عقدها من جهة دلالة المحكمات، بل لها مرجع آخر ترجع إليه و تتضح به.

و أيضا: الآية تصف المتشابهات بأنها من شأنها أن تتبع لابتغاء الفتنة، و من المعلوم: أن اتباع العام من غير رجوع إلى مخصصه، و المطلق من غير رجوع إلى مقيده

و أخذ اللفظ الغريب مع الإعراض عما يفسره فى اللغة مخالف لطريقه أهل اللسان لا تجوزه قريحتهم فلا يكون بالطبع موجبا لإثاره الفتنة لعدم مساعده اللسان عليه.

و ثانيا: أن تقسيمه المتشابه بما يمكن فهمه لعامه الناس و ما لا يمكن فهمه لأحد و ما يمكن فهمه لبعض دون بعض ظاهر فى أنه يرى اختصاص التأويل بالمتشابه، و قد عرفت خلافه.

هذا هو المعروف من أقوالهم فى معنى المحكم و المتشابه و تمييز موارد هما، و قد عرفت ما فيها، و عرفت أيضا أن الذى يظهر من الآيه على ظهورها و سطوع نورها خلاف ذلك كله، و أن الذى تعطيه الآيه فى معنى المتشابه: أن تكون الآيه مع حفظ كونها آيه داله على معنى مريب مردد لا- من جهه اللفظ بحيث يعالجه الطرق المألوفه عند أهل اللسان كإرجاع العام و المطلق إلى المخصص و المقيد و نحو ذلك بل من جهه كون معناها غير ملائم لمعنى آيه أخرى محكمه لا ريب فيه تبين حال المتشابهه.

و من المعلوم أن معنى آيه من الآيات لا يكون على هذا الوصف إلا مع كون ما يتبع من المعنى مألوفاً مأنوساً عند الأفهام العاميه تسرع الأذهان الساذجه إلى تصديقه أو يكون ما يرام من تأويل الآيه أقرب إلى قبول هذه الأفهام الضعيفه الإدراك و التعقل.

و أنت إذا تتبع البدع و الأهواء و المذاهب الفاسده التى انحرف فيها الفرق الإسلاميه عن الحق القويم بعد زمن النبى ص سواء كان فى المعارف أو فى الأحكام وجدت أكثر مواردنا من اتباع المتشابه، و التأويل فى الآيات بما لا يرتضيه الله سبحانه.

ففرقه تتمسك من القرآن بآيات للتجسيم، و أخرى للجبر، و أخرى للتفويض و أخرى لعثره الأنبياء، و أخرى للتنزيه المحض بنفى الصفات، و أخرى للتشبيه الخالص و زياده الصفات، إلى غير ذلك، كل ذلك للأخذ بالمتشابه من غير إرجاعه إلى المحكم الحاكم فيه.

و طائفه ذكرت: أن الأحكام الدينيه إنما شرعت لتكون طريقاً إلى الوصول فلو كان هناك طريق أقرب منها كان سلوكه متعينا لمن ركبها فإنما المطلوب هو الوصول بأى طريق اتفق و تيسر، و أخرى قالت إن التكليف إنما هو لبلوغ الكمال، و لا معنى لبقائه بعد الكمال بتحقيق الوصول فلا تكليف لكامل.

وقد كانت الأحكام و الفرائض و الحدود و سائر السياسات الإسلاميه قائمه و مقامه فى عهد رسول الله ص لا يشذ منها شاذ ثم لم تنزل بعد ارتحاله (ص) تنقص و تسقط حكما فحكما، يوما فيوما بيد الحكومات الإسلاميه، و لم يبطل حكم أو حد إلا و اعتذر المبطلون: أن الدين إنما شرع لصالح الدنيا و إصلاح الناس، و ما أحدثوه أصلح لحال الناس اليوم، حتى آل الأمر إلى ما يقال: إن الغرض الوحيد من شرائع الدين إصلاح الدنيا بإجرائها، و الدنيا اليوم لا تقبل السياسه الدينيه و لا تهضمها بل تستدعى وضع قوانين ترتضيها مدنيه اليوم و إجراءها، و إلى ما يقال إن التلبس بالأعمال الدينيه لتطهير القلوب و هدايتها إلى الفكره و الإراده الصالحتين، و القلوب المتدربه بالتربيه الاجتماعيه، و النفوس الموقوفه على خدمه الخلق فى غنى عن التطهر بأمثال الوضوء و الغسل و الصلوه و الصوم.

إذا تأملت فى هذه و أمثالها و هى لا تحصى كثره و تدبرت فى قوله تعالى:

فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ

الآيه، لم تشك فى صحه ما ذكرناه، و قضيت بأن هذه الفتن و المحن التى غادرت الإسلام و المسلمين لم تستقر قرارها إلا من طريق اتباع المتشابه، و ابتغاء تأويل القرآن.

و هذا و الله أعلم هو السبب فى تشديد القرآن الكريم فى هذا الباب، و إصراره البالغ على النهى عن اتباع المتشابه و ابتغاء الفتنة و التأويل و الإلحاد فى آيات الله و القول فيها بغير علم و اتباع خطوات الشيطان فإن من دأب القرآن أنه يبالح فى التشديد فى موارد سينتلم من جهتها ركن من أركان الدين فتهدم به بنيته كالتشديد الواقع فى تولى الكفار، و موده ذوى القربى، و قرار أزواج النبی، و معامله الربا، و اتحاد الكلمه فى الدين و غير ذلك.

و لا- يغسل رين الزیغ من القلوب و لا يسد طريق ابتغاء الفتنة اللذين منشؤهما الركون إلى الدنيا و الإخلاق إلى الأرض و اتباع الهوى إلا ذكر يوم الحساب كما قال تعالى: «وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ» _ص- ٢٦، و لذلك ترى الراسخين فى العلم المتأبين تأويل القرآن بما لا يرتضيه ربهم يشيرون إلى ذلك فى خاتمه مقالهم حيث يقولون:

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ

ذكر جماعه: أن كون الآيات المحكمه أم الكتاب كونها أصلا في الكتاب عليه تبنى قواعد الدين و أركانها فيؤمن بها، و يعمل بها و ليس الدين إلا مجموعا من الاعتقاد و العمل، و أما الآيات المتشابهه فهي لتزلزل مرادها و تشابه مدلولها لا يعمل بها بل إنما يؤمن بها إيمانا.

و أنت بالتأمل فيما تقدم من الأقوال تعلم أن هذا لازم بعض الأقوال المتقدمه، و هي التي ترى أن المتشابه إنما صار متشابهها لاشتماله على تأويل يتعذر الوصول إليه و فهمه، أو أن المتشابه يمكن حصول العلم به و رفع تشابهه في الجملة أو بالجملة بالرجوع إلى عقل أو لغه أو طريقه عقلائييه يستراح إليها في رفع الشبهات اللفظيه.

و قال آخرون: إن معنى أمومه المحكمات رجوع المتشابهات إليها، و كلامهم مختلف في تفسير هذا الرجوع فظاهر بعضهم: أن المراد بالرجوع هو قصر المتشابهات على الإيمان و الاتباع العملي في مواردنا للمحكم كآليه المنسوخه يؤمن بها و يرجع في موردها إلى العمل بالناسخه، و هذا القول لا- يغير القول الأول كثير مغايره، و ظاهر بعض آخر أن معناها كون المحكمات مبينه للمتشابهات، رافعه لتشابهها.

و الحق هو المعنى الثالث، فإن معنى الأمومه الذي تدل عليه قوله: هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ آليه يتضمن عنايه زائده و هو أخص من معنى الأصل الذي فسرت به الأم في القول الأول، فإن في هذه اللفظه. أعنى لفظه الأم عنايه بالرجوع الذي فيه انتشاء و اشتقاق و تبعض، فلا تخلو اللفظه عن الدلاله على كون المتشابهات ذات مداليل ترجع و تنفرع على المحكمات، و لازمه كون المحكمات مبينه للمتشابهات.

على أن المتشابه إنما كان متشابهها لتشابه مراده لا- لكونه ذا تأويل، فإن التأويل كما مر يوجد للمحكم كما يوجد للمتشابه، و القرآن يفسر بعضه بعضا، فللمتشابه مفسر و ليس إلا- المحكم، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: القيامه-٢٣، فإنه آيه متشابهه، و يارجاعها إلى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: الشورى-١١، و قوله تعالى لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ: الأنعام-١٠٣، يتبين: أن المراد بها نظره و رؤيه من غير سنخ رؤيه البصر الحسى، و قد قال تعالى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾

أَفْتَمَّارُونَهُ عَلَيَّ مَا يَرَى إِلَى أَنْ قَالَ X لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى: النجم-١٨، فأثبت للقلب رؤيه تخصه، وليس هو الفكر فإن الكفر إنما يتعلق بالتصديق و المركب الذهني و الرؤيه إنما تتعلق بالمفرد العيني، فيتين بذلك أنه توجه من القلب ليست بالحسيه الماديه و لا بالعقليه الذهنيه، و الأمر على هذه الوتيره فى سائر المتشابهات.

٣ ما معنى التأويل؟

فسر قوم من المفسرين التأويل بالتفسير و هو المراد من الكلام و إذ كان المراد من بعض الآيات معلوما بالضروره كان المراد بالتأويل على هذا من قوله تعالى وَ ائْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ الْآيه هو المعنى المراد بالآيه، المتشابهه، فلا طريق إلى العلم بالآيات المتشابهه على هذا القول لغير الله سبحانه أو لغيره و غير الراسخين فى العلم.

و قالت طائفه أخرى: إن المراد بالتأويل: هو المعنى المخالف لظاهر اللفظ، و قد شاع هذا المعنى بحيث عاد اللفظ حقيقه ثانيه فيه بعد ما كان بحسب اللفظ لمعنى مطلق الإرجاع أو المرجع.

و كيف كان فهذا المعنى هو الشائع عند المتأخرين كما أن المعنى الأول هو الذى كان شائعا بين قدماء المفسرين سواء فيه من كان يقول: إن التأويل لا يعلمه إلا الله، و من كان يقول إن الراسخين فى العلم أيضا يعلمونه كما نقل

عن ابن عباس أنه كان يقول: "أنا من الراسخين فى العلم و أنا أعلم تأويله.

و ذهب طائفه أخرى: إلى أن التأويل معنى من معانى الآيه لا يعلمه إلا الله تعالى، أو لا يعلمه إلا الله و الراسخون فى العلم مع عدم كونه خلاف ظاهر اللفظ، فيرجع الأمر إلى أن للآيه المتشابهه معانى متعدده بعضها تحت بعض، منها ما هو تحت اللفظ يناله جميع الأفهام، و منها ما هو أبعد منه لا يناله إلا الله سبحانه أو هو تعالى و الراسخون فى العلم.

و قد اختلفت أنظارهم فى كيفية ارتباط هذه المعانى باللفظ فإن من المتيقن أنها من حيث كونها مراده من اللفظ ليست فى عرض واحد و إلا لزم استعمال اللفظ فى أكثر من معنى واحد و هو غير جائز على ما بين فى محله، فهى لا محاله معان مترتبه فى

الطول: فقول: إنها لوازم معنى اللفظ إلا- أنها لوازم مرتبه بحيث يكون للفظ معنى مطابقى و له لازم و لازمه لازم و هكذا، و قيل: إنها معان مرتبه بعضها على بعض ترتب الباطن على ظاهره، فإن اراده المعنى المعهود المؤلف إرادته لمعنى اللفظ و إرادته لباطنه بعين إرادته نفسه كما إنك إذا قلت: اسقنى فلا تطلب بذاك إلا السقى و هو بعينه طلب للإرواء، و طلب لرفع الحاجه الوجوديه، و طلب للكمال الوجودى و ليس هناك أربعة أوامر و مطالب، بل الطلب الواحد المتعلق بالسقى متعلق بعينه بهذه الأمور التى بعضها فى باطن بعض و السقى مرتبط بها و معتمد عليها.

و هاهنا قول رابع: و هو أن التأويل ليس من قبيل المعانى المراده باللفظ بل هو الأمر العينى الذى يعتمد عليه الكلام، فإن كان الكلام حكماً إنشائياً كالأمر و النهى فتأويله المصلحه التى توجب إنشاء الحكم و جعله و تشريعه، فتأويل قوله: أَفِيْمُوا الصَّلَاةَ [□] مثلاً هو الحال النورانيه الخارجيه التى تقوم بنفس المصلى فى الخارج فتنهاه عن الفحشاء و المنكر، و إن كان الكلام خبرياً فإن كان إخباراً عن الحوادث الماضيه كان تأويله نفس الحادته الواقعه فى ظرف الماضى كآيات المشتمله على أخبار الأنبياء و الأمم الماضيه فتأويلها نفس القضايا الواقعه فى الماضى، و إن كان إخباراً عن الحوادث و الأمور الحاليه و المستقبله فهو على قسمين: فإما أن يكون المخبر به من الأمور التى تناله الحواس أو تدركه العقول كان أيضاً تأويله ما هو فى الخارج من القضية الواقعه كقوله تعالى: «وَفِيكُمْ سَيِّمَاعُونَ لَهُمْ» [□]: التوبه- ٤٧، و قوله تعالى: «غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ» [□]: الروم- ٤ و إن كان من الأمور المستقبله الغيبه التى لا تناله حواسنا الدنيويه و لا يدرك حقيقتها عقولنا كالأمر المربوطه بيوم القيامه و وقت الساعه و حشر الأموات و الجمع و السؤال و الحساب و تطاير الكتب، أو كان مما هو خارج من سنخ الزمان و إدراك العقول كحقيقه صفاته و أفعاله تعالى فتأويلها أيضاً نفس حقائقها الخارجيه.

و الفرق بين هذا القسم أعنى الآيات المبينه لحال صفات الله تعالى و أفعاله و ما يلحق بها من أحوال يوم القيامه و نحوها و بين الأقسام الأخر أن الأقسام الأخر يمكن حصول العلم بتأويلها بخلاف هذا القسم، فإنه لا يعلم حقيقه تأويله إلا الله تعالى، نعم يمكن أن يناله الراسخون فى العلم بتعليم الله تعالى بعض النيل على قدر ما تسعه عقولهم،

و أما حقيقه الأمر الذى هو حق التأويل فهو مما استأثر الله سبحانه بعلمه.

فهذا هو الذى يتحصل من مذاهبهم فى معنى التأويل، و هى أربعه.

و هاهنا أقوال آخر ذكروها هى فى الحقيقه من شعب القول الأول و إن تحاشى القائلون بها عن قبوله.

فمن جملتها أن التفسير أعم من التأويل و أكثر استعماله فى الألفاظ و مفرداتها و أكثر استعمال التأويل فى المعانى و الجمل، و أكثر ما يستعمل التأويل فى الكتب الإلهيه، و يستعمل التفسير فيها و فى غيرها.

و من جملتها: أن التفسير بيان معنى اللفظ الذى لا- يحتمل إلا وجهها واحدا و التأويل تشخيص أحد احتمالات اللفظ بالدليل استنباطا.

و من جملتها: أن التفسير بيان المعنى المقطوع من اللفظ و التأويل ترجيع أحد الاحتمالات من المعانى غير المقطوع بها، و هو قريب من سابقه.

و من جملتها: أن التفسير بيان دليل المراد و التأويل بيان حقيقه المراد، مثاله:

قوله تعالى: **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** فتفسيره: أن المرصاد مفعال من قولهم: رصد يرصد إذا راقب، و تأويله التحذير عن التهاون بأمر الله و الغفله عنه.

و من جملتها: أن التفسير بيان المعنى الظاهر من اللفظ و التأويل بيان المعنى المشكل.

و من جملتها: أن التفسير يتعلق بالروايه و التأويل يتعلق بالدرايه.

و من جملتها: أن التفسير يتعلق بالاتباع و السماع و التأويل يتعلق بالاستنباط و النظر. فهذه سبعة أقوال هى فى الحقيقه من شعب القول الأول الذى نقلناه، يرد عليها ما يرد عليه و كيف كان فلا يصح الركون إلى شىء من هذه الأقوال الأربعه و ما ينشعب منها.

أما إجمالاً: فلأنك قد عرفت: أن المراد بتأويل الآيه ليس مفهوماً من المفاهيم تدل عليه الآيه سواء كان مخالفاً لظاهرها أو موافقاً، بل هو من قبيل الأمور الخارجيه، و لا كل أمر خارجى حتى يكون المصداق الخارجى للخبر تأويلاً له، بل أمر خارجى

مخصوص نسبته إلى الكلام نسبة الممثل إلى المثل بفتحتين و الباطن إلى الظاهر.

و أما تفصيلا فيرد على القول الأول: أن أقل ما يلزمه أن يكون بعض الآيات القرآنية لا ينال تأويلها أى تفسيرها أى المراد من مداليلها اللفظية عامه الأفهام، و ليس فى القرآن آيات كذلك بل القرآن ناطق بأنه إنما أنزل قرآنا ليناله الأفهام، و لا مناص لصاحب هذا القول إلا- أن يختار أن الآيات المتشابهة إنما هى فواتح السور من الحروف المقطعه حيث لا- ينال معانيها عامه الأفهام، و يرد عليه: أنه لا- دليل عليه، و مجرد كون التأويل مشتقلا على معنى الرجوع و كون التفسير أيضا غير خال عن معنى الرجوع لا- يوجب كون التأويل هو التفسير كما أن الأم مرجع لأولادها و ليست بتأويل لهم، و الرئيس مرجع للمرءوس و ليس بتأويل له.

على أن ابتغاء الفتنة عد فى الآيه خاصه مستقله للتشابه و هو يوجد فى غير فواتح السور فإن أكثر الفتنة المحدثه فى الإسلام إنما حدثت باتباع علل الأحكام و آيات الصفات و غيرها.

و أما القول الثانى فيرد عليه: أن لازمه وجود آيات فى القرآن أريد بها معان يخالفها ظاهرها الذى يوجب الفتنة فى الدين بتنافيه مع المحكمات، و مرجعه إلى أن فى القرآن اختلافًا بين الآيات لا يرتفع إلا بصرف بعضها عن ظواهرها إلى معان لا يفهمها عامه الأفهام، و هذا يبطل الاحتجاج الذى فى قوله تعالى: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» النساء- ٨٢، إذ لو كان ارتفاع اختلاف آيه مع آيه بأن يقال: إنه أريد بإحدهما أو بهما معا غير ما يدل عليه الظاهر بل معنى تأويلى باصطلاحهم لا يعلمه إلا الله سبحانه مثلا لم تنجح حجه الآيه، فإن انتفاء الاختلاف بالتأويل باصطلاحهم فى كل مجموع من الكلام و لو كان لغير الله أمر ممكن، و لا- دلالة فيه على كونه غير كلام البشر، إذ من الواضح أن كل كلام حتى القطعى الكذب و اللغو يمكن إرجاعه إلى الصدق و الحق بالتأويل و الصرف عن ظاهره، فلا يدل ارتفاع الاختلاف بهذا المعنى عن مجموع كلام على كونه كلام من يتعالى عن اختلاف الأحوال، و تناقض الآراء، و السهو و النسيان و الخطاء و التكامل بمرور الزمان كما هو المعنى بالاحتجاج فى الآيه، فالآيه بلسان احتجاجها صريح فى أن القرآن معرض لعامه الأفهام، و مسرح للبحث و التأمل و التدبر، و ليس فيه آيه أريد

بها معنى يخالف ظاهر الكلام العربى و لا أن فيه أحجيه و تعميته.

و أما القول الثالث فيرد عليه: أن اشتغال الآيات القرآنيه على معان مترتبه بعضها فوق بعض و بعضها تحت بعض مما لا ينكره إلا من حرم نعمه التدبر، إلا- أنها جميعا- و خاصه لو قلنا إنها لوازم المعنى-مدليل لفظيه مختلفه من حيث الانفهام و ذكاء السامع المتدبر و بلادته، و هذا لا يلائم قوله تعالى فى وصف التأويل: **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ**، فإن المعارف العاليه و المسائل الدقيقه لا يختلف فيها الأذهان من حيث التقوى و طهاره النفس بل من حيث الحده و عدمها، و إن كانت التقوى و طهاره النفس معينين فى فهم المعارف الطاهره الإلهيه لكن ذلك ليس على نحو الدوران و العليه كما هو ظاهر قوله **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ**.

و أما القول الرابع فيرد عليه: أنه و إن أصاب فى بعض كلامه لكنه أخطأ فى بعضه الآخر فإنه و إن أصاب فى القول بأن التأويل لا يختص بالمتشابه بل يوجد لجميع القرآن، و أن التأويل ليس من سنخ المدلول اللفظى بل هو أمر خارجى بيتنى عليه الكلام لكنه أخطأ فى عد كل أمر خارجى مرتبط بمضمون الكلام حتى مصاديق الأخبار الحاكيه عن الحوادث الماضيه و المستقبله تأويلا للكلام، و فى حصر المتشابه الذى لا يعلم تأويله فى آيات الصفات و آيات القيامه.

توضيحه: أن المراد حينئذ من التأويل فى قوله تعالى: **وَ ابْتَغَاءَ تَأْوِيلِهِ** «إلخ» إما أن يكون تأويل القرآن برجوع ضميره إلى الكتاب فلا- يستقيم قوله: **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ** «إلخ» فإن كثيرا من تأويل القرآن و هو تأويلات القصص بل الأحكام أيضا و آيات الأخلاق مما يمكن أن يعلمه غيره تعالى و غير الراسخين فى العلم من الناس حتى الزائغون قلبا على قوله فإن الحوادث التى تدل عليها آيات القصص يتساوى فى إدراكها جميع الناس من غير أن يحرم عنه بعضهم، و كذا الحقائق الخلقيه و المصالح التى يوجد عمل بالأحكام من العبادات و المعاملات و سائر الأمور المشرعه.

و إن كان المراد بالتأويل فيه تأويل المتشابه فقط استقام الحصر فى قوله: **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ** «إلخ»، و أفاد أن غيره تعالى و غير الراسخين فى العلم مثلا- لا- ينبغى لهم ابتغاء تأويل المتشابه، و هو يؤدى إلى الفتنة و إضلال الناس لكن لا وجه لحصر المتشابه الذى لا يعلم تأويله فى آيات الصفات و القيامه فإن الفتنة و الضلال كما يوجد فى تأويلها

يوجد فى تأويل غيرها من آيات الأحكام والقصاص وغيرهما كأن يقول القائل (وقد قيل) إن المراد من تشريع الأحكام إحياء الاجتماع الإنسانى بإصلاح شأنه بما ينطبق على الصلاح، فلو فرض أن صلاح المجتمع فى غير الحكم المشرع، أو أنه لا ينطبق على صلاح الوقت وجب اتباعه وإلغاء الحكم الدينى المشرع. و كأن يقول القائل (وقد قيل) إن المراد من كرامات الأنبياء المنقوله فى القرآن أمور عاديه، وإنما نقل بالفاظ ظاهرها خلاف العاده لصلاح استماله قلوب العامه لانجذاب نفوسهم و خضوع قلوبهم لما يتخلونه خارقا للعاده قاهرا لقوانين الطبيعه. و يوجد فى المذاهب المنشعبه المحدثه فى الإسلام شىء كثير من هذه الأقاويل، و جميعها من التأويل فى القرآن ابتغاء للفتنه بلا شك، فلا وجه لقصر المتشابه على آيات الصفات و آيات القيامه.

إذا عرفت ما مر علمت: أن الحق فى تفسير التأويل أنه الحقيقه الواقعيه التى تستند إليها البيانات القرآنيه من حكم أو موعظه أو حكمه، و أنه موجود لجميع الآيات القرآنيه: محكمها و متشابهها، و أنه ليس من قبيل المفاهيم المدلول عليها بالألفاظ بل هى من الأمور العينيّه المتعاليه من أن يحيط بها شبكات الألفاظ، و إنما قيدها الله سبحانه بقيد الألفاظ لتقريبها من أذهاننا بعض التقريب فهى كالأمثال تضرب ليقرب بها المقاصد و توضح بحسب ما يناسب فهم السامع كما قال تعالى: «وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ» : الزخرف-٤ و فى القرآن تصريحات و تلويحات بهذا المعنى.

على أنك قد عرفت فيما مر من البيان أن القرآن لم يستعمل لفظ التأويل فى الموارد التى-استعملها و هى ستة عشر موردا على ما عدت- إلا فى المعنى الذى ذكرناه.

٤ هل يعلم تأويل القرآن غير الله سبحانه

هذه المسأله أيضا من موارد الخلاف الشديد بين المفسرين، و منشؤه الخلاف الواقع بينهم فى تفسير قوله تعالى: وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَدًا بِهِ كُلُّ مَن عِنْدَ رَبِّنَا الْآيَهُ، و أن الواو هل هو للعطف أو للاستيناف، فذهب بعض القدماء و الشافعيه و معظم المفسرين من الشيعه إلى أن الواو للعطف و أن الراسخين فى العلم يعلمون

تأويل المتشابه من القرآن، وذهب معظم القدماء و الحنفية من أهل السنه إلى أنه للاستيناف و أنه لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله و هو مما استأثر الله سبحانه بعلمه. و قد استدلت الطائفة الأولى على مذهبها بوجوه كثيره، و ببعض الروايات. و الطائفة الثانيه بوجوه آخر و عده من الروايات الوارده فى أن تأويل المتشابهات مما استأثر الله سبحانه بعلمه و تمادت كل طائفة فى مناقضه صاحبها و المعارضه مع حججها.

و الذين ينبغي أن يتنبه له الباحث فى المقام أن المسأله لم تخل عن الخلط و الاشتباه من أول ما دارت بينهم و وقعت موردا للبحث و التنقير، فاختلط رجوع المتشابه إلى المحكم. و بعبارة أخرى المعنى المراد من المتشابه بتأويل الآيه كما ينبى به ما عنونا به المسأله و قررنا عليه الخلاف و قول كل من الطرفين آنفا.

و لذلك تركنا التعرض لنقل حجج الطرفين لعدم الجدوى فى إثباتها أو نفيها بعد ابتنائها على الخلط و أما الروايات فإنها مخالفه لظاهر الكتاب فإن الروايات المثبتة، أعنى الداله على أن الراسخين فى العلم يعلمون التأويل فإنها أخذت التأويل مرادفا للمعنى المراد من لفظ المتشابه و لا تأويل فى القرآن بهذا المعنى. كما

روى من طرق أهل السنه:

أن النبى ص دعا لابن عباس فقال: اللهم فقهه فى الدين و علمه التأويل ،

و ما روى من قول ابن عباس: "أنا من الراسخين فى العلم و أنا أعلم تأويله ،

و من قوله: "إن المحكمات هى الآيات الناسخه -و المتشابهات هى المنسوخه فإن لازم هذه الروايات على ما فهموه أن يكون معنى الآيه المحكمه تأويلا للآيه المتشابهه و هو الذى أشرنا إليه أن التأويل بهذا المعنى ليس موردا لنظر الآيه.

و أمّا الروايات النافيه أعنى الداله على أن غيره لا يعلم تأويل المتشابهات مثل ما روى: أن ابن عباس كان يقرأ: "وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ -و يقول الراسخون فى العلم آمناب به و كذلك كان يقرأ أبى بن كعب. و ما روى أن ابن مسعود كان يقرأ: "وإن تأويله إلا عند الله -و الراسخون فى العلم يقولون آمناب به، فهذه لا تصلح لإثبات شىء: أما أولا: فلأن هذه القراءات لا حجيه فيها و أما ثانيا: فلأن غايه دلالتها أن الآيه لا تدل على علم الراسخين فى العلم بالتأويل و عدم دلالة الآيه عليه غير دلالتها على عدمه كما هو المدعى فمن الممكن أن يدل عليه دليل آخر.

و مثل ما فى الدر المنثور، عن الطبرانى عن أبى مالك الأشعري أنه سمع رسول

الله ص يقول: لا أخاف على أمّتي إلا ثلاث خصال- أن يكثر لهم المال فتحاسدوا فيقتلوا، و أن يفتح لهم الكتاب- فيأخذه المؤمن ويتغى تأويله- و مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ- وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ- كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَ مَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ، و أن يكثر علمهم فيضيعونه و لا يباليون به. و هذا الحديث على تقدير دلالة على النفي لا يدل إلا على نفيه عن مطلق المؤمن لا عن خصوص الراسخين في العلم و لا ينفع المستدل إلا الثاني.

و مثل الروايات الداله على وجوب اتباع المحكم و الإيمان بالمتشابه. و عدم دلالتها على النفي مما لا يرتاب فيه.

و مثل ما

في تفسير الآلوسی، عن ابن جرير عن ابن عباس مرفوعاً: " أنزل القرآن على أربعة أحرف: حلال و حرام لا يعذر أحد بجهالته، و تفسير تفسره العلماء، و متشابه لا يعلمه إلا الله، و من ادعى علمه سوى الله تعالى فهو كاذب. و الحديث مع كونه مرفوعاً و معارضا بما نقل عنه من دعوه الرسول له و ادعائه العلم به لنفسه مخالف لظاهر القرآن: أن التأويل غير المعنى المراد بالمتشابه على ما عرفت فيما مر.

و الذى ينبغي أن يقال: أن القرآن يدل على جواز العلم بتأويله لغيره تعالى، و أما هذه الآية فلا دلالة لها على ذلك.

أما الجبهه الثانيه فلما مر فى البيان السابق: أن الآيه بقريته صدرها و ذيلها و ما تتلوها من الآيات إنما هي فى مقام بيان انقسام الكتاب إلى المحكم و المتشابه، و تفرق الناس فى الأخذ بها فهم بين مائل إلى اتباع المتشابه لزيغ فى قلبه و ثابت على اتباع المحكم و الإيمان بالمتشابه لرسوخ فى علمه، فإنما القصد الأول فى ذكر الراسخين فى العلم بيان حالهم و طريقتهم فى الأخذ بالقرآن و مدحهم فيه قبال ما ذكر من حال الزائغين و طريقتهم و ذمهم، و الزائد على هذا القدر خارج عن القصد الأول و لا دليل على تشريكهم فى العلم بالتأويل مع ذلك إلا وجوه غير تامه تقدمت الإشاره، إليها فيبقى الحصر المدلول عليه بقوله تعالى: وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ من غير ناقض ينقضه من عطف و استثناء و غير ذلك. فالذى تدل عليه الآية هو انحصار العلم بالتأويل فيه تعالى و اختصاصه به.

لكنه لا ينافى دلالة دليل منفصل يدل على علم غيره تعالى به بإذنه كما فى نظائره

ص: ٥١

مثل العلم بالغيب قال تعالى قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ: النمل-٦٥، وقال تعالى: «إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ يونس-٢٠، وقال تعالى: وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ»: الأنعام-٥٩، فدل جميع ذلك على الحصر ثم قال تعالى:

«عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ: الجن-٢٧، فأثبت ذلك لبعض من هو غيره و هو من ارتضى من رسول، و لذلك نظائر في القرآن.

و أما الجبه الأولى- و هى أن القرآن يدل على جواز العلم بتأويله لغيره تعالى فى الجملة-فبيانه: أن الآيات كما عرفت تدل على أن تأويل الآيه أمر خارجى نسبتبه إلى مدلول الآيه نسبه الممثل إلى المثل، فهو و إن لم يكن مدلولاً للآيه بما لها من الدلاله لكنه محكى لها محفوظ فيها نوعاً من الحكايه و الحفظ، نظير قولك: «فى الصيف ضيعت اللبنة» لمن أراد أمراً قد فوت أسبابه من قبل، فإن المفهوم المدلول عليه بلفظ المثل و هو تضييع المرأه اللبنة فى الصيف لا ينطبق شىء منه على المورد، و هو مع ذلك ممثل لحال المخاطب حافظ له يصوره فى الذهن بصوره مضمنه فى الصورة التى يعطيها الكلام بمدلوله.

كذلك أمر التأويل فالحقيقه الخارجيه التى توجب تشريع حكم من الأحكام أو بيان معرفه من المعارف الإلهيه أو وقوع حادثه هى مضمون قصه من القصص القرآنيه و إن لم تكن أمراً يدل عليه بالمطابقه نفس الأمر و النهى أو البيان أو الواقعه الكذائيه إلا أن الحكم أو البيان أو الحادثه لما كان كل منها ينتشى منها و يظهر بها فهو أثرها الحاكي لها بنحو من الحكايه و الإشاره كما أن قول السيد لخادمه، اسقنى ينتشى عن اقتضاء الطبيعه الإنسانيه لكمالها، فإن هذه الحقيقه الخارجيه هى التى تقتضى حفظ الوجود و البقاء، و هو يقتضى بدل ما يتحلل من البدن، و هو يقتضى الغذاء اللازم، و هو يقتضى الرى، و هو يقتضى الأمر بالسقى مثلاً، فتأويل قوله: اسقنى هو ما عليه الطبيعه الخارجيه الإنسانيه من اقتضاء الكمال فى وجوده و بقائه، و لو تبدلت هذه الحقيقه الخارجيه إلى شىء آخر يباين الأول مثلاً لتبدل الحكم الذى هو الأمر بالسقى إلى حكم آخر و كذا الفعل الذى يعرف فيفعل أو ينكر فيجتنب فى واحد من المجتمعات الإنسانيه على اختلافها الفاحش فى الآداب و الرسوم إنما يرتضع من ثدى الحسن و القبح الذى عندهم و هو يستند إلى مجموعه متحده متفقه من علل زمانيه و مكانيه و سوابق عادات و رسوم مرتكزه فى ذهن الفاعل بالوراثه ممن سبقه و تكرر المشاهده ممن شاهده

من أهل منطقته، فهذه العلة المؤتلفه الأجزاء هي تأويل فعله أو تركه من غير أن تكون عين فعله أو تركه لكنها محكية مضمونه محفوظه بالفعل أو الترك، ولو فرض تبدل المحيط الاجتماعي لتبدل ما أتى به من الفعل أو الترك.

فالأمر الذى له التأويل سواء كان حكما أو قصه أو حادثه يتغير بتغير التأويل لا محاله، و لذلك ترى أنه تعالى فى قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ الْآيَةَ، لما ذكر اتباع أهل الزيغ ما ليس بمراد من المتشابه ابتغاء للفتنه ذكر أنهم بذلك يبتغون تأويله الذى ليس بتأويل له و ليس إلا لأن التأويل الذى يأخذون به لو كان هو التأويل الحقيقى لكان اتباعهم للمتشابه اتباعا حقا غير مذموم و تبدل الأمر الذى يدل عليه المحكم و هو المراد من المتشابه إلى المعنى غير المراد الذى فهموه من المتشابه و اتبعوه.

فقد تبين: أن تأويل القرآن حقائق خارجيه تستند إليه آيات القرآن فى معارفها و شرائعها و سائر ما بينته بحيث لو فرض تغير شىء من تلك الحقائق انقلب ما فى الآيات من المضامين.

و إذا أجدت التدبر و جدت أن هذا ينطبق تمام الانطباق على قوله تعالى:

وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَمَدِينًا لَعَلِّي حَكِيمٌ: الزخرف-٤، فإنه يدل على أن القرآن النازل كان عند الله أمرا أعلى و أحكم من أن يناله العقول أو يعرضه التقطع و التفصل لكنه تعالى عناه بعباده جعله كتابا مقررًا و ألبسه لباس العربيه لعلهم يعقلون ما لا سبيل لهم إلى عقله و معرفته ما دام فى أم الكتاب، و أم الكتاب هذا هو المدلول عليه بقوله: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يَثْبُتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ»: الرعد-٣٩، و بقوله: «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ»: البروج-٢٢.

و يدل على إجمال مضمون الآيه أيضا قوله تعالى: «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَمَدُنٍ حَكِيمٍ خَبِيرٍ»: هود-١، فالإحكام كونه عند الله بحيث لا ثلمه فيه و لا فصل، و التفصيل هو جعله فصلا فصلا و آيه آيه و تنزيله على النبى ص.

و يدل على هذه المرتبه الثانيه التى تستند إلى الأولى قوله تعالى: «وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ

لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا: إسرء-١٠٦، فقد كان القرآن غير مفروق الآيات ثم فرق و نزل تنزيلا- و أوحى نجوما.

و ليس المراد بذلك أنه كان مجموع الآيات مرتب السور على حال الذى هو عليه الآن عندنا كتابا مؤلفا مجموعا بين الدفتين مثلا- ثم فرق و أنزل على النبى نجوما ليقراءه على الناس على مكث كما يفرقه المعلم المقرئ منا قطعات ثم يعلمه و يقره متعلمه كل يوم قطعه على حسب استعداد ذهنه.

و ذلك أن بين إنزال القرآن نجوما على النبى و بين إلقائه قطعه قطعه على المتعلم فرقا بينا و هو دخاله أسباب النزول فى نزول الآيه على النبى ص و لا شىء من ذلك و لا ما يشبهه فى تعلم المتعلم فالقطعات المختلفه الملقاه إلى المتعلم فى أزمته مختلفه يمكن أن تجمع و ينضم بعضها إلى بعض فى زمان واحد، و لا يمكن أن تجمع أمثال قوله تعالى:

«فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اضْفَحْ»: المائده-١٣، و قوله تعالى: «قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ»: التوبه-١٢٣، و قوله تعالى: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا»: المجادله-١، و قوله تعالى: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صِدْقَةً»: التوبه-١٠٣، و نحو ذلك فىلغى سبب النزول و زمانها ثم يفرض نزولها فى أول البعثه أو فى آخر زمان حيوه النبى ص، فالمراد بالقرآن فى قوله: «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ غَيْرَ الْقُرْآنِ بِمَعْنَى الْآيَاتِ الْمُؤَلَّفَةِ».

و بالجمله فالمحصل من الآيات الشريفه أن وراء ما نقرؤه و نعقله من القرآن أمرا هو من القرآن بمنزله الروح من الجسد و المتمثل من المثال- و هو الذى يسميه تعالى بالكتاب الحكيم- و هو الذى تعتمد و تتكى عليه معارف القرآن المنزل و مضامينه، و ليس من سنخ الألفاظ المفرقه المقطعه و لا المعانى المدلول عليها بها، و هذا بعينه هو التأويل المذكور فى الآيات المشتمله عليه لانطباق أوصافه و نعوته عليه. و بذلك يظهر حقيقه معنى التأويل، و يظهر سبب امتناع التأويل عن أن تمسه الأفهام العاديه و النفوس غير المطهره.

ثم إنه تعالى قال: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ»: الواقعه-٧٩، و لا- شبهه فى ظهور الآيات فى أن المطهرين من عباد الله هم يمسون القرآن الكريم الذى فى الكتاب المكنون و المحفوظ من التغير، و من التغير تصرف الأذهان

بالورود عليه و الصدور منه و ليس هذا المس إلا نيل الفهم و العلم، و من المعلوم أيضا:

أن الكتاب المكنون هذا هو أم الكتاب المدلول عليه بقوله: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ، و هو المذكور في قوله: وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَى حَكِيمٍ .

و هؤلاء قوم نزلت الطهاره في قلوبهم، و ليس ينزلها إلا الله سبحانه، فإنه تعالى لم يذكرها إلا كذلك أى منسوبه إلى نفسه كقوله تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا»: الأحزاب- ٣٣، و قوله تعالى: «وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ»: المائدة- ٦، و ما في القرآن شىء من الطهاره المعنويه إلا منسوبه إلى الله أو بإذنه، و ليست الطهاره إلا زوال الرجس من القلب، و ليس القلب من الإنسان إلا ما يدرك به و يريد به، فطهاره القلب طهاره نفس الإنسان في اعتقادها و إرادتها و زوال الرجس عن هاتين الجهتين، و يرجع إلى ثبات القلب فيما اعتقده من المعارف الحقه من غير ميلان إلى الشك و نوسان بين الحق و الباطل، و ثباته على لوازم ما علمه من الحق من غير تمايل إلى اتباع الهوى و نقض ميثاق العلم و هذا هو الرسوخ في العلم فإن الله سبحانه ما وصف الراسخين في العلم إلا- بأنهم مهديون ثابتون على ما علموا غير زائغه قلوبهم إلى ابتغاء الفتنة، فقد ظهر أن هؤلاء المطهرين راسخون في العلم، هذا.

و لكن ينبغي أن لا تشتبه النتيجة التي ينتجها هذا البيان، فإن المقدار الثابت بذلك أن المطهرين يعلمون التأويل، و لازم تطهيرهم أن يكونوا راسخين في علومهم، لما أن تطهير قلوبهم منسوب إلى الله و هو تعالى سبب غير مغلوب، لا- أن الراسخين في العلم يعلمونه بما أنهم راسخون في العلم أى إن الرسوخ في العلم سبب للعلم، بالتأويل فإن الآيه لا تثبت ذلك، بل ربما لاح من سياقها جهلهم بالتأويل حيث قال تعالى: يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا الْآيَه، و قد وصف الله تعالى رجالا من أهل الكتاب برسوخ العلم و مدحهم بذلك، و شكرهم على الإيمان و العمل الصالح في قوله: «لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ» X الْآيَه X: النساء- ١٦٢، و لم يثبت مع ذلك كونهم عالمين بتأويل الكتاب.

و كذلك إن الآيه أعنى قوله تعالى: لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ لم تثبت للمطهرين إلا مس الكتاب في الجملة، و أما أنهم يعلمون كل التأويل و لا يجهلون شيئا منه و لا في وقت فهي ساكته عن ذلك، و لو ثبت لثبت بدليل منفصل.

٥ ما هو السبب في اشتغال الكتاب على المتشابه؟

و من الاعتراضات التي أوردت على القرآن الكريم الاعتراض باشتغاله على المتشابهات و هو أنكم تدعون أن تكاليف الخلق إلى يوم القيامة فيه، و أنه قول فصل يميز بين الحق و الباطل، ثم إنا نراه يتمسك به كل صاحب مذهب من المذاهب المختلفه بين المسلمين لإثبات مذهبه، و ليس ذلك إلا لوقوع التشابه في آياته، أ فليس أنه لو جعله جليا نقيا عن هذه المتشابهات كان أقرب إلى الغرض المطلوب، و أقطع لماده الخلاف و الزيف؟.

و أجب عنه بوجوه من الجواب بعضها ظاهر السخافه كالجواب بأن وجود المتشابهات يوجب صعوبه تحصيل الحق و مشقه البحث و ذلك موجب لمزيد الأجر و الثواب! و كالجواب بأنه لو لم يشتمل إلا على صريح القول في مذهب لنفر ذلك سائر أرباب المذاهب فلم ينظروا فيه، لكنه لوجود التشابه فيه أطمعهم في النظر فيه و كان في ذلك رجاء أن يظفروا بالحق فيؤمنوا به! و كالجواب بأن اشتغاله على المتشابه أوجب الاستعانه بدلاله العقل، و في ذلك خروج عن ظلمه التقليد و دخول في ضوء النظر و الاجتهاد! و كالجواب بأن اشتغاله على المتشابه أوجب البحث عن طرق التأويلات المختلفه، و في ذلك فائده التضلع بالفنون المختلفه كعلم اللغه و الصرف و النحو و أصول الفقه!.

فهذه أجوبه سخيفه ظاهره السخافه بأدنى نظر و الذي يستحق الإيراد و البحث من الأجوبه و جوه ثلاثه:

الأول: أن اشتغال القرآن الكريم على المتشابهات لتمحيص القلوب في التصديق به، فإنه لو كان كل ما ورد في الكتاب معقولا واضحا لا شبهه فيه عند أحد لما كان في الإيمان شيء من معنى الخضوع لأمر الله تعالى و التسليم لرسله.

و فيه: أن الخضوع هو نوع انفعال و تأثر من الضعيف في مقابل القوى، و الإنسان إنما يخضع لما يدرك عظمته أو لما لا يدركه لعظمته و بهوره الإدراك كقدره الله غير المتناهيه و عظمته غير المتناهيه و سائر صفاته التي إذا واجهها العقل رجح القهقري لعجزه عن الإحاطه بها، و أما الأمور التي لا ينالها العقل لكنه يغتر و يغادر باعتقاد

أنه يدركها فما معنى خضوعه لها؟ كالأيات المتشابهة التي يتشابه أمرها على العقل فيحسب أنه يعقلها و هو لا يعقل.

الثانى: أن اشتماله على المتشابه إنما هو لبعث العقل على البحث و التنقيب، لئلا يموت بإهماله بإلقاء الواضحات التي لا يعمل فيها عامل الفكر، فإن العقل أعز القوى الإنسانية التي يجب تربيتها بتربيته الإنسان.

و فيه: أن الله تعالى أمر الناس بإعمال العقل و الفكر فى الآيات الآفاقية و الأنفسية إجمالاً فى موارد من كلامه، و تفصيلاً فى موارد أخرى كخلق السماوات و الأرض و الجبال و الشجر و الدواب و الإنسان و اختلاف ألسنته و ألوانه، و ندب إلى التعقل و التفكير و السير فى الأرض و النظر فى أحوال الماضين، و حرض على العقل و الفكر، و مدح العلم بأبلغ المدح و فى ذلك غنى عن البحث فى أمور ليس إلا مزالق للأقدام و مصارع للأفهام.

الثالث: أن الأنبياء بعثوا إلى الناس و فيهم العامه و الخاصه، و الذكى و البليد و العالم و الجاهل، و كان من المعانى ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة تكشف عن حقيقته و تشرح كنهه بحيث يفهمه الجميع على السواء، فالحرى فى أمثال هذه المعانى أن تلقى بحيث يفهمه الخاصه و لو بطريق الكنايه و التعريض و يؤمر العامه فيها بالتسليم و تفويض الأمر إلى الله تعالى.

و فيه: أن الكتاب كما يشتمل على المتشابهات كذلك يشتمل على المحكمات التي تبين المتشابهات بالرجوع إليها، و لازم ذلك أن لا تتضمن المتشابهات أزيد مما يكشف عنها المحكمات، و عند ذلك يبقى السؤال (و هو أنه ما فائده وجود المتشابهات فى الكتاب و لا حاجة إليها مع وجود المحكمات؟) على حاله، و منشأ الاشتباه أن المجيب أخذ المعانى نوعين متباينين: معان يفهمها جميع المخاطبين من العامه و الخاصه و هى مداليل المحكمات، و معان سنخها بحيث لا يتلقاها إلا الخاصه من المعارف العاليه و الحكم الدقيقه، فصار بذلك المتشابهات لا ترجع معانيها إلى المحكمات، و قد مر أن ذلك مخالف لمنطوق الآيات الداله على أن القرآن يفسر بعضه بعضاً و غير ذلك.

و الذى ينبغى أن يقال: أن وجود المتشابه فى القرآن ضرورى ناش عن وجود

التأويل الموجب لتفسير بعضه بعضا بالمعنى الذى أوضحناه للتأويل فيما مر.

و يتضح ذلك بعض الاتضاح بإجاده التدبر فى جهات البيان القرآنى و التعليم الإلهى و الأمور التى بنيت عليها معارفه و الغرض الأقصى من ذلك و هى أمور:

منها: أن الله سبحانه ذكر أن لكتابه تأويلا هو الذى تدور مداره المعارف القرآنيه و الأحكام و القوانين و سائر ما يتضمنه التعليم الإلهى، و أن هذا التأويل الذى تستقبله و تتوجه إليه جميع هذه البيانات أمر يقصر عن نيله الأفهام و تسقط دون الارتقاء إليه العقول إلا- نفوس طهرهم الله و أزال عنهم الرجس، فإن لهم خاصه أن يمسه. و هذا غايه ما يريدته تعالى من الإنسان المجيب لدعوته فى ناحيه العلم أن يهتدى إلى علم كتابه الذى هو تبيان كل شىء، و مفتاحه التطهير الإلهى، و قد قال تعالى:

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾: المائده-٧، فجعل الغايه لتشريع الدين هى التطهير الإلهى.

و هذا الكمال الإنسانى كسائر الكمالات المندوب إليها لا- يظفر بكمالها إلا أفراد خاصه، و إن كانت الدعوه متعلقه بالجميع متوجهه إلى الكل، فتربيه الناس بالتربيه الدينيه إنما تثمر كمال التطهير فى أفراد خاصه و بعض التطهير فى آخرين، و يختلف ذلك باختلاف درجات الناس، كما أن الإسلام يدعو إلى حق التقوى فى العمل. قال تعالى:

﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾: آل عمران-١٠٢، و لكن لا- يحصل كماله إلا- فى أفراد و فيمن دونهم دون ذلك على طريق الأمثل فالأمثل، كل ذلك لاختلاف الناس فى طبائعهم و أفهامهم، و هكذا جميع الكمالات الاجتماعيه من حيث التربيه و الدعوه، يدعو داعى الاجتماع إلى الدرجه القصوى من كل كمال كالعلم و الصنعه و الثروه و الراحة و غيرها لكن لا ينالها إلا البعض، و من دونه ما دونها على اختلاف مراتب الاستعدادات.

و بالحقيقه أمثال هذه الغايات ينالها المجتمع من غير تخلف دون كل فرد منه.

و منها: أن القرآن قطع بأن الطريق الوحيد إلى إيصال الإنسان إلى هذه الغايه الشريفة تعريف نفس الإنسان لنفسه بتربيته فى ناحيتى العلم و العمل: أما فى ناحيه العلم فبتعليمه الحقائق المربوطه به من المبدأ و المعاد و ما بينهما من حقائق العالم حتى يعرف نفسه بما ترتبطه به من الواقعيات معرفه حقيقه و أما فى ناحيه العمل فبتحميل قوانين

اجتماعيه عليه بحيث تصلح شأن حيوته الاجتماعيه، و لا تشغله عن التخلص إلى عالم العلم و العرفان، ثم بتحميل تكاليف عباديه يوجب العمل بها و المزاوله عليها توجه نفسه، و خلوص قلبه إلى المبدأ و المعاد، و إشرافه على عالم المعنى و الطهاره، و التجنب عن قذاره الماديات و ثقلها.

و أنت إذا أحسنت التدبر فى قوله تعالى: «إِلَيْهِ يَصِيءُ عِدُّ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحِ يَرْفَعُهُ»: الفاطر-١٠، و ضممته إلى ما سمعت إجماله فى قوله تعالى: «وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ الْآيَةَ، وَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ»: المائدة - ١٠٥، و قوله تعالى: «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ»: المجادل-١١، و ما يشابهه من الآيات انضح لك الغرض الإلهى فى تشريع الدين و هدايه الإنسان إليه، و السبيل الذى سلكه لذلك فافهم.

و يتفرع على هذا البيان نتيجته مهمه: هى أن القوانين الاجتماعيه فى الإسلام مقدمه للتكاليف العباديه مقصوده لأجلها، و التكاليف العباديه مقدمه للمعرفه بالله و بآياته، فأدنى الإخلال أو التحريف أو التغيير فى الأحكام الاجتماعيه من الإسلام يوجب فساد العبوديه و فساد العبوديه يؤدى إلى اختلال أمر المعرفه.

و هذه النتيجة-على أنها واضحه التفرع على البيان- تؤيدها تجربه أيضا:

فإنك إذا تأملت جريان الأمر فى طروق الفساد فى شئون الدين الإسلامى بين هذه الأمه و أمعنت النظر فيه: من أين شرع و فى أين ختم و جددت أن الفتنه ابتدأت من الاجتماعيات ثم توسطت فى العباديات ثم انتهت إلى رفض المعارف. و قد ذكرناك فيما مر: أن الفتنه شرعت باتباع المتشابهات و ابتغاء تأويلها، و لم يزل الأمر على ذلك حتى اليوم.

و منها: أن الهدايه الدينيه إنما بنيت على نفى التقليد عن الناس و ركوز العلم بينهم ما أستطيع، فإن ذلك هو الموافق لغايتها التى هى المعرفه، و كيف لا؟ و لا- يوجد بين كتب الوحي كتاب، و لا بين الأديان دين يعظمان من أمر العلم و يحرضان عليه بمثل ما جاء به القرآن و الإسلام.

و هذا المعنى هو الموجب لأن يبين الكتاب للإنسان حقائق المعارف أولاً، و ارتباط ما شرعه له من الأحكام العمليه بتلك الحقائق ثانياً، و بعبارة أخرى أن يفهمه

أنه موجود مخلوق لله تعالى خلقه بيده و وسط فى خلقه و بقائه ملائكته و سائر خلقه من سماء و أرض و نبات و حيوان و مكان و زمان و ما عداها، و أنه سائر إلى معاده و ميعاده سيرا اضطراريا، و كادح إلى ربه كدحا فملاقيه ثم يجرى جزاء ما عمله، أيما إلى جنه، أيما إلى نار فهذه طائفه من المعارف.

ثم يفهمه أن الأعمال التى تؤديه إلى سعادته الجنه ما هى، و ما تؤديه إلى شقوه النار ما هى؟ أى يبين له الأحكام العباديه و القوانين الاجتماعيه، و هذه طائفه أخرى.

ثم يبين له: أن هذه الأحكام و القوانين مؤديه إلى السعاده أى يفهمه: أن هذه الطائفه الثانيه مرتبطه بالطائفه الأولى، و أن تشريعها و جعلها للإنسان إنما هو لمراعاة سعادته لاشتمالها على خير الإنسان فى الدنيا و الآخره، و هذه طائفه ثالثه.

و ظاهر عندك أن الطائفه الثانيه بمنزله المقدمه، و الطائفه الأولى بمنزله النتيجة، و الطائفه الثالثه بمنزله الرابط الذى يربط الثانيه بالأولى، و دلالة الآيات على كل واحده من هذه الطوائف المذكوره واضحه و لا حاجه إلى إيرادها.

و منها: أنه لما كانت عامه الناس لا يتجاوز فهمهم المحسوس و لا يرقى عقلهم إلى ما فوق عالم الماده و الطبيعه، و كان من ارتقى فهمه منهم بالارتياضات العلميه إلى الورود فى إدراك المعانى و كليات القواعد و القوانين يختلف أمره باختلاف الوسائل التى يسرت له الورود فى عالم المعانى و الكليات كان ذلك موجبا لاختلاف الناس فى فهم المعانى الخارجه عن الحس و المحسوس اختلافا شديدا ذا عرض عريض على مراتب مختلفه، و هذا أمر لا ينكره أحد.

و لا يمكن إلقاء معنى من المعانى إلى إنسان إلا من طريق معلوماته الذهنيه التى تهيأت عنده فى خلال حياته و عيشته، فإن كان مأنوسا بالحس فمن طريق المحسوسات على قدر ما رقى إليه من مدارج الحس كما يمثل لذه النكاح للصبي بحلاوه الحلواء، و إن كان نائلا- للمعانى الكليه فبما نال، و على قدر ما نال و هذا ينال المعانى من البيان الحسى و العقلى معا بخلاف المأنوس بالحس.

ثم إن الهدايه الدينيه لا تختص بطائفه دون طائفه من الناس بل تعم جميع الطوائف و تشمل عامه الطبقات و هو ظاهر.

و هذا المعنى أعنى اختلاف الأفهام و عموم أمر الهدايه مع ما عرفت من وجود التأويل للقرآن هو الموجب أن يساق البيانات مساق الأمثال، و هو أن يتخذ ما يعرفه الإنسان و يعهده ذهنه من المعانى فيبين به ما لا يعرفه لمناسبه ما بينهما نظير توزين المتاع بالمثاقيل و لا مسانحه بينهما فى شكل أو صورته أو حجم أو نوع إلا ما بينهما من المناسبه و زنا.

و الآيات القرآنيه المذكوره سابقا كقوله تعالى: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ» الزخرف-٤، و ما يشابهه من الآيات و إن بينت هذا الأمر بطريق الإشاره و الكنايه، لكن القرآن لم يكتب بذلك دون أن بينه بما ضربه مثلا- فى أمر الحق و الباطل فقال تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْبَاطِلَ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَ أَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ» الرعد-١٧، فيبين أن حكم المثل جار فى أفعاله تعالى كما هو جار فى أقواله، ففعله تعالى كقوله الحق إنما قصد منهما الحق الذى يحوياناه و يصاحب كلا- منهما أمور غير مقصوده و لا نفعه يعلوهما و يربوهما لكنها ستزول و تبطل، و يبقى بالحق الذى ينفع الناس، و إنما يزول و يزهق بحق آخر هو مثله، و هذا كالأيه المتشابهه تتضمن من المعنى حقا مقصودا، و يصاحبه و يعلو عليه بالاستباق إلى الذهن معنى آخر باطل غير مقصود، لكنه سيزول بحق آخر يظهر الحق الأول على الباطل الذى كان يعلوه، ليحق الحق بكلماته و يبطل الباطل و لو كره المجرمون، و الكلام فى انطباق هذا المثل على أفعاله الخارجيه المتقرره فى عالم الكون كالكلام فى أقواله عز من قائل.

و بالجمله: المتحصل من الآيه الشريفه: أن المعارف الحقه الإلهيه كالماء الذى أنزله الله تعالى من السماء هى فى نفسها ماء فحسب، من غير تقييد بكميه و لا كيفيه، ثم إنها كالسيل السائل فى الأوديه تتقدر بأقدار مختلفه من حيث السعه و الضيق، و هذه الأقدار أمور ثابتة كل فى محله كالحال فى أصول المعارف و الأحكام التشريعيه، و مصالح الأحكام التى ذكرنا فيما مر أنها روابط تربط الأحكام بالمعارف الحقه. و هذا حكمها فى نفسها مع قطع النظر عن البيان اللفظى. و هى فى مسيرها ربما صحبت ما هو

كالزبد يظهر ظهوراً ثم يسرع في الزوال و ذلك كالأحكام المنسوخة التي تنسخه النواسخ من الآيات، فإن المنسوخ مقتضى ظاهر طباعه أن يدوم لكن الحكم الناسخ يبطل دوامه و يضع مكانه حكماً آخر. هذا بالنظر إلى نفس هذه المعارف مع قطع النظر عن ورودها في وادي البيان اللفظي.

و أما المعارف الحقه من حيث كونها وارده في ظرف اللفظ و الدلاله فإنها بورودها أوديه الدلالات اللفظيه تتقدر بأفكارها، تتشكل بأشكال المرادات الكلاميه بعد إطلاقها، و هذه أقوال ثابتة من حيث مراد المتكلم بكلامه إلا أنها مع ذلك أمثال يمثل بها أصل المعنى المطلق غير المتقدر، ثم إنها بمرورها في الأذهان المختلفه تحمل معاني غير مقصوده كالزبد في السيل، لأن الأذهان من جهه ما تخزنه من المرتكزات و المؤلفات تتصرف في المعاني الملقاه إليها، و جل هذا التصرف إنما هو في المعاني غير المؤلفه كالمعارف الأصلية، و مصالح الأحكام و ملاكاتها كما مر، و أما الأحكام و القوانين فلا تصرف فيها مع قطع النظر عن ملاكاتها فإنها مألوفه، و من هنا يظهر أن المتشابهات إنما هي الآيات من حيث اشتغالها على الملاكات و المعارف، دون متن الأحكام و القوانين الدينيه.

و منها: أنه تحصل من البيان السابق أن البيانات اللفظيه القرآنيه أمثال للمعارف الحقه الإلهيه لأن البيان نزل في هذه الآيات إلى سطح الأفهام العامه التي لا تدرك إلا الحسيات و لا تنال المعاني الكليه إلا في قالب الجسمانيات، و لما استلزم ذلك في إلقاء المعاني الكليه المجرده عن عوارض الأجسام و الجسمانيات أحد محذورين: فإن الأفهام في تلقيها المعارف المراده منها إن جمدت في مرتبه الحس و المحسوس انقلبت الأمثال بالنسبه إليها حقائق ممثله، و فيه بطلان الحقائق و فوت المرادات و المقاصد و إن لم تجمد و انتقلت إلى المعاني المجرده بتجريد الأمثال عن الخصوصيات غير الدخيله لم يؤمن من زياده و النقيصه.

نظير ذلك أنا لو ألقى إلينا المثل السائر: عند الصباح يحمد القوم السرى، أو تمثل لنا بقول صخر:

أهم بأمر الحزم لا أستطيعه

و قد حيل بين العير و النزوان

فإننا من جهة سبق عهد الذهن بالقصه أو الأمر الممثل له نجرد المثل عن الخصوصيات المكتنفه بالكلام كالصباح و القوم و السرى، و نفهم من ذلك أن المراد: أن حسن تأثير عمل و تحسين فعله إنما يظهر إذا فرغ منه و بدا أثره، و أما هو ما دام الإنسان مشغلا به محسا تعب فعله فلا يقدر قدره، و يظهر ذلك تجريد ما تمثل به من الشعر، و أما إذا لم نعهد الممثل و جمدنا على الشعر أو المثل خفى عنا الممثل و عاد المثل خيرا من الأخبار، و لو لم نجمد و انتقلنا إجمالا إلى أنه مثل لم يمكننا تشخيص المقدار الذى يجب طرحه بالتجريد و ما يجب حفظه للفهم و هو ظاهر.

و لا مخلص عن هذين المحذورين إلا بتفريق المعانى الممثل لها إلى أمثال مختلفه، و تقلبيها فى قوالب متنوعه حتى يفسر بعضها بعضا، و يوضح بعضها أمر بعض، فيعلم بالتدافع الذى بينها أولا: أن البيانات أمثال و لها فى ما وراءها حقائق ممثله، و ليست مقاصدها و مرادتها مقصوره على اللفظ المأخوذ من مرتبه الحس و المحسوس و ثانيا: بعد العلم بأنها أمثال: يعلم بذلك المقدار الذى يجب طرحه من الخصوصيات المكتنفه بالكلام، و ما يجب حفظه منها للحصول على المرام، و إنما يحصل ذلك بأن هذا يتضمن نفى بعض الخصوصيات الموجوده فى ذلك. و ذاك نفى بعض ما فى هذا.

و إيضاح المقاصد المبهمه و المطالب الدقيقه بإيراد القصص المتعدده و الأمثال و الأمثله الكثيره المتنوعه أمر دائر فى جميع الألسنه و اللغات من غير اختصاص بقوم دون قوم، و لغه دون لغه، و ليس ذلك إلا لأن الإنسان يشعر بقريحه البيان مساس حاجته إلى نفى الخصوصيات الموهمه لخلاف المراد فى القصه الواحده أو المثل الواحد بالخصوصيات النافيه الموجوده فى قصه أخرى مناسبه أو مثل آخر مناسب.

فقد تبين أن من الواجب أن يشتمل القرآن الكريم على الآيات المتشابهه، و أن يرفع التشابه الواقع فى آيه بالأحكام الواقع فى آيه أخرى، و اندفع بذلك الإشكال باشتمال القرآن على المتشابهات لكونها مخله لغرض الهدايه و البيان.

[نتائج هذه الأبحاث و هى عشره]

و قد ظهر من جميع ما تقدم من الأبحاث على طولها أمور:

الأول: أن الآيات القرآنيه تنقسم إلى قسمين: محكم و متشابه، و ذلك من جهة اشتمال الآيه وحدها على مدلول متشابه و عدم اشتمالها.

الثانى: أن لجميع القرآن محكمه و متشابهه تأويلا. و أن التأويل ليس من قبيل

المفاهيم اللفظية بل من الأمور الخارجيه نسبه إلى المعارف و المقاصد المبينه نسبه الممثل إلى المثال، و أن جميع المعارف القرآنيه أمثال مضروبه للتأويل الذى عند الله.

الثالث: أن التأويل يمكن أن يعلمه المطهرون و هم راسخون فى العلم.

الرابع: أن البيانات القرآنيه أمثال مضروبه لمعارفها و مقاصدها، و هذا المعنى غير ما ذكرناه فى الأمر الثانى من كون معارفه أمثالا و قد أوضحناه فيما مر.

الخامس: أن من الواجب أن يشتمل القرآن على المتشابهات، كما أن من الواجب أن يشتمل على المحكمات.

السادس: أن المحكمات أم الكتاب إليها ترجع المتشابهات رجوع بيان.

السابع: أن الأحكام و التشابه و صفان يقبلان الإضافة و الاختلاف بالجهات بمعنى أن آيه ما يمكن أن تكون محكمه من جهه، متشابهه من جهه أخرى فتكون محكمه بالإضافه إلى آيه و متشابهه بالإضافه إلى أخرى. و لا مصداق للمتشابه على الإطلاق فى القرآن، و لا مانع من وجود محكم على الإطلاق.

الثامن: أن من الواجب أن يفسر بعض القرآن بعضا.

التاسع: أن للقرآن مراتب مختلفه من المعنى، مترتبه طولاً من غير أن تكون الجميع فى عرض واحد فيلزم استعمال اللفظ فى أكثر من معنى واحد، أو مثل عموم المجاز، و لا هى من قبيل اللوازم المتعدده لملزوم واحد، بل هى معان مطابقيه يدل على كل واحد منها اللفظ بالمطابقه بحسب مراتب الأفهام.

و لتوضيح ذلك نقول: قال الله تبارك و تعالى: «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ»[□]: آل عمران- ١٠٢، فأنبأ أن للتقوى الذى هو الانتهاء عما نهى الله عنه و الايتمار بما أمر الله به مرتبه هى حق التقوى، و يعلم بذلك أن هناك من التقوى ما هو دون هذه المرتبه الحقه، فالتقوى الذى هو بوجه العمل الصالح مراتب و درجات بعضها فوق بعض.

و قال أيضا: «أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخِطٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَاؤَاهُ جَهَنَّمَ وَ بئْسَ الْمَصِيرُ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ»[□]: آل عمران- ١٦٣، فبين أن العمل مطلقا سواء كان صالحا أو طالحا درجات و مراتب، و الدليل على أن المراد بها

درجات العمل قوله: وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ، ونظير الآية قوله تعالى: «وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَ لِيُؤْفِقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ هُمْ لَا يُظَلَّمُونَ»: الأحقاف-١٩، وقوله تعالى: «وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ»: الأنعام-١٣٢، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وفيها ما يدل على أن درجات الجنة و درجات النار بحسب مراتب الأعمال و درجاتها.

و من المعلوم أن العمل من أى نوع كان هو من رشحات العلم يترشح من اعتقاد قلبى يناسبه، و قد استدل تعالى على كفر اليهود و على فساد ضمير المشركين و على نفاق المنافقين من المسلمين و على إيمان عده من الأنبياء و المؤمنين بأعمالهم و أفعالهم فى آيات كثيرة جدا يطول ذكرها، فالعمل كيف كان يلزم ما يناسبه من العلم و يدل عليه.

و بالعكس يستلزم كل نوع من العمل ما يناسبه من العلم و يحصله و يركزه فى النفس كما قال تعالى: «وَ الَّذِينَ جَاهِدُوا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ»: العنكبوت-٦٩، و قال تعالى: «وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ»: الحجر-٩٩، و قال أيضا: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ»: الروم-١٠، و قال: «فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ»: البراءة-٧٧، والآيات فى هذا المعنى أيضا كثيرة تدل الجميع على أن العمل صالحا كان أو طالحا يولد من أقسام المعارف و الجهالات (و هى العلوم المخالفه للحق ما يناسبه).

و قال تعالى- و هو كالكلمه الجامعه فى العمل الصالح و العلم النافع:- «إِلَيْهِ يَصِيَّعُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ»: الفاطر-١٠، فبين أن شأن الكلم الطيب و هو الاعتقاد الحق أن يصعد إلى الله تعالى و يقرب صاحبه منه، و شأن العمل الصالح أن يرفع هذا العلم و الاعتقاد. و من المعلوم أن ارتفاع العلم فى صعوده إنما هو بخلوصه من الشك و الريب و كمال توجه النفس إليه و عدم تقسيم القلب فيه و فى غيره (و هو مطلق الشرك) فكلما كمل خلوصه من الشك و الخطوات اشتد صعوده و ارتفاعه.

و لفظ الآية لا يخلو عن دلالة على ذلك فإنها عبرت فى الكلم الطيب بالصعود

و وصف العمل بالرفع، و الصعود يقابل النزول كما أن الرفع يقابل الوضع، و هما أعنى الصعود و الارتفاع و صفان يتصف بهما المتحرك من السفلى إلى العلو بنسبته إلى الجانبين فهو صاعد بالنظر إلى قصده العلو و اقترابه منه، و مرتفع من جهه انفصاله من السفلى و ابتعاده منه، فالعمل يبعد الإنسان و يفصله من الدنيا و الإخلاق إلى الأرض بصرف نفسه عن التعلق بزخارفها الشاغله و التشتت و التفرق بهذه المعلومات الفانيه غير الباقية و كلما زاد الرفع و الارتفاع زاد صعود الكلم الطيب، و خلصت المعرفة عن شوائب الأوهام و قذارات الشكوك، و من المعلوم أيضا كما مر: أن العمل الصالح ذو مراتب و درجات، فلكل درجة من العمل الصالح رفع الكلم الطيب و توليد العلوم و المعارف الحقه الإلهيه على ما يناسب حالها. و الكلام فى العمل الطالح و وضعه الإنسان نظير الكلام فى العمل الصالح و رفعه و قد مر بعض الكلام فى ذلك فى تفسير قوله تعالى: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» الحمد-٦.

فظهر أن للناس بحسب مراتب قربهم و بعدهم منه تعالى مراتب مختلفه من العمل و العلم، و لازمه أن يكون ما يتلقاه أهل واحده من المراتب و الدرجات غير ما يتلقاه أهل المرتبه و الدرجه الأخرى التى فوق هذه أو تحتها، فقد تبين أن للقرآن معانى مختلفه مترتبه.

و قد ذكر الله سبحانه أصنافا من عباده و خص كل صنف بنوع من العلم و المعرفة لا يوجد فى الصنف الآخر كالمخلصين و خص بهم العلم بأوصاف ربهم حق العلم، قال تعالى:

«سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ إِلَّا لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ» :الصفات-١٦٠، و خص بهم أشياء أخر من المعرفة و العلم سيجىء بيانها إن شاء الله تعالى، و كالموقنين و خص بهم مشاهدته ملكوت السماوات و الأرض قال تعالى: «وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» :الأنعام-٧٥، و كالمبشرين و خص بهم التذكرة، قال تعالى: «وَ مَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ» :المؤمن-١٣، و كالعالمين و خص بهم عقل أمثال القرآن، قال تعالى: «وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُصْرِهِمُ لِلنَّاسِ وَ مَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ» :العنكبوت-٤٣، و كأنهم أولوا الأبواب و المتدبرون لقوله تعالى: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» :محمد ص-٢٤، و لقوله تعالى: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» :النساء-٨٢، فإن مؤدى الآيات

الثلاث يرجع إلى معنى واحد وهو العلم بمتشابه القرآن و رده إلى محكمه،و كالمطهرين خصهم الله بعلم تأويل الكتاب قال تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» :الواقعه-٧٩،و كالأولياء و هم أهل الوله و المحبه لله و خص بهم أنهم لا يلتفتون إلى شىء إلا الله سبحانه و لذلك لا يخافون شيئا و لا يحزنون لشىء، قال تعالى: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ» :يونس-٦٢،و كالمقربين و المجتبيين و الصديقين و الصالحين و المؤمنين و لكل منهم خواص من العلم و الإدراك يختصون بها،سنبحت عنها فى المحال المناسبه لها.

و نظير هذه المقامات الحسنه مقامات سوء فى مقابلها،و لها خواص رديئه فى باب العلم و المعرفه،و لها أصحاب كالكافرين و المنافقين و الفاسقين و الظالمين و غيرهم، و لهم أنصباء من سوء الفهم و رداءه الإدراك لآيات الله و معارفه الحقه،طوينا ذكرها إيثارا للاختصار،و سنتعرض لها فى خلال أبحاث هذا الكتاب إن شاء الله.

العاشر: أن للقرآن اتساعا من حيث انطباقه على المصاديق و بيان حالها فالآيه منه لا يختص بمورد نزولها بل يجرى فى كل مورد يتحد مع مورد النزول ملاكا كالأمثال التى لا تختص بمواردها الأول،بل تتعداها إلى ما يناسبها،و هذا المعنى هو المسمى بجرى القرآن،و قد مر بعض الكلام فيه فى أوائل الكتاب.

بحث روائى

فى تفسير العياشى،: سئل أبو عبد الله(ع)عن المحكم و المتشابه قال:المحكم ما يعمل به و المتشابه ما اشتبه على جاهه.

أقول:و فيه تلويح إلى أن المتشابه مما يمكن العلم به.

و فيه،أيضا عنه(ع): أن القرآن محكم و متشابه:فأما المحكم فتؤمن به و تعمل به و تدین،و أما المتشابه فتؤمن به و لا تعمل به،و هو قول الله عز و جل:

فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ-وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ-كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا

و الراسخون فى العلم هم آل محمد.

أقول: وسيجيء كلام في معنى قوله (ع): والراسخون في العلم هم آل محمد.

و فيه، أيضا عن مسعده بن صدقه قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن الناسخ و المنسوخ -و المحكم و المتشابه قال: الناسخ الثابت المعمول به، و المنسوخ ما قد كان يعمل به ثم جاء ما نسخه، و المتشابه ما اشتبه على جاهه.

قال: و في روايه: الناسخ الثابت، و المنسوخ ما مضى، و المحكم ما يعمل به، و المتشابه ما يشبه بعضه بعضا.

و في الكافي، عن الباقر (ع) في حديث قال: فالمنسوخات من المتشابهات

و في العيون، عن الرضا (ع): من رد متشابه القرآن إلى محكمه هدى إلى صراط مستقيم. ثم قال إن في أخبارنا متشابهات كمتشابه القرآن، فردوا متشابهها إلى محكمها، و لا تتبعوا متشابهها فتضلوا.

أقول: الأخبار كما ترى متقاربه في تفسير المتشابه، و هي تؤيد ما ذكرناه في البيان السابق: أن التشابه يقبل الارتفاع، و أنه إنما يرتفع بتفسير المحكم له. و أما كون المنسوخات من المتشابهات فهو كذلك كما تقدم و وجه تشابهها ما يظهر منها من استمرار الحكم و بقائه، و يفسره الناسخ ببيان أن استمراره مقطوع. و أما ما ذكره (ع) في خبر العيون: أن في أخبارنا متشابهات كمتشابه القرآن و محكما كحكم القرآن، فقد وردت في هذا المعنى عنهم (ع) روايات مستفيضه، و الاعتبار يساعده فإن الأخبار لا تشمل إلا على ما اشتمل عليه القرآن الشريف، و لا تبين إلا ما تعرض له و قد عرفت فيما مر: أن التشابه من أوصاف المعنى الذي يدل عليه اللفظ و هو كونه بحيث يقبل الانطباق على المقصود و على غيره لا- من أوصاف اللفظ من حيث دلالته على المعنى نظير الغرابه و الإجمال، و لا من أوصاف أعم من اللفظ و المعنى.

و بعبارة أخرى: إنما عرض التشابه لما عرض عليه من الآيات لكون بياناتها جاريه مجرى الأمثال بالنسبه إلى المعارف الحقه الإلهيه، و هذا المعنى بعينه موجود في الأخبار ففيها متشابه و محكم كما في القرآن،

و قد ورد عن النبي ص أنه قال: إنا معاشر الأنبياء نكلم الناس على قدر عقولهم

و في تفسير العياشي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه (ع): أن رجلا قال لأمير المؤمنين (ع): هل تصف لنا ربنا نزداد له حبا و معرفه؟ فغضب و خطب

الناس فقال فيما قال-عليك يا عبد الله بما ذلك عليه القرآن من صفته" و تقدمك فيه الرسول من معرفته، و استضى من نور هدايته-فإنما هي نعمه و حكمه أوتيتها، فخذ ما أوتيت و كن من الشاكرين، و ما كلفك الشيطان عليه مما ليس عليك في الكتاب فرضه، و لا في سنه الرسول و أئمة الهدى أمره فكل علمه إلى الله، و لا تقدر عظمه الله و اعلم يا عبد الله: أن الراسخين في العلم-الذين اختارهم الله عن الاقتحام-في السدد المضروبه دون الغيوب-فلزموا الإقرار بجمله ما جهلوا تفسيره-من الغيب المحجوب، فقالوا آمنة به كل من عند ربنا، و قد مدح الله اعترافهم بالعجز-عن تناول ما لم يحيطوا به علما، و سمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عنه-منهم رسوخا فاقصر على ذلك-و لا تقدر عظمه الله على قدر عقلك فتكون من الهالكين.

أقول: قوله(ع): و اعلم يا عبد الله أن الراسخين في العلم إلخ ظاهر في أنه(ع) أخذ الواو في قوله تعالى: **وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ**، للاستيناف دون العطف كما استظهرناه من الآيه و مقتضى ذلك أن ظهور الآيه لا يساعد على كون الراسخين في العلم عالمين بتأويله، لا- أنه يساعد على عدم إمكان علمهم به، فلا ينافي وجود بيان آخر يدل عليه كما تقدم بيانه و هو ظاهر بعض الأخبار عن أئمة أهل البيت كما سيأتى. و قوله(ع):

الذين أغناهم الله عن الاقتحام في السدد المضروبه دون الغيوب، خبر أن، و الكلام ظاهر في تحضيض المخاطب و ترغيبه أن يلزم طريقه الراسخين في العلم بالا-عتراف بالجهل فيما جهله فيكون منهم، و هذا دليل على تفسيره(ع) الراسخين في العلم بمطلق من لزم ما علمه و لم يتعد إلى ما جهله. و المراد بالغيوب المحجوبه بالسدد: المعانى المراده بالمتشابهات المخفيه عن الأفهام العامه و لذا أردفه بقوله ثانيا: فلزموا الإقرار بجمله ما جهلوا تفسيره، و لم يقل بجمله ما جهلوا تأويله فافهم.

و في الكافي، عن الصادق(ع): نحن الراسخون في العلم و نحن نعلم تأويله.

أقول: و الروايه لا- تخلو عن ظهور في كون قوله تعالى و الراسخون في العلم، معطوفا على المستثنى في قوله: **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ** لكن هذا الظهور يرتفع بما مر من البيان و ما تقدم من الروايه، و لا يبعد كل البعد أن يكون المراد بالتأويل هو المعنى المراد بالمتشابه فإن هذا المعنى من التأويل المساوق لتفسير المتشابه كان شائعا في الصدر الأول بين الناس.

و أما قوله (ع): نحن الراسخون في العلم، وقد تقدم

في روايه للعايشي عن الصادق (ع) قوله: و الراسخون في العلم هم آل محمد، و هذه الجملة مرويه في روايات آخر أيضا فجميع ذلك من باب الجري و الانطباق كما يشهد بذلك ما تقدم و يأتي من الروايات.

و في الكافي، أيضا عن هشام بن الحكم قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر (ع) إلى أن قال: يا هشام إن الله حكى عن قوم صالحين: أنهم قالوا: رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا - وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ، علموا أن القلوب تزيغ و تعود إلى عماها و رداها، إنه لم يخف الله من لم يعقل عن الله، و من لم يعقل عن الله - لم يعقد قلبه على معرفه ثابتة ينظرها - و يجد حقيقتها في قلبه، و لا - يكون أحد كذلك إلا - من كان قوله لفعله مصدقا، و سره لعلانيته موافقا، لأن الله عز اسمه لم يدل على الباطن الخفي من العقل - إلا بظاهر منه و ناطق عنه.

أقول: قوله (ع): لم يخف الله من لم يعقل عن الله، في معنى قوله تعالى:

« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »، و قوله (ع): و من لم يعقل عن الله «إلخ» أحسن بيان لمعنى الرسوخ في العلم لأن الأمر ما لم يعقل حق التعقل لم ينسد طرق الاحتمالات فيه، و لم يزل القلب مضطربا في الإذعان به و إذا تم التعقل و عقد القلب عليه لم يخالفه باتباع ما يخالفه من الهوى فكان ما في قلبه هو الظاهر في جوارحه و كان ما يقوله هو الذي يفعله، و قوله: و لا يكون أحد كذلك إلخ بيان لعلامه الرسوخ في العلم.

و في الدر المنثور، أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و الطبراني عن أنس و أبي أمامه و وائله بن أسقف و أبي الدرداء: أن رسول الله ص سئل عن الراسخين في العلم فقال: من برت يمينه و صدق لسانه و استقام قلبه، و من عف بطنه و فرجه فذلك من الراسخين في العلم.

أقول: و يمكن توجيه الروايه بما يرجع إلى معنى الحديث السابق.

و في الكافي، عن الباقر (ع): أن الراسخين في العلم من لا يختلف في علمه.

أقول: و هو منطبق على الآيه، فإن الراسخين في العلم قوبل به فيها قوله:

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ

، فيكون رسوخ العلم عدم اختلاف العالم و ارتيابه.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى شيبه و أحمد و الترمذى و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه عن أم سلمه: أن رسول الله كان يكثر فى دعائه أن يقول-اللهم مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك. قلت: يا رسول الله و إن القلوب لتتقلب؟ قال نعم ما خلق الله من بشر من بنى آدم-إلا و قلبه بين إصبعين من أصابع الله-فإن شاء أقامه، و إن شاء أزاغه، الحديث.

أقول: و روى هذا المعنى بطرق عديده عن عده من الصحابه كجابر و نواس بن شمعان و عبد الله بن عمر و أبى هريره، و المشهور فى هذا الباب ما فى حديث نواس:

قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن. و قد روى اللفظه (فيما أظن) الشريف الرضى فى المجازات النبويه.

و روى عن على (ع): أنه قيل له. هل عندكم شىء من الوحي؟ قال: لا و الذى فلق الحبه و برأ النسمة-إلا أن يعطى الله عبدا فهما فى كتابه.

أقول: و هو من غرر الأحاديث، و أقل ما يدل عليه: أن ما نقل من أعاجيب المعارف الصادره عن مقامه العلمى الذى يدهش العقول مأخوذ من القرآن الكريم.

و الكافى، عن الصادق عن أبيه عن آبائه (ع) قال: قال رسول الله ص: يا أيها الناس إنكم فى دار هденه، و أنتم على ظهر سفر، و السير بكم سريع، و قد رأيتم الليل و النهار-و الشمس و القمر يبليان كل جديد، و يقربان كل بعيد، و يأتيان بكل موعود، فأعدوا الجهاز لبعء المجاز، قال: فقام المقداد بن الأسود فقال: يا رسول الله و ما دار الهدنه؟ فقال: دار بلاغ و انقطاع، فإذا التبتت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع، و ماحل مصدق، و من جعله أمامه قاده إلى الجنه، و من جعله خلفه ساقه إلى النار، و هو الدليل يدل على خير سبيل، و هو كتاب فيه تفصيل و بيان و تحصيل، و هو الفصل ليس بالهزل، و له ظهر و بطن، فظاهره حكم و باطنه علم، ظاهره أنيق و باطنه عميق، له تخوم و على تخومه تخوم، لا تحصى عجائبه، و لا تبلى غرائبها، فيه مصابيح الهدى، و منار الحكمه، و دليل على معرفه لمن عرف الصفه، فليجل جال بصره، و ليبلغ الصفه نظره، ينبج من عطب، و يخلص من نشب، فإن التفكر حيوه قلب البصير، كما يمشى المستتير فى الظلمات، فعليكم بحسن التخلص، و قله التربص.

أقول: ورواه العياشى فى تفسيره إلى قوله: فليجل جال.

و فى الكافى، و تفسير العياشى، أيضا عن الصادق (ع) قال: قال رسول الله ص:

القرآن هدى من الضلاله، و تبيان من العمى، و استقاله من العثره، و نور من الظلمه، و ضياء من الأحداث، و عصمه من الهلكه، و رشد من الغوايه، و بيان من الفتن، و بلاغ من الدنيا إلى الآخره، و فيه كمال دينكم، و ما عدل أحد من القرآن إلا إلى النار.

أقول: و الروايات فى هذا المساق كثيره عن النبى ص و الأئمه من أهل بيته (ع).

و فى تفسير العياشى، عن الفضيل بن يسار قال: سألت أبا جعفر (ع) عن هذه الروايه: ما فى القرآن آيه إلا و لها ظهر و بطن، و ما فيه حرف إلا- و له حد و لكل حد مطلع، ما يعنى بقوله: ظهر و بطن؟ قال: ظهره تنزيله و بطنه تأويله، منه ما مضى و منه ما لم يكن بعد، يجرى كما يجرى الشمس و القمر، كلما جاء منه شىء وقع، قال الله: و ما يعلم تأويله- إلا الله و الراسخون فى العلم، نحن نعلمه.

أقول: الروايه المنقوله فى ضمن الروايه هى ما روته الجماعه عن النبى ص بألفاظ مختلفه و إن كان المعنى واحدا كما

فى تفسير الصافى، عن النبى ص: إن للقرآن ظهرا و بطنا و حدا و مطالعا.

و فيه، عنه (ص) أيضا: أن للقرآن ظهرا و بطنا و لبطنه بطنا إلى سبعة أبطن.

و

قوله (ع) منه ما مضى و منه ما يأتى، ظاهره رجوع الضمير إلى القرآن باعتبار اشتماله على التنزيل و التأويل فقوله: يجرى كما يجرى الشمس و القمر يجرى فيهما معا، فينطبق فى التنزيل على الجرى الذى اصطلح عليه الأخبار فى انطباق الكلام بمعناه على المصداق كانطباق قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: التوبه- ١٢٠، على كل طائفه من المؤمنين الموجودين فى الأعصار المتأخره عن زمان نزول الآيه، و هذا نوع من الانطباق، و كانطباق آيات الجهاد على جهاد النفس، و انطباق آيات المنافقين على الفاسقين من المؤمنين، و هذا نوع آخر من الانطباق أدق من الأول، و كانطباقها و انطباق آيات المذنبين على أهل المراقبه و الذكر و الحضور فى تفصيرهم و مساهلتهم فى ذكر الله تعالى، و هذا نوع آخر أدق من ما تقدمه، و كانطباقها عليهم

ص: ٧٢

فى قصورهم الذاتى عن أداء حق الربوبية، و هذا نوع آخر أدق من الجميع.

و من هنا يظهر أولاً أن للقرآن مراتب من المعانى المراده بحسب مراتب أهله و مقاماتهم، و قد صور الباحثون عن مقامات الإيمان و الولايه من معانيه ما هو أدق مما ذكرناه.

و ثانياً: أن الظهر و البطن أمران نسيان، فكل ظهر بطن بالنسبه إلى ظهره و بالعكس كما يظهر من الروايه التاليه.

و فى تفسير العياشى، عن جابر قال: سألت أبا جعفر (ع) عن شىء من تفسير القرآن - فأجابنى ثم سألته ثانيه فأجابنى بجواب آخر، فقلت جعلت فداك - كنت أجبت فى المسأله بجواب غير هذا قبل اليوم! فقال: يا جابر إن للقرآن بطناً و للبطن بطن، و ظهراً و للظهر ظهر، يا جابر و ليس شىء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إن الآيه تكون أولها فى شىء - و أوسطها فى شىء و آخرها فى شىء - و هو كلام متصل ينصرف على وجوه.

و فيه، أيضاً عنه (ع) فى حديث قال: و لو أن الآيه إذا نزلت فى قوم - ثم مات أولئك القوم ماتت الآيه لما بقى من القرآن شىء، و لكن القرآن يجرى أوله على آخره - ما دامت السماوات و الأرض - و لكل قوم آيه يتلونها هم منها من خير أو شر.

و فى المعانى، عن حمزان بن أعين قال: سألت أبا جعفر (ع) عن ظهر القرآن و بطنه فقال: ظهره الذين نزل فيهم القرآن، و بطنه الذين عملوا بأعمالهم، يجرى فيهم ما نزل فى أولئك

و فى تفسير الصافى، عن على (ع): ما من آيه إلا - و لها أربعة معان: ظاهر و باطن و حد و مطلع، فالظاهر التلاوه، و الباطن الفهم، و الحد هو أحكام الحلال و الحرام، و المطلع هو مراد الله من العبد بها.

أقول: المراد بالتلاوه ظاهر مدلول اللفظ بدليل أنه (ع) عدده من المعانى، فالمراد بالفهم فى تفسيره الباطن ما هو فى باطن الظاهر من المعنى، و المراد بقوله: هو أحكام الحلال و الحرام ظاهر المعارف المتلقاه من القرآن فى أوائل المراتب أو أواسطها فى مقابل المطلع الذى هو المرتبه العليا، و الحد و المطلع نسيان كما أن الظاهر و الباطن

نسيان كما عرفت فيما تقدم، فكل مرتبه عليا هي مطلع بالنسبه إلى السفلى.

و المطلع إما بضم الميم و تشديد الطاء و فتح اللام اسم مكان من الاطلاع، أو بفتح الميم و اللام و سكون الطاء اسم مكان من الطلوع، و هو مراد الله من العبد بها كما ذكره (ع).

و قد ورد هذه الأمور الأربعة

فى النبوى المعروف هكذا: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، لكل آيه منها ظهر و بطن و لكن حد مطلع.

و فى روايه: و لكل حد و مطلع.

و معنى

قوله (ص): و لكل حد مطلع على ما فى إحدى الروايتين: أن لكل واحد من الظهر و البطن الذى هو حد مطلع يشرف عليه، هذا هو الظاهر، و يمكن أن يرجع إليه ما فى الروايه الأخرى: و لكل حد و مطلع بأن يكون المعنى: و لكل منهما حد هو نفسه و مطلع و هو ما ينتهى إليه الحد فيشرف على التأويل، لكن هذا لا يلائم ظاهرا ما فى روايه على (ع): ما من آيه إلا و لها أربعة معان «إلخ» إلا أن يراد أن لها أربعة اعتبارات من المعنى و إن كان ربما انطبق بعضها على بعض.

و على هذا فالمتحصل من معانى الأمور الأربعة: أن الظهر هو المعنى الظاهر البادئ من الآيه، و الباطن هو الذى تحت الظاهر سواء كان واحدا أو كثيرا، قريبا منه أو بعيدا بينهما واسطه، و الحد هو نفس المعنى سواء كان ظهرا أو بطنا و المطلع هو المعنى الذى طلع منه الحد و هو بطنه متصلا به فافهم.

و فى الحديث المروى من طرق الفريقين عن النبى ص: أنزل القرآن على سبعة أحرف.

أقول: و الحديث و إن كان مرويا باختلاف ما فى لفظه، لكن معناها مروى مستفيضا و الروايات متقاربه معنى، روتها العامه و الخاصه. و قد اختلف فى معنى الحديث اختلافا شديدا ربما أنهى إلى أربعين قولاً، و الذى يهون الخطب أن فى نفس الأخبار تفسيراً لهذه السبعه الأحرف، و عليه التعويل.

ففى بعض الأخبار: نزل القرآن على سبعة أحرف - أمر و زجر و ترغيب و ترهيب و جدل و قصص و مثل ،

و فى بعضها: زجر و أمر و حلال و حرام و محكم و متشابه و أمثال.

و عن علي(ع): أن الله أنزل القرآن على سبعة أقسام، كل منها كاف شاف، و هي أمر و زجر و ترغيب-و تهيب و جدل و مثل و قصص.

فالمتعين حمل السبعة الأحراف على أقسام الخطاب و أنواع البيان و هي سبعة على وحدتها في الدعوه إلى الله و إلى صراطه المستقيم،و يمكن أن يستفاد من هذه الروايه حصر أصول المعارف الإلهيه في الأمثال فإن بقيه السبعة لا تلائمها إلا بنوع من العناية على ما لا يخفى.

بحث آخر روائي [في المراد من تفسير القرآن بالرأى و ما هو حق التفسير]

في الصافي،عن النبي ص: من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار أقول:و هذا المعنى رواه الفريقان،و في معناه أحاديث أخر رووه عن النبي ص و أئمه أهل البيت(ع).

٧٥ و في منيه المرید،عن النبي ص قال: من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار. أقول:و رواه أبو داود في سننه.

٧٥ و فيه،عنه(ص)قال: من قال في القرآن بغير علم-جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار.

٧٥ و فيه،عنه(ص)قال: من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ.

أقول:و رواه أبو داود و الترمذی و النسائی.

٧٥ و فيه،عنه(ص)قال: أكثر ما أخاف على أمتي من بعدى-رجل يناول القرآن يضعه على غير مواضعه.

٧٥ و في تفسير العياشى،عن أبي بصير عن أبي عبد الله(ع)قال: من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر-و إن أخطأ فهو أبعد من السماء.

٧٥ و فيه،عن يعقوب بن يزيد عن ياسر عن الرضا(ع)قال: الرأى في كتاب الله كفر.

أقول: وفي معناها روايات أخر مرويه في العيون و الخصال و تفسير العياشى و غيرها.

قوله (ص): من فسر القرآن برأيه، الرأى هو الاعتقاد عن اجتهاد و ربما أطلق على القول عن الهوى و الاستحسان و كيف كان لما ورد قوله: برأيه مع الإضافه إلى الضمير علم منه أن ليس المراد به النهى عن الاجتهاد المطلق في تفسير القرآن حتى يكون بالملازمه أمرا بالاتباع و الاقتصار بما ورد من الروايات في تفسير الآيات عن النبى و أهل بيته صلى الله عليه و عليهم على ما يراه أهل الحديث، على أنه ينافى الآيات الكثيره الداله على كون القرآن عربيا مبينا، و الأمره بالتدبر فيه، و كذا ينافى الروايات الكثيره الأمره بالرجوع إلى القرآن و عرض الأخبار عليه.

بل الإضافه في قوله: برأيه تفيد معنى الاختصاص و الانفرد و الاستقلال بأن يستقل المفسر في تفسير القرآن بما عنده من الأسباب في فهم الكلام العربى، فيقيس كلامه تعالى بكلام الناس فإن قطعه من الكلام من أى متكلم إذا ورد علينا لم نلبث دون أن نعمل فيه القواعد المعموله في كشف المراد الكلامى و نحكم بذلك: أنه أراد كذا كما نجرى عليه في الأقارير و الشهادات و غيرهما، كل ذلك لكون بياننا مبني على ما نعلمه من اللغة و نعهد من مصاديق الكلمات حقيقه و مجازا.

و البيان القرآنى غير جار هذا المجرى على ما تقدم بيانه في الأبحاث السابقه بل هو كلام موصول بعضها ببعض في عين أنه مفصول ينطق بعضه ببعض و يشهد بعضه على بعض كما قاله على (ع) فلا- يكفى ما يتحصل من آيه واحده بإعمال القواعد المقرره في العلوم المربوطه في انكشاف المعنى المراد منها دون أن يتعاهد جميع الآيات المناسبه لها و يجتهد في التدبر فيها كما يظهر من قوله تعالى: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» النساء- ٨٢، و قد مر بيانه في الكلام على الإيجاز و غيره.

فالتفسير بالرأى المنهى عنه أمر راجع إلى طريق الكشف دون المكشوف و بعباره أخرى إنما نهى (ع) عن تفهم كلامه على نحو ما يتفهم به كلام غيره و إن كان هذا النحو من التفهم ربما صادف الواقع، و الدليل على ذلك

قوله (ص) في الروايه الأخرى: من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ- فإن الحكم بالخطأ مع فرض الإصابه- ليس إلا

قوله(ع)في حديث العياشى: إن أصاب لم يؤجر.

و يؤيده ما كان عليه الأمر في زمن النبي ص فإن القرآن لم يكن مؤلفا بعد و لم يكن منه إلا سور أو آيات متفرقة في أيدي الناس فكان في تفسير كل قطعه قطعه منه خطر الوقوع في خلاف المراد.

و المحصل:أن المنهى عنه إنما هو الاستقلال في تفسير القرآن و اعتماد المفسر على نفسه من غير رجوع إلى غيره،و لانه وجوب الاستمداد من الغير بالرجوع إليه، و هذا الغير لا- محاله إما هو الكتاب أو السنه،و كونه هي السنه يناهى القرآن و نفس السنه الأمره بالرجوع إليه و عرض الأخبار عليه،فلا يبقى للرجوع إليه و الاستعداد منه في تفسير القرآن إلا نفس القرآن.

و من هنا يظهر حال ما فسروا به حديث التفسير بالرأى فقد تشتتوا في معناه على أقوال:

أحدها:أن المراد به التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير، و هي خمسة عشر علما على ما أنهاء السيوطى في الإتيقان:اللغه،و النحو،و التصريف، و الاشتقاق،و المعانى،و البيان،و البديع،و القراءه،و أصول الدين،و أصول الفقه، و أسباب النزول و كذا القصص،و الناسخ و المنسوخ،و الفقه،و الأحاديث المبينه لتفسير المجملات و المبهمات،و علم الموهبه،و يعنى بالأخير ما أشار إليه

الحديث النبوى:

من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم.

الثانى:أن المراد به تفسير المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله.

الثالث:التفسير المقرر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلا و التفسير تبعا فيرد إليه بأى طريق أمكن و إن كان ضعيفا.

الرابع:التفسير بأن مراد الله تعالى كذا على القطع من غير دليل.

الخامس:التفسير بالاستحسان و الهوى:و هذه الوجوه الخمسه نقلها ابن النقيب على ما ذكره السيوطى في الإتيقان،و هنا وجوه آخر نتبعها بها.

السادس:أن المراد به هو القول في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذاهب

الأوائل من الصحابه و التابعين ففيه تعرض لسخط الله تعالى.

السابع: القول فى القرآن بما يعلم أن الحق غيره، نقلهما ابن الأنبارى.

الثامن: أن المراد به القول فى القرآن بغير علم و ثبت، سواء علم أن الحق خلافه أم لا.

التاسع: هو الأخذ بظاهر القرآن بناء على أنه لا- ظهور له بل يتبع فى مورد الآيه النص الوارد عن المعصوم، و ليس ذلك تفسيرا للآيه بل اتباعا للنص، و يكون التفسير على هذا من الشئون الموقوفه على المعصوم.

العاشر: أنه الأخذ بظاهر القرآن بناء على أن له ظهورا لا نفهمه بل المتبع فى تفسير الآيه هو النص عن المعصوم.

فهذه وجوه عشره، و ربما أمكن إرجاع بعضها إلى بعض، و كيف كان فهى وجوه خاليه عن الدليل، على أن بعضها ظاهر البطلان أو يظهر بطلانه بما تقدم فى المباحث السابقه، فلا نطيل بالتكرار.

و بالجمله فالمتحصل من الروايات و الآيات التى تؤيدها كقوله تعالى: **أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ** الْقُرْآنَ الْآيَهُ، و قوله تعالى: **«الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ»**: الحجر- ٩١، و قوله تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» X الآيه X: حم السجده- ٤٠، و قوله تعالى: **«يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، النِّسَاء- ٤٦، و قوله تعالى: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ»**: إسرائ- ٣٦، إلى غير ذلك أن النهى فى الروايات إنما هو متوجه إلى الطريق و هو أن يسلك فى تفسير كلامه تعالى الطريق المسلوک فى تفسير كلام غيره من المخلوقين.

و ليس اختلاف كلامه تعالى مع كلام غيره فى نحو استعمال الألفاظ و سرد الجمل و إعمال الصناعات اللفظيه فإنما هو كلام عربى روعى فيه جميع ما يراعى فى كلام عربى و قد قال تعالى: **«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِنُذِرَ قَوْمَهُ لِيُنَبِّئَهُمْ»**: إبراهيم- ٤، و قال تعالى: **«وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ»**: النحل- ١٠٣، و قال تعالى: **«إِنَّا جَعَلْنَا قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»**: الزخرف- ٣.

و إنما الاختلاف من جهة المراد و المصداق الذى ينطبق عليه مفهوم الكلام.

توضيح ذلك أنا من جهة تعلق وجودنا بالطبيعة الجسمانية و قوتونا المعجل في الدنيا المادية ألفنا من كل معنى مصداقه المادى، و اعتدنا بالأجسام و الجسمانيات فإذا سمعنا كلام واحد من الناس الذين هم أمثالنا يحكى عن حال أمر من الأمور و فهمنا منه معناه حملناه على ما هو المعهود عندنا من المصداق و النظام الحاكم فيه لعلنا بأنه لا يعنى إلا ذلك لكونه مثلنا لا يشعر إلا بذلك، و عند ذلك يعود النظام الحاكم فى المصداق يحكم فى المفهوم فر بما خصص به العام أو عمم به الخاص أو تصرف فى المفهوم بأى تصرف آخر و هو الذى نسميه بتصرف القرائن العقلية غير اللفظية.

مثال ذلك أنا إذا سمعنا عزيزا من أعزتنا ذا سؤدد و ثروه يقول: **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ**، و تعقلنا مفهوم الكلام و معانى مفرداته حكمنا فى مرحله التطبيق على المصداق: أن له أبنيه محصوره حصينه تسع شيئا كثيرا من المظروفات فإن الخزانة هكذا تتخذ إذا اتخذت، و أن له فيها مقدارا و فرا من الذهب و الفضة و الورق و الأثاث و الزينه و السلاح، فإن هذه الأمور هى التى يمكن أن تخزن عندنا و تحفظ حفظا، و أما الأرض و السماء و البر و البحر و الكوكب و الإنسان فهى و إن كانت أشياء لكنها لا تخزن و لا- تتراكم، و لذلك نحكم بأن المراد من الشىء بعض من أفراده غير المحصوره، و كذا من الخزائن قليل من كثير فقد عاد النظام الموجود فى المصداق و هو أن كثيرا من الأشياء لا يخزن، و أن ما يخزن منها إنما يخترن فى بناء حصين مأمون عن الغيلة و الغاره أوجب تقييدا عجيبا فى إطلاق مفهوم الشىء و الخزائن.

ثم إذا سمعنا الله تعالى ينزل على رسوله قوله: **«وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ»**: الحجر- ٢١، فإن لم يرق أذهاننا عن مستواها الساذج الأولى فسرنا كلامه بعين ما فسرنا به كلام الواحد من الناس مع أنه لا دليل لنا على ذلك البتة فهو تفسير بما نراه من غير علم.

و إن رقت أذهاننا عن ذلك قليلا، و أذعنا بأنه تعالى لا يخزن المال و خاصه إذا سمعناه تعالى يقول فى ذيل الآية: **«وَ مَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**، و يقول أيضا: **«وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْلَبْنَا بِهِ الْأَرْضَ بِغَيْرِ مَوْنِهَا»**: الجاثية- ٥، حكمنا بأن المراد بالشىء الرزق من الخبز و الماء و أن المراد بنزوله نزول المطر لأننا لا نشعر بشىء ينزل من السماء غير المطر فاخترنا كل شىء عند الله ثم نزوله بالقدر كناية عن اختزان المطر

و نزوله لتهيئه المواد الغذائية. و هذا أيضا تفسير بما نراه من غير علم إذا لا- مستند له إلا- أنا لا نعلم شيئا ينزل من السماء غير المطر، و الذى بأيدينا هاهنا عدم العلم دون العلم بالعدم.

و إن تعالينا عن هذا المستوى أيضا و اجتنبنا ما فيه من القول فى القرآن بغير علم و أبقينا الكلام على إطلاقه التام، و حكمنا أن قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا- عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ، يبين أمر الخلقه غير أنا لما كنا لا نشك فى أن ما نجده من الأشياء المتجدده بالخلقه كالإنسان و الحيوان و النبات و غيرها لا تنزل من السماء، و إنما تحدث حدودا فى الأرض حكمنا بأن قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ، كناية عن مطاوعه الأشياء فى وجودها لإرادة الله تعالى، و أن الإراده بمنزله مخزن يختزن فيه جميع الأشياء المخلوقه و إنما يخرج منه و ينزل من عنده تعالى ما يتعلق به مشيئه تعالى، و هذا أيضا كما ترى تفسير للآيه بما نراه من غير علم، إذا لا مستند لنا فيه سوى أنا نجد الأشياء غير نازله من عند الله بالمعنى الذى نعهده من النزول، و لا علم لنا بغيره.

و إذا تأملت ما وصفه الله تعالى فى كتابه من أسماء ذاته و صفاته و أفعاله و ملائكته و كتبه و رسله و قيامه و ما يتعلق بها، و حكم أحكامه و ملاكاتها، و تأملت ما نرومه فى تفسيرها من إعمال القرائن العقلية و جدت أن ذلك كله من قبيل التفسير بالرأى من غير علم، و تحريف لكلمه عن مواضعها.

و قد تقدم فى الفصل الخامس من البحث فى المحكم و المتشابه أن البيانات القرآنيه بالنسبه إلى المعارف الإلهيه كالأمثال أو هى أمثال بالنسبه إلى ممثلاتها. و قد فرقت فى الآيات المتفرقه، و بينت بيانات مختلفه ليتبين ببعض الآيات ما يمكن أن يختفى معناه فى بعض، و لذلك كان بعضها شاهدا على البعض، و الآيه مفسره للآيه، و لو لا- ذلك لاختل أمر المعارف الإلهيه فى حقائقها، و لم يمكن التخلص فى تفسير الآيه من القول بغير علم على ما تقدم بيانه.

و من هنا يظهر: أن التفسير بالرأى كما بيناه لا يخلو عن القول بغير علم كما يشير

الحديث النبوى السابق: من قال فى القرآن بغير علم- فليتبوأ مقعده من النار.

و من هنا يظهر أيضا أن ذلك يؤدى إلى ظهور التنافى بين الآيات القرآنيه من حيث إبطاله الترتيب المعنوى الموجود فى مضامينها فيؤدى إلى وقوع الآيه فى غير

موقعها، و وضع الكلمه فى غير موضعها. و يلزمها تأويل بعض القرآن أو أكثر آياتها بصرفها عن ظاهرها كما يتأول المجبره آيات الاختيار و المفوضه آيات القدر، و غالب المذاهب فى الإسلام لا يخلو عن التأول فى الآيات القرآنيه و هى الآيات التى لا يوافق ظاهرها مذهبهم، فيتشبهون فى ذلك بذيل التأويل استنادا إلى القرينه العقليه، و هو قولهم: إن الظاهر الفلانى قد ثبت خلافه عند العقل فيجب صرف الكلام عنه.

و بالجمله يؤدى ذلك إلى اختلاط الآيات بعضها ببعض بطلان ترتيبها، و دفع مقاصد بعضها ببعض، و يبطل بذلك المرادان جميعا إذ لا- اختلاف فى القرآن فظهور الاختلاف بين الآيات- بعضها مع بعض- ليس إلا لاختلال الأمر و اختلاط المراد فيهما معا.

و هذا هو الذى ورد التعبير عنه فى الروايات بضرب بعض القرآن ببعض كما فى الروايات التاليه:

فى الكافى، و تفسير العياشى، عن الصادق عن أبيه (ع) قال: ما ضرب رجل من القرآن بعضه ببعض إلا كفر.

و فى المعانى، و المحاسن، مسندا و فى تفسير العياشى، عن الصادق (ع): ما ضرب رجل من القرآن بعضه ببعض إلا كفر.

قال الصدوق: " سألت ابن الوليد عن معنى هذا الحديث فقال: هو أن تجيب الرجل فى تفسير آيه بتفسير آيه أخرى.

أقول: ما أجاب به لا يخلو عن إبهام، فإن أراد به الخلط المذكور و ما هو المعمول عند الباحثين فى مناظراتهم من معارضه الآيه بالآيه و تأويل البعض بالتمسك ببعض فحق، و إن أراد به تفسير الآيه بالآيه و الاستشهاد ببعض للبعض فخطأ، و الروايتان التاليتان تدفعانه.

و فى تفسير النعمانى، بإسناده إلى إسماعيل بن جابر قال سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع) يقول: إن الله تبارك و تعالى بعث محمدا- فختم به الأنبياء فلا نبي بعده، و أنزل عليه كتابا فختم به الكتب فلا كتاب بعده، أحل فيه حلالا و حرم

حراما، فحلاله حلال إلى يوم القيامة، و حرامه حرام إلى يوم القيامة، فيه شرعكم و خبر من قبلكم و بعدكم، و جعله النبي ص علما باقيا في أوصيائه، فتركهم الناس و هم الشهداء على أهل كل زمان، و عدلوا عنهم ثم قتلوهم، و اتبعوا غيرهم ثم أخلصوا لهم الطاعة - حتى عاندوا من أظهر ولايه و لاه الأمر و طلب علومهم، قال الله سبحانه: « وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ »، و ذلك أنهم ضربوا بعض القرآن ببعض، و احتجوا بالمنسوخ و هم يظنون أنه الناسخ، و احتجوا بالمتشابه و هم يرون أنه المحكم، و احتجوا بالخاص و هم يقدرون أنه العام، و احتجوا بأول الآية و تركوا السبب في تأويلها، و لم ينظروا إلى ما يفتح الكلام و إلى ما يختمه، و لم يعرفوا موارده و مصادره إذ لم يأخذوه عن أهله - فضلوا و أضلوا.

و اعلموا رحمكم الله: أنه من لم يعرف من كتاب الله عز و جل الناسخ من المنسوخ - و الخاص من العام، و المحكم من المتشابه، و الرخص من العزائم، و المكى و المدني و أسباب التنزيل، و المبهم من القرآن في ألفاظه المنقطعة و المؤلفه، و ما فيه من علم القضاء و القدر، و التقديم و التأخير، و المبين و العميق، و الظاهر و الباطن، و الابتداء و الانتهاء، و السؤال و الجواب، و القطع و الوصل، و المستثنى منه و الجار فيه، و الصفه لما قبل مما يدل على ما بعد، و المؤكد منه و المفصل، و عزائم و رخصه، و مواضع فرائضه و أحكامه، و معنى حلاله و حرامه الذى هلك فيه الملحدون، و الموصول من الألفاظ، و المحمول على ما قبله و على ما بعده فليس بعالم بالقرآن و لاهو من أهله.

و متى ما ادعى معرفه هذه الأقسام مدع بغير دليل فهو كاذب مرتاب مفتر على الله الكذب و رسوله - و مأواه جهنم و بس المصير.

و فى نهج البلاغه، و الإحتجاج، قال (ع): ترد على أحدهم القضية فى حكم من الأحكام - فيحكم فيها برأيه ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره - فيحكم فيها بخلاف قوله - ثم تجتمع القضاء بذلك عند الإمام الذى استقضاهم - فيصوب آراءهم جميعا و إلههم واحد، و نبيهم واحد، و كتابهم واحد - فأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه؟ أم نهاهم عنه فعصوه؟ أم أنزل الله دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه؟ أم كانوا شركاء فلهم أن يقولوا و عليه أن يرضى؟ أم أنزل الله دينا تاما - فقصر الرسول ص عن تبليغه و أدائه؟ و الله سبحانه يقول: مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ - و فيه تبيان كل شىء،

و ذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضاً، وأنه لا اختلاف فيه فقال سبحانه: **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**، و أن القرآن ظاهره أنيق، و باطنه عميق لا تحصى عجائبه، و لا تنقضى غرائبه، و لا تكشف الظلمات إلا به.

أقول: و الروايه كما ترى ناصه على أن كل نظر ديني يجب أن ينتهي إلى القرآن، و قوله: فيه تبيان، نقل للآيه بالمعنى.

و فى الدر المنثور، و أخرج ابن سعد و ابن الضريس فى فضائله و ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ص خرج على قوم يتراجعون فى القرآن - و هو مغضب فقال: بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، و ضرب الكتاب بعضه ببعض. قال: و إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً - و لكن نزل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم فاعملوا به، و ما تشابه عليكم فأمنوا به.

و فيه، أيضاً و أخرج أحمد من وجه آخر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده:

سمع رسول الله ص قوما يتدارعون فقال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، و إنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً - فلا تكذبوا بعضه ببعض - فما علمتم منه فقولوا، و ما جهلتم فكلوه إلى عالمه.

أقول: و الروايات كما ترى يعد ضرب القرآن بعضه ببعض مقابلاً لتصديق بعض القرآن بعضاً، و هو الخلط بين الآيات من حيث مقامات معانيها، و الإخلال بترتيب مقاصدها كأخذ المحكم متشابهاً و المتشابه محكماً و نحو ذلك.

فالتكلم فى القرآن بالرأى، و القول فى القرآن بغير علم كما هو موضوع الروايات المنقوله سابقاً، و ضرب القرآن بعضه ببعضه كما هو مضمون الروايات المنقوله أنفا يحوم الجميع حول معنى واحد و هو الاستمداد فى تفسير القرآن بغيره.

فإن قلت: لا - ريب أن القرآن إنما نزل ليعقله الناس و يفهموه كما قال تعالى: **إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ**، الزمر - ٤١، و قال تعالى: **هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ**، آل عمران - ١٣٨، إلى غير ذلك من الآيات، و لا - ريب أن مبينه هو الرسول ص كما قال تعالى: **وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**، النحل - ٤٤، و قد بينه للصحابه، ثم أخذ عنهم التابعون فما نقلوه عنه (ص) إلينا فهو بيان نبوى لا يجوز

التجافى و الإغماض عنه بنص القرآن، و ما تكلموا فيه من غير إسناده إلى النبي ص فهو و إن لم يجر مجرى النبويات فى حجيتها لكن القلب إليه أسكن فإن ما ذكره فى تفسير الآيات إما مسموع من النبي ص أو شىء هداهم إليه الذوق المكتسب من بيانه و تعليمه (ص)، و كذا ما ذكره تلامذتهم من التابعين و من يتلوهم، و كيف يخفى عليهم معانى القرآن مع تعرقهم فى العرييه، و سعيهم فى تلقيها من مصدر رساله، و اجتهادهم البالغ فى فقه الدين على ما يقصه التاريخ من مساعى رجال الدين فى صدر الإسلام.

و من هنا يظهر: أن العدول عن طريقتهم و سنتهم، و الخروج من جماعتهم، و تفسير آيه من الآيات بما لا يوجد بين أقوالهم و آرائهم بدعه، و السكوت عما سكتوا عنه واجب.

و فى ما نقل عنهم كفايه لمن أراد فهم كتاب الله تعالى، فإنه يبلغ زهاء ألوف من الروايات، و قد ذكر السيوطى أنه أنهاه إلى سبعة عشر ألف روايه عن النبي و عن الصحابه و التابعين.

قلت: قد مر فيما تقدم أن الآيات التى تدعو الناس عامه من كافر أو مؤمن ممن شاهد عصر النزول أو غاب عنه إلى تعقل القرآن و تأمله و التدبر فيه و خاصه قوله تعالى: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا»: النساء- ٨٢، تدل دلالة واضحة على أن المعارف القرآنيه يمكن أن ينالها الباحث بالتدبر و البحث، و يرتفع به ما يتراءى من الاختلاف بين الآيات، و الآيه فى مقام التحدى، و لا معنى لإرجاع فهم معانى الآيات- و المقام هذا المقام- إلى فهم الصحابه و تلامذتهم من التابعين حتى إلى بيان النبي ص فإن ما بينه إما أن يكون معنى يوافق ظاهر الكلام فهو مما يؤدى إليه اللفظ و لو بعد التدبر و التأمل و البحث، و إما أن يكون معنى لا يوافق الظاهر و لا أن الكلام يؤدى إليه فهو مما لا يلائم التحدى و لا تتم به الحججه و هو ظاهر.

نعم تفاصيل الأحكام مما لا سبيل إلى تلقيه من غير بيان النبي ص كما أرجعها القرآن إليه فى قوله تعالى: «وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»: الحشر- ٧ و ما فى معناه من الآيات، و كذا تفاصيل القصص و المعاد مثلا.

و من هنا يظهر أن شأن النبي ص في هذا المقام هو التعليم فحسب و التعليم إنما هو هدايه المعلم الخبير ذهن المتعلم و إرشاده إلى ما يصعب عليه العلم به و الحصول عليه لا ما يمتنع فهمه من غير تعليم، فإنما التعليم تسهيل للطريق و تقريب للمقصد، لا إيجاد للطريق و خلق للمقصد، و المعلم في تعليمه إنما يروم ترتيب المطالب العلميه و نضدها على نحو يستسهله ذهن المتعلم و يأنس به فلا يقع في جهد الترتيب و كد التنظيم فيتلف العمر و موهبه القوه أو يشرف على الغلط في المعرفة.

و هذا هو الذى يدل عليه أمثال قوله تعالى: «وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» X الآيه X: النحل- ٤٤، و قوله تعالى: «وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ»:

الجمعه- ٢، فالنبي ص إنما يعلم الناس و يبين لهم ما يدل عليه القرآن بنفسه، و بينه الله سبحانه بكلامه، و يمكن للناس الحصول عليه بالأخره لأنه (ص) يبين لهم معانى لا طريق إلى فهمها من كلام الله تعالى فإن ذلك لا ينطبق البتة على مثل قوله تعالى:

«كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» : حم السجده- ٣، و قوله تعالى:

«وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» : النحل- ١٠٣.

على أن الأخبار المتواتره عنه (ص) المتضمنه لوصيته بالتمسك بالقرآن و الأخذ به و عرض الروايات المنقوله عنه (ص) على كتاب الله لا يستقيم معناها إلا مع كون جميع ما نقل عن النبي ص مما يمكن استفادته من الكتاب، و لو توقف ذلك على بيان النبي ص كان من الدور الباطل و هو ظاهر.

على أن ما ورد به النقل من كلام الصحابه مع قطع النظر عن طريقه لا- يخلو عن الاختلاف فيما بين الصحابه أنفسهم بل عن الاختلاف فيما نقل عن الواحد منهم على ما لا يخفى على المتتبع المتأمل فى أخبارهم، و القول بأن الواجب حينئذ أن يختاروا أحد الأقوال المختلفه المنقوله عنهم فى الآيه، و يجتنب عن خرق إجماعهم، و الخروج عن جماعتهم مردود بأنهم أنفسهم لم يسلكوا هذا الطريق، و لم يستلزموا هذا المنهج و لم يبالوا بالخلاف فيما بينهم فكيف يجب على غيرهم أن يقفوا على ما قالوا به و لم يختصوا بحجيه قولهم على غيرهم و لا بتحريم الخلاف على غيرهم دونهم.

على أن هذا الطريق و هو الاقتصار على ما نقل من مفسرى صدر الإسلام من

الصحابه و التابعين فى معانى الآيات القرآنيه يوجب توقف العلم فى سيره، و بطلان البحث فى أثره كما هو مشهود فى ما بأيدينا من كلمات الأوائل و الكتب المؤلفه فى التفسير فى القرون الأولى من الإسلام، و لم ينقل منهم فى التفسير إلا معان ساذجه بسيطه خاليه عن تعمق البحث و تدقيق النظر فأين ما يشير إليه قوله تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ» :النحل-٨٩، من دقائق المعارف فى القرآن؟ و أما استبعاد أن يخفى عليهم معانى القرآن مع ما هم عليه من الفهم و الجد و الاجتهاد فيبطله نفس الخلاف الواقع بينهم فى معانى كثير من الآيات و التناقض الواقع فى الكلمات المنقوله عنهم إذ لا يتصور اختلاف و لا تناقض إلا مع فرض خفاء الحق و اختلاط طريقه بغيره.

فالحق أن الطريق إلى فهم القرآن الكريم غير مسدود، و أن البيان الإلهي و الذكر الحكيم بنفسه هو الطريق الهادي إلى نفسه، أى إنه لا- يحتاج فى تبين مقاصده إلى طريق، فكيف يتصور أن يكون الكتاب الذى عرفه الله تعالى بأنه هدى و أنه نور و أنه تبيان لكل شىء مفتقرا إلى هاد غيره و مستنيرا بنور غيره و مبينا بأمر غيره؟ فإن قلت:

قد صح عن النبي ص أنه قال فى آخر خطبه خطبها: إني تارك فيكم الثقلين: الثقل الأكبر و الثقل الأصغر: فأما الأكبر فكتاب ربي، و أما الأصغر فعترتي أهل بيتي- فاحفظوني فيهما فلن تضلوا ما تمسكتم بهما رواه الفريقان بطرق متواتره عن جم غفير من أصحاب رسول الله ص عنه، أنهى علماء الحديث عدتهم إلى خمس و ثلاثين صحابيا، و فى بعض الطرق: لن يفترقا حتى يردا على الحوض، و الحديث دال على حجيه قول أهل البيت (ع) فى القرآن و وجوب اتباع ما ورد عنهم فى تفسيره و الاقتصار على ذلك و إلا لزم التفرقه بينهم و بينه.

قلت: ما ذكرناه فى معنى اتباع بيان النبي ص آنفا جار هاهنا بعينه، و الحديث غير مسوق لإبطال حجيه ظاهر القرآن و قصر الحجيه على ظاهر بيان أهل البيت (ع). كيف و هو (ص) يقول: لن يفترقا، فيجعل الحجيه لهما معا للقرآن الدلاله على معانيه و الكشف عن المعارف الإلهيه، و لأهل البيت الدلاله على الطريق و هدايه الناس إلى أغراضه و مقاصده.

على أن نظير ما ورد عن النبي ص في دعوته الناس إلى الأخذ بالقرآن والتدبر فيه و عرض ما نقل عنه عليه وارد عن أهل البيت(ع).

على أن جما غفيرا من الروايات التفسيرية الواردة عنهم(ع)مشملة على الاستدلال بآيه على آيه، والاستشهاد بمعنى على معنى، ولا يستقيم ذلك إلا بكون المعنى مما يمكن أن يناله المخاطب و يستقل به ذهنه لوروده من طريقه المتعين له.

على أن هاهنا روايات عنهم(ع)تدل على ذلك بالمطابقة كما

رواه في المحاسن، بإسناده عن أبي ليلى البحراني عن أبي جعفر(ع)في حديث قال: فمن زعم أن كتاب الله مبهم فقد هلك و أهلك.

و يقرب منه ما فيه، و في الإحتجاج، عنه(ع) قال: إذا حدثتكم بشيء فاسألوني عنه من كتاب الله الحديث.

و بما مر من البيان يجمع بين أمثال هذه الأحاديث الدالة على إمكان نيل المعارف القرآنية منه و عدم احتجابها من العقول و بين ما ظاهره خلافه كما

في تفسير العياشي، عن جابر قال قال أبو عبد الله(ع): إن للقرآن بطنا و للبطن ظهرا، ثم قال: يا جابر و ليس شيء أبعد من عقول الرجال منه- إن الآيه لتنزل أولها في شيء و- أو وسطها في شيء و آخرها في شيء، و هو كلام متصل ينصرف على وجوه، و هذا المعنى وارد في عدة روايات. و قد رويت الجملة أعنى قوله: و ليس شيء أبعد(الخ)في بعضها عن النبي ص،

و قد روى عن علي(ع): أن القرآن حمال ذو وجوه الحديث، فالذي ندب إليه تفسيره من طريقه و الذي نهى عنه تفسيره من غير طريقه و قد تبين أن المتعين في التفسير الاستمداد بالقرآن على فهمه و تفسير الآيه بالآيه و ذلك بالتدرب بالآثار المنقولة عن النبي و أهل بيته صلى الله عليه و عليهم و تهيته ذوق مكتسب منها ثم الورد، و الله الهادي

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٠ إلى ١٨]

إشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَابُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ التَّمَّتْ فَتَةُ تُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ أُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِزَّةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) زَيْنٌ لِلدَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَتُنَبِّئُونَ بِالْخَيْرِ مِنَ اللَّهِ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ آيَاتِنَا لَهُمْ لَأَنبَاءٌ وَمِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَفِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧) شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

قد تقدم: أن المسلمين عند نزول السوره كانوا مبتلين في داخل جماعتهم بالمنافقين و آخرين سماعين لهم و لما يلقيه إليهم أعداء الإسلام من النزاعات و الوسوس لتقليب

الأمر عليهم وإفساد دعوتهم، ومبتلين في خارج جمعهم بثوران الدنيا عليهم و انتهاض المشركين و اليهود و النصرى لإبطال دعوتهم و إخماد نارهم و إطفاء نورهم بأى وسيلة أمكنت من لسان أو يد. و أن غرض السوره دعوتهم إلى توحيد الكلمه و إلى الصبر و الثبات ليصلح بذلك أمرهم و ينقطع ما نشأ من الفساد فى داخل جوهم، و ما يطرأ و يهجم عليهم منه من خارجه.

و قد كانت الآيات السابقه أعنى قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْمِيعَادَ تعريضا للمنافقين و الزائقين قلبا و دعوه للمسلمين إلى التثبت فيما فهموه من معارف الدين، و التسليم و الإيمان فيما اشتبه لهم و لم يفهموه من كنهه و حقيقته بالتنبيه على أن شر ما يفسد أمر الدين و يجر المسلمين إلى الفتنة و اختلال نظام السعاده هو اتباع المتشابهات و ابتغاء التأويل فيتحول بذلك الهدايه الدينيه إلى الغى و الضلال و يتبدل به الاجتماع افتراقا، و الشمل شتاتا.

ثم وقع التعرض فى هذه الآيات لحال الكفار و المشركين و أنهم سيغلبون و ليسوا بمعجزين لله سبحانه و لا ناجحين فى عتوهم بالتنبيه على أن الذى أوجب ضلالهم و الالتباس عليهم هو ما زين لهم من مشتبهات الدنيا فرعموا بما رزقوا من مالها و ولدها أن ذلك مغن لهم من الله سبحانه شيئا و قد أخطئوا فى زعمهم فالله سبحانه هو الغالب فى أمره، و لو كان المال و الأولاد و ما أشبهها مغنيه من الله شيئا لأغنت آل فرعون و من قبلهم من الأمم الظالمه أولى الشوكه و القدره لكنها لم تغن عنهم شيئا و أخذهم الله بذنوبهم فكذلك هؤلاء سيغلبون و يؤخذون فمن الواجب على المؤمنين أن يتقوا الله فى هذه المشتبهات حتى ينالوا بذلك سعاده الدنيا و ثواب الآخره و رضوان ربهم سبحانه.

فالآيات كما تعطيه مضامينها متعرضه لحال الكفار كما أن الآيات التاليه لهذه الآيات متعرضه لحال أهل الكتاب من اليهود و النصرى على ما سيأتى.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، أغنى عنه ماله من فلان أى أعطاه الغنى و رفع حاجته فلا- حاجه به إليه، و الإنسان فى بادى تكونه و شعوره يرى نفسه محتاجه إلى الخارج منه، و هذا أول علمه الفطرى إلى احتياجه إلى الصانع المدبر ثم إنه لما توسط فى الأسباب و أحس بحوائجه بدأ بإحساس الحاجه إلى كماله البدنى النباتى و هو الغذاء و الولد، ثم عرفت له نفسه سائر الكمالات

الحيوانيه، وهي التي يزينوا له الخيال من زخارف الدنيا من زينه الملابس و المسكن و المنكح و غير ذلك، و عندئذ يتبدل طلب الغذاء إلى طلب المال الذي يظنه مفتاحا لحل جميع مشكلات الحيوه لأن العاده الغالبه تجرى على ذلك فيظن أن سعادته حيوته في المال و الولد بعد ما كان يظن أن ضامن سعادته هو الغذاء و الولد، ثم انكباب نفسه على مشتبهاته، و قصر همه على الأسباب يوجب أن يقف قلبه عند الأسباب، و يعطى لها الاستقلال، و حينئذ ينسى ربه، و يتشبث بذيل المال و الولد، و في هذا الجهل هلاكه فإنه يستر به آيات ربه و يكفر بها، و قد التبس عليه الأمر فإن ربه هو الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا يستغنى عنه شيء بحال و لا يغنى عنه شيء بحال.

و بهذا البيان يظهر وجه تقديم الأموال على الأولاد في الآيه فإن الركون إلى المال- و قد عرفت أن الأصل فيه الغذاء- أقدم عند الإنسان من الركون إلى الأولاد و أعرف منه و إن كان حب الولد ربما غلب عند الإنسان على حب المال.

و في الآيه إيجاز شبيه دفع الدخل، و التقدير: إن الذين كفروا كذبوا بآياتنا و زعموا أن أموالهم و أولادهم تغنيهم من الله، و قد أخطئوا فلا غنى من الله سبحانه في وقت و لا في شيء، على ما تدل عليه الآيه التاليه.

قوله تعالى: **وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ**، الوقود بفتح الواو ما توقد به النار و تشتعل، و الآيه جاريه مجرى قوله تعالى: **فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ**: البقره- ٢٤، و قوله تعالى: **إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ**: الأنبياء- ٩٨، و قد مر بعض الكلام في معنى ذلك في سوره البقره.

و الإتيان بالجمله الاسميه، و الابتداء باسم الإشاره، و كونه دالا على البعد و توسط ضمير الفصل، و إضافه الوقود إلى النار دون أن يقال وقود، كل ذلك يؤكد ظهور الكلام في الحصر، و لا يزمه كون المكذبين من الكفار هم الأصل في عذاب النار و إيقاد جهنم، و أن غيرهم إنما يحترقون بنارهم، و يتأيد بذلك ما سيأتى بيانه في قوله تعالى:

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ﴾ X الآيه X: الأنفال- ٣٧.

قوله تعالى: **كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ**: الدأب على ما ذكره هو السير المستمر قال تعالى: **«وَ سَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دَائِبَيْنِ»**: إبراهيم- ٣٣

و منه تسميه العاده دأبا لأنه سير مستمر، وهذا المعنى هو المراد فى الآيه.

و قوله: كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا و هو فى موضع الحال، و تقدير الكلام كما مرت إليه الإشاره: إن الذين كفروا كذبوا بآياتنا و استمروا عليها دائبين فزعموا أن فى أموالهم و أولادهم غنى لهم من الله كذاب آل فرعون و من قبلهم و قد كذبوا بآياتنا.

و قوله: فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، ظاهر الباء أنها تفيد السببيه، يقال: أخذته بذنبه أى بسبب ذنبه لكن مقتضى المحاذاه التى بين الآيتين، و قياسه حال هؤلاء الذين كفروا فى دأبهم على آل فرعون و الذين من قبلهم فى دأبهم أن يكون البناء للآله، فإنه ذكر فى الذين كفروا أنهم وقود النار تشتعل عليهم أنفسهم و يعذبون بها فكذلك آل فرعون و من قبلهم إنما أخذوا بذنوبهم و كان العذاب الذى حل بساحتهم هو عين الذنوب التى أذنبوها، و كان مكرهم هو الحائق بهم، و ظلمهم عائدا إليهم، قال تعالى:

وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ: الفاطر- ٤٣، و قال تعالى: «وَمَا ظَلَمْنَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»: البقره- ٥٧.

و من هنا يتبين معنى كونه شديد العقاب، فإن عقابه تعالى لا يقصد الإنسان و لا يتوجه إليه من جهه دون جهه، و فى محل دون محل، و على شرط دون شرط كما أن عقاب غيره كذلك فإن الشر الذى يوجهه إلى الإنسان مثله مثلا إنما يتوجه إليه من بعض الجهات دون بعض كفوق و تحت، و فى بعض الأماكن دون بعض فيدفع بالفرار و التوقى و الالتجاء مثلا و هذا بخلاف عقابه تعالى فإنه يأخذ الإنسان بعمله و ذنبه و هو مع الإنسان فى باطنه و ظاهره من غير أن ينفك عنه، و يجعل الإنسان وقودا لنار أحاط به سرداقها، و لا ينفعه فرار و لا قرار، و لا يوجد منه مناص و لا خلاص، فهو شديد العقاب.

و فى قوله تعالى: كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ، التفات من الغيبه إلى الحضور أولا ثم من الحضور إلى الغيبه ثانيا، أما قوله: كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ففيه تشييط لذهن السامع و تقرب للخبر إلى الصدق فإنه بمنزله أن يقول القائل: إن فلانا بذى فحاش سىئ المحاضره و قد ابتليت به فيجب الاجتناب عن معاشرته، فجمله و قد ابتليت به

تصحيح للخبر وإثبات لصدقه بإرجاعه إلى الدرايه و نحو من الشهاده.

فالمعنى -و الله أعلم- أن آل فرعون كانوا دائبين على دأب هؤلاء الذين كفروا فى الكفر و تكذيب الآيات، و لا ريب فى هذا الخبر فإننا كنا حاضرين شاهدين و قد كذبوا بآياتنا نحن فأخذناهم.

و أما قوله: فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ، فهو رجوع بعد استيفاء المقصود إلى الأصل فى الكلام و هو أسلوب الغيبه، و فيه مع ذلك إرجاع الحكم إلى مقام الألوهيه القائمه بجميع شئون العالم و المهيمنه على كل ما دق و جل، و لذلك كرر لفظ الجلاله ثانيا فى قوله وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ، و لم يقل و هو شديد العقاب للدلاله على أن كفرهم و تكذبيهم هذا منازعه و محاربه مع من له جلال الألوهيه و يهون عليه أخذ المذنب بذنبه، و هو شديد العقاب لأنه الله جل اسمه.

قوله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، الحشر هو إخراج الجماعه عن مقرهم بالإزعاج، و لا يستعمل فى الواحد، قال تعالى: «وَ حَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا»: الكهف- ٤٧، و المهاد هو الفراش، و ظاهر السياق أن المراد بالذين كفروا هم المشركون كما أنه ظاهر الآيه السابقه: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ «إِلْخ» دون اليهود، و هذا هو الأنسب لاتصال الآيتين حيث تذكر هذه الآيه الغلبه عليهم و حشرهم إلى جهنم و قد أشارت الآيه السابقه إلى تقويهم و تعززهم بالأموال و الأولاد.

قوله تعالى: قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا، ظاهر السياق أن يكون الخطاب للذين كفروا، و الكلام من تتمه قول النبى ص: سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ «إِلْخ» و من الممكن أن يكون خطابا للمؤمنين بدعوتهم إلى الاعتبار و التفكير بما من الله عليهم يوم بدر حيث أيدهم بنصره تأييدا عجيبا بالتصرف فى أبصار العيون، و على هذا يكون الكلام مشتملا على نوع من الالتفات بتوسعه خطاب رسول الله ص فى قوله: «قُلْ لِلَّذِينَ» بتوجيهه إليه و إلى من معه من المؤمنين، لكن السياق، كما عرفت، للأول أنسب.

و الآيه- بما تشتمل عليه من قصه التقاء الفئتين و نصره تعالى للفئه المقاتله فى سبيل الله- و إن لم تتعرض بتشخيص القصه و تسميه الوقعه غير أنها قابله الانطباق على وقعه بدر، و السوره نازله بعدها بل و بعد أحد.

على أن الآيه ظاهره فى أن هذه القصة كانت معهوده عند المخاطبين بهذه الخصوصيه و هم على ذكر منها حيث يقول: قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ «إِلخ» و لم يقص تعالى قصه يذكر فيها التصرف فى أبصار المقاتلين غير قصه بدر، و الذى ذكره فى قصه بدر فى سورته الأنفال من قوله تعالى: «وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ»: الأنفال-٤٤، و إن كان هو التقليل دون التكثر لكن لا- يبعد أن يكون قد قلل فيها المؤمنين فى أعين المشركين ليجترئوا عليهم و لا يتولوا عن المقارعه ثم كثرهم فى أعينهم بعد التلقى و الاختلاط لينهزموا بذلك.

و كيف كان فالمعتمد ما كان فى ذكرهم من التكثر فى العيون فعلى تقدير أن يكون الخطاب فى الآيه متوجها إلى المشركين لا تنطبق الآيه على غير وقعه بدر، على أن قراءه ترونها بالتاء أيضا تؤيد ما ذكرناه.

فمحصل معنى الآيه: أنكم أيها المشركون لو كنتم من أولى الأبصار و البصائر لكفاكم فى الاعتبار و الدلاله على أن الغلبه للحق و أن الله يؤيد بنصره من يشاء و لا يغلب بمال و لا ولد ما رأيتموه يوم بدر فقد كان المؤمنون مقاتلين فى سبيل الله سبحانه، و قد كانوا فئه قليله مستذلين لا- يبلغون ثلث الفئه الكافره، و لا- يقاسون بهم قوه، كانوا ثلاثمائة و ثلاثه عشر رجلا ليس لهم إلا سته أدرع و ثمانيه سيوف و فرسان، و كان جيش المشركين قريبا من ألف مقاتل لهم من العده و القوه و الخيل و الجمال و الهيئه ما لا يقدر بقدر، فنصر الله المؤمنين على قلتهم و ذلتهم على أعدائه و كثرهم فى أعينهم فكانوا يرونهم مثليهم رأى العين، و أيدهم الملائكه فلم ينفع المشركين ما كانوا يتعززون به من أموال و أولاد و لم يغنهم جمعهم و لا كثرتهم و قوتهم من الله شيئا.

و قد ذكر الله سبحانه دأب آل فرعون و الذين من قبلهم فى تكذيب آيات الله و أخذهم بذنوبهم فى سورته الأنفال عند ذكر القصة مرتين ما ذكره هاهنا بعينه.

و فى موعظتهم بتذكير وقعه بدر إيماء إلى أن المراد بالغلبه فى الآيات السابقه الغلبه بالقتل و الإباده فى آياته تهديد بالقتال.

قوله تعالى: فَئِنَّهُ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ أُخْرَى كَافِرَةٌ، لم يقل و أُخْرَى فى سبيل

الشیطان أو فی سبیل الطاغوت و نحو ذلك لأن الكلام غیر مسوق للمقایسه بین السبیلین بل لبيان أن لا غنى من الله تعالى و أن الغلبه له فالمقابله بالحقیقه بین الإیمان بالله و الجهاد فی سبيله و بین الکفر به تعالى.

و الظاهر من السياق أن الضمیرین فی قوله **يَرَوْنَهُمْ مِثْلِيهِمْ** راجعان إلى قوله: **فِنَّهُ تَقَاتِلُ**، أى الفئه الكافره يرون المؤمنین مثلی المؤمنین فهم يرونهم ستمائه و ستة و عشرين و لقد كانوا ثلاثمائة و ثلاثه عشر رجلا، و أما احتمال اختلاف الضمیرین مرجعا بأن يكون المعنى: يرون المؤمنین مثلی عدد الکافرين فبعید عن اللفظ، و هو ظاهر.

و ربما احتمل أن يكون الضمیران راجعین إلى الفئه الكافره، و يكون المعنى:

یرى الکافرون أنفسهم مضاعفه مثلی عددهم (یرون الألف ألفین) و لانزمه تقلیلهم المؤمنین فی النسبه فكانوا يرونهم سدس أنفسهم عددا مع كونهم ثلثا لهم فی النسبه و ذلك لیطابق ما ذكره فی هذه الآیه قوله تعالى فی قصه بدر: «وَ إِذِ يُرِيبُكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ»: الأنفال-٤٤، فإن الآیه تنافی الآیه.

و أجب بأن ذلك يؤدي إلى اللبس غیر اللائق بأبلغ الكلام بل كان من اللازم على هذا أن يقال: يرون أنفسهم مثليهم أو ما يؤدي ذلك. و أما التنافی بين الآيتين فإنما يتحقق مع اتحاد الموقف و المقام، و لا دليل على ذلك لإمكان أن يقلل الله سبحانه كلا من الطائفتين فی عين صاحبتهما فی بدء التلاقی لتشد بذلك قلوبهم و تزيد جرأتهم حتى إذا نشبت المقارعه و حمى الوطيس رأى الکافرون المؤمنین مثلی عددهم فانهزموا بذلك و ولوا الأدبار، و هذا نظير قوله تعالى فی وصف يوم القيامة: «لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لَا جَانٌّ»: الرحمن-٣٩، مع قوله: «وَ قَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ»: الصافات-٢٤، و ليس إلا أن الموقف غير الموقف.

و فی شأن الضمیرین أعنى فی قوله: **يَرَوْنَهُمْ مِثْلِيهِمْ**، احتمالات أخر ذكرها غير أن الجميع تشترك فی كونها خلاف ظاهر اللفظ، و لذلك تركنا ذكرها، و الله العالم.

قوله تعالى: **وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ**، **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ**، التأييد من الأيد و هو القوه، و المراد بالأبصار قيل: هو العيون الظاهريه لكون الآيه مشتمله على التصرف فی رؤيه العيون، و قيل: هو البصائر لأن العبره إنما تكون

بالبصيره القلبيه دون البصر الظاهري، و الأمر هين، فإن الله سبحانه في كلامه يعد من لا يعتبر بالعبر و المثالات أعمى، و يذكر أن العين يجب أن تبصر و تميز الحق من الباطل و في ذلك دعوى أن الحق الذي يدعو إليه ظاهر متجسد محسوس يجب أن يبصره البصر الظاهر، و أن البصيره و البصر في مورد المعارف الإلهيه واحد (بنوع من الاستعاره) لنهايه ظهورها و وضوحها، و الآيات في ذلك كثيره جدا، و من أحسنها دلالة على ما ذكرنا قوله تعالى: «فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» :

الحج-٤٦، أى إن الأبصار إنما هي في القلوب دون الرؤوس، و قوله تعالى: «و لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا» : الأعراف-١٧٩، و الآيه في مقام التعجب، و قوله تعالى:

وَ جَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ۖ الْجاثيه-٢٣، إلى غير ذلك من الآيات، فالمراد بالأبصار فيما نحن فيه هو العيون الظاهريه بدعوى أنها هي التي تعتبر و تفهم فهو من الاستعاره بالكنايه، و النكته فيه ظهور المعنى كأنه بالغ حد الحس، و يزيد في لطفه أن المورد يتضمن التصرف في رؤيه العين الظاهره.

و ظاهر قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ «إِلخ» أنه تتمه لكلامه تعالى الذي يخاطب به النبي ص و ليس تتمه لقول النبي المدلول عليه بقوله: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا «إِلخ»، و الدليل عليه الكاف في قوله: ذَلِكَ، فإنه خطاب للنبي ص، و في هذا العدول إلى الخطاب الخاص بالنبي ص إيماء إلى قله فهمهم و عمى قلوبهم أن يعتبروا بأمثال هذه العبر.

قوله تعالى: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ «إِلخ»، الآيه و ما يتلوها بمنزله البيان و شرح حقيقه الحال لما تقدم من قوله تعالى آنفا: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا - أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً «إِلخ» إذ يظهر منه أنهم يعتقدون الاستغناء بالأموال و الأولاد من الله سبحانه فالآيه تبين أن سبب ذلك أنهم انكبوا على حب هذه المشتهيات و انقطعوا إليها عن ما يهمهم من أمر الآخره، و قد اشتبه عليهم الأمر فإن ذلك متاع الحيوه الدنيا، ليس لها إلا أنها مقدمه لنيل ما عند الله من حسن المآب مع أنهم غير مبدعين في هذا الحب و الاشتهاه و لا- مبتكرون بل مسخرون بالتسخير الإلهي بتغريز أصل هذا الحب فيهم ليتم لهم الحيوه الأرضيه فلو لا ذلك لم يستقم أمر النوع الإنسانى في حيوته و بقائه بحسب ما قدره الله سبحانه من أمرهم حيث قال:

«وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۚ البقره-٣٦.

و إنما قدر لهم ذلك ليتخذوها وسيلة إلى الدار الآخرة و يأخذوا من متاع هذه ما يتمتعون به في تلك لا لينظروا إلى ما في الدنيا من زخرفها و زينتها بعين الاستقلال و ينسوا بها ما وراءها، و يأخذوا الطريق مكان المقصد في عين أنهم سائرون إلى ربهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ إِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾: الكهف-٨.

إلا- أن هؤلاء المغفلين أخذوا هذه الوسائل الظاهره الإلهيه التي هي مقدمات و ذرائع إلى رضوان الله سبحانه أمورا مستقلة في نفسها محبوبه لذاتها و زعموا أنها تغنى عنهم من الله شيئا فصارت نغمه عليهم بعد ما كانت نعمه و وبالا بعد ما كانت مثوبه مقربه. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْيَنْتَ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ X إِلَى أَنْ قَال: X وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ X إِلَى أَنْ قَال: X وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: يونس-٣٠ تشير الآيات إلى أمر الحيوه و زينتها بيده تعالى لا ولى لها دونه لكن الإنسان باغتراره بظاهرها يظن أن أمرها إليه، و أنه قادر على تدبيرها و تنظيمها فيتخذ لنفسه فيها شركاء- كالأصنام و ما بمعناها من المال و الولد و غيرهما، إن الله سيوقفه على زلته فيذهب هذه الزينه، و يزيل الروابط التي بينه و بين شركائه، و عند ذلك يضل عن الإنسان ما افتراه على الله من شريك في التأثير و يظهر له معنى ما علمه في الدنيا و حقيقته، و رد إلى الله مولاه الحق.

و هذا التزين أعنى: ظهور الدنيا للإنسان بزينه الاستقلال و جمال الغايه و المقصد لا- يستند إلى الله سبحانه فإن الرب العليم الحكيم أمتع ساحه من أن يدبر خلقه بتدبير لا يبلغ به غايته الصالحه، و قد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَلْعِ أَمْرِهِ﴾: الطلاق-٣، و قال تعالى: ﴿وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾: يوسف-٢١، بل إن استند وإنما يستند إلى الشيطان قال تعالى: ﴿وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: الأنعام-٤٣، و قال تعالى: ﴿وَ إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾: الأنفال-٤٨.

نعم لله سبحانه الإذن في ذلك ليم أمر الفتنة، و تستقيم الترييه كما قال تعالى:

«أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ
أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ:العنكبوت-٤، و على هذا الإذن يمكن أن يحمل قوله تعالى:

«كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ: الأنعام-١٠٨، و إن أمكن أيضا أن يحمل على ما مر من معنى التزيين المنسوب إليه تعالى في قوله
تعالى: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا: الكهف-٧.

و بالجمله التزيين تزيينان: تزيين للتوسل بالدنيا إلى الآخرة و ابتغاء مرضاته في مواقف الحياه المتنوعه بالأعمال المختلفه المتعلقة
بالمال و الجاه و الأولاد و النفوس، و هو سلوكك الإلهي حسن، نسبه الله تعالى إلى نفسه كما مر من قوله: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ
زِينَةً لَهَا الْآيَاتِ، و كقوله تعالى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ»: الأعراف-٣٢.

و تزيين لجلب القلوب و إيقافها على الزينه و إلهائها عن ذكر الله و هو تصرف شيطاني مذموم، نسبه الله سبحانه إلى الشيطان، و
حذر عباده عنه كما مر من قوله تعالى: «وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» الآية، و قوله تعالى فيما يحكيه من قول الشيطان:
«قَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَأْزِينٌ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ»: الحجر-٣٩، و قوله تعالى: «زَيْنٌ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ»: التوبه-
٣٧، إلى غير ذلك من الآيات.

و هذا القسم ربما نسب إليه تعالى من حيث إن الشيطان و كل سبب من أسباب الخير أو الشر إنما يعمل ما يعمل و يتصرف في
ملكه ما يتصرف بإذنه لينفذ ما أَرَادَهُ و شاءه، و ينتظم بذلك أمر الصنع و الإيجاد، و يفوز الفائزون بحسن إرادتهم و اختيارهم، و
يمتاز المجرمون.

و بما مر من البيان يظهر أن المراد من فاعل التزيين المبهم في قوله: «زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ» الخ ليس هو الله سبحانه فإن
التزيين المذكور و إن كان له نسبه إليه تعالى سواء كان تزيينا صالحا لأن يدعو إلى عبادته تعالى و هو المنسوب إليه بالاستقامه
أو تزيينا ملهيا عن ذكره تعالى و هو المنسوب إليه بالإذن، لكن لاشتمال الآية على ما

لا ينسب إليه مستقيماً كما يجيء بيانه كان الأليق بأدب القرآن أن ينسب إلى غيره تعالى كالشيطان أو النفس.

و من هنا يظهر صحه ما ذكره بعض المفسرين: أن فاعل زين هو الشيطان لأن حب الشهوات أمر مذموم، وكذا حب كثره المال مذموم، وقد خص تعالى بنفسه ما ذكره في آخر الآية و في ما يتلوها.

و يظهر به فساد ما ذكره بعضهم: أن الكلام في طبيعه البشر و الحب الناشئ فيها و مثله لا يسند إلى الشيطان بحال و إنما يسند إليه ما هو قبيل الوسوسه التى تزين للإنسان عملاً قبيحاً.

قال: و لذلك لم يسند إليه القرآن إلا تزيين الأعمال، قال تعالى: «وَ إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ» ، و قال «وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» ، و أما الحقائق و طبائع الأشياء فلا تسند إلا إلى الخالق الحكيم الذى لا شريك له، قال عز و جل:

«إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» و قال: كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ «فالكلام فى الأمم كلام فى طبائع الاجتماع، انتهى.

وجه الفساد: أنه و إن أصاب فى قوله: إن الحقائق و طبائع الأشياء لا تسند إلا إلى الخالق الحكيم الذى لا شريك له لكنه أخطأ فى قوله: إن الكلام فى طبيعه البشر و ما ينشأ منها بحسب الطبع، و ذلك أن السوره كما علمت فى مقام بيان أن الله سبحانه هو القيوم على خلقه فى جميع ما هم عليه من الخلق و التدبير و الإيمان و الكفر و الإطاعه و العصيان، خلق الخلق و هداهم إلى سعادتهم، و أن الذين نافقوا فى دينه من المنافقين أو كفروا بآياته من الكافرين أو بغوا بالاختلاف فى كتابه من أهل الكتاب، و بالجمله الذين أطاعوا الشيطان و اتبعوا الهوى ليسوا بمعجزين لله غالبين عليه مفسدين لقيمومته بل الجميع راجع إلى قدره و تدبيره أمر خلقه فى تحكيم ناموس الأسباب لتقوم بذلك سنه الامتحان فهو الخالق للطبائع و قواها و ميولها و أفعالها لتسلك بها إلى جوار ربها جوار القرب و الكرامه، و هو الذى أذن لإبليس و لم يمنعه من الوسوسه و النزعه و لم يمنع الإنسان من اتباعه باتباع الهوى ليتم أمر الامتحان و ليعلم الله الذين آمنوا و يتخذ منهم شهداء، و إنما بين ذلك فى هذه السوره ليتسلى بذلك نفوس المؤمنين، و يطيب بذلك قلوبهم بما هم عليه عند نزول السوره من العسر و الشده و الابتلاء من الداخل بنفاق المنافقين و جهاله

الذين فى قلوبهم مرض يفساد الأمور و تقلبها عليهم، و التقصير فى طاعه الله و رسوله، و من الخارج بالدعوه الشاقه الدينيه، و ثوب الكفار من العرب عليهم من جانب، و أهل الكتاب و اليهود منهم خاصه من جانب آخر، و تهديد الكفار كالروم و العجم بالقوه و العده من جانب آخر، و هؤلاء الكافرون و من يحذو حذوهم اشتبه عليهم الأمر فى الركون إلى الدنيا و زخارفها حيث أخذوها غايه و هى مقدمه و الغايه أمامها.

فالسوره كما ترى تبحث عن طبائع الأمم لكن بنحو وسيع يشمل جهات خلقهم و تكوينهم و جميع ما يتعقب ذلك فى مسير حياتهم من الخصائل و أعمال السعاده و الشقاوه و الطاعه و المعصيه فتبين أن ذلك كله تحت قيمومه تعالى لا يقهر فى قدرته، و لا يغلب فى أمره لا فى الدنيا و لا فى الآخره أما فى الدنيا فإنما هو إذن و امتحان، و أما فى الآخره فإنما هو الجزاء إن خيرا فخير و إن شرا فشر.

و كذلك الآيات أعنى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِلَىٰ تَمَامِ تَسْعِ آيَاتِ فِي مَقَامِ بَيَانِ أَنَّ الْكُفَّارَ وَ إِنْ كَذَّبُوا آيَاتِ رَبِّهِمْ وَ بَدَلُوا نِعْمَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيْهَا لِيَتَوَسَّلُوا بِهَا إِلَىٰ رِضْوَانِهِ وَ جَنَّتِهِ فَرَكَنُوا وَ اعْتَمَدُوا عَلَيْهَا وَ اسْتَعْنَوْا بِهَا عَنْ رَبِّهِمْ، وَ نَسُوا مَقَامَهُ لِيَسُوا بِمَعْجِزِينَ وَ لَا غَالِبِينَ فسيأخذهم الله بنفس أعمالهم، و يؤيد عباده المؤمنين عليهم و سيحشرهم إلى جهنم و بس المهاده، و هم مع ذلك غالطون فى الركون إلى ما ليس إلا متاعا فى الحياه الدنيا و عند الله حسن المآب، فالآيات أيضا تبحث عن طبيعه الكفار لكن بنحو وسيع يشمل الصالح و الطالح من أعمالهم.

على أن الآيه التى ذكرها هذا القائل مستشهدا بها على أن الحقائق لا تسند إلا إلى الله و إنما يسند إلى الشيطان الأعمال أعنى قوله تعالى: «كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ» يدل بما حف عليه من القرائن على خلاف ذلك و يؤيد ما ذكرناه و هو قوله تعالى: «وَلَا تَسْتَبُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْتَبُؤُوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»: الأنعام- ١٠٨، و هو ظاهر.

و كذا يظهر فساد ما ذكره بعضهم: أن التزيين على قسمين محمود و مذموم و الأعمال نوعان حسنه و سيئه، و إنما يسند إلى الله سبحانه ما هو منها محمود ممدوح حسن، و الباقي للشيطان

و هو و إن كان حقا من وجه و لكنه إنما يصح في النسبه المستقيمه التي يعبر عنه بالفعل و نحوه فالله سبحانه لا- يفعل إلا الجميل، و لا يأمر بالسوء و الفحشاء، و أما النسبه غير المستقيمه و بالواسطه التي يعبر عنه بالإذن و نحوه فلا مانع عنها، و لو لا ذلك لم يستقم ربوبيته لكل شىء، و خلقه لكل شىء، و ملكه لكل شىء، و انتفاء الشريك عنه على الإطلاق، و القرآن مشحون من هذه النسبه كقوله تعالى: «يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ»: الرعد-٢٧، و قوله: «أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ»: الصف-٥، و قوله: «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمْدُدُهُمْ فِي طُعْيَانِهِمْ»: البقره-١٥، و قوله: «أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا»: الإسراء-١٦، إلى غير ذلك من الآيات، و لم ينشأ خطأهم هذا إلا من جهه ما قصرنا في البحث عن روابط الأشياء و آثارها و أفعالها فحسبوا كل واحد من هذه الأمور الموجوده أمرا مستقل الوجود منقطع الذات عما يحتف به من مجموعه الأشياء و قبيل المصنوعات و ما يتقدم عليها و ما يتأخر عنها.

و لزم ذلك أن يضعوا الحوادث التي هي نتائج تفاعل الأسباب و العلل على ما فطرها الله عليه في مسير السببيه متقطعه متفرقه غير متصله و لا مرتبطه فكانت كل حادثه حدثت عن أسبابها و كل فعل فعله فاعله منقطع الوجود عن غيره مملوكا لصاحبه ليس لغير سببه المتصل به فيه نصيب و لا- في حدوده حظ، فأجرام تدور، و بحر تسرى و فلك تجرى، و أرض تقل، و نبات ينبت، و حيوان يدب، و إنسان يعيش و يكدح لا التيام روحى معنوى يجمعها و لا وحده جسميه من الماده و قوتها: توحدنا.

ثم تعقب ذلك أن يظنوا نظير هذا الانفصال و التلاشى بين عناوين الأعمال و صور الأفعال من خير و شر، و سعادته و شقاوه، و هدى و ضلال، و طاعه و معصيه و إحسان و إساءه، و عدل و ظلم، و غير ذلك فكانت غير مرتبطه الوجود و لا متشابهه التحقق.

و قد ذهلوا عن أن هذا العالم بما يشتمل عليه من أعيان الموجودات و أنواع المخلوقات مرتبط الأجزاء متلائم الأبعاض، يتبدل جزء منه إلى جزء، و يتحول بعضه إلى بعض، فيوما إنسان، و يوما نبات، و يوما جماد، و يوما جمع، و يوما فرق، و حيوه البعض بعينها ممات الآخر، و كون الجديد منه فساد للقديم بعينه.

و كذلك الحوادث الجاربه مرتبطه ارتباط حلقات السلسله أى وضع فرض لواحد منها مؤثر في أوضاع ما يقارنها و ما يتقدمها إلى أقدم العهود المفروضه للعالم

الطبيعي كالسلسله التي تنجر بجر الحلقة منها جميع الحلقات و هو السلسله فأدنى تغير مفروض فى ذره من ذرات هذا العالم يوجب تغير الحال فى الجميع، و إن عزب عن علمنا و إدراكنا أو خفى عن إحساسنا فعدم العلم لا يستلزم عدم الوجود، فهذا مما بينت فى الأبحاث العلميه منذ القديم، و أوضحت الأبحاث الطبيعیه و الرياضيه اليوم أتم إيضاح، و لقد كان القرآن ينبئنا بذلك أحسن الإنباء قبل أن نأخذ فى هذه الأبحاث من فلسفيها و طبيعيتها و رياضيتها بالنقل عن كتب الآخرين ثم بالاستقلال فى البحث، و ذلك بما يذكر من اتصال التدبير فى الآيات السماويه و الأرضيه، و ارتباط ما بينها، و نفع بعضها فى بعض، و اشتراك الجميع فى إقامه غرض الخلقه، و نفوذ القدر فى جميعها و السلوك إلى المعاد، و أن إلى ربك المنتهى.

و كذلك أوصاف الأفعال و عناوين الأعمال مرتبطه الأطراف كارتباط الأمور المتقابله المتعانده فلو لا أحد المتعاندين لم يستقم أمر الآخر كما نشاهده من أمر الصنع و الإيجاد أن تكون شىء ما يحتاج إلى فساد آخر، و سبق أمر يتوقف على لحوق آخر.

و لو لم يتحقق أحد الطرفين من أوصاف الأعمال لم يستقم أمر الآخر فى آثاره المطلوبه منه فى الاجتماع الإنسانى الطبيعى، و لا فى الاجتماع الإلهى الذى هو الدين الحق، فإن الإطاعه مثلا حسنه لأن المعصيه سيئه، و الحسنه موجهه للثواب، لأن السيئه موجهه للعقاب، و الثواب لذيذ للعامل لأن العقاب مؤلم له، و اللذه سعادته مرغوب فيها لأن الألم شقاوه مهروب عنها، و السعاده هى التى يتوجه وجوده بحسب الخلقه إليها و الشقاوه هى التى يتوجه عنها، و لو لا هذه الحركه الوجوديه لبطل الوجود.

فالإطاعه ثم الحسنه ثم الثواب ثم اللذه ثم السعاده هى بحيال المعصيه فالعقاب فالألم فالشقاء و إنما يظهر كل منها بخفاء ما يقابله و يحيى بموته، و كيف يمكن أن تقع دعوه إلى شىء من غير تحذير عما يخالفه؟ و كيف يمكن أن يكون خلافه ممكنا دون أن يكون واقعا بما يدعو إليه من الأغراض و الميول؟.

فقد تبين من ما ذكرناه: أن الواجب فى الحكمه أن يشتمل هذا العالم على الفساد كما يشتمل على الصلاح و على المعصيه كما يشتمل على الطاعه على ما قدره الله فى نظام صنعه و خلقه غير أن الكون و الفساد فى غير الأعمال و أوصافها ينسبان إلى الله سبحانه لأن الخلق

و الأمر له. لا شريك له و قبيل السعاده من الأعمال تنسب إليه بالهدايه نسبه مستقيمه و قبيل الشقاوه منها كوسوسه الشيطان و تسليط الهوى على الإنسان و تأمير الظالمين على الناس و نحو ذلك ينسب إليه تعالى بالإضلال و الإخزاء و الخذلان و نحوها نسبه غير مستقيمه، و هى التى يعبر عنها بالإذن فيقال: إنه تعالى أذن للشيطان أن ينزع بالوسوسه و التسويل، و لم يمنع الإنسان أن يتبع الهوى، و لم يضرب بين الظالم و ما يريد من الظلم بحجاب لأن السعاده و الشقاوه مبيتان على الاختيار، فمن سعد فباختياره، و من شقى فباختياره، و لو لا ذلك لم تتم الحججه، و لم تجر سنه الاختيار و الامتحان.

و لم يمنع هؤلاء الباحثين عن الاسترسال فى هذه المباحث إلا استيحا شهم من و خيم نتائجها بزعمهم، فأما المجبره منهم فزعموا أن لو قالوا بارتباط الأشياء و ضروره تأثير الأسباب و اعترفوا بذلك لزمهم الإيجاب فى جانب الصانع تعالى و سلب قدرته المطلقه على التصرف فى مصنوعاته.

و أما غيرهم فزعموا أن لو أذعنوا بذلك فى مرحله الأعمال و أسندوها إلى إرادته و قدره تعالى لزمهم القول بالإيجاب و الإجبار فى جانب المصنوع و هو الإنسان، و ببطان الاختيار يبطل الثواب و العقاب، و التكليف و التشريع.

مع أنهم كان يسعهم أن يستأنسوا من غير استيحا ش بكلامه تعالى حيث يقول:

«وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ» : يوسف- ٢١ و يقول: «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْمَأْمُرُ» : الأعراف- ٥٤ و يقول: «لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْمَأْرُضِ» : يونس- ٥٥، على أنها و ما يماثلها آيات تعطى البرهان فى ذلك، و قد تقدمت نبذه من هذا البحث فى الكلام على قوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا» : البقره- ٢٦.

و لنرجع إلى ما كنا فيه من الكلام فى قوله تعالى: «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ فَتَقُولُ الْظَاهِرُ أَنْ فاعل زين غيره تعالى و هو الشيطان أو النفس: أما أولا فلأن المقام مقام ذم الكفار بركونهم إلى هذه المشتهيات من المال و الأولاد و استغنائهم بتزينها لهم عن الله سبحانه، و الأليق بمثل هذه الزينه الصارفه عن الله الشاغله عن ذكره أن لا ينسب إليه تعالى.

و أما ثانيا: فلأنه لو كان هذا هو التزيين المنسوب إليه تعالى لكان المراد به الميل

الغريزي الذي للإنسان إلى هذه الأمور فكان الأنسب في التعبير أن يقال: زين للإنسان أو لبني آدم و نحوها كقوله تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ»: التين-٥، وقوله تعالى: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ الْآيَةَ X: الأسرى-٧٠، وأما لفظ الناس فالأعرف منه أن يستعمل في الموارد التي فيها شيء من إلغاء الميز أو حقاره الشخص و دناءه الفكر نحو قوله: «فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا»: الأسرى-٨٩، وقوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى»: الحجرات-١٣ و غير ذلك.

و أما ثالثا: فلأن الأمور التي عدها تعالى بيانا لهذه الشهوات لا تناسب الترتيب الفطري إذ كان الأنسب عليه أن يبدل لفظ النساء بما يؤدي معنى مطلق الزوجية، و لفظ البنين بالأولاد، و لفظ القناطير المقنطره، بالأموال فإن الحب الطبيعي موجود في النساء بالنسبه إلى الرجال كما هو موجود في الرجال بالنسبه إلى النساء، و كذا هو مغروز في الإنسان بالنسبه إلى مطلق الأولاد و مطلق الأموال دون خصوص البنين و خصوص القناطير المقنطره، و لذلك اضطر القائل بكون فاعل زين هو الله سبحانه أن يقول: إن المراد حب مطلق الزوجية و مطلق الأولاد و مطلق الأموال و إنما ذكرت النساء و البنين و القناطير لكونها أقوى الأفراد و أعرفها ثم تكلف في بيان ذلك بما لا موجب له.

و أما رابعا: فلأن كون الترتيب هو المنسوب إلى الله سبحانه لا يلائم قوله تعالى في آخر الآية: ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أُوْثِيكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَُمْ، فإن ظاهره أنه كلام موضوع لصرفهم عن هذه الشهوات الدنيوية و توجيه نفوسهم إلى ما عند الله من الجنان و الأزواج و الرضوان، و لا معنى للصرف عن المقدمه إلى ذى المقدمه فإن في ذلك مناقضه ظاهره و إبطالا للأمرين معا كالذى يريد الشبع و يمتنع عن الأكل.

فإن قلت: الآية أعنى قوله: زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ «إلخ» بحسب الملخص من معناها مساوقه لقوله تعالى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»: الأعراف-٣٢، و لازم انطباق المعنى أن يكون فاعل الترتيب في هذه الآية أيضا هو الله سبحانه.

قلت: بين الآيتين فرق من حيث المقام: فإن المقام فيما نحن فيه: مقام ذم هذه الشهوات المحبوبة للناس لصرْفها وإلهائها للناس عما لهم عند الله، وحثهم على الإعراض عنها والتوجه إلى ما عند الله سبحانه بخلاف تلك الآية فإنها مسوقة لبيان أن هذه النعم زينت للإنسان وأنها للمؤمنين في هذه الدنيا بالاشتراك في الدنيا وبالاختصاص في الآخرة، ولذلك بدل لفظ الناس هناك بلفظ العباد. وعدت هذه الزينة رزقا طيبا.

وإن قلت: إن التزيين علق في الآية على حب الشهوات دون نفس الشهوات، ومن المعلوم أن تزيين الحب للإنسان وجذبه لنفسه وجلبه لقلبه أمر طبيعي وخاصة ذاته له فيئول معنى تزيين الحب للناس إلى جعل الحب مؤثرا في قلوبهم أى خلق الحب فى قلوبهم، ولا ينسب الخلق إلا إلى الله سبحانه فهو الفاعل فى قوله: زين.

قلت: لازم ما ذكرناه من القرائن أن يكون المراد بتزيين الحب جعل الحب بحيث يجذب الناس إلى نفسه ويصددهم عن غيره فإن الزينه هى الأمر المطلوب الجالب الذى ينضم إلى غيره ليجلب الإنسان إلى ذلك الغير بتبع جلبه إلى نفسه كما أن المرأة تزيين بضم أمور تستصحب الحسن والجمال إلى نفسها ليقصدها الرجل بها فالمقصود هو بالحقيقه تلك الأمور والمنتفع من هذا القصد هى المرأة، وبالجملة فيئول معنى تزيين الحب للناس إلى جعله فى أعينهم بحيث يؤدي إلى التوله فيه والولوع فى الاشتغال به لا أصل تأثير الحب كما هو الظاهر من معنى قوله تعالى: «فَخَلَفَ مِنْ بَـعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا»: مريم- ٥٩، ويؤيد هذا المعنى ما سيأتى من الكلام فى العد الواقع فى قوله: مِنَ النِّسَاءِ وَالبَيْنِينَ وَالقَنَاطِيرِ، على أن لفظ الشهوات ربما لم يخل عن الدلالة بالشغف والولوع وإن كان بمعنى المشتهايات.

قوله تعالى: مِنَ النِّسَاءِ وَالبَيْنِينَ وَالقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ «إلخ»، النساء جمع لا واحد له من لفظه، والبين جمع ابن و هو ذكور الأولاد بواسطة أو بلا- واسطه، والقناطير جمع قنطار و هو ملء مسك ذهباً أو هو المسك المملوء، والمقنطره اسم مفعول مشتق من القنطار و هو جامد، وهذا من دأبهم يعتبرون فى الجوامد شيئا من النسب يكسب بها معنى مصدريا ثم يشتقون منه المشتقات كالبائل والتامر و العطار لبائع البقل و التمر و العطر، وفائده توصيف الشيء بالوصف المأخوذ من لفظه تثبت معناه له، والتلميح إلى أنه واجد لمعنى لفظه غير فاقده كما يقال: دنانير مدنره و دواوين

مدونه، و يقال: حجاب محجوب و ستر مستور، و الخيل: هو الأفراس، و المسومه مأخوذه من سامت الإبل سوما بمعنى ذهبت لترعى فهي سائمه، أو من سمت الإبل فى المرعى و أسمتها و سومتها بمعنى أعلمتها. فالخيل المسومه إما المرسله للرعى أو المعلمه، و الأنعام جمع نعم بفتحتين و هو الإبل و البقر و الغنم، و البهائم أعم منه و يطلق على غير الوحش و الطير و الحشرات، و الحرث هو الزرع و فيه معنى الكسب و هو تربيته النبات أو النبات المربى للانتفاع به فى المعاش.

و بناء التعداد فى الآيه ليس على تكثر حب الشهوات بحسب تكثر المشتبهات أعنى متعلقات الشهوه بمعنى أن الإنسان بحسب طبعه يميل إلى الأزواج و الأولاد و المال حتى يتكلف فى توجيه التعبيرات الواقعه فى الآيه كالتعبير عن الإنسان بالناس و التعبير عن الأولاد بخصوص البنين، و التعبير عن المال بالقناطير المقنطره «إلخ» بما تكلف به جمع من المفسرين.

بل على كون الناس أصنافا فى الشغف و الولوع بمشتبهات الدنيا فمن شهوانى لا هم له إلا التعشق بالنساء و غرامهن و التقرب إليهن و الأنس بصحبتهن، و يستصحب ذلك أذنا من وجوه الفساد و معاصى الله سبحانه كاتخاذ المعازف و الأغاني و شرب المسكرات و أمور أخر غيرهما، و هذا مما يختص بالرجال عاده، و لا يوجد فى النساء إلا فى غايه الشذوذ، و من محب للبنين و التكاثر و التقوى بهم كما يوجد غالبا فى أهل البدو، و يختص أيضا للبنين دون البنات، و من مغرم بالمال أكبر همه أن يقنطر القناطير، و يملأ المخازن من وجوه النقد، و ظهور هذا الجنون أيضا فى جمع المال إنما هو فى وجوه النقد من الذهب و الفضة أو ما يتقوم بهما دون أمثال الأثاث إلا أن يراد لأجلهما بوجه، و يوجد غالبا فى الحاضر دون البادى، أو أن المختار عنده اتخاذ الخيل المسومه كالمغرمين بالفروسه و أمثالهم أو اتخاذ الماشيه من الأنعام، أو يستحب الحرث، و ربما يجتمع البعض من هذه الثلاثه الأخيره مع البعض و ربما تفرق.

و هذه أقسام الشهوات التى ينسل الناس إليها صنفا صنفا بالتعلق بواحد منها و جعله أصلا فى اقتناء مزايا الحيوه، و جعل غيره فرعا مقصودا بالقصد الثانى، و قلما يوجد (أو لا يوجد أصلا) فى الناس من ساوى بين جميعها، و قصد الجميع قصدا أولا معتدلا.

و أما مثل الجاه و المقام و الصداره و نحوها فهي جميعا أمور وهميه بالحقيقه إنما

تتعلق الرغبة إليها بالقصد الثاني لا يعد الالتذاذ بها التذاذا شهويا، على أن الآيه ليست في مقام حصر الشهوات.

و من هنا يتأيد ما تقدمت الإشارة إليه من أن المراد بحب الشهوات التوغل و الانغمار في حبه(و هو المنسوب إلى الشيطان)دون أصل الحب المودع في الفطره (و هو المنسوب إلى الله سبحانه).

قوله تعالى: **ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**، أى هذه الشهوات أمور يتمتع بها لإقامه هذه الحيوه التى هى أقرب الحياتين منكم(و هما الحيوه الدنيا و الحيوه الأخرى)، و الحيوه الدنيا و كذا المتاع الذى يتمتع به لها أمر فان دأثر ليس لها عاقبه باقيه صالحه، و صلاح العقبى و حسن المآب إنما هو عند الله سبحانه و هو قوله تعالى:

وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ

قوله تعالى: **قُلْ أَ أُتْبِئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَمَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، الْآيَةِ مَسْوُوقَةٌ لِبَيَانِ قَوْلِهِ: وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** و قد وضع فيها محل هذه الشهوات الفانيه الباطله أمور هى خير للإنسان لكونها باقيه و حسنه حقيقه من غير بطلان، و هى أمور مجانسه لهذه الشهوات فى ما يريد الإنسان من خواصها و آثارها غير أنها خاليه عن القبح و الفساد غير صارفه للإنسان عن ما هو خير منها، و هى الجنه و مطهرات الأزواج و رضوان الله تعالى.

و قد اختصت الأزواج بالذكر مع كون ذكر الجنه كالمشتمل عليها لكون الوقاع أعظم اللذائذ الجسميه عند الإنسان، و لذلك أيضا قدم ذكر النساء فى قوله: **مِنَ النِّسَاءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ** «إلخ».

و أما الرضوان بكسر الراء و ضمها فهو الرضا و هو أن يلائم الأمر الواقع نفس صاحبه من غير أن يتمتع منه و يدافعه، و يقابله السخط.

و قد تكرر فى القرآن ذكر رضى الله سبحانه، و هو منه تعالى كما يتصور بالنسبه إلى فعل عبادته فى باب الطاعه كذلك يتصور بالنسبه إلى غير باب الطاعه كالأوصاف و الأحوال و غير ذلك إلا أن جل الموارد التى ذكر فيها أو كلها من قبيل الرضا بالطاعه، و لذلك ربما قوبل بينه و بين رضا العبد فرضاه عن عبده لطاعته، و رضى العبد عنه

لجزائه الحسن أو لحكمه كقوله تعالى: «رَضِيََ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ: السيئه-٨، وقوله تعالى: «إِنِّي أَنبَأْتُهَا النَّفْسَ الْمُطْمَئِنَّةَ أَرْجِعِي إِلَيَّ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً»: الفجر-٢٨، وقوله تعالى: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا»: البراءة-١٠٠.

و ذكر الرضوان هاهنا أعنى فى عداد ما هو خير للناس من مشتبهات الحيوه الدنيا يدل على أنه نفسه من مشتبهات الإنسان أو يستلزم أمرا هو كذلك عنى بذكره فى مقابل الجنات و الأزواج فى هذه الآيه، و كذا فى مقابل الفضل و الرحمه فى قوله: «فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا»: المائده-٢، وقوله: «وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا»: الحديد-٢٩، وقوله: «بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانًا»: البراءة-٢١.

و لعل الذى يكشف عن هذا الذى أبهمته هذه الآيه هو التدبر فى المعنى الذى ذكرناه و فى قوله تعالى: رَضِيََ اللَّهُ عَنْهُمْ الآيه و قوله: رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً الآيه حيث علق رضاه بأنفسهم، و الرضا عن أنفسهم غير الرضا عن أفعالهم فيعود المعنى إلى أنه لا يمنعهم عن نفسه فيما يسألونه فيقول إلى معنى قوله «لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا»: ق-٣٥، ففى رضوان الله عن الإنسان المشيه المطلقه للإنسان.

و من هنا يظهر: أن الرضوان فى هذه الآيه قوبل به من الشهوات المذكوره فى الآيه السابقه أن الإنسان يحسب أنه لو اقتناها و خاصه القناطر المقنطره من بينها أفادته إطلاق المشيه و أعطته سعه قدره فله ما يشاء، و عنده ما يريد. و قد اشتبه عليه الأمر فإنما يتم ذلك برضا الله الذى إليه أمر كل شىء.

قوله تعالى: وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ. لما تحصل من هذه الآيه و التى قبلها: أن الله أعد للإنسان فى كلتا الدارين (الدنيا و الآخره) نعما يتنعم بها و مآرب أخرى مما تلتد به نفسه كالأزواج، و ما يؤكل و يشرب، و الملك و نحوها، و هى متشابهه فى الدارين غير أن ما فى الدنيا مشترك بين الكافر و المؤمن مبذول لهما معا و ما فى الآخره مختص بالمؤمن لا يشاركه فيها الكفار كان المقام مظنه سؤال الفرق فى ذلك، و بلفظ آخر سؤال وجه المصلحه فى اختصاص المؤمن بنعم الآخره أجاب عنه بقوله: وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، و معناه:

أن هذا الفرق الذى فرق الله به بين المؤمن و الكافر ليس مبنيا على العبث و الجراف

تعالى عن ذلك بل إن في الفريقين أمرا هو المستدعى لهذا الفرق و الله بصير بهم يرى ما فيهم من الفرق و هو التقوى في المؤمن دون الكافر، وقد وصف هذا التقوى و عرفه بما يلحق بهذه الآيه من قوله: الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ وَ ملخصه: أنهم يظهرون فاقتهم إلى ربهم و عدم استغنائهم عنه، و يصدقون ذلك بالعمل الصالح و لكن الكافر يستغنى عن ربه بشهوات الدنيا و ينسى آخرته و عاقبه أمره.

و من أطف ما يستفاد من الآيتين أعنى قوله تعالى: ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أَ أُتْبِكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ وَ مَا فِي مَعْنَاهُمَا مِنَ الْآيَاتِ كقوله تعالى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»، الأعراف-٣٢، الجواب عن إشكال استوجهه كثير من الباحثين على ظواهر الآيات الواصفه لنعم الجنه.

أما الإشكال فهو أن المتأمل في أطوار وجود هذه الموجودات المشهوده في هذا العالم لا يشك في أن الأفعال الصادره منها و أعمالها التي يعملها إنما هي متفرعه على القوى و الأدوات التي جهز بها كل واحد منها ليدفع بها عن وجوده و يحفظ بها بقاءه كما يحققه البحث عن الغايات الوجوديه و أن الوجود لا يستند إلى اتفاق أو جزاف أو عبث.

فهو ذا الإنسان مجهز في جميع بدنه بجهاز دقيق في غايه الدقه يتمشى به أمر تغذيه، و إنما يتغذى لتهيئه بدل ما يتحلل من أجزائه و إنما يفعل ذلك ليمد وجوده للبقاء، و أيضا هو مجهز بجهاز التناسل على ما فيه من الأدوات و القوى الفعاله و المترتبه ليحفظ بقاء نوعه و الأمر في وجود النبات و الحيوان نظير الأمر في تجهيز الإنسان.

ثم إن الخلقه احتالت في تسخيرها و خاصه في تسخير ذوات الشعور منها و هي الحيوان و الإنسان بإبداع لذائذ في أفعالها و إبداعها في القوى لتسبق إلى الأفعال لأجل هذه اللذائذ و هي لا تشعر أن الخلقه تريد منها غايتها و هي بقاء الوجود و تغرها بتطميعها باللذه التي تزينا لها فيحصل بذلك ما يريده الخلقه، و يلتذ الفاعل بهذه الزينه التي تغرها و يلعب بها، فلو لا ما في الغذاء و النكاح مثلا من اللذه لما قصدهما الإنسان مثلا لمجرد كونهما مقدمه للبقاء، و بطل بذلك غرض الخلقه لكن الله سبحانه أودع

فيه لهذه الغذاء ولذو النكاح لا يستريح الإنسان في طريق النيل إليهما دون أن يتحمل كل تعب و عناء و يقاسى كل مصيبه و بلاء، و هو في اقتناء هذه الشهوات مختال فخور بما ليس فيه إلا الغرور، و أما الصنع و الخلقه فينال بغيته و يبلغ أمنيته فإنه ما كان يريد بهذا التدبير إلا بقاء وجود الفرد و قد حصل بالتغذى، و إلا بقاء وجود النوع و قد حصل بالنكاح و السفاد و لم يبق للإنسان مثلا فيما كان يريد إلا الخيال.

و إذا كان هذه اللذائذ الدنيويه مقصوده في الخلقه لأجل غرض محدود معجل فلا معنى لتحققها في ما لا تحقق هناك لذلك الغرض، فلذو الأكل و الشرب و جميع اللذائذ الراجعه إلى التغذى مقصوده في الطبيعه لأجل حفظ البدن عن آفه التحلل و فساد التركيب و هو الموت، و لذو النكاح و جميع اللذائذ المرتبطه به و هى أمور جمه إنما تقصدها الخلقه لأجل حفظ النوع من الفناء و الاضمحلال، فلو فرض للإنسان وجود لا يلحقه موت و لا فناء و حيوه مأمونه من كل شر و مكروه فأى فائده تترتب على وجود القوى البدنيه التى تعمل لأجل تحصيل بقاء الشخص أو النوع؟ و أى ثمره يثمرها تجهيزات البدن و أعضاؤه كالكلى و المثانه و الطحال و الكبد و غيرها و جميعها إنما أوجدت لأعمال تنفع في البقاء المعجل المحدود دون البقاء المخلد المؤبد؟.

و أما الجواب فهو أن الله سبحانه إنما خلق ما خلق من لذائذ الدنيا و النعم التى تتعلق بها هذه اللذائذ زينه في الأرض ليقصدها الإنسان فينجذب إلى الحيوه و يتعلق بها كما قال: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا»: الكهف-٧، و قال «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»: الكهف-٤٦، و قال: «تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»: النساء-٩٤، و قال- و هو أجمع للغرض -: «وَلَا تُمَدِّدْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ»: طه-١٣١، و قال أيضا: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ زِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ»: القصص-٦٠، إلى غير ذلك من الآيات، و جميعها تبين أن هذه النعم الموجوده في الدنيا، و اللذائذ المتعلقة بها أمور مقصوده لأجل الحيوه و أمتعته يتمتع بها لأجل الحيوه هذه الحيوه المحدوده التى لا تتعدى أياما قلائل، فلو لا الحيوه لما كانت هى مقصوده و لا مخلوقه، و هذا هو حق الأمر!.

لكن يجب أن يعلم أن وجود الإنسان الباقي ليس إلا هذا الوجود الذى يمكن

هاهنا برهه من الزمان بتحوّله من طور إلى طور، وليس ذلك إلا- روحا كائنا من بدن و على بدن هو مجموع هذه الأجزاء المأخوذة من هذه العناصر و القوى الفعاله فيها، و لو فرض ارتفاع هذه الأمور التي نعدّها مقصوده للبقاء لم يبق وجود و لا بقاء أعنى أن فرض عدمها هو فرض عدم الإنسان رأسا لا فرض عدم استمرار وجود الإنسان فافهم ذلك.

فالإنسان في الحقيقه هو الذى ينشعب أفرادا و يأكل و يشرب و ينكح و يتصرف في كل شىء بالأخذ و الإعطاء و يحس و يتخيل و يعقل و يسر و يفرح و يتهيج و هكذا، كل ذلك ملائم لذاته الذى هو كالمجموع منها و بعضها مقدمه لبعضها، و هو السائر الدائر في مثل مسافه دوريه.

فإذا نقله الله من دار الفناء إلى دار البقاء و كتب عليه الخلود و الدوام إما بثواب دائم أو بعقاب دائم لم يكن ذلك بإبطال وجوده و إيجاد وجود باق بل بإثبات وجوده بعد ما كان متغيرا في معرض الزوال فهو لا محاله إما متنعم بنعم من سنخ نعم الدنيا لكنها باقيه أو نقم و مصائب من سنخ نقم الدنيا و مصائبها. و كل ذلك منكوح أو مأكول أو مشروب أو ملبوس أو مسكون أو قرين أو سرور أو نحو ذلك.

فالإنسان هو الإنسان و ما يحتاج إليه و يستكمل به هو الذى كان يحتاج إليه و يستكمل به من مطالبه و مقاصده و إنما الفرق هو اختلاف الدارين بالبقاء و ما يلحق به.

هذا هو الذى يظهر من كلامه سبحانه حيث يبين حقيقه البنيه الإنسانيه فيقول:

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعِيدٌ ذَلِكَ لَمَعْنُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ»: المؤمنون-١٦، انظر إلى موضع قوله: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا»، و الخلق هو الجمع و التركيب، و إلى موضع قوله: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ»، الدال على تبديل نحو الخلق و الإيجاد، و إلى موضع قوله:

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، و المخاطب به هو الذى أنشئ خلقا آخر.

و يقول أيضا: «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ»: الأعراف-٢٥ فيفيد أن حيوه الإنسان حيوه أرضيه مؤلفه من نعمها و من نقمها. و تقدم بعض الكلام

فى هذا المعنى فى تفسير قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ الْآيَةَ ۗ:البقره-٢١٣.

وقد قال تعالى فى هذه النعم الأرضيه: «ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» ثم قال: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ۗ:الرعد-٢٦، فجعل نفس الحيوه الدنيا متاعا فى الآخره يتمتع به، وهذا من أبدع البيان، و باب يفتح به للمتدبر ألف باب، و فيه تصديق

قول رسول الله ص: كما تعيشون تموتون و كما تموتون تبعثون.

و بالجمله الحيوه الدنيا هى الوجود الدنيوى بما كسب من حسنه أو سيئه و هو الذى يتمتع به فى الآخره من حيث سعاده و شقائه أى ما يراه فوزا و فلاحا لنفسه و ما يراه خيبه و خسرانا فيعطى سعاده بإعطاء لذائذه أو يحرم من نيلها و هما نعيم الجنه و عذاب النار.

و بعباره أخرى واضحه، للإنسان مثلا سعاده بحسب الطبيعه و شقاء بحسبها فى بقائه شخصا و نوعا و هما منوطتان بفعله الطبيعى من الأكل و الشرب و النكاح و قد زينت له بلذائذ مقدميه و هذا بحسب الطبيعه ثم إذا أخذ الإنسان فى الاستكمال و أخذ فى الفعاليه بالشعور و الإراده صار نوعا كماله هو الذى يختاره شعوره و إرادته فما لا يشعر به و لا يشاؤه ليس كمالا لهذا الموجود الشاعر المرید و إن كان كمالا طبيعيا و كذا العكس كما نرى أنا لا نلتذ بما لا نشعر به و إن كان من سعاده الطبيعه كصحه البدن و المال و الولد، و نلتذ بما نشعر به من اللذائذ و إن لم يطابق الخارج كالمريض المعتقد للصحه و نظائر ذلك فهذه اللذائذ المقدميه تصير كمالا- حقيقيا لهذا الإنسان و إن كانت كمالات مقدميه للطبيعه فإذا أبقي الله سبحانه هذا الإنسان بقاء مخلدا كانت سعاده هى التى يشاؤها من اللذائذ، و شقاؤه هو الذى لا يشاؤه سواء كانت بحسب الطبيعه مقدمه أو لم يكن، إذ من البديهى أن خير الشخص أو القوه الشاعر المریده هو فيما يعلم به و يشاؤه، و شره فيما يعلم به و لا يريده.

فقد تحصل أن سعاده الإنسان أن ينال فى الآخره ما كان يريده من لذائذ الحيوه فى الدنيا من الأكل و الشرب و النكاح و ما فوق ذلك و هو الجنه، و شقاؤه أن لا ينال ذلك و هو النار. قال تعالى: «لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُنَ»: النحل-٣١.

قوله تعالى: الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ وَ صف

للمتقين المدلول عليهم بقوله في الآية السابقة: **لَّذِينَ اتَّقَوْا**، فوصفهم أنهم يقولون ربنا وفيه إظهار للعبودية بذكره تعالى بالربوبية واسترحام منه تعالى فيما يسألونه بقولهم:

إِنَّا آمَنَّا

و الجملة ليست في مقام الامتنان عليه تعالى فإن المن منه تعالى بالإيمان كما قال تعالى: **«بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ»**: الحجرات- ١٧ بل استنجاز لما وعد الله تعالى عباده أنه يغفر لمن آمن منهم، قال تعالى: **«وَ آمَنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ»**: الأحقاف- ٣١، وذلك فرعوا عليه قولهم: **فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا**، بفاء التفریع. و في تأكيد قولهم بأن دلاله على صدقهم و ثباتهم في إيمانهم.

و المغفرة للذنوب لا يستلزم التخلص من العذاب بمعنى أن الوقاية من عذاب النار فضل من الله سبحانه بالنسبة إلى من آمن به و عبده من غير استحقاق من العبد يثبت له حقا على الله سبحانه أن يجيره من عذاب النار، أو ينعمه بالجنة فإن الإيمان و الإطاعة أيضا من نعمه و لا- يملك غيره تعالى منه شيئا إلا ما جعله على نفسه من حق، و من الحق الذي جعل على نفسه لعباده أن يغفر لهم و يقيهم عذاب النار إن آمنوا به، قال تعالى:

«وَ آمَنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يَجْزِيَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ»: الأحقاف- ٣١.

و ربما استفيد من بعض الآيات أن الوقاية من عذاب النار هو المغفرة و الجنة كقوله تعالى: **«هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ»**: الصف- ١٢، فإن في الآيتين الأخيرتين تفصيل لما أجمل في الآية الأولى من قوله: **هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ**، و هذا معنى دقيق سنشرحه في مورد يناسبه إن وفقنا له.

قوله تعالى: **الصَّابِرِينَ وَ الصَّادِقِينَ** إلى آخر الآية و وصفهم بخمس خصال لا- يشذ منها تقوى من متق، فالصبر لسبقه على بقيه الخصال و إطلاقه يشمل أقسام الصبر، و هي ثلاث: صبر على الطاعة، و صبر عن المعصية، و صبر عند المصيبة.

و الصدق و إن كان بحسب تحليل حقيقته هو مطابقه ظاهر الإنسان من قول و فعل لباطنه لكنه بهذا المعنى يشتمل جميع الفضائل الباقية كالصبر و القنوت و غيرهما و ليس بمراد فالمراد به (و الله أعلم) الصدق في القول فحسب.

و القنوت هو الخضوع لله سبحانه و يشمل العبادات و أقسام النسك و الإنفاق هو

بذل المال لمن يستحق البذل والاستغفار بالأسحار يستلزم قيام آخر الليل والاستغفار فيه، والسنة تفسره بصلوه الليل والاستغفار في قنوت الوتر، وقد ذكر الله أنه سبيل الإنسان إلى ربه كما في سورتي المزمل والدهر من قوله تعالى بعد ذكر قيام الليل والتهجد به: «إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَيَّ رَبِّهِ سَبِيلًا»: المزمل- ١٩ الدهر- ٢٩.

قوله تعالى: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، أصل الشهادة هو المعاينة أعني تحمل العلم عن حضور و حس ثم استعمل في أدائها وإظهار الشاهد ما تحمله من العلم ثم صار كالمشترك بين التحمل والتأديه بعنايه وحده الغرض فإن التحمل يكون غالباً لحفظ الحق والواقع من أن يبطل بنزاع أو تغلب أو نسيان أو خفاء فكانت الشهادة تحفظاً على الحق والواقع، فبهذه العنايه كان التحمل والتأديه كلاهما شهادة أى حفظاً وإقامه للحق والقسط هو العدل.

ولما كانت الآيات السابقة أعني قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، إلى قوله: وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَشْيَارِ، تبين: أن الله سبحانه لا إله غيره ولا يغنى عنه شيء، وأن ما يحسبه الإنسان مغنيا عنه ويركن إليه في حياته ليس إلا زينه وإلا متاعاً خلقه الله ليتمتع به في سبيل ما هو خير منه ولا ينال إلا بتقوى الله تعالى، وبعبارة أخرى: هذه النعم التي يحن إليها الإنسان مشتركة في الدنيا بين الكافر والمؤمن مختصة في الآخرة بالمؤمن أقام الشهادة في هذه الآية على أن هذا الذي بينته الآيات حق لا ينبغي أن يرتاب فيه.

فشهد (وهو الله عز اسمه) على أنه لا إله إلا هو وإذ ليس هناك إله غيره فليس هناك أحد يغنى عنه شيئاً من مال أو ولد أو غير ذلك من زينه الحيوه أو أى سبب من الأسباب إذ لو أغنى شيء من هذه منه شيئاً لكان إليها دونه أو معتمداً إلى إله دونه منتهاياً إليه ولا إله غيره.

شهد بهذه الشهادة وهو قائم بالقسط في فعله، حاكم بالعدل في خلقه إذ دبر أمر العالم بخلق الأسباب والمسببات وإلقاء الروابط بينها، وجعل الكل راجعاً إليه بالسير والكدح والتكامل وركوب طبق، عن طبق ووضع في مسير هذا المقصد نعماً ليتنفع

منها الإنسان في عاجله لأجله و في طريقه لمقصده لا ليركن إليه و يستقر عنده فالله يشهد بذلك و هو شاهد عدل.

و من لطيف الأمر أن عدله يشهد على نفسه و على وحدته في ألوهيته أي إن عدله ثابت بنفسه و مثبت لوحدانته، بيان ذلك: أنا إنما نعتبر في الشاهد العدالة ليكون جاريا على مستوى طريق الحيوه ملازما لصراط الفطره من غير أن يميل إلى إفراط أو تفريط فيضع الفعل في غير موضعه فتكون شهادته مأمونه عن الكذب و الزور فملازمه الصدق و المجاراه مع صراط التكوين يوجب عداله الإنسان فنفس النظام الحاكم في العالم و الجارى بين أجزائه الذى هو فعله سبحانه هو العدل محضا.

و نحن في جميع الوقائع التى لا ترضى بها نفوسنا من الحوادث الكونيه أو نجدها على خلاف ما نميل إليه و نطمع فيه ثم نعترض عليها و نناقش فيها إنما نذكر في الاعتراض عليه ما يظهر لنا من حكم عقولنا أو تميل إليه غرائزنا، و جميع ذلك مأخوذه من نظام الكون ثم نبحت عنها فيظهر سبب الحادته فتسقط الشبهه أو نعجز عن الحصول على السبب فلا يقع في أيدينا إلا الجهل بالسبب أى عدم العلم دون العلم بالعدم، فنظام الكون (و هو فعل الله سبحانه) هو العدل فافهم ذلك.

و لو كان هناك إله يغنى منه فى شىء من الأمور لم يكن نظام التكوين عدلا مطلقا بل كان فعل كل إله عدلا بالنسبه إليه و فى دائره قضائه و عمله.

و بالجملة فالله سبحانه يشهد، و هو شاهد عدل، على أنه لا إله إلا هو يشهد لذلك بكلامه و هو قوله: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، على ما هو ظاهر الآيه الشريفه، فالآيه فى اشتمالها على شهادته تعالى للتوحيد نظيره قوله تعالى: «لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» : النساء-١٦٦.

و الملائكه يشهدون بأنه لا إله إلا هو، فإن الله يخبر فى آيات مكيه نازله قبل هذه الآيات بأنهم عباد مكرمون لا يعصون ربهم و يعملون بأمره و يسبحونه و فى تسيحهم شهاده أن لا- إله غيره، قال تعالى: «بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» : الأنبياء-٢٧، و قال تعالى: «وَ الْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» : الشورى-٥

و أولوا العلم يشهدون أنه لا إله إلا هو يشاهدون من آياته الآفاقية و الأنفسية و قد ملأت مشاعرهم و رسخت في عقولهم.

و قد ظهر مما تقدم أولاً أن المراد بالشهادة شهادة القول على ما هو ظاهر الآية الشريفة دون شهادة الفعل و إن كانت صحيحة حقه في نفسها فإن عالم الوجود يشهد على وحدانيته في الألوهية بالنظام الواحد المتصل الجارى فيه، و بكل جزء من أجزائه التي هي أعيان الموجودات.

و ثانياً: أن قوله تعالى: قَائِمًا بِالْقِسْطِ حال من فاعل قوله: شَهِدَ اللَّهُ، و العامل فيه شهد، و بعبارة أخرى قيامه بالقسط ليس بمشهود له لا- له تعالى و لا- للملائكة و أولى العلم بل الله سبحانه حال كونه قائماً بالقسط يشهد أن لا إله إلا هو و الملائكة و أولوا العلم يشهدون بالوحدانية كما هو ظاهر الآية حيث فرقت بين قوله: لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، و قوله:

قَائِمًا بِالْقِسْطِ

:بتوسيط قوله: وَ الْمَلَائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ، و لو كان القيام بالقسط من أجزاء الشهادة لكان حق الكلام أن يقال: إنه لا إله إلا هو قائماً بالقسط و الملائكة، و من ذلك يظهر ما فيما ذكره عدة من المفسرين في تفسير الآية من الجهتين جميعاً كما لا يخفى على من راجع ما ذكره في المقام.

و من أردى الإشكال ما ذكره بعضهم: أن حمل الشهادة على الشهادة الكلامية كما مر يوجب الاستناد في أمر التوحيد إلى النقل دون العقل مع كونه حينئذ متوقفاً على صحة الوحي فإن صدق هذه الشهادة يتوقف على كون القرآن وحياً حقاً و هو متوقف عليه فيكون بياناً دورياً، و من هنا ذكر بعضهم أن المراد بالشهادة هنا معنى استعاري بدعوى أن دلالة جميع ما خلقه الله من خلق على ما فيها من وحده الحاجة و اتصال النظام على وحده صانعها بمنزلة نطقه و إخباره تعالى بأنه واحد لا إله غيره و كذا عبادة ملائكته له و إطاعتهم لأمره، و كذا ما يشاهده أولوا العلم من أفراد الإنسان من آيات وحدانيته بمنزلة شهادتهم على وحدانيته تعالى.

و الجواب: أن فيه خلطاً و مغالطه فإن النقل إنما لا يعتمد عليه للعقل أو الحس إليه سبيل لكونه لا يفيد العلم فيما يجب فيه تحصيل العلم، أما لو فرض إفادته من العلم ما يفيد العقل مثلاً- أو أقوى منه كان في الاعتبار مثل العقل أو أقوى منه كما أن المتواتر من الخبر أقوى أثراً و أجلى صدقاً من القضييه التي أقيم عليها برهان مؤلف من

مقدمات عقلية نظريه و إن كانت يقينيه و أنتجت اليقين.

فإذا كان الشاهد المفروض يمتنع عليه الكذب و الزور بصريح البرهان كانت شهادته تفيد ما يفيد البرهان من اليقين، و الله سبحانه (و هو الله الذى لا سبيل للنقص و الباطل إليه) لا يتصور فى حقه الكذب فشهادته على وحدانيه نفسه شهاده حق كما أن إخباره عن شهاده الملائكه و أولى العلم يثبت شهادتهم.

على أن من أثبت له شركاء كالأصنام و أربابها فإنما يثبتها بعنوان أنها شفعاء عند الله و وسائط بينه و بين خلقه كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى»: الزمر-٣، و كذا من اتخذ له شريكا بالشرك الخفى من هوى أو رئيس مطاع أو مال أو ولد إنما يتخذه سببا من الله غير أنه مستقل بالتأثير بعد حصوله له، و بالجمله ما اتخذ له من شريك فإنما يشاركه فيما يشاركه بتشريكه لا بنفسه، و إذا شهد الله على أنه لم يتخذ لنفسه شريكا أبطل ذلك دعوى من يدعى له شريكا، و جرى الكلام مجرى قوله: «قُلْ أَتُبَيِّنُونَ لِلَّهِ بَلَاءًا لَّا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ»: يونس-١٨، فإنه إبطال لدعوى وجود الشريك بأن الله لا يعلم به فى السموات و الأرض و لا يخفى عليه شىء، و بالحقيقه هو خبر مثل سائر الأخبار الصادره عن مصدر الربوبيه و العظمه كقوله: «سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ»: يونس-١٨، و نحو ذلك، غير أنه لوحظ فيه انطباق معنى الشهاده عليه لكونه خيرا فى مورد دعوى، و المخبر به قائم بالقسط فكان شهاده فعبر بلفظ الشهاده تفننا فى الكلام، فيثول المعنى إلى أنه لو كان فى الوجود أرباب من دون الله مؤثرون فى الخلق و التدبير شركاء أو شفعاء فى ذلك لعلمه الله و شهد به لكنه يخبر أنه ليس يعلم لنفسه شريكا فلا شريك له، و لعلم و اعترف به الملائكه الكرام الذين هم الوسائط المجرون للأمر فى الخلق و التدبير لكنهم يشهدون أن لا شريك له، و لعلم به و شهد أثره أولوا العلم لكنهم يشهدون بما شاهدوا من الآيات أن لا شريك له.

فالكلام نظير قولنا: لو كان فى المملكه الفلانيه ملك مؤثر فى شئون المملكه و إداره أمورها غير الملك الذى نعرفه لعلم به الملك و عرفه لأنه من المحال أن لا يحس بوجوده و هو يشاركه، و لعلم به القوى المجريه و العمال المتوسطون بين العرش و الرعيه و كيف يمكن أن لا يشعروا بوجوده و هم يحملون أوامره و يجرون أحكامه بين ما فى

أيديهم من الأحكام و الأوامر و لعلم به العقلاء من عامه أهل المملكة و كيف لا و هم يطيعون أوامره و عهوده و يعيشون في ملكه لكن الملك ينكر وجوده، و عمال الدولة لا يعرفونه، و عقلاء الرعيه لا يشاهدون ما يدل على وجوده؟ فليس.

قوله تعالى: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، الجملة كالمعترضه الدخيله في الكلام لاستيفاء حق معترض يفوت لو لا ذكره مع عدم كونه مقصودا في الكلام أصاله، و من أدب القرآن أن يظهر تعظيم الله جل شأنه في موارد يذكر أمره ذكرا يخطر منه بالبال ما لا يليق بساحه كبريائه كقوله تعالى: «قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ» : يونس- ٦٨، فقوله: سبحانه قصد به التعظيم في مقام يحكى فيه قول لا يلائم حقه تعالى، و نظيره بوجه قوله تعالى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ» X الآيه X: المائده- ٦٤.

و بالجملة لما اشتمل أول الآيه على شهاده الله و الملائكه و أولى العلم- بنفى الشريك كان من حق الله سبحانه على من يحكى و يخبر عن هذه الشهاده أعنى المتكلم (و هو في الآيه هو الله سبحانه) و على من يسمع ذلك أن يوحد الله بنفى الشريك عنه فيقول: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. نظير ذلك قوله تعالى في قصه الإفك: «وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ»: النور- ١٦، فإن من حقه تعالى عليهم أن إذا سمعوا بهتانا و أرادوا تنزيهه من بهت عليه أن ينزهوا الله قبله فإنه تعالى أحق من يجب تنزيهه.

فموضع قوله: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ موضع الثناء عليه تعالى لاستيفاء حق تعظيمه و لذا تتم بالاسمين العزيز الحكيم، و لو كان في محل النتيجة من الشهاده لكان حق الكلام أن يتم بوصفى الوحده و القيام بالقسط، فهو تعالى حقيق بالتوحيد إذا ذكرت الشهاده المذكوره على وحدانيته لأنه المتفرد بالعزه التي يمنع جانبه أن يستدل بوجود شريك له في مقام الألوهيه، و المتوحد بالحكمه التي تمنع غيره أن ينقض أمره في خلقه أو ينفذ في خلال تدبيره و ما نظمه من أمر العالم فيفسد عليه ما أراده.

و قد تبين بما مر من البيان وجه تكرار كلمه التوحيد في الآيه، و كذا وجه تميمها بالاسمين: العزيز الحكيم، و الله العالم.

فى المجمع،: فى قوله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ لَّيْسَ لَهُمْ صَوْلَةٌ بِمَا كَفَرُوا -روى محمد بن إسحاق عن رجاله قال: لما أصاب رسول الله ص قريشا ببدر و قدم المدينة -جمع اليهود فى سوق قينقاع فقال: يا معشر اليهود -احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر، و أسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم -و قد عرفتم أنى نبي مرسل تجدون ذلك فى كتابكم - فقالوا: يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما أغمارا -لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصه - إنا و الله لو قاتلناك -لعرفت أنا نحن الناس فأنزل الله هذه الآية:

أقول: و رواه فى الدر المنثور، عن ابن إسحاق و ابن جرير و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس، و روى ما يقرب منه القمى فى تفسيره،

و قد عرفت مما تقدم: أن سياق الآيات لا يلائم نزولها فى حق اليهود كل الملاءمه، و أن الأنسب بسياقها أن تكون نازله بعد غزوه أحد، و الله أعلم.

و فى الكافى، و تفسير العياشى، عن الصادق (ع): ما تلذذ الناس فى الدنيا و الآخره - بلذه أكبر لهم من لذه النساء، و هو قوله: زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَ النِّبِينَ - الآية ثم قال: و إن أهل الجنة ما يتلذذون بشيء من الجنة - أشهى عندهم من النكاح، لا طعام و لا شراب.

أقول: و قد استفيد ذلك من الترتيب المجمعول فى الآية للشهوات ثم تقديم النساء على باقى المشتبهات ثم جعل هذه الشهوات متاع الدنيا و شهوات الجنة خيرا منها.

و مراده (ع) من الحصر فى كون النكاح أكبر لذائد الناس إنما هو الحصر الإضافى أى إن النكاح أكبر لذه بالنسبه إلى هذه الشهوات المتعلقة بجسم الإنسان، و أما غيرها كالتذاذ الإنسان بوجود نفسه أو التذاذ ولى من أولياء الله تعالى بقرب ربه و مشاهدته آياته الكبرى و لطائف رضوانه و إكرامه و غيرها فذلك خارج عن مورد كلامه (ع)، و قد قامت البراهين العلميه على أن أعظم اللذائد التذاذ الشىء بنعمه وجوده، و أخرى على أن التذاذ الأشياء بوجود ربه أعظم من التذاذها بنفسها. و هناك روايات كثيره داله على أن التذاذ العبد بلذه الحضور و القرب منه تعالى أكبر عنده من كل لذه،

و قد

روى في الكافي، عن الباقر (ع): كان علي بن الحسين (ع) يقول: إنه يسخرى نفسى فى سرعه الموت-و القتل فىنا قول الله تعالى: «أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا» و هو ذهاب العلماء، و سيجىء عدده من هذه الروايات فى المواضع المناسبه لها من هذا الكتاب.

و فى المجمع: فى قوله تعالى: الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ عَنِ الْبَاقِرِ وَالصَّادِقِ (ع) القنطار ملء مسك ثور ذهاب.

و فى تفسير القمى، قال (ع): الخيل المسومه المرعيه.

و فى الفقيه، و الخصال، عن الصادق (ع): من قال فى وتره إذا أوتر: أستغفر الله و أتوب إليه سبعين مره-و هو قائم فواظب على ذلك-حتى تمضى سنه كتبه الله عنده من المستغفرين بالأسحار، و وجبت له المغفره من الله تعالى.

أقول: و هذا المعنى مروى فى روايات أخر عن أئمه أهل البيت، و هو من سنن النبى ص،

و روى ما يقرب منه فى الدر المنثور، أيضا عن ابن جرير عن جعفر بن محمد قال: من صلى من الليل ثم استغفر فى آخر الليل سبعين مره-كتب من المستغفرين، و قوله (ع): و وجبت له المغفره من الله، مستفاد من قوله تعالى حكاية عنهم:

فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا

، فإن فى الحكايه لدعائهم من غير رد إمضاء للاستجابه.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٩ الى ٢٥]

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنْ اتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنَ الْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْجَابِدِ (٢٠) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيَّيْنَ بَغْيٍ حَقٌّ وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)

الآيات متعرضه لحال أهل الكتاب و هم آخر الفرق الثلاث التي تقدم أنها عرضة للكلام فى هذه السوره، و أهمهم بحسب قصد الكلام أهل الكتاب من اليهود و النصارى، ففيهم و فى أمرهم نزل معظم السوره و إليهم يعود.

قوله تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ، قد مر معنى الإسلام بحسب اللغه و كان هذا المعنى هو المراد هاهنا بقريته ما يذكره من اختلاف أهل الكتاب بعد العلم بغيا بينهم فيكون المعنى: أن الدين عند الله سبحانه واحد لا اختلاف فيه لم يأمر عباده إلا به، و لم يبين لهم فيما أنزله من الكتاب على أنبيائه إلا إياه، و لم ينصب الآيات الداله إلا له و هو الإسلام الذى هو التسليم للحق الذى هو حق الاعتقاد و حق العمل، و بعبارة أخرى هو التسليم للبيان الصادر عن مقام الربوبيه فى المعارف و الأحكام، و هو و إن اختلف كما و كيفا فى شرائع أنبيائه و رسله على ما يحكيه الله سبحانه فى كتابه غير أنه ليس فى الحقيقه إلا أمرا واحدا و إنما اختلاف الشرائع بالكمال و النقص دون

التضاد و التنافى، و التفاضل بينها بالدرجات، و يجمع الجميع أنها تسليم و إطاعه لله سبحانه فيما يريده من عباده على لسان رسله.

فهذا هو الدين الذى أراد الله من عباده و بينه لهم، و لازمه أن يأخذ الإنسان بما تبين له من معارفه حق التبين، و يقف عند الشبهات و قوف التسليم من غير تصرف فيها من عند نفسه و أما اختلاف أهل الكتاب من اليهود و النصارى فى الدين مع نزول الكتاب الإلهى عليهم، و بيانه تعالى لما هو عنده دين و هو الإسلام له فلم يكن عن جهل منهم بحقيقه الأمر و كون الدين واحدا بل كانوا عالمين بذلك، و إنما حملهم على ذلك بغيهم و ظلمهم من غير عذر و ذلك كفر منهم بآيات الله المبينه لهم حق الأمر و حقيقته لا- بالله فإنهم يعترفون به، و من يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب، يحاسبه سريعا فى دنياه و آخرته: أما فى الدنيا فبالخزى و سلب سعادته الحيوه عنه، و أما فى الآخرة فبالإيم عذاب النار.

و الدليل على عموم سرعه الحساب للدنيا و الآخرة قوله تعالى بعد آيتين: [□] أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

و مما تقدم يظهر أولا: أن المراد بكون الدين عند الله و حضوره لديه سبحانه هو الحضور التشريعى بمعنى كونه شرعا واحدا لا يختلف إلا- بالدرجات و بحسب استعدادات الأمم المختلفه دون كونه واحدا بحسب التكوين بمعنى كونه واحدا مودعا فى الفطره الإنسانيه على و تيره واحده.

و ثانيا: أن المراد بالآيات هو آيات الوحى، و البيانات الإلهيه التى ألقاها إلى أنبيائه دون الآيات التكوينيّه الداله على الوحديّيه و ما يزاملها من المعارف الإلهيه.

و الآيه تشتمل على تهديد أهل الكتاب بما يستدل عليه بالبغى و هو الانتقام، كما يشتمل قوله تعالى فى الآيات السابقه: [□] قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَيِّئَاتٌ وَ تُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ الْآيَه على تهديد المشركين و الكفار، و لعل هذا هو السبب فى أنه جمع أهل الكتاب و المشركين معا فى الآيه التاليه فى الخطاب بقوله: [□] قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُمْ «إلخ»، و فيه إشعار بالتهديد أيضا.

[□] قوله تعالى: فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنْ اتَّبَعَنِ، الضمير فى حَاجُّوكَ

راجع إلى أهل الكتاب و هو ظاهر و المراد به محاجتهم فى أمر الاختلاف بأن يقولوا:

إن اختلافنا ليس لبغى منا بعد البيان بل إنما هو شىء ساقنا إليه عقولنا و أفهامنا و اجتهادنا فى تحصيل العلم بحقائق الدين من غير أن ندع التسليم لجانب الحق سبحانه و أن ما تراه و تدعو إليه يا محمد من هذا القبيل، أو يقولوا ما يشابه ذلك، و الدليل على ذلك قوله: فَقُلْ: أَسْلِمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ، و قوله: وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَسْلِمْتُمْ، فإن الجملتين حجه سيقت لقطع خصامهم و حجاجهم لا إعراض عن المحاجه معهم.

و معناها مع حفظ ارتباطها بما قبلها: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ لا يختلف فيه كتب الله و لا يرتاب فيه سليم العقل، و يتفرع عليه أن لا حجه عليك فى إسلامك و أنت مسلم، فإن حاجوك فى أمر الدين فَقُلْ: أَسْلِمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَ مَنْ اتَّبَعَنِي فَهَذَا هُوَ الدِّينُ وَ لا حجه بعد الدين فى أمر الدين ثم سلهم: أَسْلَمُوا فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا و ليقبلوا ما أنزل الله عليك و على من قبلك و لا حجه عليهم و لا مخاصمه بعد ذلك بينكم، و إن تولوا فلا تخصمهم و لا تحاجهم فلا ينبغى الخصام فى أمر ضرورى، و هو أن الدين هو التسليم لله سبحانه، و ما عليك إلا البلاغ.

و قد أشرك سبحانه فى الآيه بين أهل الكتاب و الأميين بقوله: وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَسْلِمْتُمْ، لكون الدين مشتركا بينهم و إن اختلفوا فى التوحيد و التشريك.

و قد علق الإسلام على الوجه- و هو ما يستقبلك من الشىء أو الوجه بالمعنى الأخص لكون إسلام الوجه لاشتماله على معظم الحواس و المشاعر إسلاما لجميع البدن- ليدل على معنى الإقبال و الخضوع لأمر الرب تعالى، و عطف قوله: وَ مَنْ اتَّبَعَنِي حَفْظًا لمقام التبعية و تشريفا للنبي ص.

قوله تعالى: وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَسْلِمْتُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، المراد بالأميين المشركين سموا بذلك لتسميه من وضع فى مقابلهم بأهل الكتاب، و كذا كان أهل الكتاب يسمونهم كما حكاه تعالى من قوله: «لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ»: آل عمران- ٧٥ و الأمى هو الذى لا يكتب و لا يقرأ.

و فى قوله تعالى: وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ دلالة أولا: على النهى عن المراء و الإلحاح فى المحاجه فإن المحاجه مع من ينكر الضرورى

لا تكون إلا مرء و لجاجا فى البحث.

و ثانيا:على أن الحكم فى حق الناس و الأمر مطلقا إلى الله سبحانه،و ليس للنبي ص إلا أنه رسول مبلغ لا حاكم مسيطر كما قال تعالى: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» آل عمران-١٢٨،و قال تعالى: «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ:الغاشية-٢٣.

و ثالثا:على تهديد أهل الكتاب و المشركين فإن ختم الكلام بقوله: وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، بعد قوله: فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ لا يخلو من ذلك و يدل على ذلك ما وقع من التهديد فى نظير الآيه،و هو قوله تعالى: «قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ إِلَىٰ أَنْ قَالَ X: وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنِ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»:البقره-١٣٧،تذكر الآيه أن أهل الكتاب إن تولوا عن الإسلام فهم مصررون على الخلاف ثم يهددهم بما يسلى به النبي و يطيب نفسه،فالآيه أعنى قوله:«وَ إِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، كناية عن الأمر بتخليه ما بينهم و بين ربهم،و إرجاع أمرهم إليه،و هو بصير بعباده يحكم فيهم بما تقتضيه حالهم و يسأله لسان استعدادهم.

و من هنا يظهر:أن ما ذكره بعض المفسرين،أن فى الآيه دليلا على حريه الاعتقاد فى أمر الدين و أن لا إكراه فيه ليس بوجه فإن الآيه كما عرفت مسوقه لغير ذلك.

و فى قوله: بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ حيث أخذ عنوان العبوديه و لم يقل:بصير بهم أو بصير بالناس و نحو ذلك إشعار بأن حكمه نافذ فيهم ماض عليهم فإنهم عباده و مربوطون له أسلموا أو تولوا.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالْآيَاتِ اللَّهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ،الكلام فى الآيه و إن كان مسوقا سوق الاستيناف لكنه مع ذلك لا يخلو عن إشعار و بيان للتهديد الذى يشعر به آخر الآيه السابقه فإن مضمونها منطبق على أهل الكتاب و خاصه اليهود.

و قوله: يَكْفُرُونَ،و يَقْتُلُونَ،فى موضعين للاستمرار و يدلان على كون الكفر بآيات الله و هو الكفر بعد البيان بغيا،و قتل الأنبياء و هو قتل من غير حق،و قتل الذين يدعون إلى القسط و العدل و ينهون عن الظلم و البغى دأبا و عاده جاريه فيما بينهم كما يشتمل عليه تاريخ اليهود،فقد قتلوا جمعا كثيرا و جما غفيرا من أنبيائهم و عبادهم الأمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر و كذا النصرى جروا مجراهم.

وقوله: فَبَشَّرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ تصريح بشمول الغضب و نزول السخط، وليس هو العذاب الأخرى فحسب بدليل قوله تعالى عقيب الآية: أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ «إلخ» فهم مبشرون بالعذاب الدنيوى و الأخرى معا، أما الأخرى فأليم عذاب النار، و أما الدنيوى فهو ما لقوه من التقتيل و الإجلاء و ذهاب الأموال و الأنفس، و ما سخط الله عليهم بإلقاء العداوه و البغضاء بينهم إلى يوم القيامة على ما تصرح به آيات الكتاب العزيز.

و فى قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ، دلالة أولا: على حبط عمل من قتل رجلا من جهه أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر. و ثانيا على عدم شمول الشفاعة له يوم القيامة لقوله: وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ يَوْمِئِذٍ إِلَى تَسْجِيلِ الْبَغْيِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ حَسَبَ مَا نَسَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ وَ أَنَّهُمْ يَبْغُونَ باتخاذ الخلاف و إيجاد اختلاف الكلمه فى الدين فإنها إذا دعوا إلى حكم الكتاب كتاب الله بينهم لم يسلموا له و تولوا و أعرضوا عنه و ليس ذلك إلا باغترارهم بقولهم لَنْ تَمَسَّنَا «إلخ» و بما افتروه على الله فى دينهم.

و المراد بالذين أوتوا نصيبا من الكتاب أهل الكتاب و إنما لم يقل: أوتوا الكتاب، و قيل: أوتوا نصيبا من الكتاب ليدل على أن الذى فى أيديهم من الكتاب ليس إلا نصيبا منه دون جميعه لأن تحريفهم له و تغييرهم و تصرفهم فى كتاب الله أذهب كثيرا من أجزائه كما يومئ إليه قوله فى آخر الآيه التاليه: وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ، و كيف كان فالمراد-و الله أعلم- أنهم يتولون عن حكم كتاب الله اعتزازا بما قالوا و اغترارا بما وضعوه من عند أنفسهم و استغناء به عن الكتاب.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ «إلخ» معناه واضح، و اغترارهم بفريتهم التى افترتها أنفسهم مع أن الإنسان لا ينخدع عن نفسه مع العلم بأنها خدعه باطله إنما هو لكون المغرورين غير المفترين، و على هذا فنسبه الافتراء الذى توسل إليها سابقوهم إلى هؤلاء المغرورين من اللاحقين لكونهم أمه واحده يرضى بعضهم بفعال بعض.

و إما لأن الاغترار بغرور النفس و الغرور بالفريه الباطله مع العلم بكونها فريه

باطله و ذكر المغرور أنه هو الذى افترى ما يغتر به من الفريه ليس من أهل الكتاب و من اليهود خاصه بعيد و قد حكى الله عنهم مثله بل ما هو أعجب من ذلك حيث قال تعالى: ﴿وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضٍ مِّنْهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ﴾: البقره-٧٧.

على أن الإنسان يجرى فى أعماله و أفعاله على ما تحصل عنده من الأحوال أو الملكات النفسانيه، و الصور التى زيتتها و نمقتها له نفسه دون الذى حصل له العلم به كما أن المعتاد باستعمال المضرات كالبنج و الدخان و أكل التراب و نحوها يستعملها و هو يعلم أنها مضره، و أن استعمال المضر مما لا ينبغى إلا أن الهيئه الحاصله فى نفسه ملذده له جاذبه إياه إلى الاستعمال لا تدع له مجالاً للتفكر و الاجتناب، و نظائر ذلك كثيره.

فهم لاستحكام الكبر و البغى و حب الشهوات فى أنفسهم يجرون على طبق ما تدعوهم إليه فريتهم فكانت فريتهم هى الغاره لهم فى دينهم، و هم مع ذلك كرروا ذكر ما افتروه على الله سبحانه و لم يزالوا يكررونه و يلقنونه أنفسهم حتى أذعنوا به أى اطمأنوا و ركنوا إليه بالتلقين الذى يؤثر أثر العلم كما بينه علماء النفس فصارت الفريه الباطله بالتكرار و التلقين تغرهم فى دينهم و تمنعهم عن التسليم لله و الخضوع للحق الذى أنزله فى كتابه.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ، مَدْخُولٍ كَيْفَ مَقْدَرٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ مِثْلَ يَصْنَعُونَ وَ نَحْوِهِ، وَ فِي الْآيَةِ إِيعَادٌ لِهَوْلَاءِ الَّذِينَ تَوَلَّوْا إِذَا دُعُوا إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ وَ هُمْ مَعْرُضُونَ غَيْرَ أَنَّهُ لَمَّا أُرِيدَ بَيَانُ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْجِزِينَ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ أَخَذَ فِي الْكَلَامِ مِنْ حَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ هُمْ مُسْتَسْلِمُونَ يَوْمَئِذٍ مَا يَضَاهِي حَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا عِنْدَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ حُكْمِ كِتَابِ اللَّهِ وَ هُمْ غَيْرُ مُسْلِمِينَ لَهُ مُسْتَكْبِرُونَ عَنْهُ، وَ لِهَذَا أَخَذَ بِالْمَحَازَاهِ بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ، وَ عَبَّرَ عَنْ مَا يَجْرَى عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ: إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ «إِلخ» دون أن يقال: إِذَا أَحْيَيْنَاهُمْ أَوْ بَعَثْنَاهُمْ أَوْ مَا يَمِثِلُ ذَلِكَ.

و المعنى -و الله أعلم- أنهم يتولون و يعرضون إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم اغتراراً بما افتروه فى دينهم و استكباراً عن الحق فكيف يصنعون إذا جمعناهم

ليوم لا ريب فيه و هو يوم القضاء الفصل، و الحكم الحق و وفيت كل نفس ما كسبت و الحكم حكم عدل و هم لا يظلمون، و إذا كان كذلك كان الواجب عليهم أن لا يتولوا و يعرضوا مظهرين بذلك أنهم معجزون لله غالبون على أمره فإن قدره كله لله و ما هي إلا أيام مهله و فتنه.

بحث روائى

فى تفسير العياشى، عن محمد بن مسلم قال: " سألته عن قوله إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ فقال: الذى فيه الإيمان.

و عن ابن شهر آشوب عن الباقر (ع): فى قوله تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ الآية- قال التسليم: لعلى بن أبى طالب بالولاية.

أقول: و هو من الجرى، و لعل ذلك هو المراد أيضا من الروايه السابقه.

و عنه أيضا عن على (ع) قال: لأنسبن الإسلام نسبه لم ينسبها أحد قبلى، و لا ينسبها أحد بعدى- الإسلام هو التسليم، و التسليم هو اليقين، و اليقين هو التصديق، و التصديق هو الإقرار، و الإقرار هو الأداء، و الأداء هو العمل، المؤمن أخذ دينه عن ربه، إن المؤمن يعرف إيمانه فى عمله، و إن الكافر يعرف كفره بإنكاره.

أيها الناس! دينكم دينكم- فإن السيئه فيه خير من الحسنه فى غيره- إن السيئه فيه تغفر، و إن الحسنه فى غيره لا تقبل.

أقول: قوله (ع): لأنسبن الإسلام نسبه، المراد بالنسبه التعريف كما سميت سوره التوحيد فى الأخبار بنسبه الرب و الذى عرف به تعريف باللازم فى غير الأول أعنى قوله: الإسلام هو التسليم فإنه تعريف لفظى عرف فيه اللفظ بلفظ آخر أوضح منه، و يمكن أن يراد بالإسلام المعنى الاصطلاحى له و هو هذا الدين الذى أتى به محمد ص إشاره إلى قوله تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ، و بالتسليم الخضوع و الانقياد ذاتا و فعلا فيعود الجميع إلى التعريف باللازم.

و المعنى: أن هذا الدين المسمى بالإسلام يستتبع خضوع الإنسان لله سبحانه

ذاتا وفعلا، ووضع نفسه و أعماله تحت أمره و إرادته و هو التسليم و التسليم، الله يستتبع أو يلزم اليقين بالله و ارتفاع الريب فيه و اليقين يستتبع التصديق و إظهار صدق الدين، و التصديق يستتبع الإقرار و هو الإذعان بقراره و كونه ثابتا لا يتزلزل في مقره و لا يزول عن مكانه، و إقراره يستتبع أداءه و أدائه يستتبع العمل.

و قوله (ع): و إن الحسنه في غيره لا تقبل المراد بعدم القبول عدم الثواب بإزائه في الآخرة، أو عدم الأثر الجميل المحمود عند الله في الدنيا بسعاده الحيوه و في الآخرة بنعيم الجنة فلا ينافي ما ورد أن الكفار يوجرون في مقابل حسناتهم بشيء من حسنات الدنيا، قال تعالى فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ: الزلزال-7.

و في المجمع، عن أبي عبيده الجراح قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد عذابا يوم القيامة؟ قال رجل قتل نبيا- أو رجلا أمر بمعروف أو نهى عن منكر ثم قرأ:

الذين يقتلون النبيين بغير حق- و يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس- ثم قال: يا أبا عبيده- قتلت بنو إسرائيل ثلاثه و أربعين نبيا في ساعه- فقام مائه رجل و اثنا عشر رجلا من عباد بنو إسرائيل- فأمروا من قتلهم بالمعروف، و نهوهم عن المنكر- فقتلوا جميعا آخر النهار من ذلك اليوم- و هو الذي ذكره الله.

أقول: و روى هذا المعنى في الدر المنثور، عن ابن جرير و ابن أبي حاتم عن أبي عبيده.

و في الدر المنثور: أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: دخل رسول الله ص بيت المدراس على جماعه من يهود- فدعاهم إلى الله فقال له النعمان بن عمرو و حرث بن زيد- على أي دين أنت يا محمد قال: على مله إبراهيم و دينه، قال: فإن إبراهيم كان يهوديا، فقال لهما رسول الله ص:

فهلما إلى التوراه فهى بيننا و بينكم- فأبيا عليه فأنزل الله: أَلَمْ تَرِ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِلَى قَوْلِهِ: و غرهم في دينهم ما كانوا يفترون.

أقول: و روى بعضهم: أن قوله تعالى: أَلَمْ تَرِ نَزَلَ فِي قِصَّةِ الرَّجْمِ و سيجيء ذكرها في ذيل الكلام على قوله تعالى: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ

كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب الآيه X: المائده-١٥، و الروايتان من الآحاد و ليستا بتلك القوه.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

اشاره

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِإِذْنِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)

بيان

الآيتان لا تخلوان عن ارتباط ما بما تقدمهما من الكلام في شأن أهل الكتاب و خاصة اليهود لاشتماله على وعيدهم و تهديدهم بعذاب الدنيا و الآخرة و من العذاب ما سلب الله عنهم الملك و ضرب عليهم الذل و المسكنه إلى يوم القيامة و أخذ أنفاسهم و ذهب باستقلالهم في السؤدد.

على أن غرض السوره كما مر بيان أن الله سبحانه هو القائم على خلق العالم و تدبيره فهو مالك الملك يملك من يشاء و يعز من يشاء و بالجمله هو المعطى للخير لمن يشاء و هو الآخذ النازع للملك و العزه و لكل خير عن من يشاء فمضمون الآيتين غير خارج عن غرض السوره.

قوله تعالى قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ أمر بالالتجاء إلى الله تعالى الذى بيده الخير على الإطلاق و له القدره المطلقه ليتخلص من هذه الدعاوى الوهميه التى نشبت فى قلوب المنافقين و المتمردين من الحق من المشركين و أهل الكتاب فضلوا و هلكوا بما قدره لأنفسهم من الملك و العزه و الغنى من الله سبحانه و يعرض الملتجئ نفسه على إفاضه مفيض الخير و الرازق لمن يشاء بغير حساب.

و الملك بكسر الميم مما نعرفه فيما بيننا و نعهدده من غير ارتياب فى أصله فمن الملك

بكسر الميم ما هو حقيقى و هو كون شىء كالإنسان مثلا بحيث يصح له أن يتصرف فى شىء أى تصرف أمكن بحسب التكوين والوجود كما يمكن للإنسان أن يتصرف فى باصرته بإعمالها وإهمالها بأى نحو شاء و أراد و كذا فى يده بالقبض و البسط، و الأخذ بها و الترك و نحو ذلك و لا محاله بين المالك و ملكه بهذا المعنى رابطة حقيقيه غير قابله للتغير يوجب قيام المملوك بالمالك نحو قيام لا يستغنى عنه و لا يفارقه إلا بالبطان كالبصر و اليد إذا فارقا الإنسان و من هذا القبيل ملكه تعالى (بكسر الميم) للعالم و لجميع أجزائه و شئونه على الإطلاق، فله أن يتصرف فيما شاء كيفما شاء.

و من الملك (بكسر الميم) ما هو وضعى اعتبارى و هو كون الشىء كالإنسان بحيث يصح له أن يتصرف فى شىء كيف شاء بحسب الرابطة التى اعتبرها العقلاء من أهل الاجتماع لغرض نيل الغايات و الأغراض الاجتماعيه، و إنما هو محاذاه منهم لما عرفوه فى الوجود من الملك الحقيقى و آثاره فاعتبروا مثله فى ظرف اجتماعهم بالوضع و الدعوى لينالوا بذلك من هذه الأعيان و الأمتعه فوائد نظير ما يناله المالك الحقيقى من ملكه الحقيقى التكوينى.

و لكون الرابطة بين المالك و المملوك فى هذا النوع من الملك بالوضع و الاعتبار نرى ما نرى فيه من جواز التغير و التحول فمن الجائز أن ينتقل هذا النوع من الملك من إنسان إلى آخر بالبيع و الهبه و سائر أسباب النقل.

و أما الملك (بالضم) فهو و إن كان من سنخ الملك (بالكسر) إلا أنه ملك لما يملكه جماعه الناس فإن المليك مالك لما يملكه رعاياه، له أن يتصرف فيما يملكونه من غير أن يعارض تصرفهم تصرفه، و لا أن يزاحم مشيئتهم مشيئته فهو فى الحقيقه ملك على ملك، و هو ما نصطلىح عليه بالملك الطولى كملك المولى للعبد و ما فى يده، و لهذا كان للملك (بالضم) من الأقسام ما ذكرناه للملك (بالكسر).

و الله سبحانه مالك كل شىء ملكا مطلقا أما أنه مالك لكل شىء على الإطلاق فلأن له الربوبيه المطلقه و القيمومه المطلقه على كل شىء فإنه خالق كل شىء و إله كل شىء، قال تعالى: «ذِكْرُكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»: المؤمن - ٦٢

وقال تعالى: «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ»: البقره-٢٥٥، إلى غير ذلك من الآيات الداله على أن كل ما يسمى شيئا فهو قائم الذات به مفتقر الذات إليه لا يستقل دونه فلا يمنعه فيما أراده منها وفيها شيء وهذا هو الملك (بالكسر) كما مر.

و أما أنه مملك على الإطلاق فهو لازم إطلاق كونه مالكا للموجودات فإن الموجودات أنفسها يملك بعضها بعضا كالأسباب حيث تملك مسبباتها، والأشياء تملك قواها الفعاله، والقوى الفعاله تملك أفعالها كالإنسان يملك أعضائه وقواه الفعاله من سمع وبصر وغير ذلك، وهي تملك أفعالها، إذ كان الله سبحانه يملك كل شيء فهو يملك كل من يملك منها شيئا، ويملك ما يملكه، وهذا هو الملك (بالضم) فهو مملك على الإطلاق، قال تعالى: «لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ»: التغابن-١، وقال تعالى: «عِنْدَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ»: القمر-٥٥، إلى غير ذلك من الآيات، هذا هو الحقيقي من الملك و الملك.

و أما الاعتبارى منها فإنه تعالى مالك لأنه هو المعطى لكل من يملك شيئا من المال، ولو لم يملك لم يصح منه ذلك و لكان معطيا لما لا يملك لمن لا يملك، قال تعالى:

«وَآتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ»: النور-٣٣.

و هو تعالى مملك مملك ما فى أيدي الناس لأنه شارع حاكم يتصرف بحكمه فيما يملكه الناس كما يتصرف الملوك فيما عند رعاياهم من المال، قال تعالى: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ»: الناس-٢، وقال تعالى: «وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعِدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا»: إبراهيم-٣٤، وقال تعالى: «وَ أَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُشْتَرَفِينَ فِيهِ»: الحديد-٧، وقال تعالى: «وَ مَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ»: الحديد-١٠، وقال تعالى: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»: المؤمن-١٦، فهو تعالى يملك ما فى أيدينا قبلنا و يملكه معنا و سيراه بعدنا عز ملكه.

و من التأمل فيما تقدم يظهر أن قوله تعالى: «اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ»، مسوق:

أولا- لبيان ملكه تعالى (بالكسر) لكل ملك (بالضم) و مالكيه الملك (بالضم) هو الملك على الملك (بالضم فيهما) فهو ملك الملوك، الذى هو المعطى لكل ملك ملكه كما قال تعالى: «أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ»: البقره-٢٥٨، وقال تعالى:

«وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا»: النساء-٥٤.

و ثانيا: يدل بتقديم لفظ الجلاله على بيان السبب فهو تعالى مالك الملك لأنه الله جلت كبرياؤه و هو ظاهر.

و ثالثا: أن المراد بالملك فى الآيه الشريفه و الله أعلم ما هو أعم من الحقيقى و الاعتبارى فإن ما ذكر من أمره تعالى فى الآيه الأولى أعنى قوله: تُؤْتَى الْمُلْكُ مَنْ تَشَاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَ تُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَ تُدْلِلُ مَنْ تَشَاءُ عَلَى مَا سَنُوضِّحُه مِنْ شُؤْنِ الْمَلِكِ الْإِعْتِبَارِى وَ مَا ذَكَرَهُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ شُؤْنِ الْمَلِكِ الْحَقِيقِى فَهُوَ مَالِكُ الْمَلِكِ مُطْلَقًا.

قوله تعالى: تُؤْتَى الْمُلْكُ مَنْ تَشَاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، الملك بإطلاقه شامل لكل ملك حقا أو باطلا عدلا أو جورا فإن الْمُلْكَ (كما تقدم بيانه فى قوله: «أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ» X الآيه X: البقره-258) فى نفسه موهبه من مواهب الله و نعمه يصلح لأن يترتب عليه آثار حسنه فى المجتمع الإنسانى و قد جبل الله النفوس على حبه و الرغبة فيه، و الملك الذى تقلده غير أهله ليس بمذموم من حيث إنه ملك، و إنما المذموم إما تقلد من لا يليق بتقلده كمن تقلده جورا و غصبا، و إما سيرته الخبيثه مع قدرته على حسن السيره، و يرجع هذا الثانى أيضا بوجه إلى الأول.

و بوجه آخر يكون الملك بالنسبه إلى من هو أهله نعمه من الله سبحانه إليه، و بالنسبه إلى غير أهله نقمه و هو على كل حال منسوب إلى الله سبحانه و فتنه يمتحن به عباده.

و قد تقدم: أن التعليق على المشيه فى أفعاله تعالى كما فى هذه الآيه ليس معناه وقوع الفعل جزافا تعالى عن ذلك بل المراد عدم كونه تعالى مجبرا فى فعله ملزما عليه فهو تعالى يفعل ما يفعل بمشيئته المطلقه من غير أن يجبره أحد أو يكرهه و إن جرى فعله على المصلحه دائما.

قوله تعالى: وَ تُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَ تُدْلِلُ مَنْ تَشَاءُ، العز كون الشىء بحيث يصعب مناله، و لذا يقال للشىء النادر الوجود إنه عزيز الوجود أى صعب المنال، و يقال عزيز القوم لمن يصعب قهره و الغلبه عليه من بينهم فهو صعب المنال بالقهر و الغلبه، و صعب المنال من حيث مقامه فيهم و وجدانه كل ما لهم من غير عكس ثم استعمل فى كل

صعوبه كما يقال: يعز على كذا. قال تعالى: «عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ» :التوبه-١٢٨، أى صعب عليه. واستعمل فى كل غلبه كما يقال. من عز بز أى من غلب سلب، قال تعالى: «وَ عَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ» : (ص)-٢٣، أى غلبنى و الأصل فى معناه ما مر.

و يقابله الذل و هو سهوله المنال بقهر محقق أو مفروض قال تعالى: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ» :البقره-٦١، و قال تعالى: «وَ اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ» :الإسراء-٢٤، و قال تعالى أذِلَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» :المائد-٥٤.

و العزه من لوازم الملك على الإطلاق و كل من سواه إذا تملك شيئاً فهو تعالى خوله ذلك و ملكه، و إن ملك على قوم فهو تعالى آتاه ذلك فكانت العزه له تعالى محضاً و ما عند غيره منها فإنما هو بإيتائه و إفضاله. قال تعالى: «أَيَّتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» :النساء-١٣٩ و قال تعالى: «وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ» :المنافقون-٨ و هذه هى العزه الحقيقيه و أما غيرها فإنما هى ذل فى صورته عز.

قال تعالى: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَ شِقَاقِي» :ص-٢ و لذا أردفه بقوله «كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَ دَاوُودُ وَ لَأْتِ حِينٍ مِّنَاصٍ» :ص-٣.

و للذل بالمقابله ما يقابل العز من الحكم فكل شىء غيره تعالى ذليل فى نفسه إلا من أعزه الله تعالى (تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ).

قوله تعالى: بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الأصل فى معنى الخير هو الانتخاب و إنما نسمى الشىء خيراً لأننا نقيسه إلى شىء آخر نريد أن نختار أحدهما فننتخبه فهو خير و لا- نختاره إلا- لكونه متضمناً لما نريده و نقصده فما نريده هو الخير بالحقيقه، و إن كنا أردناه أيضاً لشىء آخر فذلك الآخر هو الخير بالحقيقه، و غيره خير من جهته، فالخير بالحقيقه هو المطلوب لنفسه يسمى خيراً لكونه هو المطلوب إذا قيس إلى غيره، و هو المنتخب من بين الأشياء إذا أردنا واحداً منها و ترددنا فى اختياره من بينها.

فالشىء كما عرفت إنما يسمى خيراً لكونه منتخبا إذا قيس إلى شىء آخر مؤثراً بالنسبه إلى ذلك الآخر ففى معناه نسبه إلى الغير و لذا قيل: إنه صيغه التفضيل و أصله أخير. و ليس بأفعل التفضيل، و إنما يقبل انطباق معنى التفضيل على مورده فيتعلق

بغيره كما يتعلق أفعال التفضيل، يقال: زيد أفضل من عمرو، و زيد أفضلهما، و يقال:

زيد خير من عمرو، و زيد خيرهما.

و لو كان خير صيغه التفضيل لجرى فيه ما يجرى عليه، و يقال أفضل و أفاضل و فضلى و فضليات، و لا يجرى ذلك فى خير بل يقال: خير و خيره و أخيار و خيرات كما يقال: شيخ و شيخه و أشياخ و شيخات فهو صفة مشبهه.

و مما يؤيده استعماله فى موارد لا يستقيم فيه معنى أفعال التفضيل كقوله تعالى:

﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ﴾: الجمعة- ١١، فلا خير فى اللهو حتى يستقيم معنى أفعال، و قد اعتذروا عنه و عن أمثاله بأنه منسلخ فيها عن معنى التفضيل، و هو كما ترى. فالحق أن الخير إنما يفيد معنى الانتخاب، و اشتمال ما يقابله من المقيس عليه على شىء من الخير من الخصوصيات الغالبة فى الموارد.

و يظهر مما تقدم أن الله سبحانه هو الخير على الإطلاق لأنه الذى ينتهى إليه كل شىء، و يرجع إليه كل شىء، و يطلبه و يقصده كل شىء لكن القرآن الكريم لا يطلق عليه سبحانه الخير إطلاق الاسم كسائر أسمائه الحسنى جلت أسماؤه، و إنما يطلقه عليه إطلاق التوصيف كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾: طه- ٧٣، و كقوله تعالى:

﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾: يوسف- ٣٩.

نعم وقع الإطلاق على نحو التسميه بالإضافة كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الرَّازِقِينَ﴾: الجمعة- ١١، و قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرٌ الْحَاكِمِينَ﴾: الأعراف- ٨٧، و قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرٌ الْفَاصِلِينَ﴾: الأنعام- ٥٧، و قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرٌ النَّاصِرِينَ﴾: آل عمران- ١٥٠، و قوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ﴾: آل عمران- ٥٤، و قوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرٌ الْغَافِرِينَ﴾: الأعراف- ١٥٥، و قوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرٌ الْوَارِثِينَ﴾: الأنبياء- ٨٩، و قوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرٌ الْمُتَزَلِّينَ﴾: المؤمنين- ٢٩، و قوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرٌ الرَّاحِمِينَ﴾: المؤمنون- ١٠٩.

و لعل الوجه فى جميع ذلك اعتبار ما فى ماده الخير من معنى الانتخاب فلم يطلق إطلاق الاسم عليه تعالى صونا لساحته تعالى أن يقاس إلى غيره بنحو الإطلاق و قد عنت الوجوه لجنابه، و أما التسميه عند الإضافة و النسبه، و كذا التوصيف فى الموارد

المقتضيه لذلك فلا محذور فيه.

و الجمله أعنى قوله تعالى: بِيَدِكَ الْخَيْرُ تدل على حصر الخير فيه تعالى لمكان اللام و تقديم الظرف الذى هو الخبر، والمعنى أن أمر كل خير مطلوب إليك، و أنت المعطى المفيض إياه.

فالجمله فى موضع التعليل لما تقدمت عليها من الجمل أعنى قوله: تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ «إلخ» من قبيل تعليل الخاص بما يعمه و غيره أعنى أن الخير الذى يؤتیه تعالى أعم من الملك و العزه، و هو ظاهر.

و كما يصح تعليل إيتاء الملك و الإعزاز بالخير الذى بيده تعالى كذلك يصح تعليل نزع الملك و الإذلال فإنهما و إن كانا شرين لكن ليس الشر إلا عدم الخير فنزع الملك ليس إلا عدم الإعزاز فانتهاه كل خير إليه تعالى هو الموجب لانتهاه كل حرمان من الخير بنحو إليه تعالى نعم الذى يجب انتفاؤه عنه تعالى هو الاتصاف بما لا يليق بساحه قدسه من نواقص أفعال العباد و قبائح المعاصى إلا بنحو الخذلان و عدم التوفيق كما مر البحث عن ذلك.

و بالجمله هناك خير و شر تكوينيان كالمملك و العزه و نزع الملك و الذله، و الخير التكويني أمر وجودى من إيتاء الله تعالى، و الشر التكويني إنما هو عدم إيتاء الخير و لا ضير فى انتسابه إلى الله سبحانه فإنه هو المالك للخير لا يملكه غيره، فإذا أعطى غيره شيئاً من الخير فله الأمر و له الحمد، و إن لم يعط أو منع فلا حق لغيره عليه حتى يلزمه عليه فىكون امتناعه من الإعطاء ظلماً، على أن إعطائه و منعه كليهما مقارنان للمصالح العامه الدخيله فى صلاح النظام الدائر بين أجزاء العالم.

و هناك خير و شر تشريعيان و هما أقسام الطاعات و المعاصى، و هما الأفعال الصادره عن الإنسان من حيث انتسابها إلى اختياره، و لا تستند من هذه الجبهه إلى غير الإنسان قطعاً، و هذه النسبه هى الملاك لحسنها و قبحها و لو لا فرض اختيار فى صدورها لم تتصف بحسن و لا قبح، و هى من هذه الجبهه لا تنتسب إليه تعالى إلا من حيث توفيقه تعالى و عدم توفيقه لمصالح تقتضى ذلك.

فقد تبين: أن الخير كله بيد الله و بذلك ينتظم أمر العالم فى اشتماله على كل

و قد ذكر بعض المفسرين: أن في قوله: **بِيَدِكَ الْخَيْرُ** إيجازا بالحذف، و التقدير:

بيدك الخير و الشر كما قيل نظير ذلك في قوله تعالى: **«وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ»**: النحل- ٨١، أي و البرد.

و كان السبب في ذلك الفرار عن الاعتزال لقول المعتزله بعدم استناد الشرور إليه تعالى: و هو من عجب الاجترار على كلامه تعالى، و المعتزله و إن أخطئوا في نفي الانتساب نفيًا مطلقًا حتى بالواسطة لكنه لا يجوز هذا التقدير الغريب، و قد تقدم البحث عن ذلك و بيان حقيقه الأمر.

قوله تعالى: **إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** في مقام التعليل لكون الخير بيده تعالى فإن قدره المطلقة على كل شيء توجب أن لا يقدر أحد على شيء إلا بإقداره تعالى إياه على ذلك، و لو قدر أحد على شيء من غير أن تستند قدرته إلى إقداره تعالى كان مقدوره من هذه الجهة خارجا عن سعه قدرته تعالى فلم يكن قديرا على كل شيء، و إذا كانت لقدرته هذه السعه كان كل خير مفروض مقدورا عليه له تعالى، و كان أيضا كل خير إفاضه غيره منسوبا إليه مفاضًا عن يديه فهو له أيضا فجنس الخير الذي لا يشذ منه شاذ بيده، و هذا هو الحصر الذي يدل عليه قوله تعالى: **بِيَدِكَ الْخَيْرُ**.

قوله تعالى: **تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ تُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ**، الولوج هو الدخول، و الظاهر كما ذكره أن المراد من إيلاج الليل في النهار، و إيلاج النهار في الليل ما هو المشاهد من اختلاف الليل و النهار في عرض السنه بحسب اختلاف عروض البقاع و الأمكنه على بسيط الأرض، و اختلاف ميول الشمس فتأخذ الأيام في الطول و الليالي في القصر و هو ولوج النهار في الليل بعد انتهاء الليالي في الطول من أول الشتاء إلى أول الصيف، ثم يأخذ الليالي في الطول و الأيام في القصر و هو ولوج الليل في النهار بعد انتهاء النهار في الطول من أول الصيف إلى أول الشتاء، كل ذلك في البقاع الشماليه، و الأمر في البقاع الجنوبيه على عكس الشماليه منها، فالطول في جانب قصر في الجانب الآخر فهو تعالى يولج الليل في النهار و النهار في الليل دائما، أما الاستواء في خط الإستواء و القطبين فإنما هو بحسب الحس و أما في الحقيقه فحكم التغيير دائم و شامل.

قوله تعالى: وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ ذَلِكَ إِخْرَاجُ الْمُؤْمِنِ مِنَ صَلْبِ الْكَافِرِ، وَ إِخْرَاجُ الْكَافِرِ مِنَ صَلْبِ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ تَعَالَى سَمَى الْإِيمَانَ حَيَوَهُ وَ نُورًا وَ الْكُفْرَ مَوْتًا وَ ظَلَمَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا»: الأنعام-١٢٢، وَ يُمْكِنُ أَنْ يَرَادَ الْأَعْمُ مِنْ ذَلِكَ وَ مِنْ خَلْقِ الْأَحْيَاءِ كَالنَّبَاتِ وَ الْحَيَوَانَ مِنْ الْأَرْضِ الْعَدِيمَةِ الشُّعُورِ وَ إِعَادَةِ الْأَحْيَاءِ إِلَى الْأَرْضِ بِإِمَاتَتِهَا فَإِنَّ كَلَامَهُ تَعَالَى كَالصَّرِيحِ فِي أَنَّهُ يَبْدُلُ الْمَيِّتَ إِلَى الْحَيِّ وَ الْحَيَّ إِلَى الْمَيِّتِ، قَالَ تَعَالَى: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعِيدٌ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ»: المؤمنون-١٥، إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ.

وَ أَمَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ عُلَمَاءِ الطَّبِيعَةِ: أَنَّ الْحَيَوَةَ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَى جَرَائِمِهَا تَسْلُكُ فِيهَا سَلُوكًا مِنْ جَرْتِوَمِهِ حَيْهَ إِلَى أُخْرَى مِثْلِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى الْمَادَةِ الْفَاقِدَةِ لِلشُّعُورِ، وَ ذَلِكَ لِإِنْكَارِهِ الْكُونَ الْحَادِثِ، فَيَبْطُلُ الْمَوْتُ الْمَحْسُوسَ الَّذِي تَثَبَتَهُ التَّجْرِبَةُ فِي جَرَائِمِ الْحَيَوَةِ فَتَبْدُلُ الْحَيَوَةَ إِلَى الْمَوْتِ يَكْشِفُ عَنِ الرِّبْطِ بَيْنَهُمَا، وَ لَبَقِيَ الْكَلَامُ مَقَامَ آخِرِ.

وَ الْآيَةُ أَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى «تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ إِخْرَاجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تَصْرِفُهُ تَعَالَى فِي الْمَلِكِ الْحَقِيقِيِّ التَّكْوِينِيِّ كَمَا أَنَّ الْآيَةَ السَّابِقَةَ أَعْنَى قَوْلِهِ: تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ إِخْرَاجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تَصْرِفُهُ فِي الْمَلِكِ الْإِعْتِبَارِيِّ الْوَضْعِيِّ وَ تَوَابِعِهِ.

وَ قَدْ وَضِعَ فِي كُلِّ مِنَ الْآيَتَيْنِ أَرْبَعَةُ أَنْحَاءٍ مِنَ التَّصْرِيفِ بِنَحْوِ التَّقَابُلِ فَوْضِعَ فِي الْأُولَى إِيْتَاءَ الْمَلِكِ وَ نَزَعَهُ وَ بَحْذَانَهُمَا فِي الثَّانِيَةِ إِيْلَاجَ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَ عَكْسَهُ، وَ وَضِعَ الْإِعْزَازَ وَ الْإِذْلَالَ وَ بَحْذَانَهُمَا إِخْرَاجَ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ عَكْسَهُ، وَ فِي ذَلِكَ مِنْ عَجِيبِ اللَّطْفِ وَ لَطِيفِ الْمُنَاسَبَةِ مَا لَا يَخْفَى فَإِنَّ إِيْتَاءَ الْمَلِكِ نَوْعَ تَسْلِيْطٍ لِبَعْضِ أَفْرَادِ النَّاسِ عَلَى الْبَاقِيْنَ بِإِعْفَاءِ قَدْرِ مِنْ حَرِيْتِهِمْ وَ إِطْلَاقِهِمْ الْغَرِيْزِيَّ وَ إِذْهَابَهَا كَتَسْلِيْطِ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ بِإِذْهَابِ اللَّيْلِ بَعْضَ مَا كَانَ يَظْهَرُهُ النَّهَارُ، وَ نَزَعَ الْمَلِكُ بِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، وَ كَذَا إِعْطَاءُ الْعِزَّةِ نَوْعَ إِحْيَاءٍ لِمَنْ كَانَ خَامِدًا الذِّكْرَ خَفِيَ الْأَثْرَ لَوْلَاهَا، نَظِيرَ إِخْرَاجِ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَ الْإِذْلَالَ بِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، وَ فِي الْعِزَّةِ حَيَوَهُ وَ فِي الذُّلِّ مَمَاتٍ.

وَ هُنَا وَجْهٌ آخَرٌ: هُوَ أَنَّ اللَّهَ عَدَّ النَّهَارَ فِي كَلَامِهِ آيَةً مَبْصُرَةً وَ اللَّيْلَ آيَةً مَمْحُوهَةً قَالَ تَعَالَى: «فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً»: الإسراء-١٢، وَ مَظْهَرُ

هذا الإثبات و الإمحاء فى المجتمع الإنسانى ظهور الملك و السلطنه و زواله، و عد الحيوه و الموت مصدرين للآثار من العلم و القدره كما قال تعالى: «أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ وَ ما يَشْعُرُونَ أَيانُ يُبْعَثُونَ: النحل-٢١، و خص العزه لنفسه و لرسوله و للمؤمنين حيث قال:

«وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ» :المنافقون-٨، و هم الذين يذكرهم بالحيوه فصارت العزه و الذله مظهرين فى المجتمع الإنسانى للحياه و الموت، و لهذا قابل ما ذكره فى الآيه الأولى من إيتاء الملك و نزعه و الإعزاز و الإذلال بما فى الآيه الثانية من إيلاج الليل فى النهار و عكسه و إخراج الحى من الميت و عكسه.

ثم وقعت المقابله بين ما ذكره فى الآيه الثانية: وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، و ما ذكره فى الآيه الأولى: بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، كما سيحىء بيانه.

قوله تعالى: وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، المقابله المذكوره آنفا تعطى أن يكون قوله: وَ تَرْزُقُ «إلخ» بيانا لما سبقه من إيتاء الملك و العز و الإيلاج و غيره، فالعطف عطف تفسير فيكون من قبيل بيان الخاص من الحكم بما هو أعم منه كما أن قوله:

بِيَدِكَ الْخَيْرُ

، بالنسبه إلى ما سبقه من هذا القبيل، و المعنى: أنك متصرف فى خلقك بهذه التصرفات لأنك ترزق من تشاء بغير حساب.

معنى الرزق فى القرآن

الرزق معروف و الذى يتحصل من موارد استعماله أن فيه شوبا من معنى العطاء كرزق الملك الجندى و يقال لما قرره الملك لجنديه مما يؤتاه جمله: رزقه، و كان يختص بما يتغذى به لا غير كما قال تعالى: «وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، البقره-٢٣٣، فلم يعد الكسوه رزقا.

ثم توسع فى معناه فعد كل ما يصل الإنسان من الغذاء رزقا كأنه عطيه بحسب الحظ و الجد و إن لم يعلم معطيه، ثم عمم فسمى كل ما يصل إلى الشىء مما ينتفع به رزقا و إن لم يكن غذاء كسائر مزايا الحيوه من مال و جاه و عشيره و أعضاد و جمال و علم و غير ذلك، قال تعالى: «تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَّجْ رِبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرٌ الرَّازِقِينَ» :المؤمنون-٧٢، و قال فيما يحكى عن شعيب «قال يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى

بَيْنَهُ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا: هود-٨٨، والمراد به النبوه و العلم، إلى غير ذلك من الآيات.

و المتحصل من قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ»: الذاريات -٥٨، و المقام مقام الحصر: أولاً: أن الرزق بحسب الحقيقة لا- ينتسب إلا- إليه فما ينسب إلى غيره تعالى من الرزق كما يصدقه أمثال قوله تعالى: «وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ»: الجمعة- ١١، حيث أثبت رازقين و عده تعالى خيرهم، و قوله: «وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ»: النساء-٥، كل ذلك من قبيل النسبه بالغير كما أن الملك و العزه لله تعالى لذاته و لغيره بإعطائه و إذنه فهو الرزاق لا غير.

و ثانياً: أن ما ينتفع به الخلق في وجودهم مما ينالونه من خير فهو رزقهم و الله رازقه، و يدل على ذلك-مضافاً إلى آيات الرزق على كثرتها-آيات كثيرة أخر كآيات الداله على أن الخلق و الأمر و الحكم و الملك(بكسر الميم)و المشيه و التدبير و الخير لله محضاً عز سلطانه.

و ثالثاً: أن ما ينتفع به الإنسان انتفاعاً محرماً لكونه سبباً للمعصيه لا ينسب إليه تعالى لأنه تعالى نفى نسبه المعصيه إلى نفسه من جهة التشريع. قال تعالى: قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ: الأعراف-٢٨، و قال تعالى:

«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وِ الْإِحْسَانِ إِلَى أَنْ قَالَ: وَ يَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وِ الْمُنْكَرِ»: النحل-٩٠ و حاشاه سبحانه أن ينهى عن شيء ثم يأمر به أو ينهى عنه ثم يحصر رزقه فيه.

و لا- منافاه بين عدم كون نفع محرم رزقاً بحسب التشريع و كونه رزقاً بحسب التكوين إذ لا تكليف في التكوين حتى يستتبع ذلك قبها، و ما بينه القرآن من عموم الرزق إنما هو بحسب حال التكوين، و ليس البيان الإلهي بموقوف على الأفهام الساذجه العاميه حتى يضرب صفحاً عن التعرض للمعارف الحقيقيه، و في القرآن شفاء لجميع القلوب لا- يستضر به إلا الخاسرون. قال تعالى: «وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا»: الإسراء-٨٢.

على أن الآيات تنسب الملك الذي لأمثال نمرود و فرعون و الأموال و الزخارف التي بيد أمثال قارون إلى إيتاء الله سبحانه فليس إلا أن ذلك كله ياذن الله آتاهم

ذلك امتحانا وإتماما للحجه و خذلانا و استدراجا و نحو ذلك و هذا كله نسب تشريعيه، و إذا صحت النسبه التشريعيه من غير محذور لزوم القبح فصحه النسبه التكوينيّه التي لا مجال للحسن و القبح العقلايين فيها أوضح.

ثم إنه تعالى ذكر أن كل شيء فهو مخلوق له منزل من عنده من خزائن رحمته كما قال: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» الحجر-٢١، و ذكر أيضا أن ما عنده فهو خير. قال تعالى: «وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ» القصص -٦٠، و انضمام الآيتين و ما في معناه من الآيات يعطى أن كل ما يناله شيء في العالم و يتلبس به مدى وجوده فهو من الله سبحانه و هو خير له ينتفع به و يتنعم بسببه كما يفيد أيضا قوله تعالى: «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ» الم السجده-٧، مع قوله تعالى: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» المؤمن-٦٤.

و أما كون بعض ما ينال الأشياء من المواهب الإلهيه شرا يستضر به فإنما شريته و إضراره نسبي متحقق بالنسبه إلى ما يصيبه خاصه مع كونه خيرا نافعا بالنسبه إلى آخرين و بالنسبه إلى علله و أسبابه في نظام الكون كما مر يشير إليه قوله تعالى: «وَ مَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ» النساء-٧٩، و قد مر البحث عن هذا المعنى فيما مر.

و بالجملة جميع ما يفيضه الله على خلقه من الخير و كله خير ينتفع به يكون رزقا بحسب انطباق المعنى إذ ليس الرزق إلا العطيّه التي ينتفع بها الشيء المرزوق، و ربما أشار إليه قوله تعالى وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ» طه-١٣١.

و من هنا يظهر أن الرزق و الخير و الخلق بحسب المصداق على ما بينه القرآن أمور متساويه فكل رزق خير و مخلوق، و كل خلق رزق و خير، و إنما الفرق: أن الرزق يحتاج إلى فرض مرزوق يرتزق به فالغذاء رزق للقوه الغاذيه لاحتياجها إليه، و الغاذيه رزق للواحد من الإنسان لاحتياجها إليها، و الواحد من الإنسان رزق لوالديه لانتفاعهما به، و كذا وجود الإنسان خير للإنسان بفرضه عاريا عن هذه النعمه الإلهيه، قال تعالى: «الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ» طه-٥٠.

و الخير يحتاج إلى فرض محتاج طالب يختار من بين ما يواجهه ما هو مطلوبه فالغذاء خير للقوه الغاذيه بفرضها محتاجه إليه طالبه له تنتخبه و تختاره إذا أصابته، و القوه الغاذيه خير للإنسان، و وجود الإنسان خير له بفرضه محتاجا طالبا.

و أما الخلق و الإيجاد فلا يحتاج من حيث تحقق معناه إلى شيء ثابت أو مفروض فالغذاء مثلا مخلوق موجود في نفسه، و كذا القوه الغاذيه مخلوقه، و الإنسان مخلوق.

و لما كان كل رزق لله، و كل خير لله محضاً فما يعطيه تعالى من عطيه، و ما أفاضه من خير و ما يرزقه من رزق فهو واقع من غير عوض، و بلا شيء مأخوذ في مقابله إذ كل ما فرضنا من شيء فهو له تعالى حقا، و لا استحقاق هناك إذ لا حق لأحد عليه تعالى إلا- ما جعل هو على نفسه من الحق كما جعله في مورد الرزق، قال تعالى: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا»: هود-٦، و قال: «فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطُقُونَ»: الذاريات-٢٣.

فالرزق مع كونه حقا على الله لكونه حقا مجعولا من قبله عطيه منه من غير استحقاق للمرزوق من جهة نفسه بل من جهة ما جعله على نفسه من الحق.

و من هنا يظهر أن للإنسان المرتزق بالمحرمات رزقا مقدرًا من الحلال بنظر التشريع فإن ساحتها تعالى منزها من أن يجعل رزق إنسان حقا ثابتا على نفسه ثم يرزقه من وجه الحرام ثم ينهاه عن التصرف فيه و يعاقبه عليه.

و توضيحه ببيان آخر أن الرزق لما كان هو العطيه الإلهيه بالخير كان هو الرحمه التي له على خلقه، و كما أن الرحمه رحمتان: رحمه عامه تشمل جميع الخلق من مؤمن و كافر، و متق و فاجر، و إنسان و غير إنسان، و رحمه خاصه و هي الرحمه الواقعه في طريق السعاده كالإيمان و التقوى و الجنه، كذلك الرزق منه ما هو رزق عام، و هو العطيه الإلهيه العامه الممده لكل موجود في بقاء وجوده، و منه ما هو رزق خاص، و هو الواقع في مجرى الحل.

و كما أن الرحمه العامه و الرزق العام مكتوبان مقدران، قال تعالى وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا: الفرقان-٢، كذلك الرحمه الخاصه و الرزق الخاص مكتوبان مقدران، و كما أن الهدى- و هو رحمه خاصه- مكتوب مقدر تقديرا تشريعا لكل إنسان مؤمنا كان أو كافرا، و لذلك أرسل الرسل و أنزل الكتب، قال تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ إِنْ اللَّهُ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ»: الذاريات-٥٨، و قال تعالى: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ»: الإسراء-٢٣، فالعباده و هي تستلزم الهدى و تتوقف عليه مقضيه مقدره

تشریعا، كذلك الرزق الخاص- وهو الذى عن مجرى الحل-مقضى مقدر، قال تعالى: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ»: الأنعام- ١٤٠، وقال تعالى «وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ الَّذِينَ فَضَّلُوا بَرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ»: النحل- ٧١، والآيتان كما ترى ذواتا إطلاق قطعى يشمل الكافر و المؤمن و من يرتزق بالحلال و من يرتزق بالحرام.

و من الواجب أن يعلم: أن الرزق كما مر من معناه هو الذى ينتفع به من العطيه على قدر ما ينتفع فمن أوتى الكثير من المال و هو لا يأكل إلا القليل منه فإنما رزقه هو الذى أكله و الزائد الباقي ليس من الرزق إلا من جهة الإيتاء دون الأكل فسعه الرزق و ضيقه غير كثره المال مثلا و قلته، و للكلام فى الرزق تتمه ستمر بك فى قوله تعالى: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ»: هود- ٦.

و لرجع إلى ما كنا فيه من الكلام فى قوله تعالى: «وَتَزُوقُ مِنْ تَشَاءٍ بِغَيْرِ حِسَابٍ» فنقول توصيف الرزق بكونه بغير حساب إنما هو لكون الرزق منه تعالى بالنظر إلى حال المرزوقين بلا عوض و لا استحقاق لكون ما عندهم من استدعاء أو طلب أو غير ذلك مملوكا له تعالى محضا فلا يقابل عطيته منهم شىء فلا حساب لرزقه تعالى.

و أما كون نفى الحساب راجعا إلى التقدير بمعنى كونه غير محدود و لا مقدر فيدفعه آيات القدر كقوله تعالى: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ»: القمر- ٤٩، و قوله:

«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا»: الطلاق- ٣، فالرزق منه تعالى عطيه بلا عوض لكنه مقدر على ما يريدته تعالى.

و قد تحصل من الآيتين أولا أن الملك (بضم الميم) كله لله كما أن الملك (بكسر الميم) كله لله.

و ثانيا: أن الخير كله بيده و منه تعالى.

و ثالثا: أن الرزق عطيه منه تعالى بلا عوض و استحقاق.

و رابعاً أن الملك و العزه و كل خير اعتبارى من خيرات الاجتماع كالمال و الجاه و القوه و غير ذلك كل ذلك من الرزق المرزوق.

بحث روائى

فى الكافى، عن عبد الأعلى مولى آل سام عن أبى عبد الله (ع) قال: قلت له:

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ - تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ - وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ

أليس قد آتى الله بنى أميه الملك؟ قال: ليس حيث تذهب، إن الله عز و جل آتانا الملك، و أخذته بنى أميه بمنزله الرجل يكون له الثوب - فياخذه الآخر فليس هو للذى أخذه:

أقول: و روى مثله العياشى عن داود بن فرقد عنه (ع)

و إيتاء الملك على ما تقدم بيانه يكون على وجهين إيتاء تكوينى، و هو انبساط السلطنه على الناس، و نفوذ القدره فيهم، سواء كان ذلك بالعدل أو بالظلم كما قال تعالى فى نمرود: «أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ» و أثره نفوذ الكلمه و مضى الأمر و الإراده، و سنبحث عن معنى كونه تكوينياً، و إيتاء تشريعى، و هو القضاء بكونه ملكاً مفترض الطاعه كما قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا»: البقره- ٢٤٧، و أثره افتراض الطاعه، و ثبوت الولايه، و لا يكون إلا العدل، و هو مقام محمود عند الله سبحانه، و الذى كان لبنى أميه من الملك هو المعنى الأول و أثره و قد اشتبه الأمر على راوى الحديث فأخذ ملكهم بالمعنى الأول و أخذ معه أثر المعنى الثانى و هو المقام الشرعى، و الحمد الدينى فنبهه (ع) أن الملك بهذا المعنى ليس لبنى أميه بل هو لهم و لهم أثره، و بعبارة أخرى: الملك الذى لبنى أميه إنما يكون محموداً إذا كان فى أيديهم (ع)، و أما فى أيدي بنى أميه فليس إلا مذموماً لأنه مغصوب و على هذا فلا ينسب إلى إيتاء الله إلا بنحو المكر و الاستدراج كما فى ملك نمرود و فرعون.

و قد اشتبه الأمر على هؤلاء أنفسهم أعنى بنى أميه فى هذه الآيه ففى الإرشاد، فى قصه إشخاص يزيد بن معاويه رءوس شهداء الطف قال المفيد: و لما وضعت الرءوس و فيها رأس الحسين (ع) قال يزيد:

نفلق هاماً من رجال أعزه

علينا و هم كانوا أعق و أظلما

قال: ثم أقبل على أهل مجلسه فقال: إن هذا كان يفخر على و يقول: أبي خير من أب يزيد، و أمي خير من أمه، و جدى خير من جده، و أنا خير منه فهذا الذى قتله فأما قوله بأن أبى خير من أب يزيد فلقد حاج أبى أباه فقضى الله لأبى على أبيه، و أما قوله بأن أمى خير من أم يزيد فلعمري لقد صدق إن فاطمه بنت رسول الله خير من أمى، و أما قوله: جدى خير من جده فليس لأحد يؤمن بالله و اليوم الآخر أن يقول بأنه خير من محمد، و أما قوله بأنه خير منى فلعله لم يقرأ هذه الآية: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ الْآيَةَ.

و ردت زينب بنت على (ع) عليه قوله بمثل ما ذكره الصادق (ع) فى الروايه السابقه على

ما رواه السيد بن طاووس و غيره " : فقالت فيما خاطبته:

أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض - و آفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى - أن بنا على الله هوانا و بك عليه كرامه، و إن ذلك لعظم خطر ك عنده - فشمخت بأنفك، و نظرت فى عطفك جذلان مسرورا - حين رأيت الدنيا لك مستوسقه، و الأمور متسقه، و حين صفا لك ملكنا و سلطاننا، مهلا مهلا، أنسيت قول الله: وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا - أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ - إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ الخُطْبَه.

و فى المجمع: فى قوله تعالى: وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ الْآيَةَ، قيل معناه: و تخرج المؤمن من الكافر و تخرج الكافر من المؤمن، قال: و روى ذلك عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع).

أقول: و روى قريبا منه الصدوق عن العسكري (ع).

و فى الدر المنثور، أخرج ابن مردويه من طريق أبى عثمان النهدي عن ابن مسعود أو عن سلمان عن النبى ص: يخرج الحى من الميت و يخرج الميت من الحى قال: المؤمن من الكافر و الكافر من المؤمن

و فيه، أيضا بالطريق السابق عن سلمان الفارسي قال قال رسول الله ص:

لما خلق الله آدم (ع) أخرج ذريته فقبض قبضه بيمينه فقال: هؤلاء أهل الجنة و لا أبالى، و قبض بالأخرى قبضه فجاء فيها كل ردىء فقال: هؤلاء أهل النار و لا أبالى -

فخلط بعضهم ببعض فيخرج الكافر من المؤمن -و يخرج المؤمن من الكافر فذلك قوله:

تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ

أقول: و روى هذا المعنى عن عده من أصحاب التفسير عن سلمان أيضا مقطوعا، و الروايه من أخبار الذر و الميثاق، و سيجيء بيانها في موضع يليق بها إن شاء الله.

و في الكافي، عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد و عده من أصحابنا عن سهل بن زياد عن ابن محبوب عن أبي حمزه الثمالي عن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله ص في حجه الوداع: ألا- إن الروح الأمين نفث في روعي: أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها- فاتقوا الله و أجملوا في الطلب، و لا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق- أن تطلبوه بشيء من معصية الله- فإن الله تعالى قسم الأرزاق بين خلقه حلالا، و لم يقسمها حراما فمن اتقى الله و صبر أتاه رزقه من حله، و من هتك حجاب ستر الله عز و جل و أخذه من غير حله- قص به من رزقه الحلال، و حوسب عليه.

و في النهج، قال (ع): الرزق رزقان: رزق تطلبه، و رزق يطلبك- فإن لم تأته أتاك فلا تحمل هم سترك يومك، كفاك كل يوم ما فيه- فإن تكن السنه من عمرك- فإن الله تعالى جده سيؤتيك في كل غد جديد ما قسم لك، و إن لم تكن السنه من عمرك فما تصنع بالهم لما ليس لك، و لن يسبقك إلى رزقك طالب، و لن يغلبك عليه غالب، و لن يبطل عنك ما قد قدر لك.

و في قرب الإسناد: ابن طريف عن ابن علوان عن جعفر عن أبيه (ع) قال: قال رسول الله ص: إن الرزق لينزل من السماء إلى الأرض- على عدد قطر المطر إلى كل نفس بما قدر لها، و لكن لله فضول فاسألوا الله من فضله.

أقول: و الروايات في هذه المعاني كثيره، و سيجيء استيفاء البحث عن أخبار الرزق في سورة هود إن شاء الله تعالى.

بحث علمي [في معنى الملك و اعتباره]

قد تقدم في بعض ما مر من الأبحاث السابقه: أن اعتبار أصل الملك (بالكسر) من الاعتبارات الضروريه التي لا غنى للبشر عنها في حال سواء كان منفردا أو مجتمعا،

و أن أصله ينتهى إلى اعتبار الاختصاص فهذا حال الملك (بالكسر).

و أما الملك (بالضم) و هو السلطنه على الأفراد فهو أيضا من الاعتبارات الضرورية التى لا غنى للإنسان عنها لكن الذى يحتاج إليه ابتداء هو الاجتماع من حيث تألفه من أجزاء كثيرة مختلفه المقاصد متباينه الإرادات دون الفرد من حيث إنه فرد فإن الأفراد المجتمعين لتباين إراداتهم و اختلاف مقاصدهم لا- يلبثون دون أن يقع الاختلاف بينهم فيتغلب كل على الآخرين فى أخذ ما بأيديهم، و التعدى على حومه حدودهم و هضم حقوقهم فيقع الهرج و المرج، و يصير الاجتماع الذى اتخذه و سيله إلى سعادته الحيوه ذريعه إلى الشقاء و الهلاك، و يعود الدواء داء، و لا سبيل إلى رفع هذه الغائله الطاربه إلا بجعل قوه قاهره على سائر القوى مسيطره على جميع الأفراد المجتمعين حتى تعيد القوى الطاغيه المستعليه إلى حاق الوسط، و ترفع الدانيه المستهلكه إليه أيضا فتتحد جميع القوى من حيث المستوى ثم تضع كل واحده منها فى محلها الخاص و تعطى كل ذى حق حقه.

و لما لم تكن الإنسانيه فى حين من الأحيان خاليه الذهن عن فكر الاستخدام كما مر بيانه سالفًا لم يكن الاجتماعات فى الأعصار السالفه خاليه عن رجال متغلبين على الملك مستعلين على سائر الأفراد المجتمعين ببسط الرقيه و التملك على النفوس و الأموال، و كانت بعض فوائد الملك الذى ذكرناه- و هو وجود من يمنع عن طغيان بعض الأفراد على بعض- يترتب على وجود هذا الصنف من المتغلبين المستعلين المتظاهرين باسم الملك فى الجملة و إن كانوا هم أنفسهم و أعضادهم و جلاوزتهم قوى طاغيه من غير حق مرضى، و ذلك لكونهم مضطرين إلى حفظ الأفراد فى حال الذله و الاضطهاد حتى لا يتقوى من يثب على حقوق بعض الأفراد فيثب يوما عليهم أنفسهم كما أنهم أنفسهم و ثبوا على ما فى أيدي غيرهم.

و بالجملة بقاء جل الأفراد على حال التسالم خوفا من الملوك المسيطرين عليهم كان يصرف الناس عن الفكر فى اعتبار الملك الاجتماعى و إنما يشتغلون بحمد سيره هؤلاء المتغلبين إذا لم يبلغ تعديهم مبلغ جهدهم و يتظلمون و يشتكون إذا بلغ بهم الجهد، و حمل عليهم من التعدى ما يفوق طاقتهم.

نعم ربما فقدوا بعض هؤلاء المتسمين بالملوك و الرؤساء بهلاك أو قتل أو نحو ذلك، و أحسوا بالفتنه و الفساد، و هددهم اختلال النظم و وقوع الهرج فبادروا إلى تقديم بعض أولى الطول و القوه منهم، و ألقوا إليه زمام الملك فصار ملكا يملك أزمه الأمور ثم يعود الأمر على ما كان عليه من التعدى و التحميل.

و لم تزل الاجتماعات على هذه الحال برهه بعد برهه حتى تضجرت من سوء سير هؤلاء المتسمين بالملوك فى مظالمهم باستبدادهم فى الرأى و إطلاقهم فيما يشاءون فوضعت قوانين تعين وظائف الحكومه الجاربه بين الأمم و أجبرت الملوك باتباعها و صار الملك ملكا مشروطا بعد ما كان مطلقا، و اتحد الناس على التحفظ على ذلك، و كان الملك موروثا.

ثم أحست اجتماعات بىغى ملوكهم و سوء سيرهم و لا سبيل إليهم بعد ركوب أريكه الملك، و تشيبتهم كون الملك موهبه غير متغيره موروثه فبدلوا الملك برئاسه الجمهور فانقلب الملك المؤبد المشروط إلى ملك مؤجل مشروط، و ربما وجد فى الأقسام و الأمم المختلفه أنواع من الملك دعاهم إلى وضعه الفرار عن المظالم التى شاهدوها ممن بيده زمام أمرهم، و ربما حدث فى مستقبل الأيام ما لم ينتقل أفهامنا إليه إلى هذا الآن.

لكن الذى يتحصل من جميع هذه المساعى التى بذلتها الاجتماعات فى سبيل إصلاح هذا الأمر أعنى إلقاء زمام الأمه إلى من يدبر أمرها، و يجمع شتات إراداتها المتضاده و قواها المتنافيه: أن لا غنى للمجتمع الإنسانى عن هذا المقام و هو مقام الملك و إن تغيرت أسماؤه، و تبدلت شرائطه بحسب اختلاف الأمم، و مرور الأيام فإن طروق الهرج و المرج، و اختلال أمر الحياه الاجتماعيه على جميع التقادير من لوازم عدم اجتماع أزمه الإيرادات و المقاصد فى إرادته واحده لإنسان واحد أو مقام واحد.

و هذا هو الذى تقدم فى أول الكلام أن الملك من الاعتبارات الضروريه فى الاجتماع الإنسانى.

و هو مثل سائر الموضوعات الاعتباريه التى لم يزل الاجتماع بصدد تكميلها و إصلاحها و رفع نواقصها و آثارها المضاده لسعاده الإنسانيه.

و للنبوه فى هذا الإصلاح السهم الأوفى فإن من المسلم فى علم الاجتماع: أن انتشار

قول ما من الأقوال بين العامه و خاصه إذا كان مما يرتبط بالغريره، و يستحسنه القريحه، و يطمئن إليه النفوس المتوقعه أقوى سبب لتوحيد الميول المتفرقه و جعل الجماعات المتشثته يدا واحدا تقبض و تبسط بإرادته واحده لا يقوم لها شىء.

و من الضرورى: أن النبوه منذ أقدم عهود ظهورها تدعو الناس إلى العدل، و تمنعهم عن الظلم، و تندبهم إلى عباده الله و التسليم له، و تنهاهم عن اتباع الفراعنه الطاغين، و النمارده المستكبرين المتغلبين، و لم تزل هذه الدعوه بين الأمم منذ قرون متراكمه جيلا بعد جيل، و أمه بعد أمه و إن اختلفت بحسب السعه و الضيق باختلاف الأمم و الأزمنه، و من المحال أن يلبث مثل هذا العامل القوى بين الاجتماعات الإنسانيه قرونا متماديه و هو منعزل عن الأثر خال عن الفعل.

و قد حكى القرآن الكريم فى ذلك شيئا كثيرا من الوحي المنزل على الأنبياء (ع) كما حكى عن نوح فيما يشكوه لربه: «رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَ وَّلَّمْدَهُ إِلَّا خَسَارًا وَ مَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا وَ قَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ»: نوح-٢٣، و كذا ما وقع بينه و بين عظماء قومه من الجدل على ما يحكيه القرآن، قال تعالى:

«قَالُوا أَوْ تَزِدُّهُمْ عِلْمًا فَهُمْ يُغْتَابُوا وَ مَا عَلَّمِيَ إِلَّا مَا يَشَاءُ اللَّهُ وَ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ الْغُيُوبَ لَغَنَيْنَاكَ مِنَ الْغَنَى لَإِنَّا لَكَنَّاظِرُونَ» الشعراء-١١٣، و قول هود(ع) لقومه: «أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ»: الشعراء-١٣٠، و قول صالح(ع) لقومه: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ»: الشعراء-١٥٢.

و لقد قام موسى(ع) للدفاع عن بنى إسرائيل و معارضه فرعون فى سيرته الجائره الظالمه، و انتهض قبله إبراهيم(ع) لمعارضه نمرود و من بعده عيسى بن مريم(ع) و سائر أنبياء بنى إسرائيل فى معارضه مترفى أعصارهم من الملوك و العظماء، و تقبيح سيرهم الظالمه، و دعوه الناس إلى رفض طاعه المفسدين و اتباع الطاغين.

و أما القرآن فاستنهاضه الناس على الامتناع عن طاعه الإفساد و الإباء عن الضيم، و إنباؤه عن عواقب الظلم و الفساد و العدوان و الطغيان مما لا يخفى قال تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ

سَوِّطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ: الفجر-١٤، إلى غير ذلك من الآيات.

وَمَا أَن الْمَلِكُ (بالضم) من ضروريات المجتمع الإنساني فيكفي في بيانه أتم بيان قوله تعالى بعد سرد قصه طالوت: «وَلَوْ لَا دَفَعِ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ»: البقره-٢٥١، وقد مر بيان كيفية دلالة الآية بوجه عام.

وفي القرآن آيات كثيرة تتعرض للملك والولاية وافتراض الطاعة ونحو ذلك، وأخرى تعده نعمه وموهبه كقوله تعالى: «وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا»: النساء-٥٤، وقوله تعالى: «وَاجْعَلْكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ»: المائدة-٢٠، وقوله تعالى: «وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ»: البقره-٢٤٧، إلى غير ذلك من الآيات.

غير أن القرآن إنما يعده كرامه إذا اجتمع مع التقوى لحصره الكرامه على التقوى من بين جميع ما ربما يتخيل فيه شيء من الكرامه من مزايا الحيوه، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ»: الحجرات-١٣، والتقوى حسابه على الله ليس لأحد أن يستعلى به على أحد فلا فخر لأحد على أحد بشيء لأنه إن كان أمرا دنيويا فلا- مزيه لأمر دنيوي، ولا- قدر إلا- للدين وإن كان أمرا أخرويا فأمره إلى الله سبحانه، وعلى الجملة لا يبقى للإنسان المتلبس بهذه النعمه أعنى الملك في نظر رجل مسلم إلا تحمل الجهد ومشقه التقليد والأعباء نعم له عند ربه عظيم الأجر ومزيد الثواب إن لازم صراط العدل والتقوى.

وهذا هو روح السيره الصالحه التي لازمها أولياء الدين، و سنشبع إن شاء الله العزيز هذا المعنى في بحث مستقل في سيره رسول الله ص والطاهرين من آله الثابته بالآثار الصحيحه، وأنهم لم ينالوا من ملكهم إلا أن يثوروا على الجبابره في فسادهم في الأرض ويعارضوهم في طغيانهم واستكبارهم.

ولذلك لم يدع القرآن الناس إلى الاجتماع على تأسيس الملك، وتشديد بنیان القيصريه والكسرويه، وإنما تلقى الملك شأنا من الشؤون اللازمه المراعاة في المجتمع الإنساني نظير التعليم أو إعداد القوه لإرهاب الكفار.

بل إنما دعا الناس إلى الاجتماع والاتحاد والاتفاق على الدين، ونهاهم عن

التفرق و الشقاق فيه، و جعله هو الأصل، فقال تعالى: «وَ أَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» الأنعام-١٥٣، و قال تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» آل عمران-٦٤، فالقرآن- كما ترى- لا يدعو الناس إلا إلى التسليم لله وحده و يعتبر من المجتمع الديني، و يدحض ما دون ذلك من عبادة الأنداد، و الخضوع لكل قصر مشيد، و منتدى رفيع و ملك قيصرى و كسروى و التفرق بإفراز الحدود و تفريق الأوطان و غير ذلك.

بحث فلسفى [فى استناد الملك و سائر الأمور الاعتباريه إليه تعالى].

لا ريب أن الواجب تعالى هو الذى تنتهى إليه سلسله العليه فى العالم، و إن الرابطه بينه و بين العالم جزءا و كلا هى رابطته العليه، و قد تبين فى أبحاث العله و المعلول أن العليه إنما هى فى الوجود بمعنى أن الوجود الحقيقى فى المعلول هو المترشح من وجود علتة، و أما غيره كالمماهيه فهو بمعزل عن الترشح و الصدور و الافتقار إلى العله، و ينعكس بعكس النقيض إلى أن ما لا وجود حقيقى له فليس بمعلول و لا منته إلى الواجب تعالى.

و يشكل الأمر فى استناد الأمور الاعتباريه المحضه إليه تعالى إذ لا وجود حقيقى لها أصلا، و إنما وجودها و ثبوتها ثبوت اعتبارى لا- يتعدى ظرف الاعتبار و الوضع و حيطه الفرض، و ما يشتمل عليه الشريعه من الأمر و النهى و الأحكام و الأوضاع كلها أمور اعتباريه فيشكل نسبتها إليه تعالى، و كذا أمثال الملك و العز و الرزق و غير ذلك.

و الذى تحل به العقده أنها و إن كانت عاريه عن الوجود الحقيقى إلا أن لها آثارا هى الحافظه لأسمائها كما مر مرارا، و هذه الآثار أمور حقيقيه مقصوده بالاعتبار و لها نسبه إليه تعالى فهذه النسبه هى المصححه لنسبتها فالملك الذى بيننا أهل الاجتماع و إن كان أمرا اعتباريا وضعيا لا نصيب لمعناه من الوجود الحقيقى، و إنما هو

معنى متوهم لنا جعلناه وسيله إلى البلوغ إلى آثار خارجيه لم يكن يمكننا البلوغ إليها لو لا فرض هذا المعنى الموهوم و تقديره، و هى قهر المتغلبين و أولى السطوه و القوه من أفراد الاجتماع الواثين على حقوق الضعفاء و الخاملين، و وضع كل من الأفراد فى مقامه الذى له، و إعطاء كل ذى حق حقه، و غير ذلك.

لكن لما كان حقيقه معنى الملك و اسمه باقيا ما دامت هذه الآثار الخارجيه باقيه مترتبه عليه فاستناد هذه الآثار الخارجيه إلى عللها الخارجيه هو عين استناد الملك إليه، و كذلك القول فى العزه الاعتباريه، و آثارها الخارجيه و استنادها إلى عللها الحقيقه، و كذلك الأمر فى غيرها كالأمر و النهى و الحكم و الوضع و نحو ذلك.

و من هنا يتبين: أن لها جميعا استنادا إلى الواجب تعالى باستناد آثارها إليه على حسب ما يليق بساحه قدسه و عزه

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٢٨ إلى ٣٢]

اشاره

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاهُ وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعْلِمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)

الآيات غير خاليه عن الارتباط بما تقدمها بناء على ما ذكرناه فى الآيات السابقه:

أن المقام مقام التعرض لحال أهل الكتاب و المشركين و التعريض لهم، فالمراد بالكافرين إن كان يعم أهل الكتاب فهذه الآيات تنهى عن توليهم و الامتزاج الروحى بالمشركين و بهم جميعا، و إن كان المراد بهم المشركين فحسب فالآيات متعرضه لهم و دعوه إلى تركهم و الاتصال بحزب الله، و حب الله و طاعه رسوله.

قوله تعالى: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، الأولياء جمع الولي من الولايه و هى فى الأصل ملكك تدبير أمر الشىء فولى الصغير أو المجنون أو المعتوه هو الذى يملك تدبير أمورهم و أمور أموالهم فالمال لهم و تدبير أمره لوليهم، ثم استعمل و كثر استعماله فى مورد الحب لكونه يستلزم غالبا تصرف كل من المتحابين فى أمور الآخر لإفضائه إلى التقرب و التأثير عن إرادته المحبوب و سائر شئونه الروحيه فلا يخلو الحب عن تصرف المحبوب فى أمور المحب فى حيوته.

فاتخاذ الكافرين أولياء هو الامتزاج الروحى بهم بحيث يودى إلى مطاوعتهم و التأثير منهم فى الأخلاق و سائر شئون الحيوه و تصرفهم فى ذلك، و يدل على ذلك تقييد هذا النهى بقوله: مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، فإن فيه دلالة على إشارتهم على حب المؤمنين، و إلقاء أزمه الحيوه إليهم دون المؤمنين، و فيه الركون إليهم و الاتصال بهم و الانفصال عن المؤمنين.

و قد تكرر ورود النهى فى الآيات الكريمة عن تولى الكافرين و اليهود و النصرارى و اتخاذهم أولياء لكن موارد النهى مشتمله على ما يفسر معنى التولى المنهى عنه، و يعرف كيفيه الولايه المنهى عنها كاشتمال هذه الآيه على قوله: مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ بعد قوله: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ، و اشتمال قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ» X الآية X: المائدة- ٥١، على قوله: بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، و تعقب قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ» X الآية X: الممتحنة- ١، بقوله: لَا يَنْهَأُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ.

و على هذا فأخذ هذه الأوصاف فى قوله: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ

للدلالة على سبب الحكم وعلته، وهو أن صفتي الكفر والإيمان مع ما فيهما من البعد والبينونة ولا محاله يسرى ذلك إلى من اتصف بهما فيفرق بينهما في المعارف والأخلاق وطريق السلوك إلى الله تعالى و سائر شئون الحيوه لا يلائم حالهما مع الولايه فإن الولايه يوجب الاتحاد والامتزاج، وهاتان الصفتان توجبان التفرق والبينونة، وإذا قويت الولايه كما إذا كان من دون المؤمنين أوجب ذلك فساد خواص الإيمان وآثاره ثم فساد أصله، ولذلك عقبه بقوله: وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، ثم عقبه أيضا بقوله: إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً، فاستثنى التقيه فإن التقيه إنما توجب صوره الولايه في الظاهر دون حقيقتها.

و دون في قوله: مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ كأنه ظرف يفيد معنى عند مع شوب من معنى السفاله والقصور، والمعنى: مبتدئا من مكان دون مكان المؤمنين فإنهم أعلى مكانا.

و الظاهر أن ذلك هو الأصل في معنى دون فكان في الأصل يفيد معنى الدنو مع خصوصيه الانخفاض فقولهم دونك زيد أى هو في مكان يدنو من مكانك وأخفض منه كالدرجه دون الدرجه ثم استعمل بمعنى غير كقوله: «إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ»: المائدة- ١١٦، وقوله: «وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»: النساء- ٤٨، أى ما سوى ذلك أو ما هو أدون من ذلك و أهون، كذا استعمل اسم فعل كقولهم: دونك زيدا أى الزمه، كل ذلك من جهة الانطباق على المورد دون الاشتراك اللفظي.

قوله تعالى: وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، أى و من يتخذهم أولياء من دون المؤمنين، وإنما بدل من لفظ عام للإشعار بنهايه نفره المتكلم منه حتى أنه لا يتلفظ به إلا بلفظ عام كالتكنيه عن القبائح، وهو شائع فى اللسان، ولذلك أيضا لم يقل: و من يفعل ذلك من المؤمنين كأن فيه صونا للمؤمنين من أن ينسب إليهم مثل هذا الفعل.

و من في قوله: مِنَ اللَّهِ، للابتداء، ويفيد فى أمثال هذا المقام معنى التحزب أى ليس من حزب الله فى شىء كما قال تعالى: «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ»: المائدة- ٥٦، و كما فيما حكاه عن إبراهيم(ع) من قوله:

«فَمِنْ تَبَعِنِ فَمِائَةٌ مِّنِّي»: إبراهيم- ٣٦، أى من حزبي، و كيف كان فالمعنى و الله أعلم: ليس من حزب الله مستقرا فى شىء من الأحوال والآثار.

قوله تعالى: إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، الاتقاء فى الأصل أخذ الوقايه للخوف ثم ربما استعمل بمعنى الخوف استعمالاً للمسبب فى مورد السبب و لعل التقية فى المورد من هذا القبيل.

و الاستثناء منقطع فإن التقرب من الغير خوفاً بإظهار آثار التولى ظاهراً من غير عقد القلب على الحب و الولايه ليس من التولى فى شىء لأن الخوف و الحب أمران قلبيان متباينان و متنافيان أثراً فى القلب فكيف يمكن اتحادهما؟ فاستثناء الاتقاء استثناء منقطع.

و فى الآيه دلالة ظاهره على الرخصه فى التقية على ما روى عن أئمة أهل البيت (ع) كما تدل عليه الآيه النازله فى قصه عمار و أبويه ياسر و سميه و هى قوله تعالى:

«مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَيْدراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» :النحل-١٠٦.

و بالجمله الكتاب و السنه متطابقان فى جوازها فى الجمله، و الاعتبار العقلى يؤكده إذ لا بغيه للدين، و لا هم لشارعه إلا ظهور الحق و حياته، و ربما يترتب على التقية و المجاراه مع أعداء الدين و مخالفي الحق من حفظ مصلحه الدين و حيوه الحق ما لا يترتب على تركها، و إنكار ذلك مكابره و تعسف، و سنستوفى الكلام فيها فى البحث الروائى التالى، و فى الكلام على قوله تعالى: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» :النحل-١٠٦.

قوله تعالى: وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ، التحذير تفعيل من الحذر و هو الاحتراز من أمر مخيف و قد حذر الله عباده من عذابه كما قال تعالى: «إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً» :إسراء-٥٧، و حذر من المنافقين و فتنه الكفار فقال: «هُمُ الْعِيدُ فَاحْذَرُهُمْ» :المنافقين-٤، و قال: «وَ احْذَرُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ» :المائده-٤٩، و حذرهم من نفسه كما فى هذه الآيه و ما يأتى بعد آيتين، و ليس ذلك إلا- للدلاله على أن الله سبحانه نفسه هو المخوف الواجب الاحتراز فى هذه المعصيه، أى ليس بين هذا المجرم و بينه تعالى شىء مخوف آخر حتى يتقى عنه بشىء أو يتحصن منه بحصن، و إنما هو الله الذى لا عاصم منه، و لا أن بينه و بين الله سبحانه أمر مرجو فى دفع الشر عنه من ولى

و لا- شفيع، ففي الكلام أشد التهديد، و يزيد في اشتداده تكراره مرتين في مقام واحد و يؤكد تذييله أولاً بقوله: وَ إِيَّ اللَّهِ الْمَصِيرُ، و ثانياً بقوله: وَ اللَّهُ رُؤْفٌ بِالْعَبَادِ عَلَى مَا سِيَجِيءُ مِنْ بَيَانِهِ.

و من جهة أخرى: يظهر من مطاوى هذه الآيه و سائر الآيات الناهيه عن اتخاذ غير المؤمنين أولياء أنه خروج عن زى العبوديه، و رفض لولايه الله سبحانه، و دخول في حزب أعدائه لإفساد أمر الدين، و بالجمله هو طغيان و إفساد لنظام الدين الذى هو أشد و أضر بحال الدين من كفر الكافرين و شرك المشركين فإن العدو الظاهر عدواته المباين طريقته مدفوع عن الحومه سهل الاتقاء و الحذر، و أما الصديق و الحميم إذا استأنس مع الأعداء و دب فيه أخلاقهم و سننهم فلا يلبث فعالة إلا أن يذهب بالحومه و أهلها من حيث لا يشعرون، و هو الهلاك الذى لا رجاء للحياه و البقاء معه.

و بالجمله هو طغيان، و أمر الطاغى فى طغيانه إلى الله سبحانه نفسه، قال تعالى:

«أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعِمَادٍ إِزْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْبِلَادِ فَمَا كَثُرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَيْوُطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصِدِ إِدٍ»: الفجر- ١٤، فالطغيان يسلك بالطاغى مسلكا يورده المرصاد الذى ليس به إلا الله جلت عظمته فيصب عليه سوط عذاب و لا مانع.

و من هنا يظهر: أن التهديد بالتحذير من الله نفسه فى قوله: وَ يُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ، لكون المورد من مصاديق الطغيان على الله بإبطال دينه و إفساده.

و يدل على ما ذكرناه قوله تعالى: «فَأَسْبَغَتْكُمْ كَمَا أُمِرْتِ وَ مَنْ تَابَ مَعَكَ وَ لَا تَطْعَمُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَ لَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمَسَّكُمْ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ»: هود- ١١٣، و هذه آيه ذكر رسول الله ص:

أنها شبيته- على ما فى الروايه- فإن الآيتين- كما هو ظاهر للمتدبر- ظاهرتان فى أن الركون إلى الظالمين من الكافرين طغيان يستتبع مس النار استتباعا لا ناصر معه، و هو الانتقام الإلهى لا عاصم منه و لا دافع له كما تقدم بيانه.

و من هنا يظهر أيضا: أن فى قوله: وَ يُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ، دلالة على أن التهديد إنما هو بعذاب مقضى قضاء حتما من حيث تعليق التحذير بالله نفسه الدال على عدم

حائل يحول في البين، ولا عاصم من الله سبحانه وقد أوعد بالعذاب فينتج قطعيه الوقوع كما يدل على مثله قوله في آيتي سوره هود: فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ .

و في قوله: وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ دلالة على أن لا مفر لكم منه ولا صارف له، ففيه تأكيد التهديد السابق عليه.

و الآيات أعنى قوله تعالى: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ الْآيَة و ما يتبعها من الآيات من ملاحم القرآن، و سيجيء بيانه إن شاء الله في سوره المائدة.

قوله تعالى: قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوهُ يُعَلِّمُهُ اللَّهُ، الْآيَة نظيره قوله تعالى: «وَ إِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ» :البقره-٢٨٤، غير أنه لما كان الأنسب بحال العلم أن يتعلق بالمخفى بخلاف الحساب فإن الأنسب له أن يتعلق بالبادى الظاهر قدم ذكر الإخفاء في هذه الآيه على ذكر الإبداء، و جرى بالعكس منه في آيه البقره كما قيل.

و قد أمر في الآيه رسوله بإبلاغ هذه الحقيقه—و هو علمه بما تخفيه أنفسهم أو تبديه—من دون أن يباشره بنفسه كسابق الكلام، و ليس ذلك إلا ترغبا عن مخاطبه من يستشعر من حاله أنه سيخالف ما وصاه كما مر ما يشبه ذلك في قوله:

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ

و في قوله تعالى: وَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مضاهاه لما مر من آيه البقره و قد مر الكلام فيه.

قوله تعالى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَ مَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ، الظاهر من اتصال السياق أنه من تتمه القول في الآيه السابقه الذى أمر به النبى ص، و الطرف متعلق بمقدر أى و اذكر يوم تجد، أو متعلق بقوله: يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَ يَعْلَمُ ، و لا ضير فى تعليق علمه تعالى بما سنشاهده من أحوال يوم القيامة فإن هذا اليوم ظرف لعلمه تعالى بالنسبه إلى ظهور الأمر لنا لا بالنسبه إلى تحققه منه تعالى، و ذلك كظهور ملكه و قدرته و قوته فى اليوم، قال تعالى: «يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» :المؤمن-١٦، و قال: «لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» :هود-٤٣، و قال: «وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا» :البقره-١٦٥،

و قال: «وَ الْأَمْرُ يُؤَمِّدُ لِلَّهِ»: الانفطار-١٩، إذ من المعلوم أن الله سبحانه له كل الملك و القدره و القوه و الأمر دائماً-قبل القيامه و فيها و بعدها-و إنما اختص يوم القيامه بظهور هذه الأمور لنا معاشر الخلائق ظهوراً لا ريب فيه.

□
و من ذلك يظهر أن تعلق الظرف بقوله: يَعْلَمُهُ اللَّهُ، لا يفيد تأخر علمه تعالى بسرائر عبادته من خير أو شر إلى يوم القيامه.

على أن في قوله تعالى: مُخَضَّرًا، دون أن يقول: حاضرًا دلالة على ذلك فإن الإحضار إنما يتم فيما هو موجود غائب فالأعمال موجوده محفوظه عن البطلان يحضرها الله تعالى لخلقها يوم القيامه، و لا حافظ لها إلا الله سبحانه، قال تعالى: «وَ رَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ»: سبأ-٢١ و قال: «وَ عِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ»: ق-٤.

و قوله: تَجِدُ، من الوجدان خلاف الفقدان، و من في قوله: مِنْ خَيْرٍ و مِنْ سُوءٍ للبيان، و التنكير للتعميم، أي تجد كل ما عملت من الخير و إن قل و كذا من السوء و قوله: وَ مَا عَمَلْتَ مِنْ سُوءٍ، معطوف على قوله □ مَا عَمَلْتَ مِنْ خَيْرٍ على ما هو ظاهر السياق و الآيه من الآيات الداله على تجسم الأعمال، و قد مر البحث عنها في سورة البقره.

قوله تعالى: تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا، الظاهر أنه خبر لمبتدأ محذوف و هو الضمير الراجع إلى النفس، و لَوْ للتمنى، و قد كثر دخوله في القرآن على أن المفتوحه المشدده، فلا يعاب بما قيل من عدم جوازه و تأويل ما ورد فيه ذلك من الموارد.

و الأمد يفيد معنى الفاصله الزمانيه، قال الراغب في مفردات القرآن: الأمد و الأبد يتقاربان، لكن الأبد عباره عن مده الزمان التي ليس لها حد محدود، و لا يتقيد، لا يقال: أمد كذا، و الأمد مده لها حد مجهول إذا أطلق، و قد ينحصر نحو أن يقال: أمد كذا، كما يقال: زمان كذا، و الفرق بين الزمان و الأمد، أن الأمد يقال باعتبار الغايه، و الزمان عام في المبدئ و الغايه، و لذا قال بعضهم: الأمد و المدى يتقاربان، انتهى.

و في قوله: تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا، دلالة على أن حضور سيئ العمل يسوء النفس كما يشعر بالمقابله بأن حضور خير العمل يسرها، و إنما تود الفاصله الزمانيه بينها و بينه دون أن تود أنه لم يكن من أصله لما يشاهد من بقائه بحفظ الله فلا يسعها

إلا أن تحب بعده و عدم حضوره فى أشق الأحوال، و عند أعظم الأحوال كما يقول لقرين السوء نظير ذلك، قال تعالى: «نَقَّيْضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ X إلى أن قال X: حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ»: الزخرف-٣٨.

قوله تعالى: وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَوْفٌ بِالْإِنْسَانِ ذكر التحذير ثانيا يعطى من أهميه المطلب و البلوغ فى التهديد ما لا يخفى، و يمكن أن يكون هذا التحذير الثانى ناظرا إلى عواقب المعصيه فى الآخره كما هو مورد نظر هذه الآيه، و التحذير الأول ناظرا إلى وبالها فى الدنيا أو فى الأعم من الدنيا و الآخره.

و أما قوله: وَ اللَّهُ رَوْفٌ بِالْإِنْسَانِ فهو-على كونه حاكيا عن رأفته و حنانه تعالى المتعلق بعباده كما يحكى عن ذلك الإتيان بوصف العبوديه و الرقيه-دليل آخر على تشديد التهديد إذ أمثال هذا التعبير فى موارد التخويف و التحذير إنما يؤتى بها لتثبيت التخويف و إيجاد الإذعان بأن المتكلم ناصح لا يريد إلا الخير و الصلاح، تقول: إياك أن تتعرض لى فى أمر كذا فإنى آليت أن لا أسامح مع من تعرض لى فيه، إنما أخبرك بهذا رأفه بك و شفقه.

فيثول المعنى -و الله أعلم- إلى مثل أن يقال: إن الله لرأفته بعباده ينهاهم قبلا أن يتعرضوا لمثل هذه المعصيه التى وبال أمرها واقع لا محاله من غير أن يؤثر فيه شفاعه شافع و لا دفع دافع.

قوله تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ، قد تقدم كلام فى معنى الحب، و أنه يتعلق بحقيقه معناه بالله سبحانه كما يتعلق بغيره فى تفسير قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ» X الآيه X: البقره-١٦٥.

و نزيد عليه هاهنا: أنه لا ريب أن الله سبحانه-على ما ينادى به كلامه-إنما يدعو عبده إلى الإيمان به و عبادته بالإخلاص له و الاجتناب عن الشرك كما قال تعالى:

«أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ»: الزمر-٣، و قال تعالى: «وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»: البينه-٥، و قال تعالى: «فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ»: المؤمن-١٤، إلى غير ذلك من الآيات.

و لا شك أن الإخلاص فى الدين إنما يتم على الحقيقه إذا لم يتعلق قلب الإنسان

-الذى لا يريد شيئاً ولا يقصد أمراً إلا عن حب نفسى و تعلق قلبى-بغيره تعالى من معبود أو مطلوب كصنم أو ند أو غايه دنيويه بل ولا-مطلوب أخروى كفوز بالجنه أو خلاص من النار و إنما يكون متعلق قلبه هو الله تعالى فى معبوديته،فالإخلاص لله فى دينه إنما يكون بحبه تعالى.

ثم الحب الذى هو بحسب الحقيقه الوسيله الوحيده لارتباط كل طالب بمطلوبه و كل مرید بمراده إنما يجذب المحب إلى محبوبه ليجده و يتم بالمحوب ما للمحب من النقص و لا بشرى للمحب أعظم من أن يبشر أن محبوبه يحبه،و عند ذلك يتلاقى حبان، و يتعاكس دلالان.

فالإنسان إنما يحب الغذاء و ينجذب ليجده و يتم به ما يجده فى نفسه من النقص الذى آتیه الجوع،و كذا يحب النكاح ليجد ما تطلبه منه نفسه الذى علامته الشبق و كذا يريد لقاء الصديق ليجده و يملك لنفسه الأئس و له يضيق صدره،و كذا العبد يحب مولاه و الخادم ربما يتوله لمخدومه ليكون مولى له حق المولويه،و مخدوما له حق المخدوميه، و لو تأملت موارد التعلق و الحب أو قرأت قصص العشاق و المتولهيين على اختلافهم لم تشك فى صدق ما ذكرناه.

فالعبد المخلص لله بالحب لا بغيه له إلا أن يحبه الله سبحانه كما أنه يحب الله و يكون الله له كما يكون هو الله عز اسمه فهذا هو حقيقه الأمر غير أن الله سبحانه لا يعد فى كلامه كل حب له حبا و(الحب فى الحقيقه هو العلقه الرابطه التى تربط أحد الشئيين بالآخر)على ما يقضى به ناموس الحب الحاكم فى الوجود فإن حب الشئ يقضى حب جميع ما يتعلق به،و يوجب الخضوع و التسليم لكل ما هو فى جانبه،و الله سبحانه هو الله الواحد الأحد الذى يعتمد عليه كل شئ فى جميع شئون وجوده و يبتغى إليه الوسيله و يصير إليه كل ما دق و جل،فمن الواجب أن يكون حبه و الإخلاص له بالتدين له بدين التوحيد و طريق الإسلام على قدر ما يطيقه إدراك الإنسان و شعوره،و إن الدين عند الله الإسلام،و هذا هو الدين الذى يندب إليه سفراؤه،و يدعو إليه أنبيأؤه و رسله،و خاصه دين الإسلام الذى فيه من الإخلاص ما لا إخلاص فوقه، و هو الدين الفطرى الذى يختم به الشرائع و طرق النبوه كما يختم بصادعه الأنبياء(ع)، و هذا الذى ذكرناه مما لا يرتاب فيه المتدبر فى كلامه تعالى.

وقد عرف النبي ص سبيله الذى سلكه بسبيل التوحيد، وطريقه الإخلاص على ما أمره الله سبحانه حيث قال: «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» :يوسف-١٠٨، فذكر أن سبيله الدعوه إلى الله على بصيره و الإخلاص لله من غير شرك فسييله دعوه و إخلاص، و اتباعه و اقتفاء أثره إنما هو فى ذلك فهو صفه من اتبعه.

ثم ذكر الله سبحانه أن الشريعة التى شرعها له (ص) هى الممثلة لهذا السبيل سبيل الدعوه و الإخلاص فقال: «ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيْعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا» :الجاثية- ١٨، و ذكر أيضا أنه إسلام لله حيث قال: «فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ» :آل عمران- ٢٠، ثم نسبه إلى نفسه و بين أنه صراطه المستقيم فقال: «وَ أَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ» :الأنعام- ١٥٣، فبين بذلك كله أن (الإسلام و هو الشريعة المشرعه للنبي ص الذى هو مجموع المعارف الأصلية و الخلقية و العملية و سيرته فى الحيوه) هو سبيل الإخلاص عند الله سبحانه الذى يعتمد و يبتنى على الحب، فهو دين الإخلاص، و هو دين الحب.

و من جميع ما تقدم على طوله يظهر معنى الآيه التى نحن بصدد تفسيرها، أعنى قوله: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ فالمراد-و الله أعلم- إن كنتم تريدون أن تخلصوا لله فى عبوديتكم بالبناء على الحب حقيقه فاتبعوا هذه الشريعة التى هى مبنية على الحب الذى ممثله الإخلاص و الإسلام و هو صراط الله المستقيم الذى يسلك بسالكة إليه تعالى، فإن اتبعتمونى فى سبيلى و شأنه هذا الشأن أحبكم الله و هو أعظم البشاره للمحب، و عند ذلك تجدون ما تريدون، و هذا هو الذى يبتغيه محب بحبه، هذا هو الذى تقتضيه الآيه الكريمة بإطلاقها.

و أما بالنظر إلى وقوعها بعد الآيات الناهية عن اتخاذ الكفار أولياء و ارتباطها بما قبلها فهذه الولاية لكونها تستدعى فى تحققها تحقق الحب بين الإنسان و بين من يتولى كما تقدم كانت الآيه ناظره إلى دعوتهم إلى اتباع النبي ص إن كانوا صادقين فى دعواهم و لا-يه الله و أنهم من حزبه فإن و لا-يه الله لا- يتم باتباع الكافرين فى أهوائهم (و لا ولاية إلا باتباع) و ابتغاء ما عندهم من مطامع الدنيا من عز و مال بل تحتاج إلى اتباع نبيه فى دينه كما قال تعالى: «ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيْعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ

لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ» :الجاثية-١٩، انظر إلى الانتقال من معنى الاتباع إلى معنى الولاية فى الآيه الثانيه.

فمن الواجب على من يدعى ولاية الله بحبه أن يتبع الرسول حتى ينتهى ذلك إلى ولاية الله له بحبه.

و إنما ذكر حب الله دون ولايته لأنه الأساس الذى تبنى عليه الولاية، و إنما اقتصر على ذكر حب الله تعالى فحسب لأن ولاية النبى و المؤمنين تتول بالحقيقه إلى ولاية الله.

قوله تعالى: وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، الرحمة الواسعه الإلهيه و ما عنده من الفيوضات المعنويه و الصوريه غير المتناهيه غير موقفه على شخص أو صنف من أشخاص عباده و أصنافهم، و لا استثناء هناك يحكم على إطلاق إفاضته، و لا سبيل يلزمه على الإمساك إلا حرمان من جهه عدم استعداد المستفيض المحروم أو مانع أبداه بسوء اختياره، قال تعالى: «وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا» الإسراء-٢٠.

و الذنوب هى المانع من نيل ما عنده من كرامه القرب و الزلفى و جميع الأمور التى هى من توابعها كالجنه و ما فيها، و إزاله رينها عن قلب الإنسان و مغفرتها و سترها عليه هى المفتاح الوحيد لانفتاح باب السعاده و الدخول فى دار الكرامه، و لذلك عقب قوله: يُحِبُّكُمْ اللَّهُ بقوله: وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، فإن الحب كما تقدم يجذب المحب إلى المحبوب، و كما كان حب العبد لربه يستدعى منه التقرب بالإخلاص له و قصر العبوديه فيه كذلك حبه تعالى لعبده يستدعى قربه من العبد، و كشفه حجب البعد و سبحات الغيبه، و لا حجاب إلا الذنب فيستدعى ذلك مغفره الذنوب، و أما ما بعده من الكرامه و الإفاضه فالجود كاف فيه كما تقدم آنفا.

و التأمل فى قوله تعالى: «كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ» :المطففين-١٥ مع قوله تعالى فى هذه الآيه: «يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» كاف فى تأييد ما ذكرناه.

قوله تعالى: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ، إلخ لما كانت الآيه السابقه تدعو إلى

اتباع الرسول، واتباع وهو اقتفاء الأثر لا يتم إلا مع كون المتبع (اسم مفعول) سألَكَ سبيل، و السبيل الذى يسلكه النبى ص إنما هو الصراط المستقيم الذى هو الله سبحانه، وهو الشريعة التى شرعها لنبيه و افترض طاعته فيه كرر ثانيا فى هذه الآية معنى اتباع النبى ص فى قالب الإطاعة إشعارا بأن سبيل الإخلاص الذى هو سبيل النبى هو بعينه مجموع أوامر و نواه و دعوه و إرشاد فيكون اتباع الرسول فى سلوك سبيله هو إطاعه الله و رسوله فى الشريعة المشرعه. و لعل ذكره تعالى مع الرسول للإشعار بأن الأمر واحد، و ذكر الرسول معه سبحانه لأن الكلام فى اتباعه.

و من هنا يظهر عدم استقامه ما ذكره بعضهم فى الآية: أن المعنى: أطيعوا الله فى كتابه و الرسول فى سنته.

و ذلك أنه مناف لما يلوح من المقام من أن قوله: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ «إلخ» كالمبين لقوله: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي»، على أن الآية مشعره بكون إطاعه الله و إطاعه الرسول واحده، و لذا لم يكرر الأمر، لو كان مورد الإطاعة مختلفا فى الله و رسوله لكان الأنسب أن يقال: أطيعوا الله و أطيعوا الرسول كما فى قوله تعالى: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ»: النساء- ٥٩، كما لا يخفى.

و اعلم أن الكلام فى هذه الآية من حيث إطلاقها و من حيث انطباقها على المورد نظير الكلام فى الآية السابقه.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، فيه دلالة على كفر المتولى عن هذا الأمر كما يدل على ذلك سائر آيات النهى عن تولى الكفار و فيه أيضا إشعار بكون هذه الآية كالمبينه لسابقتها حيث ختمت بنفى الحب عن الكافرين بأمر الإطاعة، و قد كانت الآية الأولى متضمنه لإثبات الحب للمؤمنين المنقادين لأمر الاتباع فافهم ذلك.

و قد تبين من الكلام فى هذه الآيات الكريمة أمور:

أحدها: الرخصه فى التقية فى الجملة.

و ثانيها: أن مؤاخذه تولى الكفار و التمرد عن النهى فيه لا يتخلف البتة،

و هي من القضاء الحتم.

و ثالثها: أن الشريعة الإلهية ممثلة للإخلاص لله و الإخلاص له ممثل لحب الله سبحانه، و بعبارة أخرى الدين الذى هو مجموع المعارف الإلهية و الأمور الخلقية و الأحكام العملية على ما فيها من العرض العريض لا ينتهى بحسب التحليل إلا إلى الإخلاص فقط، و هو وضع الإنسان ذاته و صفات ذاته (و هى الأخلاق) و أعمال ذاته و أفعاله على أساس أنها لله الواحد القهار، و الإخلاص المذكور لا يحلل إلا إلى الحب، هذا من جهة التحليل. و من جهة التركيب ينتهى الحب إلى الإخلاص، و الإخلاص إلى مجموع الشريعة، كما أن الدين بنظر آخر ينحل إلى التسليم و التسليم إلى التوحيد.

و رابعها: أن تولى الكافرين كفر و المراد به الكفر فى الفروع دون الأصول ككفر مانع الزكاه و تارك الصلوه و يمكن أن يكون كفر المتولى بعنايه ما ينجر إليه أمر التولى على ما مر بيانه، و سيأتى فى سوره المائده.

بحث روائى

فى الدر المنثور، " فى قوله تعالى: لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ الْآيَةَ، أخرج ابن إسحاق و ابن جرير - و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان الحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف - و ابن أبى الحقيق و قيس بن زيد - و قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم - فقال رفاعه بن المنذر و عبد الله بن جبير - و سعد بن خثيمه لأولئك النفر - اجتنبوا هؤلاء النفر من يهود، و احذروا مباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم - فأبى أولئك النفر فأنزل الله: لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ إِيَّاهُ أَوْلِيَاءَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

أقول: الروايه لا - ثلاثم ظاهر الآيه لما تقدم أن الكافرين فى القرآن غير معلوم الإطلاق على أهل الكتاب، فأولى بالقصه أن تكون سببا لنزول الآيات الناهيه عن اتخاذ اليهود و النصارى أولياء دون هذه الآيات.

و فى الصافى،: فى قوله تعالى: إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةَ الْآيَةِ، عن كتاب الاحتجاج، عن أمير المؤمنين (ع) فى حديث: و أمرك أن تستعمل التقيه فى دينك فإن الله يقول:

و إياك ثم إياك أن تتعرض للهلاك، و أن تترك التقيه التي أمرتك بها-فإنك شائط بدمك و دماء إخوانك، معرض لزوال نعمك و نعمهم، مذلهم في أيدي أعداء دين الله-و قد أمرك الله بإعزازهم

و في تفسير العياشي، عن الصادق(ع) قال: كان رسول الله يقول: لا دين لمن لا تقيه له، و يقول: قال الله: **إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاهُ**.

و في الكافي، عن الباقر(ع): التقيه في كل شيء يضطر إليه ابن آدم و قد أحل الله له.

أقول: و الأخبار في مشروعيه التقيه من طرق أئمة أهل البيت كثيره جدا ربما بلغت حد التواتر، و قد عرفت دلالة الآيه عليها دلالة غير قابله للدفع.

و في معاني الأخبار، عن سعيد بن يسار قال: قال لي أبو عبد الله: هل الدين إلا الحب؟ إن الله عز و جل يقول: **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**.

أقول: و رواه في الكافي، عن الباقر(ع) و كذا القمي و العياشي في تفسيريهما، عن الحذاء عنه(ع): و كذا العياشي في تفسيره، عن بريد عنه(ع)، و عن ربيعي عن الصادق(ع)، و الروايه تؤيد ما أوضحناه في البيان المتقدم.

و في المعاني، عن الصادق(ع) قال: ما أحب الله من عصاه ثم تمثل بقوله:

تعصى الإله و أنت تظهر حبه

هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته

إن المحب لمن يحب مطيع

و في الكافي، عن الصادق(ع) في حديث قال: و من سره أن يعلم أن الله يحبه- فليعمل بطاعه الله و ليتبعنا، أ لم يسمع قول الله عز و جل لنبيه: **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ- وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** الحديث.

أقول: و سيأتي بيان كون اتباعهم اتباع النبي ص في الكلام على قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ X الآيه X: النساء- ٥٩.

و في الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد عن الحسن قال: قال رسول الله ص:

من رغب عن سنتي فليس مني ثم تلا هذه الآية: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

و فيه، أيضا أخرج ابن أبي حاتم و أبو نعيم في الحليه و الحاكم عن عائشه قالت:

قال رسول الله ص: الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا في الليله الظلماء—و أدناه أن يحب على شيء من الجور، و يبغض على شيء من العدل، و هل الدين إلا الحب و البغض في الله؟ قال الله تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ.».

و فيه، أيضا أخرج أحمد و أبو داود و الترمذى و ابن ماجه و ابن حبان و الحاكم عن أبي رافع عن النبي ص قال: لا ألقين أحدكم متكئا على أريكته—يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه—فيقول لا ندرى ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

إشارة

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ وَ آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّتَهُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)

بيان

افتتاح لقصص عيسى بن مريم و ما يلحق بها و ذكر حق القول فيها، و الاحتجاج على أهل الكتاب فيها، و بالآيتين يرتبط ما بعدهما بما قبلهما من الآيات المتعرضه لحال أهل الكتاب.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ الاصطفاء كما مر بيانه في قوله تعالى: «لَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا»: البقره- ١٣٠، أخذ صفوه الشيء و تخلصه مما يكدره فهو قريب من معنى الاختيار، و ينطبق من مقامات الولاية على مقام الإسلام، و هو جرى العبد في مجرى التسليم المحض لأمر ربه فيما يرتضيه له.

لكن ذلك غير الاصطفاء على العالمين، و لو كان المراد بالاصطفاء هنا ذاك الاصطفاء لكان الأنسب أن يقال: من العالمين، و أفاد اختصاص الإسلام بهم و اختل

معنى الكلام، فالاصطفاء على العالمين، نوع اختيار و تقديم لهم عليهم فى أمر أو أمور لا يشار كهم فيه أو فيها غيرهم.

و من الدليل على ما ذكرناه من اختلاف الاصطفاء قوله تعالى: «وَ إِذِ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: آل عمران-٤٢، حيث فرق بين الاصطفاءين فالاصطفاء غير الاصطفاء.

و قد ذكر سبحانه فى هؤلاء المصطفين آدم و نوحا، فأما آدم فقد اصطفى على العالمين بأنه أول خليفه من هذا النوع الإنسانى جعله الله فى الأرض، قال تعالى: «وَ إِذِ قَالَتْ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً»: البقره-٣٠، و أول من فتح به باب التوبه. قال تعالى: «ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَى»: طه-١٢٢، و أول من شرع له الدين، قال تعالى: «فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَ لَا يَشْقَى» X الآيات X: طه-١٢٣، فهذه أمور لا يشاركه فيها غيره، و يا لها من منقبه له (ع).

و أما نوح فهو أول الخمسه أولى العزم صاحب الكتاب و الشريعة كما مر بيانه فى تفسير قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ»: البقره-٢١٣، و هو الأب الثانى لهذا النوع، و قد سلم الله تعالى عليه فى العالمين، قال تعالى: «وَ جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ سَلَامًا عَلَى نُوحٍ فِى الْعَالَمِينَ»: الصافات-٧٩.

ثم ذكر سبحانه آل إبراهيم و آل عمران من هؤلاء المصطفين، و الآل خاصه الشىء، قال الراغب فى المفردات: الآل قيل مقلوب عن الأهل، و يصغر على أهيل إلا أنه خص بالإضافه إلى أعلام الناطقين دون النكرات و دون الأزمنه و الأمكنه، يقال آل فلان و لا- يقال: آل رجل و آل زمان كذا، أو موضع كذا، و لا- يقال آل الخياط بل يضاف إلى الأشرف الأفضل، يقال آل الله و آل السلطان، و الأهل يضاف إلى الكل، يقال: أهل الله و أهل الخياط كما يقال أهل زمن كذا و بلد كذا، و قيل هو فى الأصل اسم الشخص و يصغر أو يلا، و يستعمل فيمن يختص بالإنسان اختصاصا ذاتيا إما بقربه أو بموالاه انتهى موضع الحاجه، فالمراد بآل إبراهيم و آل عمران خاصتهما من أهلهما و الملحقين بهما على ما عرفت.

فأما آل إبراهيم فظاهر لفظه أنهم الطيبون من ذريته كإسحاق و إسرائيل

و الأنبياء من بنى إسرائيل و إسماعيل و الطاهرون من ذريته، و سيدهم محمد ص، و الملحقون بهم فى مقامات الولايه إلا أن ذكر آل عمران مع آل إبراهيم يدل على أنه لم يستعمل على تلك السعه فإن عمران هذا إما هو أبو مريم أو أبو موسى (ع)، و على أى تقدير هو من ذريه إبراهيم و كذا آله و قد أخرجوا من آل إبراهيم فالمراد بآل إبراهيم بعض ذريته الطاهرين لا جميعهم.

و قد قال الله تعالى فيما قال: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا»: النساء-٥٤، و الآيه فى مقام الإنكار على بنى إسرائيل و ذمهم كما يتضح بالرجوع إلى سياقها و ما يحتف بها من الآيات، و من ذلك يظهر أن المراد من آل إبراهيم فيها غير بنى إسرائيل أعنى غير إسحاق و يعقوب و ذريه يعقوب و هم (أى ذريه يعقوب) بنو إسرائيل فلم يبق لآل إبراهيم إلا الطاهرون من ذريته من طريق إسماعيل، و فيهم النبى و آله.

على أنا سنين إن شاء الله أن المراد بالناس فى الآيه هو رسول الله ص، و أنه داخل فى آل إبراهيم بدلاله الآيه.

على أنه يشعر به قوله تعالى فى ذيل هذه الآيات: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» X الآيه X: آل عمران-٦٨، و قوله تعالى:

«وَ إِذِ يَرَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا» X إلى أن قال X:

رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يَزَكِّيهِمْ» X الآيات X: البقره-١٢٩.

فالمراد بآل إبراهيم الطاهرون من ذريته من طريق إسماعيل، و الآيه ليست فى مقام الحصر فلا تنافى بين عدم تعرضها لاصطفاء نفس إبراهيم و اصطفاء موسى و سائر الأنبياء الطاهرين من ذريته من طريق إسحاق و بين ما تثبتها آيات كثيره من مناقبهم و سمو شأنهم و علو مقامهم، و هى آيات متكثره جدا لا حاجة إلى إيرادها، فإن إثبات الشىء لا يستلزم نفي ما عداه.

و كذا لا ينافى مثل ما ورد فى بنى إسرائيل من قوله تعالى: «وَ لَقَدْ آتَيْنَا بَنِي

إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» :الجاثية-١٦، كل ذلك ظاهر.

ولا- أن تفضيلهم على العالمين ينافى تفضيل غيرهم على العالمين، ولا تفضيل غيرهم عليهم فإن تفضيل قوم واحد أو أقوام مختلفين على غيرهم إنما يستلزم تقدمهم في فضيله دنيويه أو أخرويه على من دونهم من الناس، ولو نافی تفضيلهم على الناس تفضيل غيرهم أو نافی تفضيل هؤلاء المذكورين في الآيه أعنى آدم و نوح و آل إبراهيم و آل عمران على العالمين تفضيل غيرهم على العالمين لاستلزم ذلك التنافی بين هؤلاء المذكورين في الآيه أنفسهم، وهو ظاهر.

ولا أن تفضيل هؤلاء على غيرهم ينافى وقوع التفاضل فيما بينهم أنفسهم فقد فضل الله النبيين على سائر العالمين و فضل بعضهم على بعض، قال تعالى: «وَكَلَّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ» :الأنعام-٨٦، وقال أيضا: «وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ» :إسراء-٥٥.

و أما آل عمران فالظاهر أن المراد بعمران أبو مريم كما يشعر به تعقيب هاتين الآيتين بالآيات التي تذكر قصه امرأه عمران و مريم ابنة عمران، وقد تكرر ذكر عمران أبي مريم باسمه في القرآن الكريم، و لم يرد ذكر عمران أبي موسى حتى في موضع واحد يتعين فيه كونه هو المراد بعينه، و هذا يؤيد كون المراد بعمران في الآيه أبا مريم (ع) و على هذا فالمراد بآل عمران هو مريم و عيسى (ع) أو هما و زوجه عمران.

و أما ما يذكر أن النصارى غير معترفين بكون اسم أبي مريم عمران فالقرآن غير تابع لهواهم.

قوله تعالى: ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ، الذرية-في الأصل صغار الأولاد على ما ذكروا ثم استعملت في مطلق الأولاد و هو المعنى المراد في الآيه، و هى منصوبه عطف بيان.

و فى قوله: بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ دلالة على أن كل بعض فرض منها يبتدئ و ينتهى من البعض الآخر و إليه. و لازمه كون المجموع متشابه الأجزاء لا يفترق البعض من البعض فى أوصافه و حالاته، و إذا كان الكلام فى اصطفاؤهم أفاد ذلك أنهم ذرية لا يفترقون فى صفات الفضيله التى اصطفاهاهم الله لأجلها على العالمين إذ لا جزاف و لا لعب

فى الأفعال الإلهية، و منها الاصطفاء الذى هو منشأ خيرات هامه فى العالم.

□
قوله تعالى: وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، أى سميع بأقوالهم الداله على باطن ضمائرهم، عليم بباطن ضمائرهم و ما فى قلوبهم فالجمله بمنزله التعليل لاصطفائهم، كما أن قوله: ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، بمنزله التعليل لشمول موهبه الاصطفاء لهؤلاء الجماعه، فالمحصل من الكلام: أن الله اصطفى هؤلاء على العالمين، و إنما سرى الاصطفاء إلى جميعهم لأنهم ذريه متشابهه الأفراد، بعضهم يرجع إلى البعض فى تسليم القلوب و ثبات القول بالحق، و إنما أنعم عليهم بالاصطفاء على العالمين لأنه سميع عليم يسمع أقوالهم و يعلم ما فى قلوبهم.

بحث روائى

فى العيون، فى حديث الرضا مع المأمون: فقال المأمون هل فضل الله العتره على سائر الناس؟ فقال أبو الحسن: إن الله أبان فضل العتره على سائر الناس فى محكم كتابه، فقال المأمون: أين ذلك فى كتاب الله؟ فقال له الرضا (ع) فى قوله: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ - وَ آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ الحديث.

و فى تفسير العياشى، عن أحمد بن محمد عن الرضا عن أبى جعفر (ع): من زعم أنه فرغ من الأمر فقد كذب - لأن المشيه لله فى خلقه، يريد ما يشاء و يفعل ما يريد، قال الله: ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، آخرها من أولها و أولها من آخرها - فإذا أخبرتم بشيء منها بعينه - أنه كائن و كان فى غيره منه - فقد وقع الخبر على ما أخبرتم عنه.

أقول: و فيه دلالة على ما تقدم فى البيان السابق من معنى قوله: ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ الآية.

و فيه، أيضا عن الباقر (ع): أنه تلا هذه الآية فقال: نحن منهم و نحن بقيه تلك العتره.

أقول:

قوله (ع): و نحن بقيه تلك العتره، العتره بحسب الأصل فى معناها الأصل الذى يعتمد عليه الشىء، و منه العتره للأولاد و الأقارب الأذنين ممن مضى، و بعباره أخرى العمود المحفوظ فى العشيره، و منه يظهر أنه (ع) استفاد من قوله

تعالى ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، أنها عتره محفوظة آخذه من آدم إلى نوح إلى آل إبراهيم و آل عمران، و من هنا يظهر النكته في ذكر آدم و نوح مع آل إبراهيم و عمران فهي إشارة إلى اتصال السلسله في الاصطفاء.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٣٥ إلى ٤١]

إشارة

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ
إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْمُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ
الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا
مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ
لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ
اللَّهِ وَ سَيِّدًا وَ حَصُورًا وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ إِنِّي كُنْتُ لِي غَلامًا وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَ امْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ
يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ
الْبُكْرِ (٤١)

قوله تعالى: إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، النذر إيجاب الإنسان على نفسه ما ليس بواجب. و التحرير هو الإطلاق عن وثاق، و منه تحرير العبد عن الرقيه، و تحرير الكتاب كأنه إطلاق للمعاني عن محفظه الذهن و الفكر. و التقبل هو القبول عن رغبه و رضی كتقبل الهديه و تقبل الدعاء و نحو ذلك.

و في قوله: قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي ، دلالة على أنها إنما قالت هذا القول حينما كانت حاملا، و أن حملها كان من عمران، و لا يخلو الكلام من إشعار بأن زوجها عمران لم يكن حيا عندئذ و إلا لم يكن لها أن تستقل بتحرير ما في بطنها هذا الاستقلال كما يدل عليه أيضا ما سيأتي من قوله تعالى: وَمَا كُنْتَ لِمَدْيِهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ» IX آية X: آل عمران- 44، على ما سيجيء من البيان.

و من المعلوم أن تحرير الأب أو الأم للولد ليس تحريرا عن الرقيه و إنما هو تحرير عن قيد الولايه التي للوالدين على الولد من حيث تربيته و استعماله في مقاصدهما و افتراض طاعتهما فبالتحريم يخرج من تسلط أبويه عليه في استخدامه، و إذا كان التحرير منذورا لله سبحانه يدخل في ولايه الله يعبده و يخدمه، أي يخدم في البيع و الكنائس و الأماكن المختصه بعبادته تعالى في زمان كان فيه تحت ولايه الأبوين لو لا التحرير، و قد قيل:

إنهم كانوا يحررون الولد لله فكان الأبوان لا- يستعملانه في منافعهما: و لا يصرفانه في حوائجهما بل كان يجعل في الكنيسه يكنسها و يخدمها لا يبرح حتى يبلغ الحلم ثم يخير بين الإقامه و الرواح فإن أحب أن يقيم أقام، و إن أحب الرواح ذهب لشأنه.

و في الكلام دلالة على أنها كانت تعتقد أن ما في بطنها ذكر لا إناث حيث إنها تناجى ربها عن جزم و قطع من غير اشتراط و تعليق حيث تقول: نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا من غير أن تقول مثلا إن كان ذكرا و نحو ذلك.

و ليس تذكير قوله: مُحَرَّرًا، من جهه كونه حالا عن ما الموصوله التي يستوى فيه المذكر و المؤنث إذ لو كانت نذرت تحرير ما في بطنها سواء كان ذكرا أو أنثى لم

يكن وجه لما قالتها تحزنا و تحسرا لما وضعتها رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ، و لا وجه ظاهر لقوله تعالى: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ، على ما سيجيء بيانه.

و فى حكايته تعالى لما قالتها عن جزم دلالة على أن اعتقادها ذلك لم يكن عن جزاف أو اعتمادا على بعض القرائن الحدسيه التى تسبق إلى أذهان النسوان بتجارب و نحوه فكل ذلك ظن، و الظن لا يغنى من الحق شيئا، و كلامه تعالى لا يشتمل على باطل إلا- مع إبطاله، و قد قال تعالى: «اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَ مَا تَزِدُّنَّ الرَّعْدَ-٨» و قال تعالى: «عِنْدَهُ عِلْمُ السَّمَاوَاتِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ»: لقمان-٣٤، فجعل العلم بما فى الأرحام من الغيب المختص به تعالى، و قال تعالى: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ»: الجن-٢٧، فجعل علم غيره بالغيب منتهاها إلى الوحي فحكايته عنها الجزم فى القول فيما يختص علمه بالله سبحانه يدل على أن علمها بذكوره ما فى بطنها كان ينتهى بوجه إلى الوحي، و لذلك لما تبينت أن الولد أنثى لم تياس عن ولد ذكر فقالت ثانيا عن جزم و قطع: وَ إِنِّي أُعِيدُهَا بِنكَ وَ ذُرِّيَّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ الآية فأثبتت لها ذرية و لا سبيل إلى العلم به ظاهرا.

و مفعول قولها: فَتَقَبَّلْ مِنِّي، و إن كان محذوفا محتملا لأن يكون هو.

نذرها من حيث إنه عمل صالح أو يكون هو ولدها المحرر لكن قوله تعالى:

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ

، لا يخلو عن إشعار أو دلالة على كون مرادها هو قبول الولد المحرر.

قوله تعالى: فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ، فى وضع الضمير المؤنث موضع ما فى بطنها إيجاز لطيف، و المعنى فلما وضعت ما فى بطنها و تبينت أنه أنثى قالت: رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ، و هو خبر أريد به التحسر و التحزن دون الإخبار و هو ظاهر.

قوله تعالى: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ، جملتان معترضتان و هما جميعا مقولتان له تعالى لا لامرأه عمران، و لا أن الثانية مقوله لها و الأولى مقوله لله.

أما الأولى فهى ظاهره لكن لما كانت قولها رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ، مسوقا لإظهار التحسر كان ظاهر قوله: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ، أنه مسوق لبيان أننا نعلم أنها

أنثى لكننا أردنا بذلك إنجاز ما كانت تمناه بأحسن وجه و أرضى طريق، و لو كانت تعلم ما أردناه من جعل ما فى بطنها أنثى لم تتحسر و لم تحزن ذاك التحسر و التحزن و الحال أن الذكر الذى كانت ترجوه لم يكن ممكنا أن يصير مثل هذا الأنثى التى وهبناها لها، و يترتب عليه ما يترتب على خلق هذه الأنثى فإن غاية أمره أن يصير مثل عيسى نبيا مبرئا للأكمه و الأبرص و محيا للموتى لكن هذه الأنثى ستتم به كلمه الله و تلد ولدا بغير أب، و تجعل هى و ابنها آيه للعالمين، و يكلم الناس فى المهده، و يكون روحا و كلمه من الله، مثله عند الله كمثل آدم إلى غير ذلك من الآيات الباهره فى خلق هذه الأنثى الطاهره المباركه و خلق ابنها عيسى (ع).

و من هنا يظهر: أن قوله: **وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى**، مقول له تعالى لا لامرأه عمران، و لو كان مقولا لها لكان حق الكلام أن يقال: و ليس الأنثى كالذكر لا- بالعكس و هو ظاهر فإن من كان يرجو شيئا شريفا أو مقاما عاليا ثم رزق ما هو أحس منه و أردأ إنما يقول عند التحسر: ليس هذا الذى وجدته هو الذى كنت أطلبه و أبتغيه، أو ليس ما رزقته كالذى كنت أرجوه، و لا يقول: ليس ما كنت أرجوه كهذا الذى رزقته البته، و ظهر من ذلك أن اللام فى الذكر و الأنثى معا أو فى الأنثى فقط للعهد.

و قد أخذ أكثر المفسرين قوله: **وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى**، تتمه قول امرأه عمران، و تكلفوا فى توجيه تقديم الذكر على الأنثى بما لا يرجع إلى محصل، من أراد فليرجع إلى كتبهم.

قوله تعالى: **وَ إِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَ إِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**، معنى مريم فى لغتهم العابده و الخادمه على ما قيل، و منه يعلم وجه مبادرتها إلى تسميه المولوده عند الوضع، و وجه ذكره تعالى لتسميتها بذلك فإنها لما أيست من كون الولد ذكرا محررا للعباده و خدمه الكنيسه بادرت إلى هذه التسميه و أعدتها بالتسميه للعباده و الخدمه. فقولها: **وَ إِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ** بمنزله أن تقول: إنى جعلت ما وضعتها محرره لك، و الدليل على كون هذا القول منها فى معنى النذر قوله تعالى:

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أُنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا

الآيه.

ثم أعادتها و ذريتها بالله من الشيطان الرجيم ليستقيم لها العباده و الخدمه و يطابق اسمها المسمى.

و الكلام فى قولها: وَ ذُرِّيَّتِهَا، من حيث إنه قول مطلق من شرط و قيد لا يصح أن تنفوه به فى حضره التخاطب ممن لا علم له به مع أن مستقبل حال الإنسان من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله سبحانه، نظير الكلام فى قولها رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا، على ما تقدم بيانه فليس إلا أنها كانت تعلم أن سترزق من عمران ولدا ذكرا صالحا ثم لما حملت و توفى عمران لم تشك أن ما فى بطنها هو ذلك الولد الموعود، ثم لما وضعتها و بان لها خطأ حدسها أيقنت أنها سترزق ذلك الولد من نسل هذه البنت المولوده فحولت نذرها من الابن إلى البنت، و سميتها مريم (العابده، الخادمه) و أعادتها و ذريتها بالله من الشيطان الرجيم هذا ما يعطيه التدبر فى كلامه تعالى.

قوله تعالى: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أُنَبِّئُهَا بُرَاتًا حَسِينًا، القبول إذا قيد بالحسن كان بحسب المعنى هو التقبل الذى معناه القبول عن الرضا، فالكلام فى معنى قولنا: فتقبلها ربها تقبلا فإنما حلل التقبل إلى القبول الحسن ليدل على أن حسن القبول مقصود فى الكلام، و لما فى التصريح بحسن القبول من التشريف البارز.

و حيث قوبل بهاتين الجملتين أعنى قوله: فَتَقَبَّلَهَا إِلَى قَوْلِهِ: حَسِينًا، الجملتان فى قولها: وَ إِنِّي سَمَّيْتُهَا إِلَى قَوْلِهَا: الرَّجِيمَ كَانَ مقتضى الانطباق أن يكون قوله: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ، قبولا لقولها و إنى سميتها مريم، و قوله: وَ أُنَبِّئُهَا بُرَاتًا حَسِينًا، قبولا و إجابته لقولها: وَ إِنِّي أُعِيدُهَا بِحَكِّ وَ ذُرِّيَّتِهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فالمراد بتقبلها بقبول حسن ليس هو القبول بمعنى قبول تقرب امرأه عمران بالنذر، و إعطاء الثواب الأخرى لعملها فإن القبول إنما نسب إلى مريم لا إلى النذر و هو ظاهر بل قبول البنت بما أنها مسماه بمريم و محرره فيعود معناه إلى اصطفاؤها (و قد مر أن معنى الاصطفاء هو التسليم التام لله سبحانه) فافهم ذلك.

و المراد بإنباتها نباتا حسنا إعطاء الرشد و الزكاه لها و لذريتها، و إفاضه الحيوه لها و لمن ينمو منها من الذريه حيوه لا يمسه نفث الشيطان و رجس تسويله و وسوسته، و هو الطهاره.

و هذان أعنى القبول الحسن الراجع إلى الاصطفاء، و النبات الحسن الراجع إلى التطهير هما اللذان يشير إليهما قوله تعالى فى ذيل هذه الآيه: وَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَ طَهَّرَكِ الْآيَةَ وَ سَنُوضِعُهُ بَيَانًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ الْعَزِيزُ.

فقد تبين أن اصطفاء مريم و تطهيرها إنما هما استجابته لدعوه أمها كما أن اصطفاءها على نساء العالمين في ولادة عيسى، و كونها و ابنها آية للعالمين تصديق لقوله تعالى: **وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ** .

قوله تعالى: **وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا**، و إنما كفَّلها بإصابه القرعه حيث اختصموا في تكفلها ثم تراضوا بينهم بالقرعه فأصابته القرعه زكريا كما يدل عليه قوله تعالى:

وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذِ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذِ يَخْتَصِمُونَ ، الآية.

قوله تعالى: **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا** «إلخ» المحراب المكان المخصوص بالعبادة من المسجد و البيت، قال الراغب: و محراب المسجد، قيل:

سمى بذلك لأنه موضع محاربه الشيطان و الهوى، و قيل: سمي بذلك لكون حق الإنسان فيه أن يكون حريبا (أى سليبا) من أشغال الدنيا و من توزع خاطر، و قيل الأصل فيه أن محراب البيت صدر المجلس ثم اتخذت المساجد فسمى صدره به و قيل: بل المحراب أصله في المسجد و هو اسم خص به صدر المجلس فسمى صدر البيت محرابا تشبيها بمحراب المسجد، و كان هذا أصح، قال عز و جل: **يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُونَ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تَمَائِيلٍ**، انتهى.

و ذكر بعضهم أن المحراب هنا هو ما يعبر عنه أهل الكتاب بالمذبح، و هو مقصوره في مقدم المعبد، لها باب يصعد إليه بسلم ذى درجات قليلة، و يكون من فيه محجوبا عن من في المعبد.

أقول: و إليه ينتهى اتخاذ المقصوره في الإسلام.

و فى تنكير قوله: **رِزْقًا**، إشعار بكونه رزقا غير معهود كما قيل: إنه كان يجد عندها فاكهه الشتاء فى الصيف، و فاكهه الصيف فى الشتاء، و يؤيده أنه لو كان من الرزق المعهود، و كان تنكيره يفيد أنه ما كان يجد محرابها خاليا من الرزق بل كان عندها رزق ما دائما لم يقنع زكريا بقولها: **هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ** «إلخ» فى جواب قوله: **يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا**، لإمكان أن يكون يأتيها بعض الناس ممن كان يختلف إلى المسجد لغرض حسن أو سيئ.

على أن قوله تعالى: هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ «إِلخ»، يدل على أن زكريا تلقى وجود هذا الرزق عندها كرامه إلهيه خارقه فأوجب ذلك أن يسأل الله أن يهب له من لدنه ذرية طيبة، فقد كان الرزق رزقا يدل بوجوده على كونه كرامه من الله سبحانه لمريم الطاهرة، و مما يشعر بذلك قوله تعالى: قَالَ يَا مَرْيَمُ «إِلخ» على ما سيجيء من البيان.

و قوله: قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنِّي لَكَ «إِلخ» فصل الكلام من غير أن يعطف على قوله:

وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا

، يدل على أنه (ع) إنما قال لها ذلك مره واحده فأجابت بما قنع به و استيقن أن ذلك كرامه لها و هنالك دعا و سأل ربه ذرية طيبة.

قوله تعالى: هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً «إِلخ»، طيب الشيء ملاءمته لصاحبه فيما يريد لأجله فالبلد الطيب ما يلائم حيوه أهله من حيث الماء و الهواء و الرزق و نحو ذلك، قال تعالى: «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ لِبَآئِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ» الأعراف-٥٨، و العيشه الطيبه و الحيوه الطيبه ما يلائم بعض أجزائها بعضا و يسكن إليها قلب صاحبها و منه الطيب للعطر الزكى فالذرية الطيبه هو الولد الصالح لأبيه مثلا الذى يلائم من حيث صفاته و أفعاله ما عند أبيه من الرجاء و الأمانه فقول زكريا (ع): رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، لما كان الباعث له عليه ما شاهد من أمر مريم و خصوص كرامتها على الله و امتلاء قلبه من شأنها لم يملك من نفسه دون أن يسأل الله أن يهب له مثلها خطرا و كرامه، فكون ذريته طيبه أن يكون لها ما لمريم من الكرامه عند الله و الشخصيه فى نفسها، و لذلك استجيب فى عين ما سأله من الله، و وهب له يحيى و هو أشبه الأنبياء بعيسى (ع)، و أجمع الناس لما عند عيسى و أمه مريم الصديقه من صفات الكمال و الكرامه، و من هنا ما سماه تعالى بيحيى و جعله مصدقا بكلمه من الله و سيدا و حصورا و نبيا من الصالحين، و هذه أقرب ما يمكن أن يشابه بها إنسان مريم و ابنها عيسى (ع) على ما سنينه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَ هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى إِلَى آخِرِ آيَةٍ، ضمائر الغيبه و الخطاب لزكريا، و البشرى و الإخبار و التبشير الإخبار بما يفرح الإنسان بوجوده.

و قوله: أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى، دليل على أن تسميته بيحيى إنما هو من جانب

الله سبحانه كما تدل عليه نظائر هذه الآيات في سورة مريم، قال تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾: مريم-٧.

و تسميته يحيى و كون التسميه من عند الله سبحانه في بدء ما بشر به زكريا قبل تولد يحيى و خلقه يؤيد ما ذكرناه آنفا: أن الذى طلبه زكريا من ربه أن يرزقه ولدا يكون شأنه شأن مريم، وقد كانت مريم هى و ابنها عيسى (ع) آيه واحده كما قال تعالى: ﴿وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ .

فروعى فى يحيى ما روعى فيهما من عند الله سبحانه، و قد روعى فى عيسى كمال ما روعى فى مريم، فالمرعى فى يحيى هو الشبه التام و المحاذاه الكامله مع عيسى (ع) فيما يمكن ذلك، و لعيسى فى ذلك كله التقدم التام لأن وجوده كان مقدرا قبل استجابته دعوه زكريا فى حق يحيى ، و لذلك سبقه عيسى فى كونه من أولى العزم صاحب شريعته و كتاب و غير ذلك لكنهما تشابها و تشابه أمرهما فيما يمكن.

و إن شئت تصديق ما ذكرناه فتدبر فيما ذكر الله تعالى من قصتهما فى سورة مريم فقال فى يحيى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ إلى أن قال X: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَ آتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَ حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَ زَكَاةً وَ كَانَ تَقِيًّا وَ بَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا وَ سَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾: مريم-١٥، و قال فى عيسى (ع): ﴿فَارْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ إلى أن قال X: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ - إلى أن قال X: ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلدَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا﴾ - إلى أن قال X: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ قال إننى عبد الله أتانى الكتاب و جعلنى نبيا و جعلنى مباركا أين ما كنت و أوصانى بالصلاه و الزكاه ما دمت حيا و برا بوالدتي و لم يجعلنى جبارا شقيا و السلام على يوم وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾: مريم-٣٣، و يقرب منها من حيث الدلاله على تقارب أمرهما آيات هذه السوره التى نحن فيها عند التطبيق.

و بالجملة فقد سماه الله سبحانه يحيى و سمي ابن مريم عيسى و هو بمعنى «يعيش» على ما قيل و جعله مصدقا بكلمه منه و هو عيسى كما قال تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى﴾ و آتاه الحكم و علمه الكتاب صبيا كما فعل بعيسى، و عده حنانا من لدنه و زكاه و برا بوالديه غير جبار كما كان عيسى كذلك، و سلم عليه فى المواطن الثلاث

كعيسى و عده سيدا كما جعل عيسى وجيها عنده، و جعله حصورا و نبيا و من الصالحين مثل عيسى، كل ذلك استجابته لمسأله زكريا و دعوته حيث سأل ذريه طيبه و وليا رضيا عند ما امتلأ قلبه بما شاهد من أمر مريم و عجيب شأنها و كرامتها على الله كما مر بيانه.

□
و فى قوله: مُصَيِّدًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ دَلَالَةً عَلَى كونه من دعاه عيسى فالكلمه هو عيسى المسيح كما ذكره تعالى فى ذيل هذه الآيات فى بشاره الروح لمريم.

و السيد هو الذى يتولى أمر سواد الناس و جماعتهم فى أمر حيوتهم و معاشهم أو فضيله من الفضائل المحموده عندهم ثم غلب استعماله فى شريف القوم لما أن التولى المذكور يستلزم شرفا بالحكم أو المال أو فضيله أخرى.

و الحصور هو الذى لا يأتى النساء و المراد بذلك فى الآيه بقريته السياق الممتنع عن ذلك للإعراض عن مشتبهات النفس زهدا.

□ □ □ □ □
قوله تعالى: قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَ امْرَأَتِي عَاقِرٌ اسْتَفْهَامٌ تعجب و استعمال لحقيقه الحال لا استبعاد و استعظام مع تصريح البشاره بذلك و أن الله سبحانه سيرزقه ما سأله من الولد مع أنه ذكر هذين الوصفين اللذين جعلهما منشأ للتعجب و الاستعلام فى ضمن مسأله على ما فى سوره مريم حيث قال: «رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَ اسْتَعَلَّ الرَّأْسُ شَيْبًا وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَ إِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَ كَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا»: مريم- ٥.

لكن المقام يمثل معنى آخر فكأنه(ع)لما انقلب حالا من مشاهده أمر مريم و تذكر انقطاع عقبه لم يشعر إلا و قد سأل ربه ما سأل و قد ذكر فى دعائه ما له سهم وافر فى تأثره و تحزنه و هو بلوغ الكبر، و كون امرأته عاقرا، فلما استجيبت دعوته و بشر بالولد كأنه صحا و أفاق مما كان عليه من الحال، و أخذ يتعجب من ذلك و هو بالغ الكبر و امرأته عاقرا، فصار ما كان يثير على وجهه غبار اليأس و سيماء الحزن يغيره إلى نظره التعجب المشوب بالسرور.

على أن ذكر نواقص الأمر بعد البشاره بقضاء أصل الحاجه و استعمال كيفية رفع واحد واحد منها إنما هو طلب تفهم خصوصيات الإفاضه و الإنعام التذاذا بالنعمة الفائضه بعد

النعمة نظير ما وقع في بشرى إبراهيم بالذرية قال تعالى: وَبَشَّرْنَاهُمْ عَنْ ذِيئِهِمْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجُلُونَ قَالُوا لَا- تَوَجَّلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ: الحجر-٥٦، فذكر في جواب نهى الملائكة إياه عن القنوط أن استفهامه لم يكن عن قنوط كيف و هو غير ضال و القنوط ضلاله، بل السيد إذا أقبل على عبده إقبالا يؤذن بالقرب و الأنس و الكرامه أوجب ذلك انبساطا من العبد و ابتهاجا يستدعى تلذذه من كل حديث و تمتعه في كل باب.

و في قوله: وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ من مراعاة الأدب ما لا يخفى فإنه كناية عن أنه لا يجد من نفسه شهوة النكاح لبلوغ الشيخوخة و الهرم. و قد اجتمعت في امرأته الكبر و العقر معا فإن ذلك ظاهر قوله: وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا، و لم يقل:

و امرأتى عاقرة.

قوله تعالى: قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، فاعل قال و إن كان هو الله سبحانه سواء كان من غير وساطة الملائكة و حيا أو بواسطة الملائكة الذين كانوا ينادونه فالقول على أى حال قوله تعالى لكن الظاهر أنه منسوب إليه تعالى بواسطة الملك فالقائل هو الملك و قد نسب إليه تعالى لأنه بأمره، و الدليل على ذلك قوله تعالى في سورة مريم في القصة: «قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا»: مريم-٩.

و منه يظهر أولا: أنه سمع الصوت من حيث كان يسمعه أولا. و ثانيا: أن قوله: كَذَلِكَ، خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير: الأمر كذلك أى الذى بشرت به من الموهبه هو كذلك كائن لا- محاله، و فيه إشارة إلى كونه من القضاء المحتوم الذى لا ريب فى وقوعه نظير ما ذكره الروح فى جواب مريم على ما حكاه الله تعالى:

«قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ إِلَىٰ أَنْ قَالَ X-: وَكَانَ امْرَأًا مَقْضِيًّا»: مريم-٢١، و ثالثا: أن قوله: اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ كلام مفصول فى مقام التعليل لمضمون قوله: كذلك اه.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا

إلى آخر الآيه، قال فى المجمع، الرمز للإيماء بالشفقتين، وقد يستعمل فى الإيماء بالحاجب و العين و اليد، و الأول أغلب، انتهى، و العشى الطرف المؤخر من النهار، و كأنه مأخوذ من العشوه و هى الظلمه الطارئه فى العين المانع عن الإبصار فأخذوا ذلك وصفا للوقت لرواحه إلى الظلمه، و الإبكار صدر النهار و الطرف المقدم منه، و الأصل فى معناه الاستعجال.

و وقوع هذه الآيه فى ولاده يحيى من وجوه المضاهاه بينه و بين عيسى فإنها تضاهى قول عيسى لمريم بعد تولده: «فَأَمَّا تَرِينٌ مِّنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا»: مريم-٢٦.

و سؤاله (ع) من ربه أن يجعل له آيه و الآيه هى علامه الداله على الشىء-هل هو ليستدل به على أن البشاره إنما هى من قبل ربه، و عباره أخرى هو خطاب رحمانى ملكى لا شيطانى؟ أو لأنه أراد أن يستدل بها على حمل امرأته، و يعلم وقت الحمل، خلاف بين المفسرين.

و الوجه الثانى لا يخلو عن بعد من سياق الآيات و جريان القصة لكن الذى أوجب تحاشى القوم عن الذهاب إلى أول الوجهين أعنى كون سؤال الآيه لتمييز أن الخطاب رحمانى هو ما ذكره: أن الأنبياء لعصمتهم لا بد أن يعرفوا الفرق بين كلام الملك و وسوسه الشيطان، و لا يجوز أن يتلاعب الشيطان بهم حتى يختلط عليهم طريق الإفهام.

و هو كلام حق لكن يجب أن يعلم أن تعرفهم إنما هو بتعريف الله تعالى لهم لا من قبل أنفسهم و استقلال ذواتهم، و إذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يتعرف زكريا من ربه أن يجعل له آيه يعرف به ذلك؟ و أى محذور فى ذلك؟ نعم لو لم يستجب دعاءه و لم يجعل الله له آيه كان الإشكال فى محله.

على أن خصوصيه نفس الآيه-و هى عدم التكليم ثلاثه أيام-تؤيد بل تدل على ذلك فإن الشيطان و إن أمكن أن يمس الأنبياء فى أجسامهم أو بتخريب أو إفساد فى ما يرجونه من نتائج أعمالهم فى رواج الدين و استقبال الناس أو تضعيف أعداء الدين كما يدل عليه قوله تعالى: «وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنَى الشَّيْطَانُ

بُنْصِبَ وَ عَذَابٌ : ص-٤١، و قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمَّتَيْهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ» X الآيه X: الحج-٥٢، و قوله تعالى: «فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ»: الكهف-٦٣.

لكن هذه و أمثالها من مس الشيطان و تعرضه لا تنتج إلا إيذاء النبي و أما مسه الأنبياء في نفوسهم فالأنبياء معصومون من ذلك و قد مر في ما تقدم من المباحث إثبات عصمتهم(ع).

و الذى جعله الله تعالى آيه لذكرها على ما يدل عليه قوله آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا و اذكر ربك كثيرا و سيبح بالعشي و الأبطار هو أنه كان لا يقدر ثلاثة أيام على تكليم أحد و يعتقل لسانه إلا بذكر الله و تسبيحه، و هذه آيه واقعه على نفس النبي و لسانه و تصرف خاص فيه لا يقدر عليه الشيطان لمكان العصمه فليس إلا رحمانيا " و هذه الآيه كما ترى متناسبه مع الوجه الأول دون الوجه الثانى.

فإن قلت لو كان الأمر كذلك فما معنى قوله قال رب أنى يكون لى غلام و قد بلغنى الكبر و امرأتى عاقرة قال كذلك الله يفعل ما يشاء الآيه "فإن ظاهره أنه خاطب ربه و سأله ما سأل ثم أجيب بما أجيب فما معنى هذه المخاطبه لو كان شاكا فى أمر النداء؟ و لو لم يكن شاكا عندئذ فما معنى سؤال التمييز؟.

قلت: مراتب الركون و الاعتقاد مختلفه فمن الممكن أن يكون قد اطمأنت نفسه على كون النداء رحمانيا من جانب الله ثم يسأل ربه من كيفية الولاده التى كانت تتعجب منه نفسه الشريفه كما مر فيجاب بنداء آخر ملكى تطمئن إليه نفسه ثم يسأل ربه آيه توجب اليقين بأنه كان رحمانيا فيزيد بذلك و ثوقا و طمأنينه.

و مما يؤيد ذلك قوله تعالى: فنادته الملائكة، فإن النداء إنما يكون من بعيد و لذلك كثر إطلاق النداء فى مورد الجهر بالقول لكونه عندنا من لوازم البعد، و ليس بلانزم بحسب أصل معنى الكلمه كما يشهد به قوله تعالى فى ما حكى فيه دعاء زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا: مريم-٣ فقد أطلق عليه النداء بعنايه تذلل زكريا:

و تواضعه قبال تعزز الله سبحانه و ترفعه و تعاليه، ثم وصف النداء بالخفاء فالكلام لا يخلو عن إشعار بكون زكريا لم ير الملك نفسه، و إنما سمع صوتا يهتف به هاتف.

وقد ذكر بعض المفسرين: أن المراد من جعله تعالى عدم التكليم آيه نهيه عن تكليم الناس ثلاثه أيام، والانتقطاع فيها إلى ذكر الله و تسيحه دون اعتقال لسانه، قال: الصواب أن زكريا أحب بمقتضى الطبيعه البشريه أن يتعين لديه الزمن الذى ينال به تلك المنحه الإلهيه ليطمئن قلبه و يبشر أهله فسأل عن الكيفيه، و لما أجيب بما أجيب به سأل ربه أن يخصه بعباده يتعجل بها شكره، و يكون إتمامه إياها آيه و علامه على حصول المقصود، فأمره بأن لا يكلم الناس ثلاثه أيام بل ينقطع إلى الذكر و التسيح مساء صباحا مدته ثلاثه أيام فإذا احتاج إلى خطاب الناس أو ما إليهم إيماء، على هذا تكون بشارته لأهله بعد مضى الثلاث الليال، انتهى.

و أنت خبير بأنه ليس لما ذكره (من مسألته بعباده تكون شكرا للمنحه، و انتهائها إلى حصول المقصود، و كون انتهائها هو الآيه، و كون قوله: **أَلَّا تُكَلِّمَ** مسوقا للنهى التشريعى و كذا إرادته بشاره أهله) فى الآيه عين و لا أثر.

كلام فى الخواطر الملكيه و الشيطانيه و ما يلحق بها من التكليم

قد مر كرارا أن الألفاظ موضوعه لمعانيها من حيث اشتمالها على الأغراض المقصوده منها، و أن القول أو الكلام مثلا إنما يسمى به الصوت لإفادته معنى مقصودا يصح السكوت عليه، فما يفاد به ذلك، كلام و قول سواء كان مفيده صوتا واحدا أو أصواتا متعدده مؤلفه أو غير صوت كالإيماء و الرمز، و الناس لا يتوقفون فى تسميه الصوت المفيد فائده تامه كلاما و إن لم يخرج عن شق فم، و كذلك فى تسميه الإيماء قولاً و كلاماً و إن لم يشتمل على صوت.

و القرآن أيضا يسمى المعانى الملقاه فى القلوب من الشيطان كلاما له و قولاً منه، قال تعالى حكاية عن الشيطان: **﴿وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلَئِن يُنَادَىٰ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾** النساء- ١١٩ و قال:

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ الحشر- ١٦، و قال: **﴿يُوسُفُ فِي سُجُودِ النَّاسِ﴾** الناس- ٥، و قال **﴿يُوحَىٰ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾** الأنعام- ١١٢ و قال أيضا حكاية عن إبليس: **﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ﴾** إبراهيم- ٢٢ و قال: **﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾**

وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا» :البقره- ٢٦٩، و من الواضح أن هذه هي الخواطر الواردة على القلوب، نسبت إلى الشيطان، و سميت بالأمر و القول و الوسوسة و الوحي و الوعد، و جميعها قول و كلام و لم تخرج عن شق فم و لا تحريك لسان.

و من هنا يعلم: أن ما تشتمل عليه الآيه الأخيره من وعده تعالى بالمغفره و الفضل قبال وعد الشيطان هو الكلام الملكي في قبال الوسوسة من الشيطان، و قد سماه تعالى الحكمه، و مثلها قوله تعالى: «وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ» :الحديد-٢٨، و قوله:

«هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» :الفتح-٤، و قد مر بيانها في الكلام على السكينه في ذيل قوله تعالى: «فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ» :البقره-٢٤٨، و كذا قوله: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» :الأنعام-١٢٥، و قد سمى الوسوسة رجزا فقال: «رِجْزَ الشَّيْطَانِ» :الأنفال-١١، فمن جميع ذلك يظهر أن الشياطين و الملائكه يكلمون الإنسان بإلقاء المعاني في قلبه.

و هنا قسم آخر من التكليم يختص به تعالى كما ذكره بقوله: «وَ مِمَّا كَانَتْ لَيْشِيرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» X الآيه X:الشورى-٥١، فسماه تكلما و قسمه إلى الوحي، و هو الذي لا حجاب فيه بينه و بين العبد المكلم، و إلى التكليم من وراء حجاب، هذه أقسام من الكلام لله سبحانه و للملائكه و الشياطين.

أما كلام الله سبحانه المسمى بالوحي فهو متميز متعين بذاته فإن الله سبحانه ألقى التقابل بينه و بين التكليم من وراء حجاب فهو تكليم حيث لا- حجاب بين الإنسان و بين ربه، و من المحال أن يقع هناك لبس، و هو ظاهر، و أما غيره فيحتاج إلى تسديد ينتهي إلى الوحي.

و أما الكلام الملكي و الشيطاني فالآيات المذكوره آنفا تكفي في التمييز بينها فإن الخاطر الملكي يصاحب انشراح الصدر، و يدعو إلى المغفره و الفضل، و ينتهي بالأخره إلى ما يطابق دين الله المبين في كتابه و سنه نبيه، و الخاطر الشيطاني يلازم

تضييق الصدر، و شح النفس و يدعو إلى متابعه الهوى، و يعدد الفقر، و يأمر بالفحشاء، و بالأخره ينتهى إلى ما لا يطابق الكتاب و السنه، و يخالف الفطره.

ثم إن الأنبياء و من يتلوهم ربما تيسر لهم مشاهدته الملك و الشيطان و معرفتهما كما حكى الله تعالى عن آدم و إبراهيم و لوط فأغنى ذلك عن استعمال المميز، و أما مع عدم المشاهده فلا بد من استعماله كسائر المؤمنين، و ينتهى بالأخره إلى تمييز الوحي و هو ظاهر.

بحث روائى

فى تفسير القمى،: فى قوله تعالى: إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ الْآيَةَ، عن الصادق (ع) قال: إن الله أوحى إلى عمران-أنى واهب لك ذكرا سويا مباركا يبرئ الأكمه و الأبرص، و يحيى الموتى بإذن الله، و جاعله رسولا إلى بنى إسرائيل، فحدث عمران امرأته حنه بذلك و هى أم مريم-فلما حملت كان حملها بها عند نفسها غلاما-فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى، و ليس الذكر كالأنثى لا تكون البنت رسولا، يقول الله: و الله أعلم بما وضعت-فلما وهب الله لمريم عيسى كان هو الذى بشر به عمران-و وعده إياه فإذا قلنا فى الرجل منا شيئا-و كان فى ولده أو ولد ولده فلا تنكروا ذلك.

أقول: و روى قريبا منه فى الكافى، عنه (ع) و فى تفسير العياشى، عن الباقر (ع).

و فى تفسير العياشى، فى الآيه عن الصادق (ع): أن المحرر يكون فى الكنيسه لا يخرج منها-فلما وضعتها قالت-رب إنى وضعتها أنثى و ليس الذكر كالأنثى، إن الأنثى تحيض فتخرج من المسجد، و المحرر لا يخرج من المسجد.

و فيه، عن أحدهما: نذرت ما فى بطنها للكنيسه أن يخدم العباد، و ليس الذكر كالأنثى فى الخدمه، قال فشبت و كانت تخدمهم و تناولهم حتى بلغت-فأمر زكريا أن تتخذ لها حجابا دون العباد.

أقول: و الروايات كما ترى تنطبق على ما قدمناه فى البيان السابق إلا أن ظاهرها:

أن قوله: وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى، كلام لامرأه عمران لا له تعالى، و يبقى عليه وجه

تقديم الذكر على الأثنى فى الجملة، مع أن مقتضى القواعد العربيه خلافه، وكذا يبقى عليه وجه تسميتها بمريم، وقد مر أنه فى معنى التحرير إلا أن يفرق بين التحرير و جعلها خادمه فليأمل.

و فى الروايه الأولى دلالة على كون عمران نبيا يوحى إليه، و يدل عليه ما

فى البحار، عن أبى بصير قال: سألت أبا جعفر (ع) عن عمران أ كان نبيا؟ فقال نعم كان نبيا مرسلا إلى قومه، الحديث.

و تدل الروايه أيضا على كون اسم امرأه عمران: حنه، و هو المشهور، و فى بعض الروايات: مرثاء، و لا يهمننا البحث عن ذلك.

و فى تفسير القمى، " فى ذيل الروايه السابقه: فلما بلغت مريم صارت فى المحراب، و أرخت على نفسها سترا، و كان لا يراها أحد، و كان يدخل عليها زكريا المحراب - فيجد عندها فاكهه الصيف فى الشتاء - و فاكهه الشتاء فى الصيف فكان يقول: أنى لك هذا فتقول: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ - إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

و فى تفسير العياشى، عن الصادق (ع) قال: إن زكريا لما دعا ربه أن يهب له ولدا - فنادته الملائكه بما نادته به - أحب أن يعلم أن ذلك الصوت من الله - فأوحى إليه أن آيه ذلك أن يمسك لسانه عن الكلام ثلاثه أيام - فلما أمسك لسانه و لم يتكلم - علم أنه لا يقدر على ذلك إلا الله - و ذلك قول الله رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً .

أقول: و روى قريبا منه القمى فى تفسيره، و قد عرفت فيما تقدم أن سياق الآيات لا يأبى عن ذلك.

و بعض المفسرين شدد النكير على ما تضمنته هذه الروايات كالوحي إلى عمران و وجود الفاكهه فى محراب مريم فى غير وقتها، و كون سؤال زكريا للآيه للتمييز فقال:

إن هذه أمور لا طريق إلى إثباتها فلا هو سبحانه ذكرها، و لا رسوله قالها، و لا هى مما يعرف بالرأى و لم يثبتها تاريخ يعتد به، و ليس هناك إلا روايات إسرائيليه و غير إسرائيليه، و لا موجب للتكلف فى تحصيل معنى القرآن و حمله على أمثال هذه الوجوه البعيده عن الأفهام.

و هو منه كلام من غير حجه، و الروايات و إن كانت آحادا غير خاليه عن ضعف

الطريق لا يجب على الباحث الأخذ بها، والاحتجاج بما فيها لكن التدبر في الآيات يقرب الذهن منها، والذي نقل منها عن أئمة أهل البيت (ع) لا يشتمل على أمر غير جائز عند العقل.

نعم في بعض ما نقل عن قدماء المفسرين أمور غير معقوله كما

نقل عن قتاده و عكرمه " : أن الشيطان جاء إلى زكريا -و شككه في كون البشاره من الله تعالى، وقال:

لو كانت من الله لأخفى لك في ندائه - كما أخفيت له في ندائك إلى غير ذلك - فهي معان لا مجوز لتسليمها كما ورد في إنجيل لوقا: أن جبرئيل قال لزكريا «و ها أنت تكون صامتا - و لا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا - لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته» إنجيل لوقا ١-٢٠.

بحث روائى آخر [كلام فى الخواطر الملكيه و الشيطانيه و ما يلحق بهما من التكليم.]

و فى الكافى، عن الصادق (ع): ما من قلب إلا و له أذنان - على إحداهما ملك مرشد، و على الأخرى شيطان مفتن: هذا يأمره، و هذا يزرجه، الشيطان يأمره بالمعاصى، و الملك يزرجه عنها، و ذلك قول الله عز و جل: **مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ .**

أقول: و الروايات فى هذا المعنى كثيره سيأتى شطر منها، و تطبيقه (ع) الآية على الملك و الشيطان فى هذه الروايه لا ينافى تطبيقه إياها على الملكين الكاتبين للحسنات و السيئات فى روايه أخرى فإن الآية لا تدل على أزيد من وجود رقيب عتيد عند الإنسان يرقبه فى جميع ما يتكلم به، و أنه متعدد عن يمين الإنسان و شماله، و أما أنه من الملائكه محضا أو ملك و شيطان فالآيه غير صريحه فى ذلك قابله للانطباق على كل من المحتملين.

و فيه، أيضا عن زرارته قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن الرسول و عن النبى و عن المحدث، قال: الرسول الذى يعاين الملك يأتيه بالرساله من ربه يقول: يا مكرم كذا و كذا، و الرسول يكون نبيا مع الرساله، و النبى لا يعاين الملك ينزل عليه الشىء النبأ على قلبه - فيكون كالمغمى عليه فيرى فى منامه، قلت فما علمه أن الذى فى منامه حق؟ قال: يبينه الله حتى يعلم أن ذلك حق، و لا يعاين الملك، الحديث.

أقول: قوله: و الرسول يكون نبيا إشاره إلى إمكان اجتماع الوصفين و قد تقدم الكلام فى معنى الرساله و النبوه فى تفسير قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ» X الآيه X: البقره- ٢١٣.

و قوله: فيكون كالمغمى عليه تفسير معنى رؤيته فى المنام، و أن معناه الغيبه عن الحس دون المنام المعروف، و قوله: يبينه الله «إلخ» إشاره إلى التمييز بين الإلقاء الملكى و الشيطانى بما بينه الله من الحق.

و فى البصائر، عن بريد عن الباقر و الصادق (ع) فى حديث قال بريد:

فما الرسول و النبى و المحدث؟ قال الرسول الذى يظهر الملك فيكلمه، و النبى يرى فى المنام، و ربما اجتمعت النبوه و الرساله لواحد، و المحدث الذى يسمع الصوت و لا يرى الصورة، قال: قلت: أصلحك الله كيف يعلم- أن الذى رأى فى المنام هو الحق و أنه من الملك؟ قال: يوفق لذلك حتى يعرفه- لقد ختم الله بكتابتكم الكتب و بنبيكم الأنبياء، الحديث.

أقول: و هو فى مساق الحديث السابق، و بيانه (ع) واف بتميز المحدث ما يسمعه من صوت الهاتف، و فى قوله: لقد ختم الله «إلخ» إشاره إلى ذلك، و سيأتى الكلام فى المحدث فى ذيل الآيات التاليه

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٤٢ الى ٦٠]

إشارة

وَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ أَشْجِدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَ جِيهًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ مِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمَسَّ مِنِّي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ (٤٨) وَ رَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْمَأْكُمَةَ وَ الْمَأْبْرَصَ وَ أُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبَيِّنُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) وَ مَصِدْقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١) فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رَافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيهَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠)

قوله تعالى: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ، الجملة معطوفة على قوله: إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ، فتكون شرحاً مثله لاصطفاء آل عمران المشتمل عليه قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى، الآية.

و في الآية دليل على كون مريم محدثه تكلمها الملائكة و هي تسمع كلامهم كما يدل عليه أيضا قوله في سورة مريم: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ، و سيأتي الكلام في المحدث.

و قد تقدم في قوله تعالى: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ الآية: أن ذلك بيان لاستجابته دعوه أم مريم: وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، الآية و أن قول الملائكة لمريم: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ إخبار لها بما لها عند الله سبحانه من الكرامة و المنزلة فارجع إلى هناك.

فاصطفاؤها قبلها لعباده الله، و تطهيرها اعتصامها بعصمه الله فهي مصطفاه معصومه، و ربما قيل: إن المراد من تطهيرها جعلها بتولا لا تحيض فيتهيأ لها بذلك أن لا تضطر إلى الخروج من الكنيسة، و لا بأس به غير أن الذي ذكرناه هو الأوفق بسياق الآيات.

قوله تعالى: وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ قد تقدم في قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ إِيَّاهُ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ أن الاصطفاء المتعدى بعلى يفيد معنى التقدم، وأنه غير الاصطفاء المطلق الذي يفيد معنى التسليم، وعلى هذا فاصطفأؤها على نساء العالمين تقديم لها عليهن.

و هل هذا التقديم تقديم من جميع الجهات أو من بعضها؟ ظاهر قوله تعالى فيما بعد الآية: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ الْبَشِيرَ، وقوله تعالى: «وَالَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ»: الأنبياء- ٩١ وقوله تعالى: «وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتُ بِكَلِمَاتِ رَبِّي وَكُتِبَ عَلَيْهَا الضُّمُّ مِنَ الْقَاتِنِينَ»: التحريم- ١٢، حيث لم تشتمل مما تختص بها من بين النساء إلا- على شأنها العجيب في ولاده المسيح (ع) أن هذا هو وجه اصطفاؤها و تقديمها على النساء من العالمين.

و أما ما اشتملت عليه الآيات في قصتها من التطهير و التصديق بكلمات الله و كتبه، و القنوت و كونها محدثه فهي أمور لا تختص بها بل يوجد في غيرها، و أما ما قيل: إنها مصطفاه على نساء عالمي عصرها فإطلاق الآية يدفعه.

قوله تعالى: يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ، القنوت هو لزوم الطاعة عن خضوع على ما قيل، و السجده معروفه. و الركوع هو الانحناء أو مطلق التذلل.

و لما كان النداء يوجب تلفيت نظر المنادى (اسم مفعول) و توجيه فهمه نحو المنادى (اسم فاعل) كان تكرار النداء في المقام بمنزله أن يقال لها: إن لك عندنا نبأ بعد نبأ فاستمعي لهما و أصغى إليهما: أحدهما ما أكرمك الله به من منزله و هو ما لك عند الله، و الثاني ما يلزمك من وظيفه العبوديه بالمحاذاه، و هو ما لله سبحانه عندك، فيكون هذا إيفاء للعبوديه و شكرا للمنزله فيثول معنى الكلام إلى كون قوله: يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي «إلخ» بمنزله التفریع لقوله: يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ «إلخ» أي إذا كان كذلك فاقنتي و اسجدي و اركعي مع الراكعين، و لا- يبعد أن يكون كل واحده من الخصال الثلاث المذكوره في هذه الآية فرعا لواحد من الخصال الثلاث المذكوره في الآية السابقه، و إن لم يخل عن خفاء فليتأمل.

قوله تعالى: ذَلِكُمْ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ، عده من أنباء الغيب نظير ما عدت قصه يوسف (ع) من أنباء الغيب التي توحى إلى رسول الله، قال تعالى:

ذَلِكُمْ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ: يوسف-١٠٢، و أما ما يوجد من ذلك عند أهل الكتاب فلا عبره به لعدم سلامته من تحريف المحرفين كما أن كثيرا من الخصوصيات المقتصه فى قصص زكريا غير موجوده فى كتب العهدين على ما وصفه الله فى القرآن.

و يؤيد هذا الوجه قوله تعالى فى ذيل الآيه: وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ «إلخ».

على أن النبى ص و قومه كانوا أميين غير عالمين بهذه القصص و لا أنهم قرءوها فى الكتب كما ذكره تعالى بعد سرد قصه نوح: «تِلْكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا»: هود-٤٩، و الوجه الأول أوفى سياق الآيه.

قوله تعالى: وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ «إلخ»، القلم بفتح الحين القدح الذى يضرب به القرعه، و يسمى سهما أيضا، و جمعه أقلام، فقوله:

يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ

أى يضربون بسهامهم ليعينوا بالقرعه أيهم يكفل مريم.

و فى هذه الجملة دلالة على أن الاختصام الذى يدل عليه قوله: وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إنما هو اختصاصهم و تشاحهم فى كفاله مريم، و أنهم لم يتناهاوا حتى تراضوا بالاعتراع بينهم فضربوا بالقرعه فخرج السهم لزكريا فكفلها بدليل قوله:

وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا، الآيه.

و ربما احتمل بعضهم أن هذا الاختصام و الاعتراع بعد كبرها و عجز زكريا عن كفالتها، و كان منشؤه ذكر هذا الاعتراع و الاختصام بعد تمام قصه ولادتها و اصطفاؤها و ذكر كفاله زكريا فى أثنائها، فيكونان واقعيتين اثنتين.

و فيه أنه لا ضير فى إعادته بعض خصوصيات القصة أو ما هو بمنزله الإعادة لتثبيت الدعوى كما وقع نظيره فى قصه يوسف حيث قال تعالى بعد تمام القصة:- «ذَلِكُمْ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ»: يوسف-١٠٢ يشير بذلك إلى معنى قوله تعالى فى أوائل القصة. «إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا

أَبِينَا مِنَّا وَ نَحْنُ عَضْبُهُ -X إلى أن قال X: لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي عَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارِهِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ: يوسف-
١٠.

قوله تعالى: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ «إلخ»، الظاهر أن هذه البشارة هي التي يشتمل عليها قوله تعالى في موضع آخر: «فَارْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَمَثَلْ لَهَا بَشْرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنْى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا» X الآيات X: مريم-١٩، فتكون البشارة المنسوبة إلى الملائكة هاهنا هي المنسوبة إلى الروح فقط هناك.

و قد قيل في وجهه إن المراد بالملائكة هو جبرئيل، عبر بالجمع عن الواحد تعظيماً لأمره كما يقال: سافر فلان فركب الدواب و ركب السفن، و إنما ركب دابه واحده و سفينه واحده، و يقال: قال له الناس كذا، و إنما قاله واحد و هكذا، و نظير الآية قوله في قصه زكريا السابقة: فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ثُمَّ قَوْلَهُ: قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ الْآيَةَ.

و ربما قيل: إن جبرئيل كان معه غيره فاشتركوها في نداءها.

و الذى يعطيه التدبر في الآيات التي تذكر شأن الملائكة أن بين الملائكة تقدما و تأخرا من حيث مقام القرب، و أن للمتأخر التبعية المحضه لأوامر المتقدم بحيث يكون فعل المتأخر رتبه، عين فعل المتقدم، و قوله عين قوله نظير ما نشاهده و ندعن به من كون أفعال قوانا و أعضائنا عين أفعالنا من غير تعدد فيه تقول: رأته عيناى و سمعته أذناى، و رأيته و سمعته، و يقال فعلته جوارحى و كتبه يدي و رسمته أناملى و فعلته أنا و كتبه أنا، و كذلك فعل المتبوع من الملائكة فعل التابعين له المؤتمرين لأمره بعينه، و قوله قولهم من غير اختلاف، و بالعكس كما أن فعل الجميع فعل الله سبحانه و قولهم قوله، كما قال تعالى: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا»: الزمر-٤٢، فنسب التوفى إلى نفسه، و قال: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ»: السجده-١١، فنسبه إلى ملك الموت و قال: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا»: الأنعام-٦١، فنسبه إلى جمع من الملائكة.

و نظيره قوله تعالى: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ»: النساء-١٦٣، و قوله: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَيَّ قَلْبِكَ»: الشعراء-١٩٤، و قوله: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ

قَلْبِكَ» :البقره-٩٧، و قوله: كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ: عبس-١٦.

فظهر أن بشاره جبرئيل هي عين بشاره من هو تحت أمره من جماعه الملائكه و هو من سادات الملائكه و مقربيههم على ما يدل عليه قوله تعالى: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» :التكوير-٢١، و سيأتي زياده توضيح لهذا الكلام في سورة فاطر إن شاء الله تعالى.

و يؤيد ما ذكرناه قوله تعالى في الآيه التاليه: قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، فإن ظاهره أن القائل هو الله سبحانه مع أنه نسب هذا القول في سورة مريم في القصه إلى الروح، قال تعالى: «قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَعْجًا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ» Xالآيات X:

مريم-٢١.

و في تكلم الملائكه و الروح مع مريم دلالة على كونها محدثه بل قوله تعالى في سورة مريم في القصه بعينها: «فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا» :مريم-١٧، يدل على معاينتها الملك زياده على سماعها صوته، و سيجيء تمام الكلام في المعنى في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

قوله تعالى: بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، قد مر البحث في معنى كلامه تعالى في تفسير قوله: «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ» :البقره-٢٥٣.

و الكلمه و الكلم كالتمره و التمر جنس و فرد و تطلق الكلمه على اللفظ الواحد الدال على المعنى، و على الجملة سواء صح السكوت عليها مثل زيد قائم أو لم يصح مثل إن كان زيد قائما، هذا بحسب اللغة، و أما بحسب ما يصطلح عليه القرآن أعنى الكلمه المنسوبه إلى الله تعالى فهي الذى يظهر به ما أراده الله تعالى من أمر نحو كلمه الإيجاد و هو قوله تعالى لشيء أراده: كن، أو كلمه الوحي و الإلهام و نحو ذلك.

و أما المراد بالكلمه فقد قيل: إن المراد به المسيح (ع) من جهة أن من أسبقه من الأنبياء أو خصوص أنبياء بنى إسرائيل بشروا به بعنوان أنه منجى بنى إسرائيل، يقال في نظير المورد هذه كلمتى التى كنت أقولها، و نظيره قوله تعالى في ظهور موسى

ص: ١٩٢

(ع): «وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنِي عَلَيَّ بِنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا»: الأعراف-١٣٧، وفيه أن ذلك و إن كان ربما ساعده كتب العهدين لكن القرآن الكريم خال عن ذلك بل القرآن يعد عيسى بن مريم مبشرا لا مبشرا به، على أن سياق قوله: إِسْمُهُ الْمَسِيحُ لا يناسبه فإن الكلمه على هذا ظهور عيسى المخبر به قبلا لا نفس عيسى، و ظاهر قوله:

إِسْمُهُ الْمَسِيحُ

، أن المسيح اسم الكلمه لا اسم من تقدمت في حقه الكلمه.

و ربما قيل: إن المراد به عيسى(ع) لا يوضحه مراده تعالى بالتوراه، و بيانه تحريفات اليهود و ما اختلفوا فيه من أمور الدين كما حكى الله تعالى عنه ذلك فيما يخاطب به بنى إسرائيل: «وَإِذْ يُبَيِّنُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ»: الزخرف-٦٣، وفيه أنه نكته تصحح هذا التعبير لكنها خاليه عما يساعدها من القرائن.

و ربما قيل: إن المراد بكلمه منه البشاره نفسها، و هي الإخبار بحملها بعيسى و ولادته فمعنى قوله: يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ: يبشرك ببشاره هي أنك ستلدين عيسى من غير مس بشر، و فيه أن سياق الذيل أعنى قوله: إِسْمُهُ الْمَسِيحُ لا يلائمه و هو ظاهر.

و ربما قيل: إن المراد به عيسى(ع) من جهة كونه كلمه الإيجاد أعنى قوله:

كن و إنما اختص عيسى(ع) بذلك مع كون كل إنسان بل كل شيء موجودا بكلمه كن التكوينييه لأن سائر الأفراد من الإنسان يجرى ولادتهم على مجرى الأسباب العاديه المألوفه فى العلوق من ورود ماء الرجل على نطفه الإناث، و عمل العوامل المقارنه فى ذلك، و لذلك يسند العلوق إليه كما يسند سائر المسببات إلى أسبابها، و لما لم يجر علوق عيسى هذا المجرى و فقد بعض الأسباب العاديه التدريجييه كان وجوده بمجرد كلمه التكوين من غير تخلل الأسباب العاديه فكان نفس الكلمه كما يؤيده قوله تعالى:

«وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ»: النساء-١٧١، و قوله تعالى فى آخر هذه الآيات: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الآية»، و هذا أحسن الوجوه.

و المسيح هو الممسوح سمي به عيسى(ع) لأنه كان مسيحا باليمن و البركه أو لأنه مسح بالتطهير من الذنوب، أو مسح بدهن زيت بورك فيه و كانت الأنبياء يمسحون

به أو لأن جبرائيل مسحه بجناحه حين ولادته ليكون عوذه من الشيطان، أو لأنه كان يمسح رءوس اليتامى، أو لأنه كان يمسح عين الأعمى بيده فيبصر، أو لأنه كان لا يمسح ذا عاهه بيده إلا برأ، فهذه وجوه ذكروها في تسميته بالمسيح.

لكن الذى يمكن أن يعول عليه أن هذا اللفظ كان واقعا فى ضمن البشاره التى بشر بها جبرائيل مريم (ع) على ما يحكيه تعالى بقوله: إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ «، وهذا اللفظ بعينه معرب «مشيحا» الواقع فى كتب العهدين.

و الذى يستفاد منها أن بنى إسرائيل كان من دأبهم أن الملك منهم إذا قام بأمر الملك مسحته الكهنه بالدهن المقدس ليبارك له فى ملكه فكان يسمى مشيحا فمعناه:

إما الملك و إما المبارك.

و قد يظهر من كتبهم أنه (ع) إنما سمي مشيحا من جهة كون بشارته متضمنا لملكه، و أنه سيظهر فى بنى إسرائيل ملكا عليهم منجيا لهم كما يلوح ذلك من إنجيل لوقا فى بشاره مريم،

قال: " فلما دخل إليها الملك قال السلام لك- يا ممتليه نعمه الرب معك مباركه أنت فى النساء، فلما رأته اضطربت من كلامه و فكرت ما هذا السلام، فقال لها الملك لا تخافى يا مريم- فقد ظفرت بنعمه من عند الله، و أنت تحلين و تلدين ابنا و تدعين اسمه يسوع، هذا يكون عظيما و ابن العلى يدعى و يعطيه الرب- له كرسى داود أبيه و يملك على بيت يعقوب إلى الأبد- و لا يكون لملكه انقضاء» لوقا ١-٣٤.

و لذلك تتعلل اليهود عن قبول نبوته بأن البشاره لاشتمالها على ملكه لا تنطبق على عيسى (ع) لأنه لم ينل الملك أيام دعوته و فى حيوته، و لذلك أيضا ربما وجهته النصارى و تبعه بعض المفسرين من المسلمين بأن المراد بملكه الملك المعنوى دون الصورى.

أقول: و ليس من البعيد أن يقال: إن تسميته بالمسيح فى البشاره بمعنى كونه مباركا فإن التدهين عندهم إنما كان للتبريك، و يؤيده قوله تعالى: «قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا وَ جَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ» مريم-٣١.

و عيسى أصله يشوع، فسروه بالمخلص و هو المنجى، و فى بعض الأخبار تفسيره ببعيش و هو أنسب من جهة تسميه ابن زكريا بيحيى على ما مر من المشابهه التامه بين

و تقييد عيسى بابن مريم مع كون الخطاب فى الآيه لمريم للتنبيه على أنه مخلوق من غير أب، و يكون معروفًا بهذا النعت، و أن مريم شريكته فى هذه الآيه كما قال تعالى: «وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ» :الأنبياء-٩١.

قوله تعالى: وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، الوجاهه هى المقبوليه، و كونه(ع)مقبولا فى الدنيا مما لا خفاء فيه، و كذا فى الآخره بنص القرآن.

و معنى المقربين ظاهر فهو مقرب عند الله داخل فى صف الأولياء و المقربين من الملائكه من حيث التقريب كما ذكره تعالى بقوله: «لَنْ يَسْتَنْكَفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَ لَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ» :النساء-١٧٢، و قد عرف تعالى معنى التقريب بقوله: «إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ -X إلى أن قال X- وَ كُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً -X إلى أن قال X:

وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» :الواقعه-١١، و الآيه كما ترى تدل على أن هذا التقرب و هو تقرب إلى الله سبحانه حقيقته سبق الإنسان سائر أفراد نوعه فى سلوكك طريق العود إلى الله الذى سلوكه مكتوب على كل إنسان بل كل شىء، قال تعالى:

«يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ» :الانشقاق-٦، و قال تعالى:

«أَلَا إِلَىٰ اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» :الشورى-٥٣.

و أنت إذا تأملت كون المقربين صفه الأفراد من الإنسان و صفه الأفراد من الملائكه علمت أنه لا يلزم أن يكون مقاما اكتسابيا فإن الملائكه لا- يحرزون ما أحرزوه من المقام عند الله سبحانه بالكسب فلعلة مقام تناله المقربون من الملائكه بهبه إلهيه و المقربون من الإنسان بالعمل.

و قوله و جيهها فى الدنيا و الآخره، حال، و كذا ما عطف عليه من قوله: و من المقربين، و يكلم اه، و من الصالحين، و يكلمه اه، رسولا اه.

قوله تعالى: وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا، المهدي ما يهيا للصبى من الفراش، و الكهل من الكهوله و هو ما بين الشباب و الشيخوخه، و هو ما يكون الإنسان فيه رجلا تاما قويا، و لذا قيل: الكهل من و خطه الشيب أى خالطه، و ربما قيل: إن الكهل من بلغ أربعًا و ثلاثين.

و كيف كان ففيه دلالة على أنه سيعيش حتى يبلغ سن الكهولة ففيه بشاره أخرى لمريم.

و فى التصريح بذلك مع دلالة الأناجيل على أنه لم يعيش فى الأرض أكثر من ثلاث و ثلاثين سنة نظر ينبغى أن يمعن فيه و لذا ربما قيل: إن تكليمه للناس كهلا إنما هو بعد نزوله من السماء فإنه لم يمكث فى الأرض ما يبلغ به سن الكهولة، و ربما قيل: إن الذى يعطيه التاريخ بعد التثبت أن عيسى(ع) عاش نحو من أربع و ستين سنة خلافا لما يظهر من الأناجيل.

و الذى يظهر من سياق قوله: **فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا**، أنه لا يبلغ سن الشيخوخه، و إنما ينتهى إلى سن الكهولة، و على هذا فقد أخذ فى البيان كلامه فى طرفى عمره:

الصبا و الكهولة.

و المعهود من وضع الصبى فى المهد أن يوضع فيه أوائل عمره ما دام فى القمط قبل أن يدرج و يمشى و هو فى السنة الثانية فما دونها غالبا، و هو سن الكلام فكلام الصبى فى المهد و إن لم يكن فى نفسه من خوارق العاده لكن ظاهر الآيه أنه يكلم الناس فى المهد كلاما تاما يعنى به العقلاء من الناس كما يعتنون بكلام الكهل، و بعبارة أخرى يكلمهم فى المهد كما يكلمهم كهلا، و الكلام من الصبى بهذه الصفة آيه خارقه.

على أن القصة فى سورة مريم تبين أن تكليمه الناس إنما كان لأول ساعه أتت به مريم إلى الناس بعد وضعه و كلام الصبى لأول يوم ولادته آيه خارقه لا محاله، قال تعالى: **«فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَ مَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا فَاشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنَّي عَزَيْدُ اللَّهِ أَنَانِي الْكِتَابِ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا وَ جَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ»** Xالآيات X:

مريم- ٣١.

قوله تعالى: **قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمَسَّ مِنِّي بَشَرٌ**، خطابها لربها مع كون المكلّم إياها الروح المتمثل ببناء على ما تقدم أن خطاب الملائكة و خطاب الروح و كلامهم كلام الله سبحانه فقد كانت تعلم أن الذى يكلمها هو الله سبحانه و إن كان الخطاب متوجها إليها من جهة الروح المتمثل أو الملائكة و لذلك خاطبت ربها

ص: ١٩٦

و يمكن أن يكون الكلام من قبيل قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ»: المؤمنون - ٩٩، فهو من الاستغاثه المعترضه فى الكلام.

قوله سبحانه: قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ قد مرت الإشاره إلى أن تطبيق هذا الجواب بما فى سورة مريم من قوله:

«قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَ لِنَجْعَلُهُ آيَةً لِلَّذِينَ وَ رَحْمَةً مِّنَّا وَ كَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا»: مريم - ٢١، يفيد أن يكون قوله هاهنا: كذلك كلاما تاما تقديره: الأمر كذلك و معناه أن الذى بشرت به أمر مقضى لا مرد له.

و أما التعجب من هذا الأمر فإنما يصح لو كان هذا الأمر مما لا يقدر عليه الله سبحانه أو يشق أما القدره فإن قدرته غير محدوده يفعل ما يشاء و أما صعوبته و مشقته فإن العسر و الصعوبه إنما يتصور إذا كان الأمر مما يتوسل إليه بالأسباب فكلما كثرت المقدمات و الأسباب و عزت و بعد منالها اشتد الأمر صعوبه، و الله سبحانه لا يخلق ما يخلق بالأسباب بل إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون.

فقد ظهر أن قوله كذلك كلام تام أريد به رفع اضطراب مريم و تردد نفسها، و قوله: اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، رفع العجز الذى يوهمه التعجب، و قوله: إِذَا قَضَىٰ، رفع لتوهم العسر و الصعوبه.

قوله تعالى: وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ اللام فى الكتاب و الحكمة للجنس. و قد مر أن الكتاب هو الوحي الرافع لاختلافات الناس، و الحكمة هى المعرفة النافعه المتعلقة بالاعتقاد أو العمل، و على هذا فعطف التوراه و الإنجيل على الكتاب و الحكمة مع كونهما كتابين مشتملين على الحكمة من قبيل ذكر الفرد بعد الجنس لأهميه فى اختصاصه بالذكر، و ليست لام الكتاب للاستغراق لقوله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ»: الزخرف - ٦٣، و قد مر بيانه.

و أما التوراه فالذى يريده القرآن منها هو الذى نزله الله على موسى (ع) فى الميقات فى ألواح على ما يقصه الله سبحانه فى سورة الأعراف، و أما الذى عند اليهود من الأسفار فهم معترفون بانقطاع اتصال السند ما بين بخت نصر من ملوك بابل و كورش

من ملوك الفرس، غير أن القرآن يصدق أن التوراه الموجود بأيديهم في زمن النبي ص غير مخالفه للتوراه الأصل بالكلية و إن لعبت بها يد التحريف، و دلالة آيات القرآن على ذلك واضحة.

و أما الإنجيل و معناه البشاره فالقرآن يدل على أنه كان كتابا واحدا نازلا على عيسى فهو الوحي المختص به، قال تعالى «وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ»: آل عمران-٤، و أما هذه الأناجيل المنسوبه إلى متى و مرقس و لوقا و يوحنا فهي كتب مؤلفه بعده (ع).

و يدل أيضا على أن الأحكام إنما هي في التوراه، و أن الإنجيل لا تشتمل إلا على بعض النواسخ كقوله في هذه الآيات: مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ الْآيَةِ، و قوله: «وَ آتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ وَ لِيُحْكَمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ»: المائدة-٤٧، و لا يبعد أن يستفاد من الآيه أن فيه بعض الأحكام الإثباتيه.

و يدل أيضا على أن الإنجيل مشتمل على البشاره بالنبي ص كالتوراه قال، تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ»: الأعراف-١٥٧.

قوله تعالى: وَ رَسُولًا- إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، ظاهره أنه (ع) كان مبعوثا إلى بني إسرائيل خاصة كما هو اللائح من الآيات في حق موسى (ع)، و قد مر في الكلام على النبوه في ذيل قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ X «X الْآيَةِ X: البقره- ٢١٣، أن عيسى (ع) كموسى من أولى العزم و هم مبعوثون إلى أهل الدنيا كافه.

لكن العقده تنحل بما ذكرناه هناك في الفرق بين الرسول و النبي أن النبوه هي منصب البعث و التبليغ، و الرساله هي السفاره الخاصه التي تستتبع الحكم و القضاء بالحق بين الناس، إما بالبقاء و النعمه، أو بالهلاك كما يفيدته قوله تعالى: «وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ»: يونس-٤٧.

و بعباره أخرى النبي هو الإنسان المبعوث لبيان الدين للناس، و الرسول هو المبعوث لأداء بيان خاص يستتبع رده الهلاك و قبوله البقاء و السعاده كما يؤيده بل

يدل عليه ما حكاه الله سبحانه من مخاطبات الرسل لأممهم كنوح و هود و صالح و شعيب و غيرهم(ع).

و إذا كان كذلك لم يستلزم الرسالة إلى قوم خاص البعثة إليهم، و كان من الممكن أن يكون الرسول إلى قوم خاص نبيا مبعوثا إليهم و إلى غيرهم كموسى و عيسى (ع).

و على ذلك شواهد من القرآن الكريم كرساله موسى إلى فرعون، قال تعالى:

«اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ» طه-٢٤، و إيمان السحرة لموسى و ظهور قبول إيمانهم و لم يكونوا من بنى إسرائيل، قال تعالى: «قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَىٰ» طه-٧٠، و دعوه قوم فرعون، قال تعالى: «وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ» الدخان-١٧، و نظير ذلك ما كان من أمر إيمان الناس بعيسى فلقد آمن به(ع) قبل بعثه النبي ص الروم و أمم عظيمه من الغربيين كالأفرنج و النمسا و البروس و إنجلترا و أمم من الشرقيين كنجران و هم جميعهم ليسوا من بنى إسرائيل، و القرآن لم يخص فيما يذكر فيه النصارى-نصارى بنى إسرائيل خاصة بالذكر بل يعمم مدحه أو ذمه الجميع.

قوله تعالى: أَنَّىٰ قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ -إلى قوله:-

وَ أَخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ

، الخلق جمع أجزاء الشىء، و فيه نسبة الخلق إلى غيره تعالى كما يشعر به أيضا قوله تعالى: «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» المؤمنون-١٤.

و الأكمة هو الذى يولد مطموس العين، و قد يقال لمن تذهب عينه قال:

كمهت عيناه حتى ابيضتا، قاله الراغب، و الأبرص من كان به برص و هو مرض جلدى معروف.

و فى قوله: وَ أَخِي الْمَوْتَىٰ حيث علق الإحياء بالموتى و هو جمع دلالة و لا أقل من الإشعار بالكثرة و التعدد.

و كذا قوله: بِإِذْنِ اللَّهِ، سيق للدلالة على أن صدور هذه الآيات المعجزه منه (ع) مستند إلى الله تعالى من غير أن يستقل عيسى(ع) بشىء من ذلك، و إنما كرر تكرارا يشعر بالإصرار لما كان من المترقب أن يضل فيه الناس فيعتقدوا بألوهيته

استدلالات الآيات المعجزه الصادره عنه(ع) و لذا كان يقيد كل آيه يخبر بها عن نفسه مما يمكن أن يضلوا به كالخلق و إحياء الموتى بإذن الله ثم ختم الكلام بقوله: إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ .

و ظاهر قوله: أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ «إلخ» أن هذه الآيات كانت تصدر عنه صدورا خارجيا لا أن الكلام مسوق لمجرد الاحتجاج و التحدى، و لو كان مجرد قول لقطع العذر و إتمام الحجه لكان من حق الكلام أن يقيد بقيد يفيد ذلك كقولنا: إن سألتهم أو أردتم أو نحو ذلك.

على أن ما يحكيه الله سبحانه من مشافهته لعيسى يوم القيامة يدل على وقوع هذه الآيات أتم الدلاله، قال: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلَيَّ وَ اذْكُرْ الْإِنشَاءَ لَكَ -X إلى أن قال X-: وَ إِذْ تَخَلَّيْتُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفَّخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى» X الآية X: المائدة-١١٠.

و من هنا يظهر فساد ما ذكره بعضهم: أن قصارى ما تدل عليه الآية أن الله سبحانه جعل فى عيسى بن مريم هذا السر، و أنه احتج على الناس بذلك، و أتم الحجه عليهم بحيث لو سأله شيئا من ذلك لأتى به، أما أن كلها أو بعضها وقع فلا دلاله فيها على ذلك.

قوله تعالى: وَ أَتَيْنَاكُمْ بِمَاءٍ تَأْكُلُونَ وَ مِمَّا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ، و هذا إخبار بالغيب المختص بالله تعالى، و من خصه من رسله بالوحي، و هو آيه أخرى و إخبار بغيب صريح التحقق لا- يتطرق إليه الشك و الريب فإن الإنسان لا يشك عادة فيما أكله و لا فيما ادخره فى بيته.

و إنما لم يقيد هذه الآية بإذن الله مع أن الآية لا تتحقق إلا بإذن منه تعالى كما قال: «وَ مِمَّا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» :المؤمن-٧٨، لأن هذه الآية عبر عنها بالإنباء و هو كلام قائم بعيسى(ع) يعد فعلا له فلا يليق أن يسند إلى ساحه القدس بخلاف الآيتين السابقتين أعنى الخلق و الإحياء فإنها فعل الله بالحقيقه و لا ينسبان إلى غيره إلا بإذنه.

على أن الآيتين المذكورتين ليستا كالإنباء فإن الضلال إلى الناس فيهما أسرع منه

فى الإنباء فإن القلوب الساذجه تقبل ألوهيه خالق الطير و محيى الموتى بأدنى وسوسه و مغلطه بخلاف ألوهيه من يخبر بالمغيبات فإنها لا تدعن باختصاص الغيب بالله سبحانه بل تعتقده أمرا مبتذلا جائز النيل لكل مرتاض أو كاهن مشعبذ فكان من الواجب عند مخاطبتهم أن يقيد الآيتين المذكورتين بالإذن دون الأخيره، و كذا الإبراء فيكفى فيها مجرد ذكر أنها آيه من الله، و خاصه إذا ألقى الخطاب إلى قوم يدعون أنهم مؤمنون، و لذلك ذيل الكلام بقوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أَى إِنْ كُنْتُمْ صادقين فى دعواكم الإيمان.

قوله تعالى: وَ مُصِِّدًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَحْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، عطف على قوله: وَ رَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، و كون المعطوف مبنيًا على التكلم مع كون المعطوف عليه مبنيًا على الغيبه أعنى كون عيسى(ع) فى قوله: وَ مُصِِّدًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ، متكلمًا و فى قوله: وَ رَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، غائبًا ليس مما يضر بالعطف بعد تفسير قوله: وَ رَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، بقول عيسى: أَنَّى قَدْ جِئْتُكُمْ، فإن وجه الكلام يتبدل بذلك من الغيبه إلى الحضور فيستقيم به العطف.

و تصديقه للتوراه التى بين يديه إنما هو تصديق لما علمه الله من التوراه على ما تفيده الآيه السابقه، و هو التوراه الأصل النازل على موسى(ع) فلا دلالة لكونه مصدقًا للتوراه التى فى زمانه على كونها غير محرفه كما لا دلالة لتصديق نبينا محمد ص للتوراه التى بين يديه على كونها غير محرفه.

قوله تعالى: وَ لِأَحْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، فإن الله تعالى كان حرم عليهم بعض الطيبات، قال تعالى: «فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ» X الآيه X: النساء- ١٦٠.

و الكلام لا يخلو عن دلالة على إمضائه(ع) لأحكام التوراه إلا ما نسخته الله تعالى بيده من الأحكام الشاقه المكتوبه على اليهود، و لذا قيل: إن الإنجيل غير مشتمل على الشريعة، و قوله: وَ لِأَحْلَ، معطوف على قوله: بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، و اللام للغايه، و المعنى: قد جئتكم لأنسخ بعض الأحكام المحرمه المكتوبه عليكم.

قوله تعالى: جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، الظاهر أنه لبيان أن قوله: فَاتَّقُوا اللَّهَ

،متفرع على إتيان الآية لا على إحلال المحرمات فهو لدفع الوهم،و يمكن أن يكون هو مراد من قال:إن إعادته الجملة للتفرقة بين ما قبلها و ما بعدها فإن مجرد التفرقة ليست من المزايا فى الكلام.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ، فيه قطع لعذر من اعتقد ألوهيته لتفرسه(ع)ذلك منهم أو لعلمه بذلك بالوحي كما ذكرنا نظير ذلك فى تقييد قوله:

فَيَكُونُ طَيْرًا

،و قوله وَ أَحْيِ الْمَوْتَى، بقوله: بِإِذْنِ اللَّهِ لکن الظاهر من قوله تعالى فيما يحكى قول عيسى(ع): «مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ»: المائدة-١١٧،إن ذلك كان بأمر من ربه و وحي منه.

قوله تعالى: فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ،لما كانت البشاره التى بشر بها مريم مشتمله على جمل قصص عيسى(ع)من حين حمله إلى حين رسالته و دعوته اقتصر عليها اقتصاصا إيجازا فى الكلام و فرع عليها تتمه الجملة من قصته و هو انتخابه حواريه و مكر قومه به و مكر الله بهم فى تطهيره منهم و توفيه و رفعه إليه،و هو تمام القصة.

و قد اعتبر فى القصة المقدر الذى يهيم إلقاءه إلى النصارى حين نزول الآيات، و هم نصارى نجران:الوفد الذين أتوا المدينة للبحث و الاحتجاج،و لذلك أسقط منها بعض الخصوصيات التى تشتمل عليه قصصه المذكوره فى سائر السور القرآنيه كسوره النساء و المائدة و الأنبياء و الزخرف و الصف.

و فى استعمال لفظ الإحساس فى مورد الكفر مع كونه أمرا قلبيا إشعار بظهوره منهم حتى تعلق به الإحساس أو أنهم هموا بإيذائه و قتله بسبب كفرهم فأحس به فقوله:

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى

أى استشعر و استظهر مِنْهُمْ أى من بنى إسرائيل المذكور اسمهم فى البشاره الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟و إنما أراد بهذا الاستفهام أن يتميز عدده من رجال قومه فيتمحضوا للحق فتستقر فيهم عدده الدين،و تتمركز فيهم قوته ثم تنتشر من عندهم دعوته،و هذا شأن كل قوه من القوى الطبيعیه و الاجتماعيه و غيرها،أنها إذا شرعت فى الفعل و نشر التأثير و بث العمل كان من اللازم أن تتخذ لنفسها كانوا تجتمع فيه و تعتمد عليه و تستمد منه و لو لا ذلك لم تستقر على عمل،و ذهبت سدى لا تجدى نفعا.

و نظير ذلك في دعوته الإسلام بيعة العقبة و بيعة الشجرة أراد بها رسول الله ص ركوز القدره و تجمع القوه ليستقيم به أمر الدعوه.

فلما أيقن عيسى (ع) أن دعوته غير ناجحه في بنى إسرائيل كلهم أو جلهم، و أنهم كافرون به لا محاله، و أنهم لو أخدموا أنفاسه بطلت الدعوه و اشتدت المحنه مهد لبقاء دعوته هذا التمهيد فاستنصر منهم للسلوك إلى الله سبحانه فأجابه الحواريون على ذلك فتميزوا من سائر القوم بالإيمان فكان ذلك أساسا لتمييز الإيمان من الكفر و ظهوره عليه بنشر الدعوه و إقامه الحججه كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ كَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾: الصف-١٤.

و قد قيد الأنصار في قوله: مَنْ أَنْصَارِي بقوله: إِلَى اللَّهِ لِيتم به معنى التشويق و التحريض الذى سيق لأجله هذا الاستفهام نظير قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: البقره-٢٤٥.

و الظرف متعلق بقوله: أَنْصَارِي، بتضمين النصره معنى السلوك و الذهاب أو ما يشابههما كما حكى عن إبراهيم (ع) من قوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّهْدِينِ﴾: الصافات-٩٩.

و أما ما احتمله بعض المفسرين من كون إلى بمعنى مع فلا دليل عليه و لا يساعد أدب القرآن أن يجعله تعالى في عداد غيره فيعد غير الله ناصرا كما يعده ناصرا، و لا يساعد عليه أدب عيسى (ع) اللائح مما يحكيه القرآن من قوله، على أن قوله تعالى:

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾

، أيضا لا يساعد عليه إذ كان من اللازم على ذلك أن يقولوا: نحن أنصارك مع الله فليأمل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، حوارى الإنسان من اختصاص به من الناس، و قيل أصله من الحور و هو شده البياض، و لم يستعمل القرآن هذا اللفظ إلا فى خواص عيسى (ع) من أصحابه.

و قولهم: آمَنَّا بِاللَّهِ، بمنزل التفسير لقولهم: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ و هذا مما يؤيد كون

قوله: أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ جَارِيًا مَجْرَى التَّضْمِينِ كَمَا مَرَّ فَإِنَّهُ يَفِيدُ مَعْنَى السَّلُوكِ فِي الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ، وَالْإِيمَانَ طَرِيقًا.

و هل هذا أول إيمانهم بـ عيسى (ع)؟ ربما استفيد من قوله تعالى: «كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ»: الصف-١٤، أنه إيمان، بعد إيمان و لا ضير فيه كما يظهر بالرجوع إلى ما أوضحناه من كون الإيمان و الإسلام ذوي مراتب مختلفه بعضها فوق بعض.

بل ربما دل قوله تعالى: «وَ إِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»: المائده-١١١، أن إجابتهم إنما كانت بوحى من الله تعالى إليهم، و أنهم كانوا أنبياء فيكون الإيمان الذى أجابوه به هو الإيمان بعد الإيمان.

على أن قولهم: وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ، و هذا الإسلام هو التسليم المطلق لجميع ما يريد الله تعالى منهم و فيهم- يدل أيضا على ذلك فإن هذا الإسلام لا يتأتى إلا من خالص المؤمنين لا من كل من شهد بالتوحيد و النبوه مجرد شهادته، بيان ذلك أنه قد مر في البحث عن مراتب الإيمان و الإسلام: أن كل مرتبه من الإيمان تسبقها مرتبه من مراتب الإسلام كما يدل عليه قولهم: آمَنَّا بِاللَّهِ وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ، حيث أتوا فى الإيمان بالفعل و فى الإسلام بالصفه فأول مراتب الإسلام هو التسليم و الشهاده على أصل الدين إجمالا، و يتلوه الإذعان القلبي بهذه الشهاده الصوريه فى الجملة، و يتلوه (و هو المرتبه الثانيه من الإسلام) التسليم القلبي لمعنى الإيمان و ينقطع عنده السخط و الاعتراض الباطنى بالنسبه إلى جميع ما يأمر به الله و رسوله و هو الاتباع العملى فى الدين، و يتلوه (و هو المرتبه الثانيه من الإيمان) خلوص العمل و استقرار وصف العبوديه فى جميع الأعمال و الأفعال، و يتلوه (و هو المرتبه الثالثه من الإسلام) التسليم لمحبه الله و إرادته تعالى فلا يحب و لا يريد شيئا إلا بالله، و لا يقع هناك إلا ما أحبه الله و أَرَادَهُ و لا خبر عن محبه العبد و إرادته فى نفسه، و يتلوه (و هو المرتبه الثالثه من الإيمان) شيوع هذا التسليم العبودى فى جميع الأعمال.

فإذا تذكرت هذا الذى ذكرناه، و تأملت فى قوله (ع) فيما نقل من دعوته:

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ

الآيه، و وجدت أنه (ع) أمر أولا بتقوى الله و إطاعه نفسه ثم علل ذلك بقوله: إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ ،

أى إن الله ربكم معشر الأممه و رب رسوله الذى أرسله إليكم، فيجب عليكم أن تتقوه بالإيمان، و أن تطيعونى بالاتباع، و بالجمله يجب عليكم أن تعبدوه بالتقوى و طاعه الرسول أى الإيمان و الاتباع، فهذا هو المستفاد من هذا الكلام، و لذا بدل التقوى و الإطاعه فى التعليل من قوله: فَأَعْبُدُوهُ و إنما فعل ذلك ليتضح ارتباط الأمر بالله لظهور الارتباط به فى العبوديه ثم ذكر أن هذه العباده صراط مستقيم فجعله سبيلا ينتهى بسالكه إلى الله سبحانه.

ثم لما أحس منهم الكفر و لاحت أسباب اليأس من إيمان عامتهم قال من أنصارى إلى الله فطلب أنصارا لسلوك هذا الصراط المستقيم الذى كان يندب إليه، و هو العبوديه أعنى التقوى و الإطاعه فأجابه الحواريون بعين ما طلبه فقالوا: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ، ثم ذكروا ما هو كالتفسير له فقالوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَ أَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ، و مرادهم بالإسلام إطاعته و تبعيته، و لذا لما خاطبوا ربهم خطاب تذلل و التجاء، و ذكروا له ما وعدوا به عيسى(ع) قالوا: رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ، فبدلوا الإسلام من الاتباع، و وسعوا فى الإيمان بتقييده بجميع ما أنزل الله.

فأفاد ذلك أنهم آمنوا بجميع ما أنزل الله مما علمه عيسى بن مريم من الكتاب و الحكمة و التوراه و الإنجيل، و اتبعوا الرسول فى ذلك، و هذا كما ترى ليس أول درجه من الإيمان بل من أعلى درجاته و أسماها.

و إنما استشهدوا عيسى(ع) فى إسلامهم و اتباعهم و لم يقولوا: آمنا بالله و إنا مسلمون أو ما يفيد معناه ليكونوا على حجه فى عرضهم حالهم على ربهم إذ قالوا:

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ

، فكأنهم قالوا: ربنا حالنا هذا الحال، و يشهد بذلك رسولك.

قوله تعالى: رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ، مقول قول الحواريين حذف القول من اللفظ للدلاله على حكاية نفس الواقعه و هو من الأساليب اللطيفه فى القرآن الكريم، و قد مر بيانه، و قد سألوا ربهم أن يكتبهم من الشاهدين، و فرعوا ذلك على إيمانهم و إسلامهم جميعا لأن تبليغ الرسول رسالته إنما يتحقق بيانه ما أنزله الله عليه قولا و فعلا، أى بتعليمه معالم الدين و عمله بها، فالشهاده على التبليغ

إنما يكون بتعلمها من الرسول و اتباعه عملا حتى يشاهد أنه عامل بما يدعو إليه لا يتخطاه و لا يتعداه.

و الظاهر أن هذه الشهادة هي التي يومئ إليها قوله تعالى: «فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسِيَلِينَ»: الأعراف-٦، و هي الشهادة على التبليغ، و أما قوله تعالى:

«وَ إِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ»
:المائدة-٨٣، فهو شهادة على حقيقه رساله الرسول دون التبليغ، و الله أعلم.

و ربما أمكن أن يستفاد من قولهم: فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ بعد استشهادهم الرسول على إسلامهم أن المسئول: أن يكتبهم الله من شهداء الأعمال كما يلوح ذلك مما حكاه الله تعالى في دعاء إبراهيم و إسماعيل (ع): «رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا»: البقره-١٢٨، و ليرجع إلى ما ذكرناه في ذيل الآية.

قوله تعالى: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ، الماكرون هم بنو إسرائيل، بقريته قوله: فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ، و قد مر الكلام في معنى المكر المنسوب إليه تعالى في ذيل قوله: «وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ»: البقره-٢٦.

قوله تعالى: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ، التوفى أخذ الشيء أخذا تاما، و لذا يستعمل في الموت لأن الله يأخذ عند الموت نفس الإنسان من بدنه قال تعالى:

«تَوَفَّنَاهُ رُسُلَنَا»: الأنعام-٦١، أى أماتته، و قال تعالى: «وَ قَالُوا أَ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ -X إلى أن قال X-: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ»: السجده-١١، و قال تعالى: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَدَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرَى»: الزمر-٤٢، و التأمل في الآيتين الأخيرتين يعطى أن التوفى لم يستعمل في القرآن بمعنى الموت بل بعنايه الأخذ و الحفظ، و بعبارة أخرى إنما استعمل التوفى بما في حين الموت من الأخذ للدلاله على أن نفس الإنسان لا يبطل و لا يفنى بالموت الذى يظن الجاهل أنه فناء و بطلان بل الله تعالى يحفظها حتى يعثها للرجوع إليه، و إلا فهو سبحانه يعبر في الموارد التي لا تجرى فيه هذه العنايه بلفظ الموت دون التوفى كما في قوله تعالى: «وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ

مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ» :آل عمران-١٤٤، و قوله تعالى: «لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا» :الفاطر-٣٦، إلى غير ذلك من الآيات الكثيره جدا حتى ما ورد في عيسى(ع) بنفسه كقوله: «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أُمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعِثُ حَيًّا» :مريم-٣٣، و قوله: «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا» :النساء-١٥٩، فمن هذه الجبهه لا صراحه للتوفى فى الموت.

على أن قوله تعالى فى رد دعوى اليهود: «وَ قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَ مَا قَتَلُوهُ وَ مَا صَلَبُوهُ وَ لَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَجْرَ الظَّنِّ وَ مَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا» :النساء-١٥٩، يؤيد ذلك فإن اليهود كانت تدعى أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم(ع) و كذلك كانت تظن النصارى أن اليهود قتلت عيسى بن مريم(ع) بالصلب غير أنهم كانوا يزعمون أن الله سبحانه رفعه بعد قتله من قبره إلى السماء على ما فى الأناجيل، و الآيات كما ترى تكذب قصه القتل و الصلب صريحا.

و الذى يعطيه ظاهر قوله: «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْآيَهُ أَنَّهُ حَىٰ عِنْدَ اللَّهِ وَ لَنْ يَمُوتَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ بِهِ أَهْلُ الْكِتَابِ، على هذا فيكون توفيه(ع)أخذه من بين اليهود لكن الآيه مع ذلك غير صريحه فيه و إنما هو الظهور، و سيجيء تمام الكلام فى ذلك فى آخر سورة النساء.

قوله تعالى: «وَ رَفَعْنَاكَ إِلَيْنَا وَ مَطَهَّرْنَاكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، الرفع خلاف الوضع، و الطهاره خلاف القذاره، و قد مر الكلام فى معنى الطهاره.

و حيث قيد الرفع بقوله: «إِلَيْنَا»، أفاد ذلك أن المراد بالرفع الرفع المعنوى دون الرفع الصورى إذ لا مكان له تعالى من سنخ الأمكنه الجسمانيه التى تتعاورها الأجسام و الجسمانيات بالحلول فيها، و القرب و البعد منها، فهو من قبيل قوله تعالى فى ذيل الآيه:

ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ

، و خاصه لو كان المراد بالتوفى هو القبض لظهور أن المراد حينئذ هو رفع الدرجه و القرب من الله سبحانه، نظير ما ذكره تعالى فى حق المقتولين فى سيبله:

«أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» :آل عمران-١٦٩، و ما ذكره فى حق إدريس(ع):

«وَ رَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا» :مريم-٥٧.

و ربما يقال: إن المراد برفعه إليه رفعه بروحه و جسده حيا إلى السماء على ما يشعر به ظاهر القرآن الشريف أن السماء أى الجسمانيه هى مقام القرب من الله سبحانه، و محل نزول البركات، و مسكن الملائكة المكرمين، و لعلنا نوفق للبحث عن معنى السماء فيما سيأتى إن شاء الله تعالى.

و التطهير من الكافرين حيث أتبع به الرفع إلى الله سبحانه أفاد معنى التطهير المعنوى دون الظاهرى الصورى فهو إبعاده من الكفار و صونه عن مخالطتهم و الوقوع فى مجتمعهم المتقدر بقذاره الكفر و الجحود.

قوله تعالى: **وَ جَاءَ لُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**، و وعد منه تعالى له (ع) أنه سيفوق متبعى عيسى (ع) على مخالفيه الكافرين بنبوته، و أن تفوقهم هذا سيدوم إلى يوم القيامة و إنما ذكر تعالى فى تعريف هؤلاء الفائقين على غيرهم أن الفائقين هم الذين اتبعوه و أن غيرهم هم الذين كفروا من غير أن يقول هم بنو إسرائيل أو اليهود المنتحلون بشريعه موسى (ع) أو غير ذلك.

غير أنه تعالى لما أخذ الكفر فى تعريف مخالفيه ظهر منه أن المراد باتباعه هو الاتباع على الحق أعنى الاتباع المرضى لله سبحانه فيكون الذين اتبعوه هم أتباعه المستقيمون من النصارى قبل ظهور الإسلام و نسخه دين عيسى، و المسلمون بعد ظهور الإسلام فإنهم هم أتباعه على الحق، و على هذا فالمراد بالتفوق هو التفوق بحسب الحجه دون السلطنه و السيطره، فمحصل معنى الجملة: أن متبعيك من النصارى و المسلمين ستفوق حجتهم على حجه الكافرين بك من اليهود إلى يوم القيامة، هذا ما ذكره و ارتضاه المفسرون فى معنى الآيه.

و الذى أراه أن الآيه لا تساعد عليه لا بلفظها و لا بمعناها فإن ظاهر قوله **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رَافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ**، أنه إخبار عن المستقبل و أنه سيتحقق فيما يستقبل حال التكلم توف و رفع و تطهير و جعل على أن قوله:

وَ جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ

، و وعد حسن و بشرى، و ما هذا شأنه لا يكون إلا فى ما سيأتى، و من المعلوم أن ليست حجه متبعى عيسى (ع) إلا حجه عيسى نفسه، و هى التى ذكرها الله تعالى فى ضمن آيات البشاره أعنى بشاره مريم، و هذه الحجج حجج فائقه حين حضور عيسى قبل الرفع، و بعد رفع عيسى بل كانت قبل رفعه (ع) أقطع لعذر

الكفار و منبت خصومتهم، و أوضح فى رفع شبههم، فما معنى وعده (ع) أنه ستفوق حجه متبعيه على حجه مخالفه ثم ما معنى تقييد هذه الغلبه و التفوق بقوله: **إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**، مع أن الحجه فى غلبتها لا تقبل التقييد بوقت و لا يوم على أن تفوق الحجه على الحجه باق على حاله يوم القيامة على ما يخبر به القرآن فى ضمن أخبار القيامة.

فإن قلت: لعل المراد من تفوق الحجه تفوقها من جهه المقبوليه بأن يكون الناس أسمع لحجه المتبعين و أطوع لها فيكونوا بذلك أكثر جمعا و أوثق ركنا و أشد قوه.

قلت: مرجع ذلك إما إلى تفوق متبعيه الحقييين من حيث السلطنه و القوه و الواقع خلافه، و احتمال أن يكون إخبارا عن ظهور للمتبعين و تفوق منهم سيتحقق فى آخر الزمان لا- يساعد عليه لفظ الآيه، و إما إلى كثره العدد بأن يراد أن متبعيه (ع) سيفوقون الكافرين أى يكون أهل الحق بعد عيسى أكثر جمعا من أهل الباطل، ففيه مضافا إلى أن الواقع لا يساعد عليه فلم يزل أهل الباطل يربو و يزيد جمعهم على أهل الحق من زمن عيسى إلى يومنا هذا و قد بلغ الفصل عشرين قرنا أن لفظ الآيه لا يساعد عليه فإن الفوقيه فى الآيه و خاصه من جهه كون المقام مقام الإنباء عن نزول السخط الإلهى على اليهود و شمول الغضب عليهم إنما يناسب القهر و الاستعلاء إما من حيث الحجه البالغه أو من حيث السلطه و القوه و أما من حيث كثره العدد فلا يناسب المقام كما هو ظاهر.

و الذى ينبغى أن يقال أن الذى أخذ فى الآيه معرفا للفرقتين هو قوله: **الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ**، و قوله **الَّذِينَ كَفَرُوا**، و الفعل إنما يدل على التحقق و الحدوث دون التلبس الذى يدل عليه الوصف كالمتبعين و الكافرين، و مجرد صدور فعل من بعض أفراد أمه مع رضاء الباقين به و سلوك اللاحقين مسلك السابقين و جريهم على طريقتهم كاف فى نسبه ذلك الفعل إليهم، كما أن القرآن يؤنب اليهود و يوبخهم على كثير من أفعال سلفهم كقتل الأنبياء و إيذائهم و الاستكبار عن امتثال أوامر الله سبحانه و رسله و تحريف آيات الكتاب، و غير ذلك.

و على هذا صح أن يراد بالذين كفروا اليهود، و بالذين اتبعوا النصارى لما صدر من

صدرهم و سلفهم من الإيمان بعيسى(ع) و اتباعه- و قد كان إيماننا مرضيا و اتباعا حقا- و إن كان الله سبحانه لم يرتض اتباعهم له(ع) بعد ظهور الإسلام، و لا اتباع أهل التثليث منهم قبل ظهور الدعوه الإسلاميه.

فالمراد جعل النصارى- و هم الذين اتبع أسلافهم عيسى(ع)- فوق اليهود و هم الذين كفروا بعيسى(ع) و مكروا به، و الغرض فى المقام بيان نزول السخط الإلهى على اليهود، و حلول المكر بهم، و تشديد العذاب على أمتهم، و لا ينافى ما ذكرناه كون المراد بالاتباع هو الاتباع على الحق كما استظهرناه فى أول الكلام كما لا يخفى.

و يؤيد هذا المعنى تغيير الأسلوب فى الآيه الآتية أعنى قوله: **وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**، إذ لو كان المراد بالذين اتبعوا هم أهل الحق و النجاه من النصارى و المسلمين فقط كان الأنسب أن يقال: و أما الذين اتبعوك فيوفيهم أجورهم من غير تغيير للسياق كما لا يخفى.

و هاهنا وجه آخر و هو أن يكون المراد بالذين اتبعوا هم النصارى و المسلمون قاطبه و تكون الآيه مخبره عن كون اليهود تحت إذلال من يدعن لزوم اتباع عيسى إلى يوم القيامة، و التقريب عين التقريب، و هذا أحسن الوجوه فى توجيه الآيه عند التدبر.

قوله تعالى: **ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**، و قد جمع سبحانه فى هذا الخطاب بين عيسى و بين الذين اتبعوه و الذين كفروا به و هذا مآل أمرهم يوم القيامة، و بذلك يختم أمر عيسى و خبره من حين البشاره به إلى آخر أمره و نبأه.

قوله تعالى: **فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ**، ظاهره أنه متفرع على قوله: **فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ**، تفرع التفصيل على الإجمال فيكون بيانا للحكم الإلهى فى يوم القيامة بالعذاب لليهود الذين كفروا و توفيه الأجر للمؤمنين.

لكن اشتمال التفرع على قوله: **فِي الدُّنْيَا**، يدل على كونه متفرعا على مجموع قوله: **وَ جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا(إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)** ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ «إلخ» فيدل على أن نتيجة هذا الجعل و الرجوع تشديد العذاب عليهم فى الدنيا بيد الذين فوقهم الله تعالى عليهم، و فى الآخرة بالنار، و ما لهم فى ذلك من ناصرين.

و هذا أحد الشواهد على أن المراد بالتفويق في الآيه السابقه هو التسليط بالسيطره و القوه دون التأيد بالحجه.

و فى قوله: وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ دلاله على نفى الشفاعه المانع عن حلول العذاب بساحتهم، و هو حتم القضاء كما تقدم.

قوله تعالى: وَمَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ، و هذا وعد حسن بالجزاء الخير للذين اتبعوا إلا أن مجرد صدق الاتباع لما لم يستلزم استحقاق جزيل الثواب لأن الاتباع كما عرفت وصف صادق على الأمه بمجرد تحققه و صدوره عن عده من أفرادها و حينئذ إنما يؤثر الأثر الجميل و الثواب الجزيل بالنسبه إلى من تلبس به شخصا دون من انتسب إليه اسما فلذلك بدل الذين اتبعوك من مثل قوله: الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ليستقيم المعنى فإن السعاده و العاقبه الحسنی تدور مدار الحقيقه دون الاسم كما يدل عليه قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ: البقره-٦٢.

فهذا أجر الذين آمنوا و عملوا الصالحات من الذين اتبعوا عيسى ((ع)) أن الله يوفيهم أجورهم، و أما غيرهم فليس لهم من ذلك شيء، و قد أشير إلى ذلك فى الآيه بقوله: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

و من هنا يظهر السر فى ختم الآيه- و هى آيه الرحمه و الجنه- بمثل قوله: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ مع أن المعهود فى آيات الرحمه و النعمه أن تختتم بأسماء الرحمه و المغفره أو بمدح حال من نزلت فى حقه الآيه نظير قوله تعالى: «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنِيَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»: الحديد-١٠، و قوله تعالى: «إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ»: التغابن-١٧، و قوله تعالى: «وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»: التغابن-٩، و قوله تعالى: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ»: الجاثيه-٣٠، إلى غير ذلك من الآيات.

فقوله: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ مسوق لبيان حال الطائفه الأخرى ممن انتسب

إلى عيسى(ع) بالاتباع و هم غير الذين آمنوا و عملوا الصالحات.

قوله تعالى: ذَلِكُمْ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَ الذُّكْرِ الْحَكِيمِ إشاره إلى اختتام القصة. و المراد بالذكر الحكيم القرآن الذى هو ذكر الله محكم من حيث آياته و بياناته، لا يدخله باطل، و لا يلج فيه هزل.

قوله تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، تلخيص لموضع الحاجه مما ذكره من قصه عيسى فى تولده تفصيلا، و الإيجاز بعد الإطناب- و خاصه فى مورد الاحتجاج و الاستدلال- من مزايا الكلام، و الآيات نازله فى الاحتجاج و متعرضه لشأن وفد النصارى نصارى نجران فكان من الأنسب أن يوجز البيان فى خلقته بعد الإطناب فى قصته ليدل على أن كيفية ولادته لا تدل على أزيد من كونه بشرا مخلوقا نظير آدم(ع) فليس من الجائز أن يقال فيه أزيد و أعظم مما قيل فى آدم، و هو أنه بشر خلقه الله من غير أب.

فمعنى الآية: إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ أى وصفه الحاصل عنده تعالى أى ما يعلمه الله تعالى من كيفية خلق عيسى الجارى بيده أن كيفية خلقه يضاهى كيفية خلق آدم، و كيفية خلقه أنه جمع أجزاءه من تراب ثم قال له كن فتكون تكونا بشريا من غير أب.

فالبيان بحسب الحقيقه منحل إلى حجتين تفى كل واحده منهما على وحدتها بنفى الألوهيه عن المسيح(ع).

إحداهما: أن عيسى مخلوق لله- على ما يعلمه الله و لا يضل فى علمه- خلقه بشر و إن فقد الأب و من كان كذلك كان عبدا لا ربا.

و ثانيهما: أن خلقته لا- تزيد على خلقه آدم فلو اقتضى سنخ خلقه أن يقال بألوهيته بوجه لاقتضى خلق آدم ذلك مع أنهم لا يقولون بها فيه فوجب أن لا يقولوا بها فى عيسى(ع) أيضا لمكان المماثله.

و يظهر من الآية أن خلقه عيسى كخلق آدم خلقه طبيعيه كونه و إن كانت خارقه للسنه الجاربه فى النسل و هى حاجه الولد فى تكونه إلى والد.

و الظاهر أن قوله: فَيَكُونُ، أريد به حكاية الحال الماضيه، و لا ينافى ذلك دلالة

قوله: ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ عَلَى انْتِفَاءِ التدرِيجِ فَإِنَّ النِّسْبَةَ مَخْتَلِفَةً فَهَذِهِ الْمَوْجُودَاتُ بِأَجْمَعِهَا أَعْمٌ مِنَ التدرِيجِ الْوُجُودِ وَغَيْرِهِ مَخْلُوقَهُ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ مَوْجُودَهُ بِأَمْرِهِ الَّذِي هُوَ كَلِمَةٌ كُنْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»: يس-٨٢، وكثير منها تدرِيجِيهِ الْوُجُودِ إِذَا قِيسَتْ حَالُهَا إِلَى أَسْبَابِهَا التدرِيجِيهِ. وَأَمَّا إِذَا لُوْحِظَ بِالْقِيَاسِ إِلَيْهِ تَعَالَى فَلَا تدرِيجَ هُنَاكَ وَلَا مَهْلَةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمَحٍ بِالبَصِيرِ»: القمر-٥٠، وسيجيء زيادته توضيح لهذا المعنى إن شاء الله تعالى في محله المناسب له.

على أن عمده ما سبق لبيان قوله: ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ إِنَّهُ تَعَالَى لَا يَحْتَاجُ فِي خَلْقِ شَيْءٍ إِلَى الْأَسْبَابِ حَتَّى يَخْتَلِفَ حَالُ مَا يَرِيدُ خَلْقَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ تَعَالَى بِالْإِمْكَانِ وَالِاسْتِحَالَةِ، وَالهَوَانِ وَالْعُسْرِ، وَالْقُرْبِ وَالْبَعْدِ، بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْأَسْبَابِ الدَّخِيلَةِ فِي وُجُودِهِ فَمَا أَرَادَهُ وَقَالَ لَهُ كُنْ، كَانَ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى الْأَسْبَابِ الدَّخِيلَةِ عَادَةً.

قوله تعالى: الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ تأكيد لمضمون الآية السابقة بعد تأكيده بأن ونحوه نظير تأكيد تفصيل القصة بقوله: ذَلِكَ نَتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالدُّرُجَاتِ الْحَكِيمِ الْآيَةِ، وفيه تطيب لنفس رسول الله ص بأنه على الحق، وتشجيع له في المحاجة.

وهذا أعنى قوله: الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ مِنْ أَوَّلِ الْبَيِّنَاتِ الْقُرْآنِيَةِ حَيْثُ قِيدَ الْحَقُّ بِمِنِ الدَّالَةِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ دُونَ غَيْرِهِ بِأَنَّ يُقَالُ: الْحَقُّ مَعَ رَبِّكَ لِمَا فِيهِ مِنْ شَائِبَةِ الشَّرْكَ وَنَسْبَةِ الْعِجْزِ إِلَيْهِ تَعَالَى بِحَسَبِ الْحَقِيقَةِ.

وذلك أن هذه الأفاويل الحقه والقضايا النفس الأمرية الثابتة كائنه ما كانت وإن كانت ضرورية غير ممكنة التغير عما هي عليه كقولنا: الأربعة زوج، والواحد نصف الاثنين، ونحو ذلك إلا أن الإنسان إنما يقتنصها من الخارج الواقع في الوجود والوجود كله منه تعالى، فالحق كله منه تعالى كما أن الخير كله منه، ولذلك كان تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فإن فعل غيره إنما يصاحب الحق إذا كان حقا، وأما فعله تعالى فهو الوجود الذي ليس الحق إلا صورته العلمية.

فى تفسير القمى، فى قوله تعالى: يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ قال: قال (ع) اصطفاها مرتين: أما الأولى فاصطفاها أى اختارها، و أما الثانية فإنها حملت من غير فحل - فاصطفاها بذلك على نساء العالمين

و فى المجمع، قال أبو جعفر (ع): معنى الآيه اصطفاك لذريه الأنبياء، و طهرتك من السفاح - و اصطفيك لولاده عيسى من غير فحل.

أقول: معنى قوله: اصطفاك لذريه الأنبياء اختارك لتكونى ذريه صالحه جديره للانتساب إلى الأنبياء، و معنى قوله: و طهرتك من السفاح أعطاك العصمه منه، و هو العمده فى موردها لكونها ولدت عيسى من غير فحل، فالكلام مسوق لبيان بعض لوازم اصطفاها و تطهيرها، فالروايتان غير متعارضتين كما هو ظاهر، و قد مر دلالة الآيه على ذلك.

و فى الدر المنثور، أخرج أحمد و الترمذى و صححه و ابن المنذر و ابن حبان و الحاكم عن أنس: أن رسول الله ص قال: حسبك من نساء العالمين - مريم بنت عمران و خديجه بنت خويلد - و فاطمه بنت محمد ص و آسيه امراه فرعون: قال السيوطى و أخرجه ابن أبى شيبه عن الحسن مرسلًا:

و فيه، أخرج الحاكم و صححه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ص:

أفضل نساء العالمين - خديجه و فاطمه و مريم و آسيه امراه فرعون.

و فيه، أخرج ابن مردويه عن الحسن قال قال رسول الله ص: إن الله اصطفى على نساء العالمين أربعة: آسيه بنت مزاحم، و مريم بنت عمران، و خديجه بنت خويلد و فاطمه بنت محمد ص.

و فيه، أخرج ابن أبى شيبه و ابن جرير عن فاطمه رضى الله عنها قالت: قال لى رسول الله ص: أنت سيده نساء أهل الجنة لا مريم البتول.

و فيه، أخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال: قال رسول الله ص: سيده نساء أهل الجنة مريم بنت عمران - ثم فاطمه ثم خديجه ثم آسيه امراه فرعون

وفيه، أخرج ابن عساكر من طريق مقاتل عن الضحاک عن ابن عباس عن النبي ص قال: أربع نسوة سادات عالمهن. مريم بنت عمران و آسیه بنت مزاحم و خديجه بنت خويلد- و فاطمه بنت محمد ص، و أفضلهن عالما فاطمه.

وفيه، أخرج ابن أبي شيبه عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: قال رسول الله ص: فاطمه سيده نساء العالمين بعد مريم ابنة عمران، و آسیه امرأه فرعون، و خديجه ابنة خويلد.

و فى الخصال، بإسناده عن عكرمه عن ابن عباس قال: خط رسول الله ص أربع خطوط ثم قال: خير نساء الجنه مريم بنت عمران و خديجه بنت خويلد- و فاطمه بنت محمد و آسیه بنت مزاحم امرأه فرعون.

وفيه، أيضا بإسناده عن أبي الحسن الأول (ع) قال: قال رسول الله ص:

إن الله عز و جل اختار من النساء أربعاً: مريم و آسیه و خديجه و فاطمه، الخبر.

أقول: و الروايات فيما يقرب من هذا المضمون من طرق الفريقين كثيره، و كون هؤلاء سيدات النساء لا ينافى وجود التفاضل بينهن أنفسهن كما يظهر من الخبر السادس المنقول من الدر المنثور و أخبار أخرى، و قد مر نظير هذا البحث فى تفسير قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحًا﴾ X الآية X: آل عمران- ٣٣.

و مما ينبغى أن يتنبه له أن الواقع فى الآيه هو الاصطفاء، و قد مر أنه الاختيار، و الذى وقع فى الأخبار هو السيادة، و بينهما فرق بحسب المعنى فالثانى من مراتب كمال الأول.

و فى تفسير العياشى: فى قوله تعالى: ﴿إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾، عن الباقر (ع): يقرعون بها حين أيتمت من أبيها.

و فى تفسير القمى، ":

وَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ- إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ

قال: اصطفاها مرتين: أما الأولى فاصطفاها أى اختارها، و أما الثانية فإنها حملت من غير فحل- فاصطفاهما بذلك على نساء العالمين- إلى أن قال القمى- ثم قال الله لنيبه: ذَلِكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْعَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدَ وَ مَا كُنْتُ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ

أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذِ يَخْتَصِمُونَ

قال لما ولدت اختصموا آل عمران فيها و كلهم قالوا:نحن نكفلها فخرجوا و ضربوا بالسهام بينهم-فخرج سهم زكريا،الخبر.

أقول:وقد مر من البيان ما يؤيد هذا الخبر و ما قبلها.

و اعلم أن هناك روايات كثيرة فى بشاره مريم و ولاده عيسى(ع)و دعوته و معجزاته لكن ما وقع فى الآيات الشريفه من جمل قصصه كاف فيما هو المهم من البحث التفسيري،و لذلك تركنا ذكرها إلا ما يهم ذكره منها.

و فى تفسير القمى:، فى قوله تعالى: وَ أُتْبِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ الآيه،عن الباقر(ع) أن عيسى كان يقول لبنى إسرائيل-إنى رسول الله إليكم،و إنى أخلق لكم من الطين كهينه الطير-فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله-و أبرئ الأكمه و الأبرص،و الأكمه هو الأعمى:

قالوا:ما نرى الذى تصنع إلا سحرا-فأرنا آيه نعلم أنك صادق قال:أ رأيتمكم إن أخبرتمكم بما تأكلون و ما تدخرون فى بيوتكم- يقول:ما أكلتم فى بيوتكم قبل أن تخرجوا-و ما ادخرتم بالليل-تعلمون أنى صادق؟قالوا:نعم فكان يقول:أنت أكلت كذا و كذا- و شربت كذا و كذا و رفعت كذا و كذا-فمنهم من يقبل منه فيؤمن،و منهم من يكفر،و كان لهم فى ذلك آيه إن كانوا مؤمنين.

أقول:و تغيير سياق الآيه فى حكاية ما ذكره(ع)من الآيات أولا و آخرا يؤيد هذه الروايه،و قد مرت الإشارة إليه.

و فى تفسير العياشى:، فى قوله تعالى: وَ مُصَيِّدًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَجَلٍ لَّكُمْ الآيه،عن الصادق(ع)قال:كان بين داود و عيسى أربعمائنه سنه،و كانت شريعته عيسى أنه بعث بالتوحيد و الإخلاص-و بما أوصى به نوح و إبراهيم و موسى،و أنزل عليه الإنجيل،و أخذ عليه الميثاق الذى أخذ على النبيين،و شرع له فى الكتاب:إقام الصلوه مع الدين-و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر-و تحريم الحرام و تحليل الحلال،و أنزل عليه فى الإنجيل مواعظ و أمثال-و حدود ليس فيها قصاص،و لا- أحكام حدود،و لا فرض مواريث،و أنزل عليه تخفيف ما كان على موسى فى التوراه،و هو قول الله فى الذى قال عيسى لبنى إسرائيل: وَ لِأَجَلٍ لَّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ،و أمر عيسى من معه ممن اتبعه من المؤمنين-أن يؤمنوا بشريعته التوراه و الإنجيل.

أقول:

و روى الروايه فى قصص الأنبياء،مفصله عن الصادق(ع)و فيها:

كان بين داود و عيسى أربعمائى سنه،و ثمانون سنه-و لا يوافق شىء منهما تاريخ أهل الكتاب.

و فى العيون،عن الرضا(ع): أنه سئل لم سمي الحواريون الحواريين؟قال:

أما عند الناس فإنهم سموا حواريين-لأنهم كانوا قصارين يخلصون الثياب من الوسخ بالغسل، و هو اسم مشتق من الخبز الحوار.و
أما عندنا فسمى الحواريون الحواريين-لأنهم كانوا مخلصين فى أنفسهم-و مخلصين غيرهم من أوساخ الذنوب بالوعظ و
التذكير.

و فى التوحيد،عنه(ع): أنهم كانوا اثنا عشر رجلا-و كان أفضلهم و أعلمهم لوقا.

و فى الإكمال،عن الصادق(ع)فى حديث: بعث الله عيسى بن مريم،و استودعه النور و العلم و الحكم-و جميع علوم الأنبياء قبله،و
زاده الإنجيل،و بعثه إلى بيت المقدس إلى بنى إسرائيل-يدعوهم إلى كتابه و حكمته،و إلى الإيمان بالله و رسوله-فأبى أكثرهم
إلا-طغيانا و كفرا،فلما لم يؤمنوا دعا ربه و عزم عليه-فمسخ منهم شياطين ليريهم آيه- فيعتبروا فلم يزداهم ذلك إلا-طغيانا و
كفرا-فأتى بيت المقدس فمكث-يدعوهم و يرغبهم فيما عند الله ثلاثه و ثلاثين سنه-حتى طلبته اليهود-و ادعت أنها عذبتة و
دفنته فى الأرض حيا،و ادعى بعضهم أنهم قتلوه و صلبوه،و ما كان الله ليجعل لهم سلطانا عليه، و إنما شبه لهم،و ما قدروا على
عذابه و قتله و لا على قتله و صلبه-لأنهم لو قدروا على ذلك لكان تكذيبا لقوله:و لكن رفعه الله بعد أن توفاه.

أقول:قوله(ع):فمسخ منهم شياطين أى مسخ جمعا من شرارهم.

و قوله(ع):فمكث يدعوهم«إلخ»لعله إشاره إلى مده عمره على ما هو المشهور فإنه(ع))كان يكلمهم من المهد إلى الكهولة و
كان نبيا من صباه على ما يدل عليه قوله على ما حكاه الله عنه: «فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي
عَبْدُ اللَّهِ أَتَانِي الْكِتَابُ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا»: مريم-٣٠.

و قوله(ع))لكان تكذيبا لقوله:و لكن رفعه الله بعد أن توفاه،نقل بالمعنى لقوله تعالى: بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ الْآيَةَ،و قوله تعالى: إِنِّي
مُتَوَفِّيكَ وَ رَافِعُكَ إِلَى الْآيَةِ، و قد استفاد من تقديم التوفى على الرفع فى اللفظ الترتيب بينهما فى الوجود.

و فى تفسير القمى، عن الباقر(ع)قال: إن عيسى وعد أصحابه ليله رفعه الله إليه-فاجتمعوا إليه عند المساء و هم اثنا عشر رجلا- فأدخلهم بيتا ثم خرج إليهم من عين فى زاوية البيت-و هو ينفذ رأسه عن الماء فقال:إن الله أوحى إلى أنه رافعى إليه الساعة،و مطهرى من اليهود فأيكم يلقي عليه شبحى-فيقتل و يصلب و يكون معى فى درجتى،فقال شاب منهم أنا يا روح الله،قال:فأنت هو ذا فقال لهم عيسى:أما إن منكم من يكفر بى قبل أن يصبح اثنتى عشره كفره،فقال رجل منهم:أنا هو يا نبي الله!فقال له عيسى:أ تحس بذلك فى نفسك؟فلتكن هو،ثم قال لهم عيسى:

أما إنكم ستفترقون بعدى ثلاث فرق:فرقتين مفترتين على الله فى النار،و فرقه تتبع شمعون صادقاه على الله فى الجنة-ثم رفع الله عيسى إليه من زاوية البيت و هم ينظرون إليه.

ثم قال:إن اليهود جاءت فى طلب عيسى من ليلتهم-فأخذوا الرجل الذى قال له عيسى:إن منكم لمن يكفر بى قبل أن يصبح اثنتى عشره كفره،و أخذوا الشاب الذى ألقى عليه شبح عيسى فقتل و صلب،و كفر الذى قال له عيسى:يكفر قبل أن يصبح اثنتى عشره كفره.

أقول:و روى قريب منه عن ابن عباس و قتاده و غيرهما،و قال بعضهم:إن الذى ألقى عليه شبح عيسى هو الذى دلهم ليقبضوا عليه و يقتلوه،و قيل غير ذلك، و القرآن ساكت عن ذلك،و سيأتى استيفاء البحث عنه فى الكلام على قوله تعالى: «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ» Xالآيه X:النساء-١٥٧.

و فى العيون،عن الرضا(ع)قال: إنه ما شبه أمر أحد من أنبياء الله و حججه على الناس-إلا أمر عيسى وحده لأنه رفع من الأرض حيا-و قبض روحه بين السماء و الأرض ثم رفع إلى السماء،و رد عليه روحه،و ذلك قوله عز و جل: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ هَذَا الصَّلَافَ وَ رَافِعِيكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ، و قال الله حكاية لقول عيسى يوم القيامة- وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ-وَ أَنْتَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

و فى تفسير العياشى،عن الصادق(ع)قال: رفع عيسى بن مريم بمدرعه صوف- من غزل مريم و من نسج مريم و من خياطه مريم-فلما انتهى إلى السماء نودى يا عيسى ألق عنك زينه الدنيا.

أقول: و سياتى توضيح معنى الروایتين فى أواخر سورة النساء إن شاء الله تعالى.

و فى الدر المثور،: فى قوله تعالى إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ الْآيَةَ، أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتاده قال: ذكر لنا: أن سيدى أهل نجران- و أسقفهم السيد و العاقب لقا نبى الله ص فسألاه عن عيسى فقال: كل آدمى له أب فما شأن عيسى لا أب له- فأنزل الله فيه هذه الآية: إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ الْآيَةَ.

أقول: و روى ما يقرب منه عن السدى و عكرمه و غيرهما، و روى القمى فى تفسيره، أيضا نزول الآية فى المورد.

بحث روائى آخر فى معنى المحدث

فى البصائر، عن زراره قال: سألت أبا عبد الله ((ع)) عن الرسول و عن النبى و عن المحدث قال: الرسول الذى يعاين الملك يأتى بالرسالة من ربه- يقول: يأمرك كذا و كذا، و الرسول يكون نبيا مع الرسالة.

و النبى لا- يعاين الملك- ينزل عليه الشىء النبأ على قلبه- فىكون كالمغمى عليه فىرى فى منامه قلت: فما علمه أن الذى رأى فى منامه حق؟ قال بينه الله حتى يعلم أن ذلك حق و لا يعاين الملك. و المحدث الذى يسمع الصوت و لا يرى شاهدا.

أقول: و رواه فى الكافى، عن أبى عبد الله ((ع)) قوله: شاهدا أى صائتا حاضرا.

و يمكن أن يكون حالا من فاعل لا يرى.

و فيه، أيضا عن بريد عن الباقر و الصادق ((ع)) فى حديث قال بريد: فما الرسول و النبى و المحدث؟ قال: الرسول الذى يظهر الملك فى كلمه، و النبى يرى فى المنام، و ربما اجتمعت النبوه و الرسالة لواحد، و المحدث الذى يسمع الصوت و لا يرى الصورة قال: قلت أصلحك الله- كيف يعلم أن الذى رأى فى المنام هو الحق و أنه من الملك؟ قال: يوفق لذلك حتى يعرفه «لقد ختم الله بكتابكم الكتب و بنبيكم الأنبياء، الحديث.

و فيه، عن محمد بن مسلم قال: ذكرت المحدث عند أبى عبد الله ((ع)) قال: فقال:

إنه يسمع الصوت و لا يرى الصورة فقلت- أصلحك الله كيف يعلم أنه كلام الملك؟ قال:

إنه يعطى السكينه و الوقار حتى يعلم أنه ملك.

و فيه، أيضا عن أبي بصير عنه ((ع)) قال: كان على محدثا و كان سلمان محدثا، قال: قلت: فما آيه المحدث؟ قال: يأتيه الملك فينكت في قلبه كيت و كيت

٢٢٠ و فيه، عن حمran بن أعين قال: أخبرني أبو جعفر (ع): أن عليا كان محدثا فقال أصحابنا: ما صنعت شيئا إلا - سألته من يحدثه؟ فقصى أنى لقيت أبا جعفر فقلت: أ لست أخبرتنى: أن عليا كان محدثا؟ قال: بلى قلت: من كان يحدثه؟ قال: ملك، قلت: فأقول: إنه نبي أو رسول؟ قال: لا - بل قل مثله مثل صاحب سليمان و صاحب موسى، و مثله مثل ذى القرنين، أما ما سمعت أن عليا سئل عن ذى القرنين أن نبيا كان؟ قال لا و لكن كان عبدا أحب الله فأحبه، و ناصح الله فنصحه فهذا مثله.

أقول: و الروايات فى معنى المحدث عن أئمه أهل البيت كثيره جدا رواها فى البصائر و الكافى و الكنز و الاختصاص و غيرها، و يوجد فى روايات أهل السنه أيضا.

و أما الفرق الوارد فى الأخبار المذكوره بين النبى و الرسول و المحدث فقد مر الكلام فى الفرق بين الرسول و النبى، و أن الوحي بمعنى تكليم الله سبحانه لعبده، فهو يوجب العلم اليقيني بنفس ذاته من غير حاجه إلى حجه، فمثله فى الإلقاءات الإلهيه مثل العلوم البديهيه التى لا تحتاج فى حصولها للإنسان إلى سبب تصديقى كالتقياس و نحوه.

و أما المنام فالروايات كما ترى تفسره بمعنى غير المعنى المعهود منه أعنى الرؤيا يراها الإنسان فى النوم العادى العارض له فى يومه و ليلته بل هو حال يشبه الإغماء تسكن فيه حواس الإنسان النبى فيشاهد عند ذلك نظير ما نشاهده فى اليقظه ثم يسدده الله سبحانه بإفاضته على نفسه اليقين بأنه من جانب الله سبحانه لا من تصرف الشيطان.

و أما التحديث فهو سماع صوت الملك غير أنه بسمع القلب دون سماع الحس، و ليس من قبيل الخطور الذهنى الذى لا يسمى سمع صوت إلا بنحو من المجاز البعيد، و لذلك ترى أن الروايات تجمع فيه بين سماع الصوت و النكت فى القلب، و تسميه مع ذلك تحديثا و تكلما فالمحدث يسمع صوت الملك فى تحديثه و يعيه بسمعه نظير

ما نسمعه و يسمعه من الكلام المعتاد و الأصوات المسموعه فى عالم ماده غير أنه لا يشاركه فى ما يسمعه من كلام الملك غيره، و لذا كان أمرا قليلا.

و أما علمه بأن ما حدث به من كلام الملك لا من نزغه الشيطان فذلك بتأييد من الله سبحانه و تسديد كما يشير إليه ما فى روايه محمد بن مسلم المتقدمه: أنه يعطى السكينه و الوقار حتى يعلم أنه ملك، و ذلك أن النزغه الشيطانيه إما باطل فى صورته الباطله عند الإنسان المؤمن فظاهر أنه ليس من حديث الملائكه المكرمين الذين لا يعصون الله، و إما باطل فى صورته حق و سيستتبع باطلا فالنور الإلهى الذى يلازم العبد المؤمن يبين حاله، قال تعالى: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ» الأنعام-١٢٢، و النزغه و الوسوسه مع ذلك كله لا تخلو عن اضطراب فى النفس و تزلزل فى القلب كما أن ذكر الله و حديثه لا ينفك عن الوقار و طمأنينه الباطن، قال تعالى: «ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ» آل عمران-١٧٥، و قال: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» الرعد-٢٨، و قال: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» الأعراف-٢٠١، فالسكينه و الطمأنينه عند ما يلقى إلى الإنسان من حديث أو خاطر دليل كونه إلقاء رحمانيا كما أن الاضطراب و القلق دليل على كونه إلقاء شيطانا و يلحق بذلك العجله و الجزع و الخفه و نحوها.

و أما ما فى الروايات من أن المحدث يسمع الصوت و لا يعاين الملك فمحمول على الجبهه دون التمانع بين المعنيين بمعنى أن الملاك فى كون الإنسان محدثا أن يسمع الصوت من غير لزوم الرؤيه فإن اتفق أن شاهد الملك حين ما يسمع الصوت فليس ذلك لأنه محدث و ذلك لأن الآيات صريحه فى رؤيه بعض المحدثين للملائكه حين التحديث كقوله تعالى فى مريم: «فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا» Xآيات X: مريم-١٩، و قوله تعالى فى زوجه إبراهيم فى قصه البشاره: «وَ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ -X إلى أن قال X-: وَ امْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَ مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ: هود-٧٣.

و هاهنا وجه آخر: و هو أن يكون المراد بالمعانيه المنفيه معانيه حقيقه الملك في نفسه دون مثاله الذى يتمثل به فإن الآيات لا تثبت أزيد من معانيه المثال كما هو ظاهر.

و هاهنا وجه آخر ثالث احتمله بعضهم و هو أن المنفى من المعانيه الوحى التشريعى بأن يظهر للمحدث فيلقى إليه حكما شرعيا و ذلك صون من الله لمقام المشرعين من أنبيائه و رسله و لا يخلو عن بعد.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٦١ الى ٦٣]

اشاره

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)

بيان

قوله تعالى: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ، الفاء للتفريع، و هو تفريع المباهله على التعليم الإلهى بالبيان البالغ فى أمر عيسى بن مريم (ع) مع ما أكده فى ختمه بقوله: الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. و الضمير فى قوله: فِيهِ راجع إلى عيسى أو إلى الحق المذكور فى الآيه السابقه.

و قد كان البيان السابق منه تعالى مع كونه بيانا إلهيا لا يرتاب فيه مشتملا على البرهان الساطع الذى يدل عليه قوله: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ الْآيَةَ، فالعلم الحاصل فيه علم من جهه البرهان أيضا، و لذلك كان يشمل أثره رسول الله ص و غيره من كل سامع فلو فرض تردد من نفس السامع المحاج من جهه كون البيان وحيا إلهيا لم يجز الارتياب فيه من جهه كونه برهانا يناله العقل السليم، و لعله لذلك قيل: من

بعد ما جاءك من العلم و لم يقل: من بعد ما بيناه لهم.

و هاهنا نكته أخرى و هى أن فى تذكيره (ص) بالعلم تطيبيا لنفسه الشريفه أنه غالب بإذن الله، و أن ربه ناصره و غير خاذله البته.

قوله تعالى: فَفَعَلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ، المتكلم مع الغير فى قوله: نَدْعُ، غيره فى قوله: أَبْنَاءَنَا وَ نِسَاءَنَا وَ أَنْفُسَنَا فإنه فى الأول مجموع المتخاصمين من جانب الإسلام و النصرانيه، و فى الثانى و ما يلحق به من جانب الإسلام، و لذا كان الكلام فى معنى قولنا: ندع الأبناء و النساء و الأنفس فدعوا نحن أبناءنا و نساءنا و أنفسنا و تدعون أنتم أبناءكم و نساءكم و أنفسكم، ففى الكلام إيجاز لطيف.

و المباهله و الملاعنه و إن كانت بحسب الظاهر كالمحاجه بين رسول الله و بين رجال النصارى لكن عممت الدعوه للأبناء و النساء ليكون أدل على اطمينان الداعى بصدق دعواه و كونه على الحق لما أودعه الله سبحانه فى قلب الإنسان من محبتهم و الشفقه عليهم فتراه يقيههم بنفسه، و يركب الأهوال و المخاطرات دونهم، و فى سبيل حمايتهم و غيره عليهم و الذب عنهم، و لذلك بعينه قدم الأبناء على النساء لأن محبه الإنسان بالنسبه إليهم أشد و أدوم.

و من هنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسرين: أن المراد بقوله: نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ «إلخ» ندع نحن أبناءكم و نساءكم و أنفسكم، و تدعوا أنتم أبناءنا و نساءنا و أنفسنا. و ذلك لإبطاله ما ذكرناه من وجه تشريك الأبناء و النساء فى المباهله.

و فى تفصيل التعداد دلالة أخرى على اعتماد الداعى و ركونه إلى الحق، كأنه يقول: لياهل الجمع الجمع فيجعل الجمعان لعنه الله على الكاذبين حتى يشمل اللعن و العذاب الأبناء و النساء و الأنفس فينقطع بذلك دابر المعاندين، و ينبت أصل المبطلين.

و بذلك يظهر أن الكلام لا يتوقف فى صدقه على كثره الأبناء و لا على كثره النساء و لا على كثره الأنفس فإن المقصود الأخير أن يهلك أحد الطرفين بمن عنده من صغير و كبير، و ذكور و إناث، و قد أطبق المفسرون و اتفقت الروايه و أيده التاريخ: أن رسول الله ص حضر للمباهله و لم يحضر معه إلا على و فاطمه و الحسنان (ع) فلم يحضر لها إلا نفسان و ابنان و امرأه واحده و قد امثل أمر الله سبحانه فيها.

على أن المراد من لفظ الآيه أمر، و المصداق الذى ينطبق عليه الحكم بحسب

الخارج أمر آخر، وقد كثر في القرآن الحكيم أو الوعد و الوعيد للجماعه، و مصداقه بحسب شأن النزول واحد كقوله تعالى: «الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ» X الآيه X:المجادله-٢، و قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا»:المجادله-٣، و قوله تعالى: «لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ»: آل عمران-١٨١، و قوله تعالى: «وَ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ»:البقره-٢١٩، إلى غير ذلك من الآيات الكثيره التي وردت بلفظ الجمع و مصداقها بحسب شأن النزول مفرد.

قوله تعالى: ثُمَّ نَبَّهَلُ فَتَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ، -الابتهال- من البهله بالفتح و الضم و هى اللعنه، هذا أصله ثم كثر استعماله فى الدعاء و المسأله إذا كان مع إصرار و إلحاح.

و قوله: فَتَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ، كالبيان للابتهال، و قد قيل: فتجعل، و لم يقل، فنسأل إشاره إلى كونها دعوه غير مردوده حيث يمتاز بها الحق من الباطل على طريق التوقف و الابتناء.

و قوله: الْكَاذِبِينَ مسوق سوق العهد دون الاستغراق أو الجنس إذ ليس المراد جعل اللعنه على كل كاذب أو على جنس الكاذب بل على الكاذبين الواقعين فى أحد طرفى المحاجه الواقعه بينه(ص) و بين النصارى حيث

قال(ص): إن الله لا إله غيره و إن عيسى عبده و رسوله، و قالوا: إن عيسى هو الله أو إنه ابن الله-أو إن الله ثالث ثلاثه.

و على هذا فمن الواضح أن لو كانت الدعوى و المباهله عليها بين النبى ص و بين النصارى أعنى كون أحد الطرفين مفردا و الطرف الآخر جمعا كان من الواجب التعبير عنه بلفظ يقبل الانطباق على المفرد و الجمع معا كقولنا: فنجعل لعنه الله على من كان كاذبا فالكلام يدل على تحقق كاذبين بوصف الجمع فى أحد طرفى المحاجه و المباهله على أى حال: إما فى جانب النبى ص و إما فى جانب النصارى، و هذا يعطى أن يكون الحاضرون للمباهله شركاء فى الدعوى فإن الكذب لا يكون إلا فى دعوى فلمن حضر مع رسول الله ص، و هم على و فاطمه و الحسنان(ع) شركه فى الدعوى و الدعوه مع رسول الله ص و هذا من أفضل المناقب التى خص الله به أهل

بيت نبيه(ع) كما خصهم باسم الأنفس و النساء و الأبناء لرسوله(ص) من بين رجال الأمه و نسائهم و أبنائهم.

فإن قلت: قد مر أن القرآن يكثر إطلاق لفظ الجمع في مورد المفرد و أن إطلاق النساء في الآيه مع كون من حضرت منهن للمباهله منحصره في فاطمه(ع) فما المانع من تصحيح استعمال لفظ الكاذبين بهذا النحو؟.

قلت: إن بين المقامين فارقا و هو أن إطلاق الآيات لفظ الجمع في مورد المفرد إنما هو لكون الحقيقه التي تبينها أمرا جائز التحقق من كثيرين يقضى ذلك بلحوقهم بمورد الآيه في الحكم، و أما فيما لا يجوز ذلك لكون مورد الآيه مما لا يتعداه الحكم، و لا يشمل غيره الوصف فلا ريب في عدم جوازه نظير قوله تعالى: «وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ»: الأحزاب-٣٧ و قوله تعالى: «لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ»: النحل-١٠٣ و قوله تعالى: «إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ -X إلى أن قال X:

وَ أَمْرَاهُ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبْتُ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ»: الأحزاب-٥٠.

و أمر المباهله في الآيه مما لا يتعدى مورده و هو مباهله النبي مع النصارى فلو لم يتحقق في المورد مدعون بوصف الجمع في كلا الطرفين لم يستقم قوله: الكاذبين بصيغه الجمع البته.

فإن قلت: كما أن النصارى الوافدين على رسول الله ص أصحاب دعوى و هي أن المسيح هو الله أو ابن الله أو هو ثالث ثلاثه من غير فرق بينهم أصلا و لا بين نسائهم و بين رجالهم في ذلك كذلك الدعوى التي كانت في جانب رسول الله ص و هي أن الله لا- إله إلا- هو و أن عيسى بن مريم عبده و رسوله كان القائمون بها جميع المؤمنين من غير اختصاص فيه بأحد من بينهم حتى بالنبي ص فلا يكون لمن أحضره فضل على غيره غير أن النبي ص أحضر من أحضر منهم على سبيل الأنموذج لما اشتملت عليه الآيه من الأبناء و النساء و الأنفس، على أن الدعوى غير الدعوه و قد ذكرت أنهم شركاء في الدعوه.

قلت: لو كان إتيانه بمن أتى به على سبيل الأنموذج لكان من اللازم أن يحضر على الأقل رجلين و نسوه و أبناء ثلاثة فليس الإتيان بمن أتى به إلا للانحصار و هو المصحح لصدق الامتثال بمعنى أنه لم يجد من يمثل في الإتيان به أمره تعالى إلا من أتى و هو رجل و امرأه و ابنان.

و إنك لو تأملت القصة وجدت أن وفد نجران من النصارى إنما وفدوا على المدينة ليعارضوا رسول الله ص و يحاجوه في أمر عيسى بن مريم فإن دعوى أنه عبد الله و رسوله إنما كانت قائمه به مستنده إلى الوحي الذي كان يدعيه لنفسه، و أما الذين اتبعوه من المؤمنين فما كان للنصارى بهم شغل و لا لهم في لقائهم هوى كما يدل على ذلك قوله تعالى في صدر الآيه: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ، و كذا قوله تعالى- قبل عدة آيات-: فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ .

و من هنا يظهر: أن إتيان رسول الله ص بمن أتى به للمباهله لم يكن إتيانا بنحو الأنموذج إذ لا نصيب للمؤمنين من حيث مجرد إيمانهم في هذه المحاجه و المباهله حتى يعرضوا للعن و العذاب المتردد بينهم و بين خصمهم، و إنما أتى (ص) بمن أتى به من جهه أنه (ص) كان طرف المحاجه و المداعاه فكان من حقه أن يعرض نفسه للبلاء المترقب على تقدير الكذب فلو لا أن الدعوى كانت قائمه بمن أتى به منهم كقيامها بنفسه الشريف لم يكن لإتيانه بهم وجه إتيانه بهم من جهه انحصار من هو قائم بدعواه من الأبناء و النساء و الأنفس بهم لا من جهه الإتيان بالأنموذج فقد صح أن الدعوى كانت قائمه بهم كما كانت قائمه به.

ثم إن النصارى إنما قصدوه (ص) لا لمجرد أنه كان يرى أن عيسى بن مريم (ع) عبد الله و رسوله و يعتقد ذلك بل لأنه كان يدعيه و يدعوهم إليه فالدعوه هى السبب العمده التى بعثهم على الوفود و المحاجه فحضوره و حضور من حضر معه للمباهله لمكان الدعوى و الدعوه معا فقد كانوا شركاءه فى الدعوه الدينيه كما شاركوه فى الدعوى كما ذكرناه.

فإن قلت: هب أن إتيانه بهم لكونهم منه، و انحصار هذا الوصف بهم لكن الظاهر- كما تعطيه العاده الجاربه- أن إحضار الإنسان أجباه و أفلاذ كبده من النساء و الصبيان فى المخاطر و المهاول دليل على وثوقه بالسلامه و العافيه و الوقايه فلا يدل إتيانه

(ص) بهم على أزيد من ذلك و أما كونهم شركاء في الدعوه فهو بمعزل عن أن يدل عليه فعله.

قلت: نعم صدر الآيه لا يدل على أزيد مما ذكر لكنك قد عرفت أن ذيلها أعنى قوله: **عَلَى الْكَاذِبِينَ**، يدل على تحقق كاذبين في أحد طرفي المحاجه و المباهله البته، و لا يتم ذلك إلا بأن يكون في كل واحد من الطرفين جماعه صاحبه دعوى إما صادقه أو كاذبه فالذين أتى بهم النبي ص مشاركون معه في الدعوى و في الدعوه كما تقدم فقد ثبت أن الحاضرين كانوا بأجمعهم صاحبي دعوى و دعوه معه (ص)، و شركاء في ذلك.

فإن قلت: لازم ما ذكرته كونهم شركاء في النبوه.

قلت: كلا فقد تبين (١) فيما أسلفناه من مباحث النبوه أن الدعوه و التبليغ ليسا بعين النبوه و البعثه و إن كانا من شئونها و لوازمها، و من المناصب و المقامات الإلهيه التي يتقلدها، و كذا تبين مما تقدم (٢) من مبحث الإمامه أيضا أنهما ليسا بعين الإمامه و إن كانا من لوازمها بوجه.

قوله تعالى: **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصِيُّ صُ الْحَقُّ وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ**، هذا إشاره إلى ما تقدم من قصص عيسى (ع)، و الكلام مشتمل على قصر القلب أى ما قصصناه هو الحق دون ما تدعيه النصارى من أمر عيسى.

و فى الإتيان بـان و اللام و ضمير الفصل تأكيد بالغ لتطبيب نفس رسول الله ص و تشجيعه فى أمر المباهله بإيقاظ صفه يقينه و بصيرته و وثوقه بالوحى الذى أنزله الله سبحانه إليه، و يتعقبه التأكيد الثانى بإيراد الحقيقه بلازمها و هو قوله: **وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ** فإن هذه الجملة لازمه كون القصص المذكور حقا.

قوله تعالى: **وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** معطوف على أول الآيه، و هو بما فيه من التأكيد البالغ تطيب آخر و تشجيع لنفس النبي ص إن الله لا يعجز عن نصره

ص: ٢٢٧

١- ١) فى تفسير آيه ٢١٣ من سوره البقره من المجلد الثانى.

٢- ٢) فى تفسير آيه ١٢٤ من سوره البقره من المجلد الأول.

الحق و تأييده، و لا- أنه يغفل أو يلهو عن ذلك ياهمال أو جهل فإنه هو العزيز (فلا- يعجز عما أراده) الحكيم (فلا- يجهل و لا يهمل) لا ما عملته أو هام خصماء الحق من إله غير الله سبحانه.

و من هنا يظهر وجه الآيتان بالاسمين: الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، و أن الكلام مسوق لقصر القلب أو الأفراد.

□
قوله تعالى: فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ، لما كان الغرض من المحاجه و كذا المباهله بحسب الحقيقه هو إظهار الحق لم يكن يعقل التولى عن الطريق لمريد الغرض و المقصد فلو كانوا أرادوا بذلك إظهار الحق و هم يعلمون أن الله سبحانه ولى الحق لا يرضى بزهوره و دحوضه لم يتولوا عنها فإن تولوا فإنما هو لكونهم لا يريدون بالمحاجه ظهور الحق بل الغلبه الظاهريه و الاحتفاظ على ما فى أيديهم من حاضر الوضع، و السنه التى استحكمت عليه عادتهم، فهم إنما يريدون ما تزينه لهم أهواؤهم و هوساتهم من شكل الحياه، لا الحياه الصالحه التى تنطبق على الحق و السعاده فهم لا يريدون إصلاحا بل إفساد الدنيا بإفساد الحياه السعيده فإن تولوا فإنما هو لأنهم مفسدون.

و من هنا يظهر أن الجزاء وضع فيه السبب مكان المسبب أعنى الإفساد مكان عدم إرادته ظهور الحق.

و قد ضمن الجزاء وصف العلم حيث قيل فإن الله عليم ثم أكد بان ليدل على أن هذه الصفه متحققه فى نفوسهم ناشبه فى قلوبهم فيشعر بأنهم سيتولون عن المباهله لا محاله، و قد فعلوا و صدقوا قول الله بفعلهم.

بحث روائى [المباهله مع نصارى نجران]

فى تفسير القمى، عن الصادق (ع): أن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله ص، و كان سيدهم الأهمم و العاقب و السيد، و حضرت صلاتهم فأقبلوا يضربون الناقوس و صلوا، فقال أصحاب رسول الله: يا رسول الله هذا فى مسجدك؟ فقال دعوهم فلما فرغوا دنوا من رسول الله- فقالوا إلى ما تدعو؟ فقال: إلى شهاده أن لا إله إلا الله، و أنى رسول الله، و أن عيسى عبد مخلوق يأكل و يشرب و يحدث، قالوا: فمن

أبوه؟ فنزل الوحي على رسول الله ص فقال: قل لهم: ما تقولون في آدم، أ كان عبدا مخلوقا يأكل ويشرب ويحدث و ينكح؟ فسألهم النبي، فقالوا نعم: قال فمن أبوه؟ فيهتوا فأنزل الله: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ الْآيَةَ، وقوله: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ - إلى قوله: فَجَعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ - فقال رسول الله: فباهلوني فإن كنت صادقا أنزلت اللعنة عليكم، وإن كنت كاذبا أنزلت على فقالوا أنصفت - فتواعدوا للمباهلة فلما رجعوا إلى منازلهم - قال رؤسأؤهم السيد و العاقب و الأهتم - إن باهلنا بقومه باهلناه فإنه ليس نبياً، وإن باهلنا بأهل بيته خاصة لم نباهله - فإنه لا يقدم إلى أهل بيته إلا وهو صادق - فلما أصبحوا جاءوا إلى رسول الله ص - و معه أمير المؤمنين و فاطمه و الحسن و الحسين (ع) فقال النصراني: من هؤلاء؟ فقيل لهم هذا ابن عمه و وصيه و ختنه علي بن أبي طالب، و هذا ابنته فاطمه، و هذا ابناه الحسن و الحسين ففرقوا - فقالوا لرسول الله ص نعطيك الرضا فاعفنا من المباهله - فصالحهم رسول الله ص على الجزية و انصرفوا.

و في العيون، بإسناده عن الريان بن الصلت عن الرضا (ع): في حديثه مع المأمون و العلماء في الفرق بين العترة و الأمة، و فضل العترة على الأمة، و فيه قالت العلماء: هل فسر الله الاصطفاء في كتابه؟ فقال الرضا (ع): فسر الاصطفاء في الظاهر سوى الباطن في اثني عشر موضعا - و ذكر المواضع من القرآن، و قال فيها: و أما الثالثة حين ميز الله الطاهرين من خلقه، و أمر نبيه بالمباهلة بهم في آية الاتيهال فقال عز و جل - فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ - فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ - وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ، قالت العلماء: عنى به نفسه، قال أبو الحسن: غلطتم إنما عنى به علي بن أبي طالب، و مما يدل على ذلك قول النبي: لينتهين بنو وليعه أو لأبعثن إليهم رجلا - كنفسي - يعنى علي بن أبي طالب، و عنى بالأبناء الحسن و الحسين، و عنى بالنساء فاطمه - فهذه خصوصيه لا يتقدمهم فيها أحد، و فضل لا يلحقهم فيه بشر، و شرف لا يسبقهم إليه خلق إذ جعل نفس علي كنفسه، الحديث.

و عنه، بإسناده إلى موسى بن جعفر (ع): في حديث له مع الرشيد، قال الرشيد له: كيف قلت إن ذرية النبي، و النبي لم يعقب، و إنما العقب للذكر لا للأنثى، و أنتم ولد البنت و لا يكون له عقب. فقلت: أسأله بحق القرابه و القبر و من فيه - إلا

ما أعفاني عن هذه المسأله، فقال: تخبرني بحجتكم فيه يا ولد علي- و أنت يا موسى يعسوبهم و إمام زمانهم، كذا أنهى إلى، و لست أعفيك في كل ما أسألك عنه- حتى تأتيني فيه بحجه من كتاب الله، و أنتم تدعون معشر ولد-علي أنه لا يسقط عنكم منه شيء- لا- ألف و لا- واو إلا- تأويله عندكم، و احتججتكم بقوله عز و جل: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾، و قد استغثتكم عن رأى العلماء و قياسهم-.

فقلت: تأذن لي في الجواب؟ فقال: هات، قلت: أعود بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم- و من ذريته داود و سليمان و أيوب و يوسف و موسى و هارون- و كذلك نجزي المحسنين و زكريا و يحيى و عيسى و إلياس، من أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟ فقال: ليس له أب فقلت: إنما ألحقه بذراري الأنبياء من طريق مريم، و كذلك ألحقنا الله تعالى بذراري النبي من أمنا فاطمه، أزيدك يا أمير المؤمنين؟ قال: هات، قلت:

قول الله عز و جل، ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَغِيدٍ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ- ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾، و لم يدع أحد أنه أدخل النبي تحت الكساء- عند المبالهه مع النصارى- إلا على بن أبى طالب و فاطمه و الحسن و الحسين- فكان تأويل قوله أبناءنا الحسن و الحسين، و نساءنا فاطمه و أنفسنا على بن أبى طالب

: و فى سؤالات المأمون عن الرضا(ع): قال المأمون: ما الدليل على خلافه جدك على بن أبى طالب؟ قال: آيه أنفسنا قال: لو لا نساءنا قال لو لا أبناءنا.

أقول: قوله: آيه أنفسنا يريد أن الله جعل نفس على كنف نبيه ص و قوله:

لو لا- نساءنا معناه: أن كلمه نساءنا فى الآيه دليل على أن المراد بالأنفس الرجال فلا فضيله فيه حينئذ، و قوله: لو لا أبناءنا معناه أن وجود أبناءنا فيها يدل على خلافه فإن المراد بالأنفس لو كان هو الرجال لم يكن مورد لذكر الأبناء.

و فى تفسير العياشى، بإسناده عن حريز عن أبى عبد الله(ع)، قال: إن أمير المؤمنين(ع) سئل عن فضائله- فذكر بعضها ثم قالوا له زدنا فقال- إن رسول الله ص أتاه حبران من أحبار النصارى من أهل نجران- فتكلما فى أمر عيسى فأنزل الله هذه الآيه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ﴾- فدخل رسول الله

فأخذ بيد علي و الحسن و الحسين و فاطمه- ثم خرج و رفع كفه إلى السماء، و فرج بين أصابعه، و دعاهم إلى المباهله، قال: و قال أبو جعفر (ع)- و كذلك المباهله يشبك يده في يده يرفعهما إلى السماء- فلما رآه الحبران قال أحدهما لصاحبه: و الله لئن كان نبيا لنهلكن- و إن كان غير نبي كفانا قومه فكفا و انصرفا.

أقول: و هذا المعنى أو ما يقرب منه مروى في روايات أخر من طرق الشيعة و في جميعها أن الذين أتى بهم النبي ص للمباهله هم علي و فاطمه و الحسنان فقد رواه الشيخ في أماليه، بإسناده عن عامر بن سعد عن أبيه، و رواه أيضا فيه، بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن الصادق (ع)، و رواه فيه، أيضا بإسناده عن سالم بن أبي الجعد يرفعه إلى أبي ذر رضوان الله عليه، و رواه أيضا فيه، بإسناده عن ربيعة بن ناجد عن علي (ع)، و رواه المفيد في كتاب الاختصاص، بإسناده عن محمد بن الزبرقان عن موسى بن جعفر (ع)، و رواه أيضا فيه، عن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جده، و رواه العياشى في تفسيره، عن محمد بن سعيد الأردني عن موسى بن محمد بن الرضا عن أخيه، و رواه أيضا عن أبي جعفر الأ-حول عن الصادق (ع) و رواه أيضا فيه، في روايه أخرى عن الأ-حول عنه (ع)، و عن المنذر عن علي (ع)، و رواه أيضا فيه، بإسناده عن عامر بن سعد، و رواه الفرات في تفسيره، معنعنا عن أبي جعفر و عن أبي رافع و الشعبي و علي (ع) و شهر بن حوشب، و رواه في روضه الواعظين، و في إعلام الورى، و في الخرائج، و غيرها.

و في تفسير الثعلبي، عن مجاهد و الكلبي: أنه (ص) لما دعاهم إلى المباهله قالوا: حتى نرجع و ننظر فلما تخالوا قالوا للعاقب- و كان ذا رأيهم- يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: و الله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدا نبى مرسل، و لقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، و الله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم، و لا نبت صغيرهم و لئن فعلتم لنهلكن- فإن أبيتكم إلا ألف دينكم، و الإقامة على ما أنتم عليه- فوادعوا الرجل و انصرفوا إلى بلادكم-.

فأتوا رسول الله و قد غدا محتضنا بالحسين- آخذا بيد الحسن و فاطمه تمشى خلفه، و علي خلفها و هو يقول: إذا أنا دعوت فأمنوا، فقال أسقف نجران- يا معشر النصارى إنى لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه- لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا،

و لا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك، و أن نترك على دينك و نثبت على ديننا، قال: فإذا أبيتم المباهله فأسلموا، يكن لكم ما للمسلمين، و عليكم ما عليهم فأبوا، قال: فإنى أنا جزكم، فقالوا:

ما لنا بحرب العرب طاقه- و لكن نصالحك على أن لا تغزونا، و لا تخيفنا، و لا تردنا عن ديننا على أن نؤدى إليك كل عام ألفى حله: ألف فى صفر، و ألف فى رجب، و ثلاثين درعا عاديه من حديد فصالحهم على ذلك-.

و قال: و الذى نفسى بيده- إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران- و لو لاعنوا لمسخوا قرده و خنازير، و لاضطرم عليهم الوادى ناراً، و لاستاصل الله نجران و أهله حتى الطير على رءوس الشجر، و لما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا.

أقول: و روى القصة: قريبا منه فى كتاب المغازى، عن ابن إسحاق، و رواه أيضا المالكى فى الفصول المهمه، عن المفسرين قريبا منه، و رواه الحموى عن ابن جريح قريبا منه.

و قوله: ألف فى صفر المراد به المحرم و هو أول السنه عند العرب و قد كان يسمى صفرا فى الجاهليه فيقال صفر الأول و صفر الثانى و قد كانت العرب تنسى فى الصفر الأول ثم أقر الإسلام الحرمة فى الصفر الأول فسمى لذلك بشهر الله المحرم ثم اشتهر بالمحرم.

و فى صحيح مسلم، عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال: أمر معاويه بن أبى سفيان سعدا فقال: ما يمنعك أن تسب أبا تراب، قال أما ما ذكرت ثلاثا قالهن رسول الله ص فلن أسبه، لئن يكون لى واحده منهن أحب إلى من حمر النعم، سمعت رسول الله ص يقول حين خلفه فى بعض مغازيه فقال له على: يا رسول الله خلفتنى مع النساء و الصبيان؟ فقال له رسول الله ص: أ ما ترضى أن تكون منى بمنزله هارون من موسى- إلا أنه لا نبى بعدى؟ و سمعته يقول يوم خيبر: لأعطين الرايه غدا رجلا يحب الله و رسوله، و يحبه الله و رسوله، قال: فتناولنا لها، فقال: ادعوا لى عليا فأتى به أرمدا العين فبصق فى عينيه- و دفع الرايه إليه ففتح الله على يده. و لما نزلت هذه الآيه:- **فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ- وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهُلْ**، دعا رسول الله عليا و فاطمه و حسنا و حسينا و قال: اللهم هؤلاء أهل بيتى.

أقول: ورواه الترمذى فى صحيحه، ورواه أبو المؤيد الموفق بن أحمد فى كتاب فضائل على، ورواه أيضا أبو نعيم فى الحليه، عن عامر بن سعد عن أبيه، ورواه الحموينى فى كتاب فرائد السمطين،.

و فى حليه الأولياء، لأبى نعيم بإسناده عن عامر بن أبى وقاص عن أبيه قال: لما نزلت هذه الآية-دعا رسول الله ص عليا و فاطمه و حسنا و حسينا فقال:

اللهم هؤلاء أهل بيتى

و فيه، بإسناده عن الشعبى عن جابر قال: قدم على رسول الله ص العاقب و الطيب-فدعاهما إلى الإسلام فقالا: أسلمنا يا محمد فقال: كذبتما إن شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام فقالا: فهات إلينا، قال: حب الصليب و شرب الخمر و أكل لحم الخنزير، قال جابر: فدعاهما إلى الملا عنه-فواعدها إلى أن يفداه بالغداه-فغدا رسول الله ص و أخذ بيد على و الحسن و الحسين و فاطمه-فأرسل إليهما فأبيا أن يجيباه و أقرأ له، فقال رسول الله ص-و الذى بعثنى بالحق لو فعلا لأمطر عليهم الوادى نارا- قال جابر: فيهم نزلت: نَدُّعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ، قال جابر: أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ رسول الله و على، و أبناءنا الحسن و الحسين، و نساءنا فاطمه.

أقول: ورواه ابن المغازلى فى مناقبه، بإسناده عن الشعبى عن جابر، ورواه أيضا الحموينى فى فرائد السمطين، بإسناده عنه، ورواه المالكى فى الفصول المهمه، مرسلا عنه، ورواه أيضا عن أبى داود الطيالسى عن شعبه الشعبى مرسلا، ورواه فى الدر المنثور، عن الحاكم و صححه و عن ابن مردويه و أبى نعيم فى الدلائل، عن جابر.

و فى الدر المنثور، أخرج أبو نعيم فى الدلائل من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس": أن وفد نجران من النصارى قدموا على رسول الله ص-و هم أربعة عشر رجلا- من أشرفهم منهم السيد و هو الكبير، و العاقب و هو الذى يكون بعده و صاحب رأيهم-ثم ساق القصه نحوا مما مر

و فيه، أيضا أخرج البيهقى فى الدلائل من طريق سلمه بن عبد يشوع عن أبيه عن جده: أن رسول الله ص كتب إلى أهل نجران- قبل أن ينزل عليه طس سليمان:- بسم الله إله إبراهيم-و إسحاق و يعقوب من محمد رسول الله-إلى أسقف نجران و أهل

نجران-إن أسلمتم فإنى أحمد إليكم الله-إله إبراهيم و إسحاق و يعقوب،أما بعد فإنى أدعوكم إلى عباده الله من عباده العباد،و أدعوكم إلى ولايه من الله من ولايه العباد-فإن أبيتم فالجزيه،و إن أبيتم فقد آذنتكم بالحرب و السلام،فلما قرأ الأسقف الكتاب فضع به و ذعر ذعرا شديدا،فبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له:شرحيل بن وداعه- فدفع إليه كتاب النبي ص فقرأه،فقال له الأسقف:ما رأيك؟فقال شرحيل.

قد علمت ما وعد الله إبراهيم فى ذريه إسماعيل من النبوه-فما يؤمن أن يكون هذا الرجل؟ ليس لى فى النبوه رأى،لو كان رأى من أمر الدنيا أشرت عليك فيه،و جهدت لك، فبعث الأسقف إلى واحد بعد واحد من أهل نجران-فكلهم قالوا مثل قول شرحيل- فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا شرحيل بن وداعه،و عبد الله بن شرحيل و جبار بن فيض فيأتونهم بخبر رسول الله ص.

فانطلق الوفد حتى أتوا رسول الله ص-فسألهم و سألوه فلم نزل به و بهم المسأله حتى قالوا له:ما تقول فى عيسى بن مريم؟فقال رسول الله ص-ما عندى فيه شىء يومى هذا فأقيموا حتى أخبركم-بما يقال فى عيسى صبح الغد،فأنزل الله هذه الآيه:- **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ** -إلى قوله: **فَنَجَعَلُ لِعَنَتِ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** ، فأبوا أن يقرؤا بذلك،فلما أصبح رسول الله ص الغد بعد ما أخبرهم الخبر-أقبل مشتملا على الحسن و الحسين فى خميله له-و فاطمه تمشى خلف ظهره للملاعنه،و له يومئذ عده نسوه،فقال شرحيل لصاحبيه:إنى أرى أمرا مقبلا إن كان هذا الرجل نيبا مرسلا-فلاعناه لا يبقى على وجه الأرض منا شعر و لا- ظفر إلا-هلك-فقالا له:ما رأيك؟ فقال:رأى أن أحكمه-فإنى أرى رجلا لا يحكم شططا أبدا،فقالا له:أنت و ذلك، فتلقى شرحيل رسول الله ص فقال:إنى قد رأيت خيرا من ملاعتك،قال:

و ما هو؟قال-حكمك اليوم إلى الليل و ليلتك إلى الصباح-فمهما حكمت فينا فهو جائز، فرجع رسول الله ص و لم يلاعنهم و صالحهم على الجزيه:

و فيه،أخرج ابن جرير عن علباء بن أحمر الشكرى،قال: لما نزلت هذه الآيه، **فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ** الآيه، أرسل رسول الله ص إلى على و فاطمه و ابنيهما الحسن و الحسين،و دعا اليهود ليلاعنهم،فقال شاب من اليهود:ويحكم أ ليس عهدتم بالأمس إخوانكم-الذين مسحوا قرده و خنازير؟لا تلاعنوا فانتهاوا.

أقول: و الروايه تؤيد أن يكون الضمير فى قوله تعالى: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ ، راجعا إلى الحق فى قوله: أَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فيتم بذلك حكم المبالهه لغير خصوص عيسى بن مريم (ع)، و تكون حينئذ هذه قصه أخرى واقعه بعد قصه دعوه وفد نجران إلى المبالهه على ما تقصه الأخبار الكثيره المتظافره المنقوله أكثرها فيما تقدم.

و قال ابن طاووس فى كتاب سعد السعود، رأيت فى كتاب تفسير ما نزل من القرآن فى النبى و أهل بيته تأليف محمد بن العباس بن مروان: أنه روى خبر المبالهه من أحد و خمسين طريقا عن سماه من الصحابه و غيرهم، و عد منهم الحسن بن على (ع) و عثمان بن عفان و سعد بن أبى وقاص و بكر بن سمال و طلحه و الزبير و عبد الرحمن بن عوف و عبد الله بن عباس و أبى رافع مولى النبى و جابر بن عبد الله و البراء بن عازب و أنس بن مالك.

و روى ذلك فى المناقب، عن عده من الرواه و المفسرين و كذا السيوطى فى الدر المنثور.

و من عجيب الكلام ما ذكره بعض المفسرين حيث قال: إن الروايات متفقه على أن النبى ص اختار للمبالهه عليا و فاطمه و ولديهما، و يحملون كلمه نساءنا على فاطمه، و كلمه أنفسنا على على فقط، و مصادر هذه الروايات الشيعه، و مقصدهم منها معروف، و قد اجتهدوا فى ترويجها ما استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنه، و لكن واضعيها لم يحسنوا تطبيقها على الآيه فإن كلمه نساءنا لا يقولها العربى و يريد بها بنته لا سيما إذا كان له أزواج و لا يفهم هذا من لغتهم. و أبعد من ذلك أن يراد بأنفسنا على، ثم إن وفد نجران الذين قالوا: إن الآيه نزلت فيهم لم يكن معهم نساؤهم و أولادهم، و كل ما يفهم من الآيه أمر النبى ص إن يدعوا المحاجين و المجادلين فى عيسى من أهل الكتاب إلى الاجتماع رجالا و نساء و أطفالا و يجمع هو المؤمنون رجالا و نساء و أطفالا، و يبتهلون إلى الله تعالى بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى.

و هذا الطلب يدل على قوه يقين صاحبه، و ثقته بما يقول كما يدل امتناع من دعوا إلى ذلك من أهل الكتاب سواء كانوا نصارى نجران أو غيرهم على امترانهم فى حجاجهم و مما رأتهم فيما يقولون و زلزالهم فيما يعتقدون، و كونهم على غير بينه و لا يقين، و إنى لمن يؤمن بالله أن يرضى بأن يجتمع هذا الجمع من الناس المحققين و المبطلين فى

صعيد واحد متوجهين إلى الله في طلب لعنه و إبعاده من رحمته و أى جرأه على الله و استهزاء بقدرته و عظمته أقوى من هذا؟.

قال: أما كون النبي ص و المؤمنين كانوا على يقين مما يعتقدون في عيسى (ع) فحسبنا في بيانه قوله تعالى: مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ، فالعلم في هذه المسائل الاعتقادية لا يراد به إلا اليقين، و في قوله: نَدُّعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ «إلخ» وجهان:

أحدهما: أن كل فريق يدعو الآخر فأنتم تدعون أبناءنا، و نحن ندعو أبناءكم، و هكذا الباقي.

و ثانيهما: أن كل فريق يدعو أهله فنحن المسلمون ندعو أبناءنا و نساءنا و أنفسنا، و أنتم كذلك.

و لا- إشكال في وجه من وجهى التوزيع في دعوه الأنفس، و إنما الإشكال فيه على قول الشيعة، و من شايعهم على القول بالتخصيص، انتهى.

أقول: و هذا الكلام- و أحسب أن الناظر فيه يكاد يتهمنا في نسبته إلى مثله، و اللبيب لا يرضى بإيداعه و أمثاله في الزبر العلمية- إنما أوردناه على وهنه و سقوطه ليعلم أن النزعه و العصبية إلى أين يورد صاحبه من سقوط الفهم و رداء النظر فيهدم كل ما بنى عليه و يبني كل ما هدمه و لا يبالي، و لأن الشر يجب أن يعلم ليجنب عنه.

و الكلام في مقامين أحدهما: دلالة الآية على أفضلية على (ع)، و هو بحث كلامى خارج عن الغرض الموضوع له هذا الكتاب، و هو النظر في معانى الآيات القرآنية.

و ثانيهما: البحث عما ذكره هذا القائل من حيث تعلقه بمدلول آيه المباهله، و الروايات الواردة في ما جرى بين النبي ص و بين وفد نجران، و هذا بحث تفسيري داخل في غرضنا.

و قد عرفت ما تدل عليه الآية، و أن الذى نقلناه من الأخبار المتكثرة المتظافره هو الذى يطابق مدلول الآية، و بالتأمل في ذلك يتضح وجوه الفساد في هذه الحججه المختلفه و النظر الواهى الذى لا يرجع إلى محصل، و هاك تفصيلها:

منها: أن قوله: و مصادر هذه الروايات الشيعة- إلى قوله: و قد اجتهدوا في

ترويجهما ما استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنه، بعد قوله: إن الروايات متفقه، لبت شعري أى روايات يعنى بهذا القول؟ أ مراده هذه الروايات المتظافره التى أجمعت على نقلها و عدم طرحها المحدثون، و ليست بالواحدة و الاثنتين و الثلاث أطبق على نقلها و تلقيها بالقبول أهل الحديث، و أثبتها أرباب الجوامع فى جوامعهم، و منهم مسلم فى صحيحه و الترمذى فى صحيحه و أيدها أهل التاريخ.

ثم أطبق المفسرون على إيرادها و إيداعها فى تفاسيرهم من غير اعتراض أو ارتياب، و فيهم جمع من أهل الحديث و التاريخ كالطبرى و أبى الفداء بن كثير و السيوطى و غيرهم ثم من الذى يعنيه من الشيعة المصادر لهذه الروايات؟ أ يريد بهم الذين تنتهى إليهم سلاسل الأسناد فى الروايات أعنى سعد بن أبى وقاص و جابر بن عبد الله و عبد الله بن عباس و غيرهم من الصحابه؟ أو التابعين الذين نقلوا عنهم بالأخذ و الروايه كأبى صالح و الكلبي و السدى و الشعبى و غيرهم، و أنهم تشيعوا لنقلهم ما لا يرتضيه بهواه فهؤلاء و أمثالهم و نظراؤهم هم الوسائط فى نقل السنه، و مع رفضهم لا تبقى سنه مذكوره و لا سيره مأثوره، و كيف يسع لمسلم أو باحث حتى ممن لا ينتحل بالإسلام أن يبطل السنه ثم يروم أن يطلع على تفاصيل ما جاء به النبى ص من تعليم و تشريع و القرآن ناطق بحجيه قول النبى ص و سيرته، و ناطق ببقاء الدين على حيوته، و لو جاز بطلان السنه من رأس لم يبق للقرآن أثر و لا لإنزاله ثمر.

أو أنه يريد أن الشيعة دسوا هذه الأحاديث فى جوامع الحديث و كتب التاريخ، فيعود محذور سقوط السنه، و بطلان الشريعة بل يكون البلوى أعم و الفساد أتم.

و منها: قوله: و يحملون كلمه نِسَاءٌ عَلَى فاطمه، و كلمه أَنْفُسِنَا عَلَى عَلَى فقط، مراده به أنهم يقولون بأن كلمه نِسَاءٌ نَأْأُطَلَقَتْ و أريدت بها فاطمه و كذا المراد بكلمه أَنْفُسِنَا عَلَى فقط، و كأنه فهمه مما يشتمل عليه بعض الروايات السابقه: قال جابر:

نِسَاءٌ نَأْأُطَلَقَتْ

فاطمه و أَنْفُسِنَا عَلَى الخبر، و قد أساء الفهم فليس المراد فى الآيه بلفظ نِسَاءٌ فاطمه، و بلفظ أَنْفُسِنَا عَلَى بل المراد أنه (ص) إذ لم يأت فى مقام الامتثال إلا بها و به كشف ذلك أنها هى المصداق الفرد لنسائنا، و أنه هو المصداق الوحيد لأنفسنا و أنهما مصداق أبنائنا، و كان المراد بالأبناء و النساء و الأنفس فى الآيه هو الأهل فهم

أهل بيت رسول الله و خاصته كما ورد في بعض الروايات بعد ذكر إتيانه (ص) بهم

إنه قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فإن معنى الجملة أنى لم أجد من أدعوه غير هؤلاء.

و يدل على ما ذكرناه من المراد ما وقع في بعض الروايات: أَنْفُسِنَا وَ أَنْفُسِكُمْ رسول الله و على، فإن اللفظ صريح في أن المقصود بيان المصداق دون معنى اللفظ.

و منها: قوله: و لكن واضعيها لم يحسنوا تطبيقها على الآية فإن كلمه نِسَاءَنَا لا يقولها العربى و يريد بها بنته لا سيما إذا كان له أزواج و لا يفهم هذا من لغتهم، و أبعد من ذلك أن يراد بأنفسنا على، و هذا المعنى العجيب الذى توهمه هو الذى أوجب أن يطرح هذه الروايات على كثرتها ثم يطعن على روايتها و كل من تلقاها بالقبول، و يرميهم بما ذكره و قد كان من الواجب عليه أن يتنبه لموقفه من تفسير الكتاب، و يذكر هؤلاء الجم الغفير من أئمة البلاغه و أساتيد البيان، و قد أوردوها فى تفسيرهم و سائر مؤلفاتهم من غير أى تردد أو اعتراض.

فهذا صاحب الكشاف - و هو الذى ربما خطأ أئمة القراءه فى قراءتهم - يقول فى ذيل تفسير الآية: و فيه دليل لا شىء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء (ع) و فيه برهان واضح على صحه نبوه النبى ص لأنه لم يرو أحد من موافق و لا مخالف: أنهم أجابوا إلى ذلك، انتهى.

فكيف خفى على هؤلاء العظماء أبطال البلاغه و فرسان الأدب أن هذه الأخبار على كثرتها و تكررها فى جوامع الحديث تنسب إلى القرآن أنه يغلط فى بيانه فيطلق النساء (و هو جمع) فى مورد نفس واحده؟.

لا - و عمري، و إنما التبس الأمر على هذا القائل و اشتبه عنده المفهوم بالمصداق فتوهم: أن الله عز اسمه لو قال لنبيه (ص): فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ «إلخ» و صح أن المحاجين عند نزول الآية وفد نجران و هم أربعة عشر رجلا على ما فى بعض الروايات ليس عندهم نساء و لا أبناء، و صح أيضا أن رسول الله ص خرج إلى مباحلتهم و ليس معه إلا على و فاطمه و الحسنان كان لازم ذلك أن معنى من حاج وفد نجران، و معنى نساءنا المرأه الواحده، و معنى أنفسنا النفس الواحده، و بقى نساؤكم و أبناؤكم لا معنى لهما إذ لم يكن مع

و كان عليه أن يضيف إلى ذلك لزوم استعمال الأبناء و هو جمع فى الشئيه و هو أشنع من استعمال الجمع فى المفرد فإن استعمال الجمع فى المفرد ربما وجد فى كلام المولدين و إن لم يوجد فى العربيه الأصليه إلا فى التكلم لغرض التعظيم لكن استعمال الجمع فى المثنى مما لا مجوز له أصلا.

فهذا هو الذى دعاه إلى طرح الروايات و رماها بالوضع، و ليس الأمر كما توهمه.

توضيح ذلك أن الكلام البليغ إنما يتبع فيه ما يقتضيه المقام من كشف ما يهيم كشفه فربما كان المقام مقام التخاطب بين متخاطبين أو قبيلين ينكر أو يجهل كل منهما حال صاحبه فيوضع الكلام على ما يقتضيه الطبع و العاده فيؤتى فى التعبير بما يناسب ذلك فأحد القبيلين المتخاصمين إذا أراد أن يخبر صاحبه أن الخصومه و الدفاع قائمه بجميع أشخاص قبيله من ذكور و إناث و صغير و كبير فإنما يقول: نخاصمكم أو نقاتلكم بالرجال و الطعائن و الأولاد فيضع الكلام على ما تقتضيه الطبع و العاده فإن العاده تقتضى أن يكون للقبيل من الناس نساء و أولاد و الغرض متعلق بأن يبين للخصم أنهم يد واحده على من يخاصمهم و يخاصمونه، و لو قيل: نخاصمكم أو نقاتلكم بالرجال و النساء و ابنين لنا كان إخبارا بأمر زائد على مقتضى المقام محتاجا إلى عناية زائده و تعرفا إلى الخصم لنكته زائده.

و أما عند المتعارفين و الأصدقاء و الأئخله فربما يوضع الكلام على مقتضى الطبع و العاده فيقال فى الدعوه للضيافه و الاحتفال: سنقرئكم بأنفسنا و نساتنا و أطفالنا، و ربما يترسل فى التعرف فيقال: سنخدمكم بالرجال و البنت و السبطين الصبيين، و نحو ذلك.

فللطبع و العاده و ظاهر الحال حكم، و لواقع الأمر و خارج العين حكم، و ربما يختلفان، فمن بنى كلامه على حكاية ما يعلم من ظاهر حاله، و يقضى به الطبع و العاده فيه ثم بدا حقيقه حاله و واقع أمره على خلاف ما حكاه من ظاهر حاله لم يكن غالطا فى كلامه، و لا كاذبا فى خبره، و لا لاغيا هازلا فى قوله.

و الآيه جاريه على هذا المجرى فقوله: فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا

«إلخ» أريد به على ما تقدم: أدعهم إلى أن تحضر أنت و خاصتك من أهلك الذين يشاركونك في الدعوى و العلم، و يحضروا بخاصتهم من أهلهم، ثم وضع الكلام على ما يعطيه ظاهر الحال أن لرسول الله في أهله رجالا و نساء و أبناء و لهم في أهلهم رجال و نساء و أبناء فهذا مقتضى ظاهر الحال، و حكم الطبع و العاده فيه و فيهم، أما واقع الأمر و حقيقته فهو أنه لم يكن له (ص) من الرجال و النساء و البنين إلا- نفس و بنت و ابنان، و لم يكن لهم إلا رجال من غير نساء و لا أبناء، و لذلك لما أتاهم برجل و امرأه و ولدين لم يجبهوه بالتلحين و التكذيب، و لا- أنهم اعتذروا عن الحضور بأنك أمرت بإحضار النساء و الأبناء و ليس عندنا نساء و لا أبناء، و لا أن من قصت عليه القصه رماها بالوضع و التمويه.

و من هنا يظهر فساد ما أورده بقوله ثم وفد نجران الذين قالوا إن الآيه نزلت فيهم لم يكن معهم نساء و لا أبناء.

و منها: قوله و كل ما يفهم من الآيه أمر النبي ص أن يدعو المحاجين و المجادلين في عيسى من أهل الكتاب إلى الاجتماع رجالا و نساء و أطفالا، و يجمع هو المؤمنون رجالا و نساء و أطفالا، و يتهلون إلى الله بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى- إلى قوله-: و أنى لمن يؤمن بالله أن يرضى أن يجتمع مثل هذا الجمع من الناس المحقين و المبطلين في صعيد واحد متوجهين إلى الله تعالى في طلب لعنه و إبعاده من رحمته؟ و أى جرأه على الله و استهزاء بقدرته و عظمته أقوى من هذا؟.

و ملخصه أن الآيه تدعو الفريقين إلى الاجتماع بأنفسهم و نساءهم و ذراريهم في صعيد واحد ثم الابتهاال بالملاعنه، و ينبغى أن يستبان ما هذا الاجتماع المدعو إليه؟ أ هو اجتماع الفريقين كافه أعنى المؤمنين بأجمعهم و هم يومئذ (1) عرب ربيعه و مضر جلهم أو كلهم من اليمن و الحجاز و العراق و غيرها، و النصرارى و هم أهل نجران من اليمن و نصارى الشام و سواحل البحر الأبيض و أهل الروم و الإفرنج و الإنجليز و النمسا و غيرهم.

ص: ٢٤٠

١- ١) و هو سنه تسع على ما ذكره بعض المؤرخين أو عشر على ما ذكره آخرون و إن لم يخل جميعا عن الإشكال على ما سيحىء فى البحث الروائى عن الآيات التالیه لهذه الآيات.

و هؤلاء الجماهير فى مشارق الأرض و مغاربها تربو نفوسهم بالرجال و النساء و الذرارى يومئذ على الملائين بعد الملائين و لا يشك ذو لب أن من المتعذر اجتماعهم فى صعيد واحد فالأسباب العاديه تأبى ذلك بجميع أركانها، و لازم ذلك أن يندب القرآن الناس إلى المحال، و ينيط ظهور حجته، و تبين الحق الذى يدعيه على ما لا- يكون البته، و كان ذلك عذرا(و نعم العذر) للنصارى فى عدم إجابتهم دعوه النبى ص إلى المباهله، و كان ذلك أضر لدعواه منه لدعواهم.

أم هو اجتماع الحاضرين من الفريقين و من فى حكمهم أعنى المؤمنين من أهل المدينه و ما والاها، و أهل نجران و من والاها، و هذا و إن كان أقل و أخف شناعه من الوجه السابق لكنه من حيث استحاله التحقق و امتناع الوقوع كسابقه فمن الذى كان يسعه يومئذ أن يجمع أهل المدينه و نجران قاطبه حتى النساء و الذرارى منهم فى صعيد للملا-عنه، و هل هذه الدعوه إلا- تعليقا بالمحال، و اعترافا بأن الحق متعذر الظهور.

أم هو اجتماع المتلبسين بالخصام و الجدال من الفريقين أعنى النبى ص و الحاضرين عنده من المؤمنين، و وفد نجران من النصارى، و يرد عليه حينئذ ما أورده بقوله:

«ثم إن وفد نجران الذين قالوا: إن الآيه نزلت فيهم لم يكن معهم نساؤهم و أولادهم، و كان ذلك وقوعا فيما ذكره من المحذور».

و منها: قوله: أما كون النبى ص و المؤمنين كانوا على يقين مما يعتقدون فى عيسى(ع) فحسبنا فى بيانه قوله تعالى: مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَالعلم فى هذه المسائل الاعتقاديه لا يراد به إلا اليقين.

أقول: أما كون العلم فيها بمعنى اليقين فهو حق و أما كون الآيه داله على كون المؤمنين على يقين من أمر عيسى(ع) فليت شعرى من أين له إثبات ذلك؟ و الآيه غير متعرضه بلفظها(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ «إلخ») إلا لشأن رسول الله ص، و مقام التخاطب أيضا لا يشمل غيره(ص) من المؤمنين فإن الوفد من النصارى ما كان لهم هم إلا المحاجه و الخصام مع النبى ص، و لم يكن لهم هوى فى لقاء المؤمنين، و لا كلموهم بكلمه، و لا كلمهم المؤمنون بكلمه.

نعم لو دلت الآية على حصول العلم لأحد غير النبي ص لادل فيمن جىء به للمباهله على ما استفدناه من قوله تعالى: عَلَى الْكَاذِبِينَ فيما تقدم.

بل القرآن يدل على عدم عموم العلم و اليقين لجميع المؤمنين حيث يقول تعالى:

«وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» :يوسف-١٠٦، فوصفهم بالشرك و كيف يجتمع الشرك مع اليقين، و يقول تعالى: «وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا» :الأحزاب-١٢، و يقول تعالى: «وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ، فَإِذَا نَزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ، فَسَأَلُوا لِي لَّهُمْ طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ، (فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ) فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ -X إلى أن قال -X: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ» :محمد-٢٣، فاليقين لا- يتحقق به إلا- بعض أولى البصيره من متبعي النبي ص، قال تعالى: «فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنْ أَتَّبَعَنِ» :آل عمران-٢٠، و قال تعالى: «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنْ اتَّبَعَنِي» :يوسف-١٠٨.

و منها: قوله و فى قوله نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ «إلخ» و جهان: أحدهما: أن كل فريق يدعو الآخر إلخ قد عرفت فساد وجهه الأول و عدم انطباقه على لفظ الآية إذ قد عرفت أن الغرض كان مستوفى حاصلًا لو قيل: تعالوا نبتهل فنجعل لعنه الله على الكاذبين، و إنما زيد عليه قوله: نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ، ليدل على لزوم إحضار كل من الفريقين عند المباهله أعز الأشياء عنده و أحبها إليه و هو الأبناء و النساء و الأنفس (الأهل و الخاصه)، و هذا إنما يتم لو كان معنى الآية:

ندعو نحن أبناءنا و نساءنا و أنفسنا و تدعون أنتم أبناءكم و نساءكم و أنفسكم، ثم نبتهل، و أما لو كان المعنى ندعو نحن أبناءكم و نساءكم و أنفسكم و تدعون أنتم أبناءنا و نساءنا و أنفسنا ثم نبتهل بطل الغرض المذكور.

على أن هذا المعنى فى نفسه مما لا يرتضيه الطبع السليم فما معنى تسليط رسول الله ص النصارى على أبنائه و نسائه، و سؤاله أن يسلطوه على ذراريهم و نسائهم ليتداعوا فيتم الحضور و المباهله مع تأتى ذلك بدعوه كل فريق أهل نفسه لها؟.

على أن هذا المعنى يحتاج فى فهمه من الآية إلى فهم معنى التسليط و ما يشابهه- كما

تقدم منها، و أنى لنا فهمه؟ فالحق أن هذا الوجه ساقط، و أن الوجه الآخر و هو أن يكون المراد دعوه كل أهل نفسه هو المتعين.

و منها: قوله: و لا- إشكال فى وجه من وجهى التوزيع فى دعوه الأنفس، و إنما الإشكال فىه على قول الشيعة و من شايعهم على القول بالتخصيص، يريد بالإشكال ما أورد على الآيه من لزوم دعوه الإنسان نفسه، و هذا الإشكال غير مرتبط بشيء من الوجهين أصلا و إنما هو إشكال على القول بكون المراد بأنفسنا هو رسول الله ص كما يحكى عن بعض المناظرات المذهبية حيث ادعى أحد الخصمين أن المراد بأنفسنا، رسول الله ص فأورد عليه بلزوم دعوه الإنسان نفسه و هو باطل تشير إليه الروايه الثانيه المنقوله عن العيون فيما تقدم.

و من هنا يظهر سقوط قوله: إنما الإشكال فىه على قول الشيعة فإن قولهم على ما قدمنا: أن المراد بأنفسنا هو الرجال من أهل بيت رسول الله ص، و هم بحسب المصداق رسول الله و على (ع)، و لا إشكال فى دعوه بعضهم بعضا.

فلا إشكال عليهم حتى على ما نسبه إليهم بزعمه: أن معنى أنفسنا على فإنه لا إشكال فى دعوه النبى ص عليا (ع).

و قال تلميذه فى المنار، بعد الإشاره إلى الروايات: و

أخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه: «فَقُلْ نَعَالُوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ» الآيه، قال: فجاء بأبى بكر و ولده، و عمر و ولده، و عثمان و ولده. قال: و الظاهر أن الكلام فى جماعه المؤمنين.

ثم قال بعد نقل كلام أستاذه المنقول سابقا: و فى الآيه ما ترى من الحكم بمشاركه النساء للرجال فى الاجتماع للمباراه القوميه و المناضله الدينيه، و هو مبنى على اعتبار المرأه كالرجل حتى فى الأمور العامه إلا ما استثنى منها إلى آخر ما أطنب به من الكلام.

أقول: أما ما ذكره من الروايه فهى روايه شاذه تخالف جميع روايات الآيه على كثرتها و اشتهاها و قد أعرض عن هذه الروايه المفسرون، و هى مع ذلك تشتمل على ما لا يطابق الواقع و هو جعله لكل من المذكورين فيه ولدا، و لا ولد يومئذ لجميعهم البتة.

و كأنه يريد بقوله: والظاهر أن الكلام فى جماعه المؤمنين، أن يستظهر من الروايه الدلاله على أن رسول الله ص أحضر جميع المؤمنين و أولادهم فىكون قوله:

فجاء بأبى بكر و ولده «الخ» كنايه عن إحضاره عامه المؤمنين، و كأنه يريد به تأييد شيخه فيما ذكره من المعنى. و أنت ترى ما عليه الروايه من الشذوذ و الإعراض و المتن ثم فى الدلاله على ما ذكره من المعنى.

و أما ما ذكره من دلالة الآية على مشاركه النساء الرجال فى الحقوق العامه فلو تم ما ذكره دل على مشاركه الأطفال أيضا، و فى هذا وحده كفايه فى بطلان ما ذكره.

و قد قدمنا الكلام فى اشتراكهن معهم عند الكلام على آيات الطلاق فى الجزء الثانى من الكتاب و سيأتى شطر فى ما يناسبه من المورد من غير حاجه إلى مثل ما استفاده من الآية

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٦٤ إلى ٧٨]

اشاره

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَ مَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَ الْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرَانِيًّا وَ لَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى الْأَدْسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) وَ دَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضْمَلُونَ وَ مَا يُضْمَلُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ جَهِ النَّهَارِ وَ أَكْفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَ لا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُومِيْنَ سَبِيلٌ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لا خلاقَ لَهُمْ فى الآخِرَةِ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ ۖ (٧٧) وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَ مَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ مَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)

شروع في المرحلة الثانية من البيان المتعرض لحال أهل الكتاب عامه و النصارى خاصه و ما يلحق بذلك. فقد كانت الآيات فيما مر تعرضت لحال أهل الكتاب عامه بقوله: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» آل عمران-١٩، وبقوله أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ: آل عمران-٢٣، ثم انعطف البيان إلى شأن النصارى خاصه بقوله: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحًا إِبْرَاهِيمَ وَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ» آل عمران-٣٣، و تعرضت في أثنائها لولايه المؤمنين للكافرين بقوله: «لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ» آل عمران-٢٨، فهذا في المرحلة البادئه.

ثم عادت إلى بيان ما ذكرته ثانيا بلسان آخر و نظم دون النظم السابق فتعرضت لحال أهل الكتاب عامه في هذه الآيات المنقوله آنفاً، و ما سيلحق بذلك من متفرقات بحسب مساس خصوصيات البيانات بذلك كقوله: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ وَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ» آل عمران-٩٨، و قوله: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ وَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ» آل عمران-٩٩، و تعرضت لحال النصارى و ما تدعيه في أمر عيسى (ع) بقوله: «مَا كَانَ لِيُبَشِّرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ» آل عمران-٧٩، و تعرضت لأموال ترجع إلى المؤمنين من دعوتهم إلى الإسلام و الاتحاد و الاتقاء من ولايه الكفار و اتخاذ البطانه من دون المؤمنين في آيات كثيره متفرقه.

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ، الخطاب لعامه أهل الكتاب، و الدعوه في قوله: تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ «إلخ» بالحقيقه إنما هي إلى الاجتماع على معنى الكلمه بالعمل به، و إنما تنسب إلى الكلمه لتدل على كونها دائره بألسنتهم كقولنا اتفقت كلمه القوم على كذا فيفيد معنى الإذعان و الاعتراف و النشر و الإشاعه. فالمعنى: تعالوا نأخذ بهذه الكلمه متعاونين متعاضدين في نشرها و العمل بما توجه.

و السواء في الأصل مصدر، و يستعمل وصفاً بمعنى مساوى الطرفين، و سواء بيننا و بينكم أى مساو من حيث الأخذ و العمل بما توجه، و على هذا فتوصيف الكلمه بالسواء توصيف بحال المتعلق و هو الأخذ و العمل، و قد عرفت أن العمل إنما يتعلق

بمعنى الكلمة لا- نفسها كما أن تعليق الاجتماع أيضا على المعنى لا- يخلو من عنايه مجازيه ففي الكلام وجوه من لطائف العنايات: نسبة الاجتماع إلى المعنى ثم وضع الكلمة مكان المعنى ثم توصيف الكلمة بالسواء!.

و ربما قيل: إن معنى كون الكلمة سواء أن القرآن و التوراه و الإنجيل متفقه في الدعوه إليها، و هي كلمه التوحيد، و لو كان المراد به ذلك كان قوله تعالى: **أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ «إلخ»** من قبيل وضع التفسير الحق موضع الكلمه المتفق عليها، و الإعراض عما لعبت به أيديهم من تفسيره غير المرضي الذي تنطبق الكلمه بذلك على أهوائهم من الحلول و اتخاذ الابن و التثليث و عباده الأبحار و القسيسين و الأساقفه و يكون محصل المعنى: **تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ** و هي التوحيد، و لازم التوحيد رفض الشركاء و عدم اتخاذ الأرباب من دون الله سبحانه.

و الذي تختتم به الآيه من قوله: **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** يؤيد المعنى الأول فإن محصل المعنى بالنظر إليه أنه يدعو إلى هذه الكلمه و هي أن لا نعبد إلا الله «إلخ» لأنها مقتضى الإسلام لله الذي هو الدين عند الله، و إن كان الإسلام أيضا لازما من لوازم التوحيد لكن الدعوه في الآيه إنما هي إلى التوحيد العملي و هو ترك عباده غير الله سبحانه دون اعتقاد الوحده، فافهم ذلك.

قوله تعالى: **أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**، تفسير للكلمه السواء، و هي التي يوجبها الإسلام لله.

و المراد بقوله: **أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ**، نفى عباده غير الله لا إثبات عباده الله تعالى على ما مرت الإشارة إليه في معنى كلمه الإخلاص (لا إله إلا الله): أن لازم كون إلا الله، بدلا لا استثناء كون الكلام مسوقا لبيان نفى الشريك دون إثبات الإله، فإن القرآن يأخذ إثبات وجود الإله و حقيقته مفروغا عنه.

و لما كان الكلام مسوقا لنفى الشريك في العباده و لا ينحسم به ماده الشرك اللازم من اعتقاد البنوه و التثليث و نحو ذلك أردفه بقوله: **وَ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذُ** «إلخ» فإن تسميه العباده بعباده الله لا تصير العباده عباده لله سبحانه ما لم يخلص الاعتقاد و لم يتجرد الضمير من الاعتقادات و الآراء المولوده من أصل الشرك لأن العباده حينئذ إنما

تكون عباده إله له شريك و العباده التي يعبد بها أحد الشريكين و إن خص باسمه و وجه نحوه ليست إلا نابتة منبت التشريك لأنها لا تعدو أن تكون سهما يسهم له و حطا يقسم له من بين الشريكين أو الشركاء ففيها بعينها نحو عباده للغير.

و هذا الذى يدعو إليه النبى بأمر الله سبحانه، و هو الذى يدل عليه قوله:

أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

، هو الذى يجمع غرض النبوه فى السيره التى كانت الأنبياء تدعو إليها و تبسطها على المجتمع الإنسانى.

فقد تقدم عند الكلام على قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً» البقره-٢١٣ أن النبوه انبعثت إلهى و نهضه حقيقته يراد بها بسط كلمه الدين و أن حقيقه الدين تعديل المجتمع الإنسانى فى سيره الحيوى، و يتبعه تعديل حيوه الإنسان الفرد فينزل بذلك الكل منزلته التى نزل عليها الفطره و الخلقه فيعطى به المجتمع موهبه الحريه و سعاده التكامل الفطرى على وجه العدل و القسط، و كذلك الفرد فهو فيه حر مطلق فى الانتفاع من جهات الحيوه فيما يهديه إليه فكره و إرادته إلا ما يضر بحيوه المجتمع و قد قيد جميع ذلك بالعبوديه و الإسلام لله سبحانه، و الخضوع لسيطره الغيب و سلطنته.

و خلاصه ذلك أن الذى كانت تندب إليه جماعه الأنبياء(ع) أن يسير النوع الإنسانى فرادى و مجتمعين على ما تنطق به فطرتهم من كلمه التوحيد التى تقضى بوجوب تطبيق الأعمال الفرديه و الاجتماعيه على الإسلام لله، و بسط القسط و العدل، أعنى بسط التساوى فى حقوق الحيوه، و الحريه فى الإراده الصالحه و العمل الصالح.

و لا- يتأتى ذلك إلا- بقطع منابت الاختلاف و البغى بغير الحق و استخدام القوى و استعباده للضعيف و تحكمه عليه، و تعبد الضعيف للقوى فلا إله إلا الله، و لا رب إلا الله، و لا حكم إلا الله سبحانه.

و هذا هو الذى تدل عليه الآية: «أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» الآية، و قال تعالى فيما يحكيه عن يوسف(ع):

«يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» يوسف-٤٠، و قال تعالى: «اتَّخَذُوا أَلْبَابَهُمْ

وَرُحْبَابُهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا إِلَهَا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ: التوبة-٣١، إلى غير ذلك من الآيات.

و فيما حكاه القرآن عن الأنبياء السالفين كنوح و هود و صالح و إبراهيم و شعيب و موسى و عيسى(ع) مما كلموا به أممهم شيء كثير من هذا القبيل كقول نوح:

«رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَىٰ أَمْرِي وَأَتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا»: نوح-٢١، و قول هود لقومه: «أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ»: الشعراء-١٣٠، و قول صالح لقومه: «وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ»: الشعراء-١٥١، و قول إبراهيم لأبيه و قومه: «مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ»: الأنبياء-٥٤، و قوله تعالى لموسى و أخيه: «اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ - إِلَىٰ أَنْ قَالَ: - فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَا تُعَذِّبُهُمْ»: طه-٤٧، و قول عيسى لقومه: «وَ لَأَيُّبَنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا»: الزخرف-٦٣، فالدين الفطرى هو الذى ينفى البغى و الفساد، و هذه المظالم و السلطات بغير الحق الهادمه لأساس السعادة و المخربه لبنيان الحق و الحقيقة، و إلى ذلك يشير قول النبى ص فى حجه الوداع: (و قد ذكره المسعودى فى حوادث سنه عشر من الهجره فى مروج الذهب)، «ألا و إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات و الأرض» و كأنه(ص) يريد به رجوع الناس إلى حكم الفطره باستقرار سيره الإسلام بينهم.

و الكلام أعنى قوله تعالى: «أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ» «إلخ»، على كونه آخذاً بمجامع غرض النبوه مفصح عن سبب الحكم و ملاكه.

أما قوله: «أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، فلأن الألوهيه هى التى ياله إليه و يتوله فيه كل شيء من كل وجه، و هو أن يكون منشأ لكل كمال فى الأشياء على كثرتها و ارتباطها و اتحادها فى الحاجه، و فيه كل كمال يفتاق إليه الأشياء، و هذا المعنى لا يستقيم إلا- إذا كان واحداً غير كثير، و مالكا إليه تدبير كل شيء، فمن الواجب أن يعبد الله لأنه إله واحد لا شريك له، و من الواجب أن لا- يتخذ له شريك فى عبادته، و بعبارة أخرى، هذا العالم و جميع ما يحتوى عليه لا يصح و لا يجوز أن يخضع و يتصغر إلا لمقام واحد إذ هؤلاء المرربوبون لوحده نظامهم و ارتباط وجودهم لا

رب لهم إلا واحد إذ لا خالق لهم إلا واحد.

و أما قوله تعالى: **وَ لَا يَتَّخِذُ بَعْضُهُمْ آرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ** فمن حيث أفاد أن المجتمع الإنساني على كثره أفراده و تفرق أشخاصه أبعاض من حقيقه واحده هي حقيقه الإنسان و نوعه فما أودعته فيه يد الصنع و الإيجاد من الاستحقاق و الاستعداد الموزع بينهم على حد سواء يقضى بتساويهم في حقوق الحياه و استوائهم على مستوى واحد، و ما تفاوت فيه أحوال الأفراد و استعدادهم في اقتناء مزايا الحياه من مواهب الإنسانيه العامه التي ظهرت في مظاهر خاصه من هاهنا و هناك و هنالك يجب أن تعطاه الإنسانيه لكن من حيث تسأله، كما أن الازدواج و الولاده و المعالجه مثلا من مسائل الإنسانيه العامه لكن الذي يعطى الازدواج هو الإنسان البالغ الذكر أو الأنثى، و الولاده يعطاها الإنسان الأنثى و العلاج يعطاه الإنسان المريض.

و بالجمله أفراد الإنسان المجتمع أبعاض متشابهه من حقيقه واحده متشابهه فلا ينبغي أن يحمل البعض إرادته و هواه على البعض إلا- أن يتحمل ما يعادله، و هو التعاون على اقتناء مزايا الحياه، و أما خضوع المجتمع أو الفرد لفرد أعنى الكل أو البعض لبعض بما يخرجهم عن البعضييه، و يرفعه عن التساوى بالاستعلاء و التسيطر و التحكم بأن يؤخذ ربا متبع المشيه، يحكم مطلق العنان، و يطاع فيما يأمر و ينهى ففيه إبطال الفطره و هدم بنية الإنسانيه.

و أيضا من حيث إن الربوبيه مما يختص بالله لا- رب سواه فتمكين الإنسان مثله من نفسه يتصرف فيه بما يريد من غير انعكاس، اتخاذ رب من دون الله لا يقدم عليه من يسلم لله الأمر.

فقد تبين أن قوله: **وَ لَا يَتَّخِذُ بَعْضُهُمْ آرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ** يفصح عن حجتين فيما يفيده من المعنى: إحداهما كون الأفراد أبعاضا، و الآخر كون الربوبيه من خصائص الألوهيه.

قوله تعالى: **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** (و هم النبي ص و من اتبعه) على الدين المرضي عند الله تعالى و هو الإسلام، قال: **«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ»**: آل عمران- ١٩، فينقطع بذلك خصامهم و حججهم إذ لا حجه على الحق و أهله.

و فيه إشاره إلى أن التوحيد في العباده من لوازم الإسلام.

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، الظاهر أنه مقول القول الواقع في الآية السابقة، وكذا ما يأتي بعد أربع آيات فيكون مقولا لرسول الله ص و إن كان ظاهر سياق قوله: بعد آيتين: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الْآيَةَ، أن يكون الخطاب من الله لا من رسوله بإذنه.

و محاجتهم في إبراهيم(ع) بضم كل طائفه إياه إلى نفسها يشبه أن تكون أولا بالمحاجه لإظهار المحقيه كأن تقول اليهود: إن إبراهيم(ع) الذي أثنى الله عليه في كتابه منا فتقول النصارى: إن إبراهيم كان على الحق، وقد ظهر الحق بظهور عيسى معه، ثم تبدل إلى اللجاج و العصبية فتدعى اليهود أنه كان يهوديا، و تدعى النصارى أنه كان نصرانيا، و من المعلوم أن اليهوديه و النصرانيه إنما نشأتا جميعا بعد نزول التوراه و الإنجيل و قد نزلا جميعا بعد إبراهيم(ع) فكيف يمكن أن يكون(ع) يهوديا بمعنى المنتحل بالدين الذي يختص بموسى(ع)، و لا نصرانيا بمعنى المتعبد بشريعه عيسى(ع)، فلو قيل في إبراهيم شىء لوجب أن يقال إنه كان على الحق حنيفا من الباطل إلى الحق مسلما لله سبحانه و هذه الآيات في مساق قوله تعالى: «أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَشْيَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى، قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ» البقره- ١٤٠.

قوله تعالى: ﴿هَٰ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ ۖ جِئْتُمْ فِيْمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيْمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ الْآيَةَ، الآية تثبت لهم علما في المحاجه التي وقعت بينهم و تنفى علما و تثبته لله تعالى، و لذلك ذكر المفسرون: أن المعنى: أنكم حاجتم: في إبراهيم(ع) و لكم به علم ما، كالعلم بوجوده و نبوته، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم و هو كونه يهوديا أو نصرانيا و الله يعلم و أنتم لا تعلمون، أو أن المراد بالعلم علم ما بعيسى و خبره، و المعنى أنكم تحاجون في عيسى و لكم بخبره علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم و هو كون إبراهيم يهوديا أو نصرانيا، هذا ما ذكره.

و أنت تعلم أن شيئا من الوجهين لا- ينطبق على ظاهر سياق الآية: أما الأول فلأنه لم تقع لهم محاجه في وجود إبراهيم و نبوته، و أما الثاني فلأن المحاجه التي وقعت منهم في عيسى لم يكونوا فيها على الصواب بل كانوا مخطئين في خبره كاذبين في

دعواهم فيه فكيف يمكن أن يسمى محاجه فيما لهم به علم، وكلامه تعالى على أى حال يثبت منهم محاجه فيما لهم به علم كما يثبت لهم محاجه فيما ليس لهم به علم، فما هذه المحاجه التى هى فيما لهم به علم؟ على أن ظاهر الآيه أن هاتين إنما جرتا جميعا فيما بين أهل الكتاب أنفسهم لا بينهم وبين المسلمين وإلا كان المسلمون على الباطل فى الحجاج الذى أهل الكتاب فيه على علم، وهو ظاهر.

والذى ينبغى أن يقال- والله العالم- أن من المعلوم أن المحاجه كانت جاريه بين اليهود والنصارى فى جميع موارد الاختلاف التى كانت بينهم، وعمده ذلك نبوه عيسى (ع) وما كانت تقوله النصارى فى حقه (أنه الله، أو ابنه أو التثليث) فكانت النصارى تحاج اليهود فى بعثته ونبوته وهم على علم منه، وكانت اليهود تحاج النصارى، وتبطل ألوهيته ونبوته والتثليث وهم على علم منه فهذه محاجتهم فيما لهم به علم، وأما محاجتهم فيما ليس لهم به علم فمحاجتهم فى أمر إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا.

وليس المراد بجهلهم به جهلهم بنزول التوراه والإنجيل بعده وهو ظاهر، ولا- ذهولهم عن أن السابق لا يكون تابعا للاحق فإنه خلاف ما يدل عليه قوله تعالى: « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » فإنه يدل على أن الأمر يكفى فيه أدنى تنبيه، فهم عالمون بأنه كان سابقا على التوراه والإنجيل لكنهم ذاهلون على مقتضى علمهم وهو أنه لا- يكون حينئذ يهوديا ولا- نصرانيا بل على دين الله الذى هو الإسلام لله.

لكن اليهود مع ذلك قالوا: إن الدين الحق لا يكون إلا واحدا وهو اليهوديه فلا محاله كان إبراهيم يهوديا، وقالت النصارى مثل ذلك فنصرت إبراهيم، وقد جهلوا فى ذلك أمرا وليس بذهول، وهو أن دين الله واحد، وهو الإسلام لله، وهو واحد مستكمل بحسب مرور الزمان واستعداد الناس من حيث تدرجهم بالكمال، واليهوديه والنصرانيه شعبتان من شعب كمال الإسلام الذى هو أصل الدين، والأنبياء (ع) بمنزله بناه هذا البنيان، لكل منهم موقعه فيما وضعه من الأساس ومما بنى عليه من هذا البنيان الرفيع.

و بالجمله فاليهود والنصارى جهلوا أنه لا يلزم من كون إبراهيم مؤسسا للإسلام وهو الدين الأصيل الحق ثم ظهور دين حق باسم اليهوديه أو النصرانيه، وهو اسم شعبه من شعب كماله ومراتب تمامه أن يكون إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا بل يكون مسلما

حينفا متلبسا باسم الإسلام الذى أسسه و هو أصل اليهوديه و النصرانيه دون نفسهما، و الأصل لا ينسب إلى فرعه بل ينبغى أن يعطف الفرع عليه.

و تسميه إبراهيم مسلما لا يهوديا و لا نصرانيا غير عده تابعا لدين النبى و شريعه القرآن ليرد الإشكال بأنه كما كان متقدما على نزول التوراه و الإنجيل فلا ينبغى أن يعد يهوديا أو نصرانيا كذلك كان متقدما على نزول القرآن و ظهور الإسلام فلا ينبغى أن يعد مسلما(حذو النعل بالنعل).

و ذلك أن الإسلام بمعنى شريعه القرآن من الاصطلاحات الحادثه بعد نزول القرآن و انتشار صيت الدين المحمدي، و الإسلام الذى وصف به إبراهيم هو أصل التسليم لله سبحانه و الخضوع لمقام ربوبيته فالإشكال غير متوجه من أصله.

و لعل هذا الذى ذكرناه من وجه جهلهم بمعنى الدين الأصيل، و كونه حقيقه ذات مراتب مختلفه و متدرجه فى الاستكمال هو المراد بقوله تعالى: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا «إلخ» و يؤيده قوله: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ الْآيَه، و قوله تعالى فى ذيل الآيات: «قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَ عِيسَىٰ وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَ مَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» Xالآيه X: آل عمران- ٨٥، على ما سيجىء من البيان.

قوله تعالى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَ لَا نَصْرَانِيًّا إلى آخر الآيه، قد مر تفسيره فيما مر، و قد قيل: إن اليهود و النصارى كما كانوا يدعون أن إبراهيم(ع) منهم و على دينهم كذلك عرب الجاهليه من الوثنيه كانت تدعى أنهم على الدين الحنيف دين إبراهيم(ع) حتى كان أهل الكتاب يسمونهم الحنفاء، و يدعون بالحنيفيه الوثنيه.

و لما وصف الله سبحانه إبراهيم(ع) بقوله: وَ لَكِنْ كَانَ حَنِيفًا، و جب بيانه حتى لا يتوهم منه الوثنيه فلذلك أردفه بقوله: مُسْلِمًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، أى كان على الدين المرضى عند الله تعالى و هو الإسلام و ما كان من المشركين كعرب الجاهليه.

قوله تعالى: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الْآيَه فى موضع التعليل للكلام السابق و بيان للحق فى المقام و المعنى -و الله العالم-

أن هذا النبي المعظم إبراهيم لو أخذت النسبه بينه و بين من بعده من المنتحلين و غيرهم لكان الحق أن لا يعد تابعا لمن بعده بل يعتبر الأولويه به و الأقربيه منه، و الأقرب من النبي الذى له شرع و كتاب هم الذين يشاركونه فى اتباع الحق، و التلبس بالدين الذى جاء به، و الأولى بهذا المعنى بإبراهيم(ع) هذا النبي و الذين آمنوا لأنهم على الإسلام الذى اصطفى الله به إبراهيم و كذا كل من اتبعه دون من يكفر بآيات الله و يلبس الحق بالباطل.

و فى قوله: لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ تَعْرِيزٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَىٰ بِنَحْوِ الْكُنْيَةِ أَى لستم أولى بإبراهيم لعدم اتباعكم إياه فى إسلامه لله.

و فى قوله: وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا إِفْرَادٌ لِلنَّبِيِّ(ع) و من اتبعه من المؤمنين من الذين اتبعوا إبراهيم إجلالا للنبي و صونا لمقامه أن يطلق عليه اتباع كما يستشعر ذلك- مثل قوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ»: الأنعام- ٩٠ حيث لم يقل: فيهم اقتده.

و قد تمم التعليل و البيان بقوله: وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ، فإن ولاية إبراهيم(ولى الله) من ولاية الله، و الله ولى المؤمنين دون غيرهم الكافرين بآياته اللابسين الحق بالباطل.

قوله تعالى: وَ دَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِئُ لُؤْمُكُمْ وَ مَا يُضِئُ لُؤْمٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ، الطائفة الجماعة من الناس، و كان الأصل فيه أن الناس و خاصه العرب كانوا أولا يعيشون شعوبا و قبائل بدويين يطوفون صيفا و شتاء بماشيتهم فى طلب الماء و الكلاب، و كانوا يطوفون و هم جماعه تحذرا من الغيله و الغاره فكان يقال لهم جماعه طائفه، ثم اقتصر على ذكر الوصف(الطائفه) للدلاله على الجماعه.

و أما كون أهل الكتاب لا يضلون إلا أنفسهم فإن أول الفضائل الإنسانية الميل إلى الحق و اتباعه فحب صرف الناس عن الحق إلى الباطل من جهه أنه من أحوال النفس و أخلاقها رذيله نفسانيه-و بسئ الرذيله-و إثم من آثامها و معاصيها و بغيها بغير حق، و ما ذا بعد الحق إلا الضلال فحبهم لإضلال المؤمنين و هم على الحق إضلال بعينه لأنفسهم من حيث لا يشعرون.

و كذا لو تمكنوا من بعضهم بإلقاء الشبهات فأضلوه بذلك فإنما يضلون أولا أنفسهم

لأن الإنسان لا يفعل شيئاً من خير أو شر إلا لنفسه كما قال تعالى: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ» :حم السجده-٤٦، و أما ضلال من ضل يا ضلالهم فليس بتأثير منهم بل هو بسوء فعال الضال الغاوى و شامه إرادته بإذن من الله، قال تعالى: «مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ» :الروم-٤٤، و قال تعالى: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» :الشورى-٣١، و قد مر شطر من الكلام فى خواص الأعمال فى الكلام على قوله تعالى: «حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» :البقره-٢١٧، فى الجزء الثانى من الكتاب.

و هذا الذى ذكرناه من المعارف القرآنيه التى يفيدها التوحيد الأفعالى الذى يتفرع على شمول حكم الربوبيه و الملك، و به يوجه ما يفيدته قوله تعالى: «وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» ، من الحصر.

و أما ما ذكره المفسرون من التوجيه لمعنى الآية فلا يغنى فى الحصر المذكور طائلا و لذلك أغمضنا عن نقله.

قوله تعالى: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ» ، قد مر أن الكفر بآيات الله غير الكفر بالله تعالى، و أن الكفر بالله هو الالتزام بنفى التوحيد صريحا كالوثنيه و الدهريه، و الكفر بآيات الله إنكار شىء من المعارف الإلهيه بعد ورود البيان و وضوح الحق، و أهل الكتاب لا ينكرون أن للعالم إلها واحدا، و إنما ينكرون أمورا من الحقائق بينتها لهم الكتب السماويه المنزله عليهم و على غيرهم كتب النبى ص و كون عيسى عبدا لله و رسولا- منه، و أن إبراهيم ليس يهودى و لا- نصرانى، و أن يد الله مبسوطه، و أن الله غنى، إلى غير ذلك، فأهل الكتاب فى لسان القرآن كافرون بآيات الله غير كافرين بالله، و لا ينافيه قوله تعالى: «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» :التوبه-٢٩، حيث نفى الإيمان عنهم صريحا، و ليس إلا الكفر و ذلك أن ذكر عدم تحريمهم للحرام و عدم تدبيرهم بدين الحق فى الآية يشهد بأن المراد من توصيفهم بعدم الإيمان هو التوصيف بلازم الحال فلازم حالهم من الكفر بآيات الله عدم الإيمان بالله و اليوم الآخر و إن لم يشعروا به، و ليس بالكفر الصريح.

و فى قوله تعالى: وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ -و الشهاده هو الحضور و العلم عن حس-دلالة على أن المراد بكفرهم آيات الله إنكارهم كون النبى ص هو النبى الموعود الذى بشر به التوراه و الإنجيل مع مشاهدتهم انطباق الآيات و العلامت المذكوره فيهما عليه.

و من هنا يظهر فساد ما ذكره بعضهم: أن لفظ الآيات عام شامل لجميع الآيات و لا وجه لتخصيصه بآيات النبوه بل المراد كفرهم بجميع الآيات الحقه و الوجه فى فساده ظاهر.

قوله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، اللبس بفتح اللام إلقاء الشبهه و التمويه أى تظهرون الحق فى صوره الباطل.

و فى قوله: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ دلالة أو تلويح على أن المراد باللبس و الكتمان ما هو فى المعارف الدينيه غير ما يشاهد من الآيات كالأيات التى حرفوها أو كتموها أو فسروها بغير ما يراد منها.

و هاتان الآيتان أعنى قوله يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ -إلى قوله: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ -تممه لقوله تعالى: وَ دَتَّ طَائِفَةٌ الْآيَةِ، و على هذا فعتاب الجميع بفعال البعض بنسبته إليهم من جهه اتحادهم فى العنصر و النسل و الصفه، و رضاء البعض بفعال البعض و هو كثير الورد فى القرآن.

قوله تعالى: وَ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، المراد بوجه النهار بقريته مقابلته بآخره هو أوله فإن وجه الشىء ما يبدو و يظهر به لغيره و هو فى النهار أوله، و سياق قولهم يكشف عن نزول وحى على النبى ص فى وجه النهار يوافق ما عليه أهل الكتاب و آخر فى آخره يخالف ما هم عليه فإنما هو الذى دعاهم إلى أن يقولوا هذا القول.

و على هذا فقوله: بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا أريد به شىء خاص من وحى القرآن يوافق ما عند أهل الكتاب، و قوله: وَجْهَ النَّهَارِ منصوب على الظرفيه و متعلق بقوله: أُنزِلَ، لا بقوله: آمَنُوا (صيغه الأمر) لأنه أقرب، و قوله: وَ اكْفُرُوا آخِرُهُ فى معنى و اكفروا بما أنزل فى آخره فيكون من وضع الظرف موضع المظروف بالمجاز العقلى نظير قوله تعالى: «بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ»: سبأ- ٣٣.

و بذلك يتأيد ما ورد في سبب النزول عن أئمة أهل البيت: أن هذه كلمه قائلها اليهود حين تغيير القبلة حيث صلى رسول الله صلاه الصبح إلى بيت المقدس و هو قبله اليهود، ثم حولت القبلة في صلاه الظهر نحو الكعبه فقالت طائفه من اليهود:

آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ

يريدون استقبال بيت المقدس، وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ يريدون استقبال الكعبه. و يؤيده قولهم بعده على ما حكاه الله: [□] وَ لَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ، أى لا تثقوا بمن لا يتبع دينكم بالإيمان به فتنفشوا عنده شيئاً من أسراركم و البشارات التى عندكم و كان من علائم النبى ص أنه يحول القبلة إلى الكعبه.

و ذكر بعضهم أن قوله: وَجَهَ النَّهَارِ متعلق بقوله: آمِنُوا (بصيغة الأمر) و المراد به أول النهار، و قوله: آخِرَهُ ظرف بتقدير فى، و متعلق بقوله وَ اكْفُرُوا، و المراد بقولهم: آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ «إلخ» أن يظهر عده منهم الإيمان بالقرآن و يلحقوا بجماعه المؤمنين ثم يرتدوا فى آخر النهار بإظهار أنهم إنما آمنوا أول النهار لما كاد يلوح لهم من أمارات الصدق و الحق من ظاهر الدعوه الإسلاميه، و إنما ارتدوا آخر النهار لما تبين لهم من شواهد البطلان و عدم انطباق ما عندهم من بشارات النبوه و علائم الحقايقه على النبى ص فيكون ذلك مكيداً تكاد بها المؤمنون فيرتابون فى دينهم، و يهنون فى عزيمتهم فينكسر بذلك سورتهم و تبطل أهدوتهم.

و هذا المعنى فى نفسه غير بعيد و خاصه من اليهود الذين لم يألوا جهداً فى الكره على الإسلام لإطفاء نوره من أى طريق ممكن غير أن لفظ الآيه لا ينطبق عليه، و سيأتى للكلام تتمه نتعرض لها فى البحث الروائى التالى إن شاء الله العزيز.

و قال بعضهم: إن المراد آمنوا بصلاتهم إلى الكعبه أول النهار و اكفروا به آخره لعلهم يرجعون و قال آخرون: المعنى أظهره الإيمان فى صدر النهار بما أقررت به من صفه النبى ص و اكفروا آخره بإبداء أن ما وصف به النبى الموعود لا ينطبق عليه لعلهم يرتابون بذلك فيرجعوا عن دينهم، و هذان الوجهان لا شاهد عليهما. و كيف كان المراد، لا إجمال فى الآيه.

قوله تعالى: [□] وَ لَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ «إلخ»، الذى يعطيه السياق هو أن تكون هذه الجملة من قول أهل الكتاب تتمه لقولهم: آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ

و كذا قوله تعالى: «أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، و يكون قوله: «قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ» جملة معترضه هو جواب الله سبحانه عن مجموع ما تقدم من كلامهم أعنى قولهم: آمَنُوا بِالَّذِي أَنْزَلَ إِلَى قَوْلِهِ دِينَكُمْ ، على ما يفيدته تغيير السياق ، و كذا قوله تعالى قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ جَوَابَهُ تَعَالَى عَنْ قَوْلِهِمْ: أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ إِلَى آخِرِهِ ، هذا هو الذى يقتضيه ارتباط أجزاء الكلام و اتساق المعانى فى الآيتين أولاً، و ما تناظر الآيتين من الآيات الحاكية لأقوال اليهود فى الجدل و الكيد ثانياً.

و المعنى -و الله أعلم- أن طائفة من أهل الكتاب -و هم اليهود- قالت أى قال بعضهم لبعض: صدقوا النبى و المؤمنين فى صلاتهم و وجه النهار إلى بيت المقدس و لا تصدقوهم فى صلاتهم إلى الكعبة آخر النهار، و لا تثقوا فى الحديث بغيركم فيخبروا المؤمنين أن من شواهد نبوه النبى الموعود تحويل القبلة إلى الكعبة فإن فى تصديقكم أمر الكعبة و إفشائكم ما تعلمونه من كونها من أمارات صدق الدعوه محذور أن يؤتى المؤمنون مثل ما أوتيتم من القبلة فيذهب به سوددكم و يبطل تقدمكم فى أمر القبلة، و محذور أن يقيموا عليكم الحجة عند ربكم أنكم كنتم عالمين بأمر القبلة الجديده شاهدين على حقيقته ثم لم تؤمنوا.

فأجاب الله تعالى عن قولهم فى الإيمان بما فى وجه النهار و الكفر فى آخره و أمرهم بكتمان أمر القبلة لثلا يهتدى المؤمنون إلى الحق بأن الهدى الذى يحتاج إليه المؤمنون الذى هو حق الهدى إنما هو هدى الله دون هداكم، فالمؤمنون فى غنى عن ذلك فإن شئتم فاتبعوا و إن شئتم فاكفروا و إن شئتم فأفسوا و إن شئتم فاكتموا.

و أجاب تعالى عما ذكروه من مخافه أن يؤتى أحد مثل ما أوتوا أو يحاجوهم عند ربهم بأن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء لا بيدكم حتى تحبسوه لأنفسكم و تمنعوا منه غيركم، و أما حديث الكتمان مخافه المحاجه فقد أعرض عن جوابه لظهور بطلانه كما فعل كذلك فى قوله تعالى فى هذا المعنى بعينه: «وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَ إِذَا خَلَا بِغَضِ هُمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا أَمْ تَجِدُ لَهُمْ مِمَّا فَتَيَحُّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْتَرُونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ» :البقره- ٧٧، فقوله:

أَوْ لَا يَعْلَمُونَ ، إيدان بأن هذا القول بعد ما علموا أن الله لا يتفاوت فيه السر

و العلانيه كلام منهم لا يستوى على تعقل صحيح، و ليس جوابا لمكان الواو فى قوله:

أَوْ لَا يَعْلَمُونَ .

و على ما مر من المعنى فقوله تعالى: [□]وَلَا تُؤْمِنُوا مَعْنَاهُ، لا تثقوا و لا تصدقوا لهم الوثاقه و حفظ السر على حد قوله تعالى: «وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ»: البراءه-٦١، و المراد بقوله لِمَنْ تَبَعَ، اليهود.

و المراد بالجمله النهى عن إفشاء ما كان عندهم من حقيه تحويل القبله إلى الكعبه كما مر فى قوله تعالى: «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ -X إلى أن قال X: وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ -X إلى أن قال X: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»: البقره-١٤٦.

و فى معنى الآيه أقوال شتى دائره بين المفسرين كقول بعضهم: إن قوله تعالى:

وَلَا تُؤْمِنُوا

إلى آخر الآيه كلام الله تعالى لا- لليهود، و خطاب الجمع فى قوله: [□]وَلَا تُؤْمِنُوا و قوله: [□]مَا أُوْتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ جميعا للمؤمنين، و خطاب الأفراد فى قوله: [□]قُلْ ، فى الموضوعين للنبي ص، و قول آخرين بمثله إلا- [□]إِنَّ خُطَابَ الْجَمْعِ فى قوله: [□]أُوْتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ، لليهود فى الكلام عتاب و تفرغ. و قول آخرين إن قوله: [□]وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ من كلام اليهود، و قوله: [□]قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ «إلخ» كلام الله تعالى جوابا عما قالته اليهود، و كذا الخلاف فى معنى الفضل أن المراد به الدين أو النعمه الدنيويه أو الغلبه أو غير ذلك.

و هذه الأقوال على كثرتها بعيده عما يعطيه السياق كما قدمنا الإشاره إليه و لذا لم نشغل بها فضل اشتغال.

قوله تعالى: [□]قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ، الفضل هو الزائد عن الاقتصاد، و يستعمل فى المحمود كما أن الفضول يستعمل فى المذموم، قال الراغب: و كل عطيه لا- تلزم من يعطى يقال لها فضل نحو قوله: [□]وَ سَيَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ - ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ - ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ، و على هذا قوله: [□]قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ - وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ لَانتَهَى.

و على هذا فقوله: [□]إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ، من قبيل الإيجاز بالقناعه بكبرى البيان

القياسى، و التقدير: قل إن هذا الإنزال و الإيتاء الإلهى الذى تحتالون فى تخصيصه بأنفسكم بالتظاهر على الإيمان و الكفر، و الإيصاء بالكتمان أمر لا نستوجه معاشر الناس على الله تعالى بل هو من الفضل، و الفضل بيد الله الذى له الملك و له الحكم فله أن يؤتیه من يشاء و الله واسع عليم.

ففى الكلام نفى ما يدل عليه قولهم و فعلهم من تخصيص النعمه الإلهيه بأنفسهم بجميع جهاته المحتمله فإن تنعم بعض الناس بفضل الله تعالى دون البعض كنتنعم اليهود بنعمه الدين و القبله، و حرمان غيرهم إما أن يكون لأن الفضل منه تعالى يمكن أن يقع تحت تأثير الغير فيزاحم المشيه الإلهيه، و يحبس فضله عن جانب، و يصرفه إلى آخر، و ليس كذلك فإن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء.

و إما أن يكون لأن الفضل قليل غير واف و المفضل عليهم كثيرون فيكون إيتاؤه على البعض دون البعض يحتاج إلى انضمام مرجح فيحتال إلى إقامه مرجح لتخصيص البعض الذى ينعم عليه، و ليس كذلك فإن الله سبحانه واسع الفضل و المقدره.

و إما أن يكون لأن الفضل و إن كان واسعاً و بيد الله لكن يمكن أن يحتجب المفضل عليه عنه تعالى بجهل منه فلا ينال الفضل فيحتال فى حجه و ستر حاله عنه تعالى حتى يحرم من فضله، و ليس كذلك فإن الله سبحانه عليم لا يطرأ عليه جهل.

قوله تعالى: [□]يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ [□]وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، فلما كان الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء و كان واسعاً عليماً أمكن أن يختص بعض عباده ببعض نعمه فإن له أن يتصرف فى ملكه كيف يشاء، و ليس إذا لم يكن ممنوع التصرف فى فضله و إيتائه عباده أن يجب عليه أن يؤتى كل فضله كل أحد فإن هذا أيضاً نوع ممنوعه فى التصرف بل له أن يختص بفضله من يشاء.

و قد ختم الكلام بقوله: [□]وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ و هو بمنزله التعليل لجميع المعانى السابقه فإن لازم عظمه الفضل على الإطلاق أن يكون بيده يؤتیه من يشاء، و أن يكون واسعاً فى فضله، و أن يكون عليماً بحال عباده و ما هو اللائق بحالهم من الفضل، و أن يكون له أن يختص بفضله من يشاء.

و فى تبديل الفضل بالرحمه فى قوله: [□]يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، دلالة على أن

الفضل و هو العطيته غير الواجبه من شعب الرحمه، قال تعالى: «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ»: الأعراف-١٥٦، و قال: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَّيْنَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا»: النور-٢١، و قال تعالى: «قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ»: إسرائ-١٠٠.

قوله تعالى: وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ -إلى قوله:

سَبِيلٌ

-إشارة إلى اختلافهم في حفظ الأمانات و اليهود اختلافا فاحشا آخذنا بطرفي التضاد و أن هذا و إن كان في نفسه رذيله قوميه ضاره إلا- أنه ناش بينهم فاش في جماعتهم من رذيله أخرى اعتقاديه و هي ما يشتمل عليه قولهم: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ، فإنهم كانوا يسمون أنفسهم بأهل الكتاب، و غيرهم بالأُميين فقولهم: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ معناه نفى أن يكون لغير إسرائيلي على إسرائيلي سبيل، و قد أسندوا الكلمه إلى الدين، و الدليل عليه قوله تعالى: وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ بَلَىٰ «إلخ».

فقد كانوا يزعمون- كما أنهم اليوم على زعمهم- أنهم هم المخصوصون بالكرامه الإلهيه لا تعدوهم إلى غيرهم بما أن الله سبحانه جعل فيهم نبوه و كتابا و ملكا فلهم السيادة و التقدم على غيرهم، و استنتجوا من ذلك أن الحقوق المشرعه عندهم اللانزيمه المراعاة عليهم كحرمة أخذ الربا و أكل مال الغير: و هضم حقوق الناس إنما هي بينهم معاشر أهل الكتاب فالمحرم هو أكل مال الإسرائيلى على مثله، و المحظور هضم حقوق يهودى على أهل ملته، و بالجملة إنما السبيل على أهل الكتاب لأهل الكتاب، و أما غير أهل الكتاب فلا- سبيل له على أهل الكتاب فلهم أن يحكموا في غيرهم ما شاءوا و يفعلوا في من دونهم ما أرادوا، و هذا يؤدي إلى معاملتهم مع غيرهم معاملة الحيوان العجم كائنا من كان.

و هذا و إن لم يوجد فيما عندهم من الكتب المنسوبة إلى الوحي كالتوراه و غيرها لكنه أمر أخذوه من أفواه أحبارهم فقلدوهم فيه ثم لما كان الدين الموسوى لا يعدو بنى إسرائيل إلى غيرهم جعلوه جنسيه بينهم، و تولد من ذلك أن هذه الكرامه و السؤدد أمر جنسى خص بذلك بنو إسرائيل خاصه فالانتساب الإسرائيلى هو ماده الشرف و عنصر السؤدد و المنتسب إلى إسرائيل له التقدم المطلق على غيره، و هذه الروح الباغيه إذا دبت في قلب قوم بعثتهم إلى إفساد الأرض و أماته روح الإنسانيه و آثارها

نعم أصل هذه الكلمه-و هو سلب الحقوق العامه عن بعض الأفراد و الجوامع - مما لا مناص عنه فى الجامعه الإنسانيه لكن الذى يعتبره المجتمع الإنسانى الصالح هو سلب الحقوق عمن يريد إبطال الحقوق و هدم المجتمع، و الذى يعتبره الإسلام فى ثبوت الحق هو دين التوحيد من الإسلام أو الذمه فمن لا- إسلام له و لا- ذمه، فلا- حق له من الحيوه و هو الذى ينطبق على الناموس الفطرى الذى سمعت أنه المعتبر إجمالاً عند المجتمع الإنسانى.

و لىرجع إلى ما كنا فيه من الكلام فى الآيه فقوله تعالى: **وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** ، كان الظاهر أن يقال: و منهم، فهو من وضع الظاهر موضع الضمير و الوجه فيه دفع أن يتوهم أن هؤلاء بعض من الطائفه المذكوره فى الآيتين السابقتين التى قالت: **آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ** «إلخ» و لذلك لما اندفع التوهم المذكور قيل فى الآيه الآتية: **وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ** الآيه.

و هناك وجه آخر و هو أن ذكر الوصف-و هو كونهم **مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** مشعر بنوع من التعليل، و ذلك أن صدور هذا القول و الفعل منهم-أعنى قولهم: **لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ** ، و أكلهم مال الناس بذلك لم يكن بذاك البعيد المستغرب لو كانوا أميين لأخبر عندهم من النبوه و الوحي لكنهم أهل الكتاب و عندهم الكتاب فيه حكم الله، و هم يعلمون أن الكتاب لا- يحكم لهم بذلك، و لا يبيح لهم مال غيرهم لأنه غيرهم فهذا الذى قالوه ثم فعلوه. و هم أهل الكتاب منهم أغرب و أبعد، و التوبيخ و التقييح عليهم أوجه و ألزم.

و القنطار و الدينار معروفان و المقابله بينهما-على ما فيها من المحسنات البديعيه- و المقام مقام يذكر فيه الأمانه تفيد أنه كنى بهما عن الكثير و القليل، و المراد أن منهم من لا يخون الأمانه و إن كثرت و ثقلت قيمتها، و منهم من يخونها و إن قلت و خفت.

و كذا الخطاب الموضوع فى الكلام بقوله: **إِنْ تَأْمَنُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ** ، غير متوجه إلى مخاطب معين بل هو للتكنيه عن أى مخاطب يمكن أن يخاطب بهذا الكلام للإشعار بأن الحكم عام غير مقصور على واحد دون واحد، و الكلام فى معنى قولنا:

إن يأمنه مؤتمن أى مؤتمن كان بقنطار يؤده إليه.

و ما فى قوله: **إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا**، مصدرية على ما قيل، و التقدير إلا أن تدوم قائما عليه، و ذكر القيام عليه للدلالة على الإلحاح و الاستعجال فإن قيام المطالب على ساقه عند المطالبة من غير قعود دليل على ذلك و ربما قيل: إن **مَا ظَرَفِيهِ**، و ليس بشىء.

و قوله: **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**، ظاهر السياق أن ذلك إشاره إلى مجموع المضمون المأخوذ من سابق القول أى كون بعضهم يؤدى الأمانة و إن كانت خطيره مهمه، و بعضهم لا يؤديها و إن كانت حقيره لا يعبأ بها إنما هو لقولهم، **لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ** فأوجب ذلك اختلافا بينهم فى الصفات الروحية كحفظ الأمانات و الاتقاء عن تضييع حقوق الناس، و الاغترار بالكرامه مع أنهم يعلمون أن الله لم يسن لهم ذلك فى الكتاب و لا رضى بمثل هذه الأفعال منهم.

و يمكن أن يكون ذلك إشاره إلى حال الطائفة الثانية المذكوره بقوله: **وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينًا لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ**، و يكون ذكر الطائفة الأولى الأئمة لاستيفاء تمام الأقسام، و التحفظ على النصفه، و يجوز حينئذ أن تكون ضمائر الجمع فى قوله: **وَيَقُولُونَ** و فى قوله: **وَهُمْ يَعْلَمُونَ** راجعه إلى أهل الكتاب أو راجعه إلى قوله: **مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينًا**، بحسب المعنى و كذا يجوز على التقدير الثانى أن يكون المراد بضمير التكلم فى قوله: **عَلَيْنَا**، جميع أهل الكتاب أو خصوص البعض، و يختلف المعنى باختلاف المحتملات إلا أن الجميع صحيحه مستقيمه، و عليك بالتدبر فيها.

قوله تعالى: **وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** إبطال لدعواهم أنه **لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**، و دليل على أنهم كانوا ينسبون ذلك إلى الوحي السماوى و التشريع الدينى كما مر.

قوله تعالى: **بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**، رد لكلامهم و إثبات لما نفوه بقولهم: **لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**، و إيفاء العهد تتميمه بالتحفظ من العذر و النقص، و التوفيه البذل و الإعطاء و افياء، و الاستيفاء الأخذ و التناول و افياء.

و المراد بالعهد ما أخذ الله الميثاق عليه من عباده أن يؤمنوا به و يعبدوه على ما يشعر به قوله فى الآيه التاليه: **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا**، أو مطلق

العهد الذى منه عهد الله تعالى.

□
و قوله: فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ من قبيل وضع الكبرى موضع الصغرى إثارة للإيجاز، و التقدير فإن الله يحبه لأنه متق و الله يحب المتقين، و المراد أن كرامه الله لعباده المتقين حبه لهم لا ما زعمتموه من نفي السبيل.

فمفاد الكلام أن الكرامه الإلهيه ليست بذاك المبتذل السهل التناول حتى ينالها كل من انتسب إليه انتسابا أو يحسبها كل محتال أو مختال كرامه جنسيه أو قوميه بل يشترط فى نيلها الوفاء بعهد الله و ميثاقه و التقوى فى الدين فإذا تمت الشرائط حصلت الكرامه و هى المحبه و الولايه الإلهيه التى لا تعدو عباده المتقين، و أثرها النصره الإلهيه، و الحيوه السعيده التى تعمّر الدنيا و تصلح بال أهلها، و ترفع درجات الآخره.

فهذه هى الكرامه الإلهيه لا- أن يحمل قوما على أكتاف عباده من صالح و طالح و يطلقهم و يخلى بينهم و بين ما يشاءون و ما يعملون فيقولوا يوما: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ، و يوما نحن أولياء الله من دون الناس (١)، و يوما: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ (٢) فيهديهم ذلك إلى إفساد الأرض، و إهلاك الحرث و النسل.

□
قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا تَعْلِيلٌ لِلْحُكْمِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، و المعنى أن الكرامه الإلهيه خاصه بمن أوفى بعهدده و اتقى لأن غيرهم -و هم الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا- لا كرامه لهم.

و لما كان نقض عهد الله و ترك التقوى إنما هو للتمتع بزخارف الدنيا و إثارة شهوات الأولى على الأخرى كان فيه وضع متاع الدنيا موضع إيفاء العهد و التقوى، و تبادل العهد به، و لذلك شبه عملهم ذلك بالمعامله فجعل عهد الله مبيعا يشترى بالمتاع، و سمي متاع الدنيا و هو قليل بالثمن القليل و الاشتهاء هو البيع فقيل: يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا، أى يبدلون العهد و الأيمان من متاع الدنيا.

□ □ □ □
قوله تعالى: أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ،

ص: ٢٦٤

١- ١) قال تعالى: (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس الآية) الجمعة-١.

٢- ٢) قال تعالى: (و قالت اليهود و النصارى نحن أبناء الله و أحباؤه الآية) المائدة-١٨

الخالق النصيب، والتزكيه هي الإنماء نمووا صالحا، ولما كان الوصف المأخوذ في بيان هذه الطائفة من الناس مقابلا للوصف المأخوذ في الطائفة الأخرى المذكوره في قوله: مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ، ثم كانت التبعات المذكوره لوصفهم أمورا سلبية أفاد ذلك:.

أولا- أن الإتيان في الإشارة بلفظ أولئك الدال على البعد لإفاده بعد هؤلاء من ساحه القرب كما أن الموفون بعهدهم المتقون مقربون لمكان حب الله تعالى لهم.

و ثانيا: أن آثار محبه الله سبحانه هي الخلاق في الآخرة، والتكليم والنظر يوم القيامة، والتزكيه والمغفره، وهي رفع أليم العذاب.

والخصال التي ذكرها الله تعالى لهؤلاء الناقضين لعهد الله و أيمانهم أمور ثلاثه:

أحدها: أنهم لا نصيب لهم في الآخرة، والمراد بالآخرة هي الدار الآخرة (من قيام الوصف مقام الموصوف) ويعنى بها الحياه التي بعد الموت كما أن المراد بالدنيا هي الدار الدنيا وهي الحياه الدنيا قبل الموت.

ونفى النصيب عنهم في الآخرة لاختيارهم نصيب الدنيا عليه، ومن هنا يظهر أن المراد بالثمن القليل هو الدنيا، وإنما فسرناه فيما تقدم بمتاع الدنيا لمكان توصيفه تعالى إياه بالقليل، وقد وصف به متاع الدنيا في قوله-عز من قائل-: «قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ» النساء-٧٧، على أن متاع الدنيا هو الدنيا.

و ثانيها: أن الله لا- يكلمهم و لا- ينظر إليهم يوم القيامة، وقد حوذى به المحبه- الإلهيه للمتقين من حيث إن الحب يوجب تزود المحب من المحبوب بالاسترسال بالنظر والتكليم عند الحضور و الوصال، و إذ لا- يحبهم الله فلا- يكلمهم و لا- ينظر إليهم يوم القيامة و هو يوم الإحضار و الحضور، و التدرج من التكليم إلى النظر لوجود القوه و الضعف بينهما فإن الاسترسال في التكليم أكثر منه في النظر فكأنه قيل: لا نشرفهم لا كثيرا و لا قليلا.

و ثالثها: أن الله لا يزيكهم و لهم عذاب أليم، و إطلاق الكلام يفيد أن المراد بهما ما يعم التزكيه و العذاب في الدنيا و الآخرة.

قوله تعالى: وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ

، اللى هو فتل الجبل، و لى الرأس و اللسان إمالتهما. قال تعالى:

«لَوْوَا رُؤُسَهُمْ: المنافقون-٥، و قال تعالى: «لَيَّا بِاللَّسِنَتِهِمْ»: النساء-٤٦، و الظاهر أن المراد بذلك أنهم يقرءون ما افتروه من الحديث على الله سبحانه بألحان يقرءون بها الكتاب تلبيسا على الناس ليحسبوه من الكتاب و ما هو من الكتاب.

و تكرار لفظ الكتاب ثلاث مرات فى الكلام لدفع اللبس فإن المراد بالكتاب الأول هو الذى كتبه بأيديهم و نسبوه إلى الله سبحانه، و بالثانى الكتاب الذى أنزله الله تعالى بالوحى، و بالثالث هو الثانى كرر لفظه لدفع اللبس و للإشارة إلى أن الكتاب بما أنه كتاب الله أرفع منزله من أن يشتمل على مثل تلك المفتريات، و ذلك لما فى لفظ الكتاب من معنى الوصف المشعر بالعليه.

و نظيره تكرار لفظ الجلاله فى قوله: وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ مَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فالمعنى و ما هو من عند الله الذى هو إله حقا لا يقول إلا الحق قال تعالى:

«وَ الْحَقُّ أَقُولُ»: ص-٨٤.

و أما قوله: وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ تكذيب بعد تكذيب لنسبتهم ما اختلقوه من الوحى إلى الله سبحانه فإنهم كانوا يلبسون الأمر على الناس بلحن القول فأبطله الله بقوله: وَ مَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ثم كانوا يقولون بألسنتهم هو من عند الله فكذبهم الله: أولا- بقوله: وَ مَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، و ثانيا بقوله: وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، و زاد فى الفائدة أولا- أن الكذب من دأبهم و ديدنهم، و ثانيا أن ذلك ليس كذبا صادرا عنهم بالتباس من الأمر عليهم بل هم عالمون به متعمدون فيه.

بحث روائى

فى الدر المنثور: فى قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ الْآيَةِ- أخرج- يعنى ابن جرير- عن السدى، قال: ثم دعاهم رسول الله ص- يعنى الوفد من نصارى نجران- فقال- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ الْآيَةِ.

أقول: و روى فيه هذا المعنى أيضا عن ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير و ظاهر الرواية أن الآيه نزلت فيهم، و قد قدمنا الرواية فى أول السوره الداله على أن

صدر السوره إلى نيف وثمانين آيه نزلت في نصارى نجران، وهذه الآيه منها لوقوعها قبل تمام العدد.

و ورد في بعض الروايات أن رسول الله دعا يهود المدينة إلى الكلمه السواء حتى قبلوا الجزيه، و ذلك لا ينافى نزول الآيه في وفد نجران.

و في صحيح البخارى، بإسناده عن ابن عباس عن أبى سفيان في حديث طويل:

يذكر فيه كتاب رسول الله ص إلى هرقل عظيم الروم، قال أبو سفيان ثم دعا يعنى هرقل بكتاب رسول الله ص - فقرأ فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد - فإنى أدعوك بدعايه الإسلام أسلم تسلم، و أسلم يؤتتك الله أجرك مرتين - فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين - و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمه سواء - بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله - إلى قوله:-

إشهدوا بأننا مسلمون

الحديث.

أقول: و رواه أيضا مسلم في صحيحه، و رواه السيوطى في الدر المنثور، عن النسائى و عبد الرزاق و ابن أبى حاتم عن ابن عباس.

و قد قيل إن كتاب رسول الله ص إلى مقوقس عظيم القبط أيضا كان مشتملا على قوله تعالى: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمه سواء بيننا و بينكم، و هناك نسخه منسوبه إليه (ص) مخطوطه بالخط الكوفى تضاهى كتابه (ص) إلى هرقل و قد استنسخ منها أخيرا بالتصوير الشمسى ما يوجد عند كثيرين.

و كيف كان فقد ذكر المؤرخون أن رسول الله ص إنما كتب الكتب و أرسل الرسل إلى الملوك من قيصر و كسرى و النجاشى سنه ست من الهجره، و لازمه نزول الآيه في سنه ست أو قبلها و قد ذكر المؤرخون كالتبرى و ابن الأثير و المقرئى أن نصارى نجران إنما وفدوا على رسول الله ص - سنه عشر من الهجره، و ذكر آخرون كأبى الفداء في البدايه و النهايه و نظيره في السيره الحلييه أن ذلك كان في سنه تسع من الهجره، و لازم ذلك نزول هذه الآيه في سنه تسع أو عشر.

و ربما قيل: إن الآيه مما نزلت أول الهجره على ما تشعر به الروايات الآتية، و ربما قيل: إن الآيه نزلت مرتين نقله الحافظ ابن حجر.

ص: ٢٤٧

و الذى يؤيده اتصال آيات السوره سياقاً كما مرت الإشارة إليه فى أول السوره:

أن الآيه نزلت قبل سنه تسع، و أن قصه الوفد إنما وقعت فى سنه ست من الهجره أو قبلها، و من البعيد أن يكاتب (ص) عظماء الروم و القبط و فارس و يغمض عن نجران مع قرب الدار.

و فى الروايه نكته أخرى و هى تصدير الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم، و منه يظهر ما فى بعض ما نقلناه من الروايات فى قصه وفد نجران كما عن البيهقى فى الدلائل،:

أن رسول الله ص كتب إلى أهل نجران-قبل أن ينزل عليه طس سليمان: بسم الله إله إبراهيم و إسحاق و يعقوب من محمد رسول الله-إلى أسقف نجران إن أسلمتم فإنى أحمد إليكم الله-إله إبراهيم و إسحاق و يعقوب، أما بعد-فإنى أدعوكم إلى عباده الله من عباده العباد-و إلى ولايه الله من ولايه العباد فإن أبيتهم فالجزيه، و إن أبيتهم فقد آذنتكم بالحرب و السلام، الحديث.

و ذلك أن سوره النمل من السور المكيه و مضامين آياتها كالنص فى أنها نزلت قبل هجره النبى ص و كيف يجتمع ذلك مع قصه نجران على أن الكتاب يشتمل على أمور آخر لا يمكن توجيهها كحديث الجزيه و الإيدان بالحرب و غير ذلك، و الله أعلم.

و فى الدر المنثور، أخرج الطبرانى عن ابن عباس: " أن كتاب رسول الله إلى الكفار: **تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ** الآيه

و فى الدر المنثور، أيضاً: فى قوله تعالى: **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ الْآيَةَ**-أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران و أحبار يهود عند رسول الله ص-فتنازعا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، و قالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانياً فأنزل الله فيهم: **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ-وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَ الْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ**-إلى قوله **وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ** -فقال أبو رافع القرظى (1) أ تريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم-فقال رجل من أهل نجران أ ذلك تريد يا محمد فقال رسول الله ص-معاذ الله أن أعبد غير الله أو أمر بعباده غيره-ما بذلك بعثنى و لا

ص: ٢٦٨

(١-١) من يهود بنى قريظه.

أمرني فأنزل الله في ذلك من قولهما- مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ- ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ- إلى قوله بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ- ثم ذكر ما أخذ عليهم و على آباؤهم من الميثاق-بتصديقه إذا هو جاءهم و إقرارهم به على أنفسهم فقال- وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ- إلى قوله مِنَ الشَّاهِدِينَ .

أقول الآيات أعنى قوله مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ إلى آخر الآيات أوفق سياقاً و أسهل انطباقاً على عيسى بن مريم (ع) منه برسول الله ص على ما سيجيء في الكلام على الآيات فلعل ما في الرواية من نزول الآيات في حق رسول الله ص استنباط و تطبيق من ابن عباس على أن المعهود من دأب القرآن التعرض لهذا النوع من القول في صورته السؤال و الجواب أو الحكاياه و الرد.

و في تفسير الخازن، روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس و رواه محمد بن إسحاق عن ابن شهاب بإسناده حديث هجره الحبشه قال لما هاجر جعفر بن أبي طالب و أناس من أصحاب النبي ص إلى أرض الحبشه و استقرت بهم الدار و هاجر النبي ص إلى المدينة و كان من أمر بدر ما كان اجتمعت قريش في دار الندوه و قالوا إن لنا في الذين عند النجاشي من أصحاب محمد ثارا ممن قتل منكم ببدر فاجمعوا مالا و اهدوه إلى النجاشي لعله يدفع إليكم من عنده من قومكم و لينتدب إليه رجلان من ذوى رأيكم.

فبعثوا عمرو بن العاص و عماره بن أبي معيط معهم الهدايا الأدم و غيره فركبا البحر حتى أتيا الحبشه فلما دخلا على النجاشي سجدا له و سلما عليه و قالوا- له إن قومنا لك ناصحون شاكرون و لأصحابك محبون و إنهم بعثونا إليك لنحذر هؤلاء الذين قدموا عليك لأنهم قوم رجل كذاب خرج يزعم أنه رسول الله و لم يتابعه أحد منا إلا السفهاء و إنا كنا قد ضيقنا عليهم الأمر و ألجاناهم إلى شعب بأرضنا لا يدخل عليهم أحد فقتلهم الجوع و العطش فلما اشتد عليه الأمر بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك و ملكك و رعيتك فاحذرهم و ادفعهم إلينا لنكفيكم قال و آيه ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك و لا يحيونك بالتحية التي يحييك بها الناس رغبة عن دينك و سنتك.

قال: فدعاهم النجاشي فلما حضروا صاح جعفر بالبواب: يستأذن عليك حزب

الله تعالى، فقال النجاشي: مروا هذا الصائح فليعد كلامه، ففعل جعفر فقال النجاشي:

نعم فليدخلوا بأمان الله و ذمته فنظر عمرو إلى صاحبه فقال: أ لا تسمع كيف يرطنون بحزب الله و ما أجابهم به الملك؟ فأساءهما ذلك.

ثم دخلوا عليه فلم يسجدوا له فقال عمرو بن العاص: أ لا ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك؟ فقال لهم النجاشي: ما منعكم أن تسجدوا لي و تحيوني بالتحية التي يحييني بها من أتاني من الآفاق؟ قالوا: نسجد لله الذي خلقك و ملكك، و إنما كانت تلك التحية لنا و نحن نعبد الأوثان فبعث الله فينا نبيا صادقا، فأمرنا بالتحية التي رضىها الله و هي السلام تحية أهل الجنة فعرف النجاشي أن ذلك حق و أنه في التوراه و الإنجيل، قال: أيكم الهاتف: يستأذن عليك حزب الله؟ قال جعفر: أنا، قال: إنك ملك من ملوك الأرض من أهل الكتاب، و لا- يصلح عندك كثرة الكلام و لا الظلم، و إنما أحب أن أجيب عن أصحابي فمر هذين الرجلين فليتكلم أحدهما و لينصت الآخر فتسمع محاورتنا فقال عمرو لجعفر: تكلم.

فقال جعفر للنجاشي: سل هذين الرجلين، أ عبيد نحن أم أحرار؟ فإن كنا عبيدا قد أبقنا من أربابنا فردنا عليهم. فقال النجاشي: أ عبيد هم أم أحرار؟ فقال بل أحرار كرام، فقال النجاشي: نجوا من العبودية فقال جعفر: سلهما: هل أرقنا دما بغير حق فيقتص منا؟ فقال عمرو: لا و لا قطره، قال جعفر: سلهما هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها، قال النجاشي: إن كان قنطارا فعلى قضاؤه، فقال عمرو لا و لا قيراط، فقال النجاشي: فما تطلبون منهم؟ قال: كنا و إياهم على دين واحد، على دين آباؤنا فتركوا ذلك، و اتبعوا غيره فبعثنا قومنا لتدفعهم إلينا فقال النجاشي:

ما هذا الذي كنتم عليه و الدين الذي اتبعوه؟ فقال جعفر: أما الدين الذي كنا عليه فهو دين الشيطان كنا نكفر بالله و نعبد الحجارة، و أما الذي تحولنا إليه فهو دين الله الإسلام جاءنا به من عند الله رسول بكتاب مثل كتاب ابن مريم موافقا له، فقال النجاشي يا جعفر تكلمت بأمر عظيم.

ثم أمر النجاشي بضرب الناقوس فضرب و اجتمع إليه كل قسيس و راهب فلما اجتمعوا عنده قال النجاشي: أنشدكم بالله الذي أنزل الإنجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى و بين يوم القيامة نبيا مرسلا؟ قالوا اللهم نعم قد بشرنا فقال: من آمن به فقد

آمن بي و من كفر به فقد كفر بي فقال النجاشي لجعفر ما ذا يقول لكم هذا الرجل؟ و ما يأمركم به؟ و ما ينهاكم عنه؟ فقال يقرأ علينا كتاب الله، و يأمرنا بالمعروف و ينهانا عن المنكر، و يأمرنا بحسن الجوار و صلة الرحم و ير اليتيم، يأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له، فقال له: اقرأ على مما يقرأ عليكم فقرأ عليه سورة العنكبوت و الروم ففاضت عينا النجاشي و أصحابه من الدمع، و قالوا: زدنا من هذا الحديث الطيب فقرأ عليهم سورة الكهف فأراد عمرو أن يغضب النجاشي فقال إنهم يشتمون عيسى و أمه فقال النجاشي: فما تقولون في عيسى و أمه؟ فقرأ عليهم سورة مريم فلما أتى على ذكر مريم و عيسى رفع النجاشي من سواكه قدر ما يقذى العين، و قال: و الله ما زاد المسيح على ما تقولون هذا، ثم أقبل على جعفر و أصحابه فقال اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي يقول: آمنون من سبكم و آذاكم غم. ثم قال: أبشروا و لا تخافوا فلا دهوره اليوم على حزب إبراهيم فقال عمرو يا نجاشي و من حزب إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرهط و صاحبهم الذي جاءوا من عنده و من اتبعهم فأنكر ذلك المشركون و ادعوا دين إبراهيم ثم رد النجاشي على عمرو و صاحبه المال الذي حملوه و قال: إنما هديتكم إلى رشوه فاقبضوها فإن الله ملكني و لم يأخذ مني رشوه، قال جعفر: فانصرفنا فكننا في خير جوار، و أنزل الله عز و جل في ذلك على رسول الله ص في خصومتهم في إبراهيم و هو في المدينة: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ .

أقول: و هذه القصة مرويه من طرق أخرى و من طرق أهل البيت (ع) و إنما نقلناها على طولها لاشتغالها على فوائد هامه في بلاء المسلمين من المهاجرين الأولين، و ليست من سبب النزول في شيء.

و في تفسير العياشي، عن الصادق (ع): في قوله تعالى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَ لَا نَصْرَانِيًّا، قال: قال أمير المؤمنين لا يهوديا يصلى إلى المغرب، و لا نصرانيا يصلى إلى المشرق - لكن كان حنيفا مسلما على دين محمد ص.

أقول: قد تقدم في البيان السابق معنى كونه على دين محمد ص، و قد اعتبر في الروايه استقبال الكعبه و قد حولت القبلة إليها في المدينة و الكعبه في نقطه جنوبها تقريبا، و تأبى اليهود و النصارى عن قبولها أوجب لهم الانحراف عنها إلى

جهتى المغرب التى بها بيت المقدس، و المشرق التى يستقبلها النصارى فعد ذلك من الطائفتين انحرافا عن حاق الوسط، و قد أيد هذه العناية لفظ الآيه وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا الْآيه، و بالجمله فإنما هى عناية لطيفه لا تزيد على ذلك.

و فى الكافى، عن الصادق(ع): خالصا مخلصا ليس فيه شىء من عباده الأوثان.

و فى المجمع: فى قوله تعالى: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الْآيه، قال أمير المؤمنين (ع): إن أولى الناس بالأنبياء أعملهم بما جاءوا به- ثم تلا هذه الآيه و قال: إن ولى محمد من أطاع الله و إن بعدت لحمته، و إن عدو محمد من عصى الله و إن قربت لحمته.

و فى الكافى، و تفسير العياشى، عن الصادق(ع): هم الأئمه و من اتبعهم.

و فى تفسيرى القمى، و العياشى، عن عمر بن أذينة عنه(ع) قال: أنتم و الله من آل محمد، فقلت: من أنفسهم جعلت فداك؟ قال: نعم و الله من أنفسهم ثلاثا، ثم نظر إلى و نظرت إليه، فقال: يا عمر إن الله يقول فى كتابه: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ الْآيه .،

و فى تفسير القمى: فى قوله تعالى: وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا الْآيه، عن الباقر(ع): أن رسول الله ص لما قدم المدينة- و هو يصلى نحو بيت المقدس أعجب ذلك القوم- فلما صرفه الله عن بيت المقدس إلى بيت الله الحرام- وجدت اليهود من ذلك، و كان صرف القبلة صلاه الظهر، فقالوا صلى محمد الغداه و استقبل قبلتنا- فآمنوا بالذى أنزل على محمد وجه النهار- و اكفروا آخره يعنوه القبلة- حين استقبال رسول الله ص المسجد الحرام.

أقول: و الروايه كما ترى تجعل قوله وَجْهَ النَّهَارِ، ظرفا لقوله: أُنزِلَ، دون قوله: آمَنُوا، و قد تقدم الكلام فيه فى البيان السابق.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس:"

فى قوله: وَقَالَتْ طَائِفَةٌ الْآيه، قال: إن طائفه من اليهود قالت: إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا، و إذا كان آخره فصلوا صلاتكم لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب و هم أعلم منا لعلهم ينقلبون عن دينهم.

أقول: و رواه فيه أيضا عن السدى و مجاهد.

و في الكافي،: في قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأِيمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا - أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ - وَلَا يُنظَرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (وَلَا يُزَكِّيهِمْ) وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، و الخلاق النصيب فمن لم يكن له نصيب في الآخرة - فبأى شيء يدخل الجنة.

و في أمالي الشيخ، بإسناده عن عدى بن عدى عن أبيه قال: اختصم امرؤ القيس و رجل من حضرموت - إلى رسول الله ص في أرض فقال: أ لك بينه؟ قال: لا، قال: فبيمينه، قال: إذن و الله يذهب بأرضي، قال: إن ذهب بأرضك بيمينه كان ممن لا ينظر الله إليه يوم القيامة - و لا يزكيه و له عذاب أليم، قال: ففزع الرجل و ردها إليه.

أقول: و الروايه كما ترى لا تدل على نزول الآية في مورد القصه، و قد روى من طرق أهل السنه في عده روايات أن الآية نزلت في هذا الشأن، و هي متعارضه من حيث مورد القصه: ففي بعضها أن النزاع كان بين امرئ القيس و رجل من حضرموت كما مر في الروايه السابقه، و في بعضها أنه كان بين الأشعث بن القيس و بين رجل من اليهود في أرض له، و في بعضها أنها نزلت في رجل من الكفار و قد كان أقام سلعه له في السوق فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يعطه ليوقع بها رجلا من المسلمين فنزلت الآية.

و قد عرفت في البيان السابق أن ظاهر الآية أنها واقعه موقع التعليل لمضمون الآية السابقه عليها: فالوجه حمل الروايات إن أمكن على بيان انطباق الآية على مورد القصه دون النزول بالمعنى المعهود منه.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

اشاره

مَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)

وقوع الآيات عقيب الآيات المرتبطة بأمر عيسى(ع) يفيد أنها بمنزلة الفصل الثاني من الاحتجاج على براءه ساحه المسيح مما يعتقد في حقه أهل الكتاب من النصارى، و الكلام بمنزلة قولنا: إنه ليس كما تزعمون فلا هو رب و لا أنه ادعى لنفسه الربوبية:

أما الأول: فلأنه مخلوق بشري حملته أمه و وضعته و ربه في المهدي غير أنه لا- أب له كآدم(ع) فمثله عند الله كمثل آدم، و أما الثاني: فلأنه كان نبيا أوتى الكتاب و الحكم و النبوه و النبي الذي هذا شأنه لا يعدو طور العبودية و لا يتعري عن زى الرقيه فكيف يتأتى أن يقول للناس اتخذوني ربا و كونوا عبادا لى من دون الله، أو يجوز ذلك في حق غيره من عباد الله من ملك أو نبى فيعطى لعبد من عباد الله ما ليس له بحق، أو ينفى عن نبى من الأنبياء ما أثبت الله في حقه من الرساله فيأخذ منه ما هو له من الحق.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَ التُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ، البشر مرادف للإنسان، و يطلق على الواحد و الكثير فالإنسان الواحد بشر كما أن الجماعة منه بشر.

و قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ ، اللام للملك أى لا يملك ذلك أى ليس له بحق كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ : النور-١٦، و قوله: ﴿وَ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ : آل عمران-١٦١.

و قوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ التُّبُوَّةَ﴾ ، اسم كان إلا- أنه توطنه لما يتبعه من قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾ ، و ذكر هذه التوطنه مع صحه المعنى بدونها ظاهرا يفيد وجها آخر لمعنى قوله ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ ، فإنه لو قيل ما كان لبشر أن يقول للناس، كان معناه أنه لم يشرع له هذا الحق و إن أمكن أن يقول ذلك فسقا و عتوا، و لكنه

إذا قيل: **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ، ثُمَّ يَقُولَ:** كان معناه أن إيتاء الله له العلم و الفقه مما عنده و تربيته له بتربيته ربانيه لا- يدعه أن يعدو طور العبوديه، و لا- يوسع له أن يتصرف فيما لا- يملكه و لا- يحق له كما يحكيه تعالى عن عيسى (ع) في قوله: **«وَ إِذِ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمَّيِ الْهَيْئِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ»:** المائدة- ١١٦.

و من هنا تظهر النكته في قوله: **أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ «إِلخ»** دون أن يقال: ما كان لبشر آتاه الله الكتاب و الحكم و النبوه أن يقول «إلخ» فإن العبارة الثانيه تفيد معنى أصل التشريع كما تقدم بخلاف قوله: **أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ «إِلخ»** فإنه يفيد أن ذلك غير ممكن البتة أى إن التريه الربانيه و الهدايه الإلهيه لا تتخلف عن مقصدها كما قال تعالى:

«أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ X (يعنى قوم رسول الله ص X) فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ»: الأنعام- ٨٩.

فمحصل المعنى أنه لا يسع لبشر أن يجمع بين هذه النعم الإلهيه و بين دعوه الناس إلى عبادته نفسه بأن يؤتى الكتاب و الحكم و النبوه ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله، فالآيه بحسب السياق بوجه كقوله تعالى: **«لَنْ يَشِيَّتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَ لَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ»** -X إلى أن قال X-: **وَ أَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَ اسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وِليًا وَ لَا نَصِيرًا»:** النساء- ١٧٣، فإن المستفاد من الآيه: أن المسيح و كذا الملائكة المقربون أجل شأننا و أرفع قدرا أن يستنكفوا عن عبادته الله فإن الاستنكاف عن عبادته يستوجب أليم العذاب، و حاشا أن يعذب الله كرام أنبيائه و مقربى ملائكته.

فإن قلت: الإتيان بثم الداله على التراخي في قوله: **ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ**، ينافى الجمع الذى ذكرته.

قلت: ما ذكرناه من معنى الجمع محصل المعنى، و كما يصح اعتبار الاجتماع و المعيه بين المتحددين زمانا كذلك يصح اعتباره بين المترتين و المتتاليين فهو نوع من الجمع.

و أما قوله: **كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ**، فالعباد كالعبيد جمع عبد، و الفرق بينهما أن العباد يغلب استعماله فيما إذا نسب إلى الله سبحانه، يقال: عباد الله، و لا

يقال: غالباً عباد الناس، بل عبيد الناس و تقييد قوله: عِبَاداً لِي بقوله: مِنْ دُونِ اللَّهِ تقييد قهرى فَإِنَّ اللَّهَ سبحانه لا يقبل من العباده إلا ما هو خالص لوجهه الكريم كما قال تعالى:

«أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ»: الزمر - ٣، فرد عباده من يعبد مع عبادته غيره حتى بعنوان التقرب و التوسل و الاستشفاع.

على أن حقيقه العباده لا تتحقق إلا مع إعطاء استقلال ما للمعبود حتى فى صورته الإشراك فإن الشريك من حيث إنه شريك مساهم ذو استقلال ما، و الله سبحانه له الربوبية المطلقة فلا يتم ربوبيته و لا تستقيم عبادته إلا مع نفى الاستقلال عن كل شىء من كل جهه فعباده غير الله عباده له من دون الله و إن عبد الله معه.

قوله تعالى: وَ لَكِنْ كُونُوا رَبَّائِينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ الربانى منسوب إلى الرب، زيد عليه الألف و النون للدلاله على التفخيم كما يقال لحيانى لكثير اللحيه و نحو ذلك، فمعنى الربانى شديد الاختصاص بالرب و كثير الاشتغال بعبوديته و عبادته، و الباء فى قوله: بِمَا كُنْتُمْ، للسببيه و ما مصدرية، و الكلام بتقدير القول و المعنى، و لكن يقول: كونوا ربانيين بسبب تعليمكم الكتاب للناس و دراستكم إياه فيما بينكم.

و الدراسة أخص من التعليم فإنه يستعمل غالباً فيما يتعلم عن الكتاب بقراءته قال الراغب: درس الدار بقى أثرها، و بقاء الأثر يقتضى انمحاءه فى نفسه، فلذلك فسر الدروس بالانمحاء، و كذا درس الكتاب، و درست العلم تناولت أثره بالحفظ، لما كان تناول ذلك بمداومه القراءه عبر عن إدامه القراءه بالحفظ، قال تعالى: وَ دَرَسُوا مَا فِيهِ، و قال: بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ، وَ مَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا انتهى.

و محصل الكلام أن البشر الذى هذا شأنه إنما يدعوكم إلى التلبس بالإيمان و اليقين بما فى الكتاب الذى تعلمونه و تدرسونه من أصول المعارف الإلهيه، و الانصاف و التحقق بالملكات و الأخلاق الفاضله التى يشتمل عليها، و العمل بالصالحات التى تدعون الناس إليها حتى تنقطعوا بذلك إلى ربكم، و تكونوا به علماء ربانيين.

وقوله: **يٰۤاَكْفُتُمْ**، حيث اشتمل على الماضى الدال على التحقق لا- يخلو عن دلالة ما على أن الكلام فى الآيه مسوق للتعريض بالنصارى من أهل الكتاب فى قولهم: إن عيسى أخيرهم بأنه ابنه و كلمته على الخلاف فى تفسير البنوه، وذلك أن بنى إسرائيل هم الذين كان فى أيديهم كتاب سماوى يعلمونه و يدرسونه و قد اختلفوا فيه اختلافا يصاحب التغيير و التحريف، و ما بعث عيسى(ع) إلا ليبين لهم بعض ما اختلفوا فيه، و ليحل بعض الذى حرم عليهم، و بالجمله ليدعوهم إلى القيام بالواجب من وظائف التعليم و التدريس و هو أن يكونوا ربانيين فى تعليمهم و دراستهم كتاب الله سبحانه.

و الآيه و إن لم تأب الانطباق على رسول الله ص بوجه فقد كانت لدعوته أيضا مساس بأهل الكتاب الذين كانوا يعلمون و يدرسون كتاب الله لكن عيسى(ع) أسبق انطباقا عليه، و كانت رسالته خاصة بنى إسرائيل بخلاف رسول الله ص.

و أما سائر الأنبياء العظام من أولى العزم و الكتاب: كنوح و إبراهيم و موسى فمضمون الآيه لا ينطبق عليهم و هو ظاهر.

قوله تعالى: **وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا** عطف على قوله **يَقُولَ** :

على القراءه المشهوره التى هى نصب يأمركم، و هذا كما كان طائفه من أهل الكتاب كالصابئين يعبدون الملائكة و يسندون ذلك إلى الدعوه الدينيه، و كعرب الجاهليه حيث كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله، و هم يدعون أنهم على دين إبراهيم(ع) هذا فى اتخاذ الملائكة أربابا.

و أما اتخاذ النبيين أربابا فكقول اليهود: عزيز بن الله على ما حكاه القرآن و لم يجوز لهم موسى(ع) ذلك، و لا وقع فى التوراه إلا توحيد الرب و لو جوز لهم ذلك لكان أمرا به حاشاه من ذلك.

و قد اختلفت الآيتان: أعنى قوله: **ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ** و قوله: **وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا** من جهتين فى سياقهما: الأولى:

أن المأمور فى الأولى (**ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ**) الناس، و فى الثانية هم المخاطبون بالآيه، و الثانية: أن المأمور به فى الأولى العبوديه له و فى الثانية الاتخاذ أربابا.

أما الأولى فحيث كان الكلام مسوقا للتعريض بالنصارى فى عبادتهم لعيسى،

و قولهم بألوهيته صريحا مسندين ذلك إلى دعوته كان ذلك نسبة منهم إليه أنه قال:

كُونُوا عِبَادًا لِي

بخلاف اتخاذ الملائكة و النبيين أربابا بالمعنى الذى قيل فى غير عيسى فإنه يضاد الألوهيه بلازمه لا بصريحه فلذلك قيل: أربابا، و لم يقل: آلهه.

و أما الثانيه فالوجه فيه أن التعبيرين كليهما (كُونُوا عِبَادًا لِي - لَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا) أمر لو تعلق بأحد تعلق بهؤلاء الذين يخاطبون بهذه الآيات من أهل الكتاب و العرب لكن التعبير لما وقع فى الآيه الأولى بالقول، و القول يقضى بالمشافهه و لم يكن الحاضرون فى زمن نزول الآيه حاضرين إذ ذاك لا جرم قيل: ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ، و لم يقل:

ثم يقول لكم، و هذا بخلاف لفظ الأمر المستعمل فى الآيه الثانيه فإنه لا يستلزم شفاها بل يتم مع الغيبه فإن الأمر المتعلق بالأسلاف متعلق بالأخلاف مع حفظ الوحده القوميه، و أما القول فهو لإفادته بحسب الانصراف إسماع الصوت يقضى بالمشافهه و الحضور إلا أن يعنى به مجرد معنى التفهيم.

و على هذا فالأصل فى سياق هذه الآيات الحضور و خطاب الجمع، كما جرى عليه قوله تعالى وَ لَا يَأْمُرُكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

قوله تعالى: أَيْ أَمْرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ، ظاهر الخطاب أنه متعلق بجميع المنتحلين بالنبوه من أهل الكتاب أو المدعين للانتساب إلى الأنبياء كما كانت عرب الجاهليه تزعم أنهم حنفاء و الكلام موضوع على الفرض و التقدير فالمعنى أنكم على تقدير إجابتكم هذا البشر الذى أوتى الكتاب و الحكم و النبوه تكونون مسلمين لله متحلين بحليه الإسلام مصبوغين بصبغته فكيف يمكنه أن يأمركم بالكفر و يضلكم عن السبيل الذى هداكم إليه بإذن الله سبحانه.

و من هنا يظهر أن المراد بالإسلام هو دين التوحيد الذى هو دين الله عند جميع الأنبياء على ما يدل عليه أيضا احتفاف الآيات بهذا المعنى من الإسلام أعنى قوله تعالى من قبل: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ»: آل عمران- ١٩، و قوله تعالى من بعد: «أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ» -X إلى أن قال X-: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ»: آل عمران- ٨٥.

و قد ذكر بعض المفسرين أن المراد بقوله تعالى: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ إِلَى آخِرِ

الآيتين رسول الله ص بناء على ما روى في سبب النزول وحاصله أن أبا رافع القرظي و رجلا من نصارى نجران قالوا لرسول الله ص: أ تريد أن نعبدك يا محمد؟ فأنزل الله: مَا كَانَ لِيُشِيرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ الْحَدِيثِ ثُمَّ أَيْدَهُ بِقَوْلِهِ فِي آخِرِهِمَا بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ الدِّينَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ص.

و فيه أنه خلط بين الإسلام في عرف القرآن و هو دين التوحيد الذي بعث به جميع الأنبياء و بين الإسلام بالاصطلاح الحادث بين المسلمين بعد عصر النزول، و قد تقدم الكلام فيه.

(خاتمه فيها فصول)

١- ما هي قصة عيسى و أمه في القرآن؟

كانت أم المسيح مريم بنت عمران حملت بها أمها فنذرت أن تجعل ما في بطنها إذا وضعته محررا يخدم المسجد و هي تزعم أن ما في بطنها ذكور فلما وضعتها و بان لها أنها أنثى حزنت و تحسرت ثم سميتها مريم أي الخادمة و قد كان توفي أبوها عمران قبل ولادتها فأنت بها المسجد تسلمها للكهنه و فيهم زكريا فتشاجروا في كفالتها ثم اصطلحوا على القرعه و ساهموا فخرج لزكريا فكفلها حتى إذا أدركت ضرب لها من دونهم حجابا فكانت تعبد الله سبحانه فيها لا يدخل عليها إلا زكريا و كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا؟ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، و قد كانت(ع) صديقه، و كانت معصومه بعصمه الله، طاهره مصطفىاه محدثه حدثها الملائكة: بأن الله اصطفاها و طهرها و كانت من القانتين و من آيات الله للعالمين(سوره آل عمران آيه ٣٥-٤٤، سوره مريم آيه ١٦، سوره الأنبياء آيه ٩١، سوره التحريم آيه ١٢).

ثم إن الله تعالى أرسل إليها الروح و هي محتجبه فتمثل لها بشرا سويا، و ذكر لها أنه رسول من ربها ليهب لها بإذن الله ولدا من غير أب، و بشرها بما سيظهر من ولدها من المعجزات الباهره، و أخبرها أن الله سيؤيده بروح القدس، و يعلمه الكتاب و الحكمة و التوراه و الإنجيل، و رسولا إلى بني إسرائيل ذا الآيات البينات، و أنبأها

بشأنه و قصته ثم نفخ الروح فيها فحملت بها حمل المرأة بولدها الآيات من آل عمران:

(٣٥-٤٤).

ثم انتبذت مريم به مكانا قصيا فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا و كنت نسيا منسيا فناداها من تحتها أن لا- تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا و هزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى و اشربى و قرى عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولى إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا فأنت به قومها تحمله (سوره مريم آيه ٢٠-٢٧)، و كان حملة و وضعه و كلامه و سائر شئون وجوده من سنخ ما عند سائر الأفراد من الإنسان.

فلما رآها قومها-و الحال هذه-ثاروا عليها بالطعنه و اللوم بما يشهد به حال امرأه حملت و وضعت من غير بعلى، و قالوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا؟ قَالَ: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا وَ جَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَ بَرًّا بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا، وَ السَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا: سوره مريم آيه-٢٧-٣٣ فكان هذا الكلام منه (ع) كبراعه الاستهلال بالنسبه إلى ما سينهض على البغى و الظلم و إحياء شريعة موسى (ع) و تقويمه، و تجديد ما اندرس من معارفه، و بيان ما اختلفوا فيه من آياته.

ثم نشأ عيسى (ع) و شب و كان هو و أمه على العاده الجاربه فى الحياه البشرىه يأكلان و يشربان و فيهما ما فى سائر الناس من عوارض الوجود إلى آخر ما عاشا.

ثم إن عيسى (ع) أوتى الرساله إلى بنى إسرائيل فانبعث يدعوهم إلى دين التوحيد، و يقول: أَنَّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنَّى أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْمَأْكَمَةَ وَ اللَّابْرَصَ وَ أُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُتْبِتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ، ... إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ .

و كان يدعوهم إلى شريعته الجديده و هو تصديق شريعة موسى (ع) إلا أنه

ص: ٢٨٠

نسخ بعض ما حرم فى التوراه تشديدا على اليهود، و كان يقول: قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأَيِّنْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ، و كان يقول: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .

و أنجز (ع) ما ذكره لهم من المعجزات كخلق الطير و إحياء الموتى و إبراء الأكمه و الأبرص و الإخبار عن المغيبات بإذن الله.

و لم يزل يدعوهم إلى توحيد الله و شريعته الجديدة حتى أيس من إيمانهم لما شاهد من عتو القوم و عنادهم و استكبار الكهنة و الأخبار عن ذلك فانتخب من الشردمه التى آمنت به الحواريين أنصارا له إلى الله.

ثم إن اليهود ثاروا عليه يريدون قتله فتوفاه الله و رفعه إليه، و شبه لليهود:

فمن زاعم أنهم قتلوه، و من زاعم أنهم صلبوه، وَ لَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ آل عمران آيه ٤٥-٥٨، الزخرف آيه ٦٣-٦٥، الصف آيه ٦ و ١٤، المائدة آيه ١١٠ و ١١١، النساء آيه ١٥٧ و ١٥٨) فهذه جمل ما قصه القرآن فى عيسى بن مريم و أمه.

٢ منزله عيسى عند الله و موقفه فى نفسه:

كان (ع) عبدا لله و كان نبيا (سوره مريم آيه ٣٠) و كان رسولا إلى بنى إسرائيل (آل عمران آيه ٤٩) و كان واحدا من الخمسه أولى العزم صاحب شرع و كتاب و هو الإنجيل (الأحزاب آيه ٧، الشورى آيه ١٣، المائدة آيه ٤٦) و كان سماه الله بالمسيح عيسى (آل عمران آيه ٤٥) و كان كلمه لله و روحا منه (النساء آيه ١٧١) و كان إماما (الأحزاب آيه ٧) و كان من شهداء الأعمال (النساء آيه ١٥٩، المائدة آيه ١١٧) و كان مبشرا برسول الله ص (الصف آيه ٦) و كان وجيها فى الدنيا و الآخرة و من المقربين (آل عمران آيه ٤٥) و كان من المصطفين (آل عمران آيه ٣٣) و كان من المجتبيين، و كان من الصالحين (الأنعام آيه ٨٥-٨٧) و كان مباركا أينما كان و كان زكيا و كان آيه للناس و رحمه من الله و برا بوالدته و كان مسلما عليه (مريم آيه ٣٣) و كان ممن علمه الله الكتاب و الحكمة (آل عمران آيه ٤٨)، فهذه اثنتان و عشرون خصله من مقامات الولاية هى جمل ما وصف الله به

هذا النبي المكرم و رفع بها قدره، و هي على قسمين: اكتسابيه كالعبوديه و القرب و الصلاح، و اختصاصيه، و قد شرحنا كلا منها في الموضوع المناسب له من هذا الكتاب بما نطبق فهمه فليرجع فيها إلى مظانها منه.

٣- ما الذي قاله عيسى (ع)؟ وما الذي قيل فيه؟

ذكر القرآن أن عيسى كان عبدا رسولا، و أنه لم يدع لنفسه ما نسبوه إليه، و لا تكلم معهم إلا بالرساله، كما قال تعالى: «وَ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ: أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ»: المائدة- ١١٦- ١١٩.

و هذا الكلام العجيب الذي يشتمل من العبوديه على عصارته، و يتضمن من بارع الأدب على مجامعه يفصح عما كان يراه عيسى المسيح (ع) من موقفه نفسه تلقاء ربوبيه ربه، و تجاه الناس و أعمالهم فذكر أنه كان يرى نفسه بالنسبه إلى ربه عبدا لا شأن له إلا الامتثال لا- يرد إلا- عن أمر، و لا- يصدر إلا- عن أمر، و لم يؤمر إلا- بالدعوه إلى عباده الله وحده و لم يقل لهم إلا ما أمر به: أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ .

و لم يكن له من الناس إلا- تحمل الشهاده على أعمالهم فحسب، و أما ما يفعله الله فيهم و بهم يوم يرجعون إليه فلا شأن له في ذلك، غفر أو عذب.

فإن قلت: فما معنى ما تقدم في الكلام على الشفاعه أن عيسى (ع) من الشفعاء يوم القيامة يشفع فيشفع؟.

قلت: القرآن صريح أو كالصريح في ذلك، قال تعالى: «وَ لَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ»: الزخرف- ٨٦، و قد قال تعالى فيه: «وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً»: النساء- ١٥٩، و قال تعالى: «وَ إِذْ

عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ: المائدة-١١٠، وقد تقدم إشباع الكلام فى معنى الشفاعة، وهذا غير التفديده التى يقول بها النصارى، وهى إبطال الجزاء بالتفديده والعوض فإنها تبطل السلطنة المطلقة الإلهيه على ما سيجىء من بيانه، والآيه إنما تنفى ذلك، وأما الشفاعة فالآيه غير متعرضه لأمرها لا إثباتا ولا نفيًا فإنها لو كانت بصدد إثباتها-على منافاته (١) للمقام-لكان حق الكلام أن يقال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، ولو كانت بصدد نفيها لم يكن لذكر الشهاده على الناس وجه، وهذا إجمال ما سيأتى فى تفسير الآيات تفصيله إن شاء الله تعالى.

و أما ما قاله الناس فى عيسى (ع) فإنهم وإن تشتتوا فى مذاهبهم بعده، و اختلفوا فى مسالكهم بما ربما جاوز السبعين من حيث كليات ما اختلفوا فيه، و جزئيات المذاهب والآراء كثيره جدا.

لكن القرآن إنما يهتم بما قالوا به فى أمر عيسى نفسه و أمه لمسأله أساس التوحيد الذى هو الغرض الوحيد فيما يدعو إليه القرآن الكريم و الدين الفطرى القويم، و أما بعض الجزئيات كمسأله التحريف و مسأله التفديده فلم يهتم به ذاك الاهتمام.

و الذى حكاه القرآن الكريم عنهم أو نسبه إليهم ما فى قوله تعالى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ نَارِي الْمَسِيحِ ابْنُ اللَّهِ»: التوبه-٣٠، و ما فى معناه، كقوله تعالى: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ»: الأنبياء-٢٦، و ما فى قوله تعالى: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ»: المائدة-٧٢، و ما فى قوله تعالى: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ»: المائدة-٧٣، و ما فى قوله تعالى: «وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً»: النساء-١٧١.

و هذه الآيات و إن اشتملت بظواهرها على كلمات مختلفه ذوات مضامين و معان متفاوته، و لذلك ربما حملت (٢) على اختلاف المذاهب فى ذلك كمذهب الملكانيه القائلين بالبنوه الحقيقيه، و النسطوريه القائلين بأن النزول و البنوه من قبيل إشراق النور على جسم شفاف كالبلور، و يعقوبيه القائلين بأنه من الانقلاب، و قد انقلب الإله سبحانه لحما و دما.

ص: ٢٨٣

١-١) فإن المقام مقام التذلل دون الاسترسال.

٢-٢) كما فعله الشهرستانى فى الملل و النحل.

لكن الظاهر أن القرآن لا يهتم بخصوصيات مذاهبهم المختلفه، وإنما يهتم بكلمه واحده مشتركه بينهم جميعا و هو البنوه، و أن المسيح من سنخ الإله سبحانه، و ما يتفرع عليه من حديث التثليث و إن اختلفوا فى تفسيرها اختلافا كثيرا، و تعرفوا فى المشاجره و النزاع، و الدليل على ذلك وحده الاحتجاج الوارد عليهم فى القرآن لسانا.

بيان ذلك: أن التوراه و الأناجيل الحاضره جميعا تصرح بتوحيد الإله تعالى، من جانب و الإنجيل يصرح بالبنوه من جانب آخر، و صرح بأن الابن هو الأب لا غير.

و لم يحملوا البنوه الموجوده فيه على التشريف و التبريك مع ما فى موارد منه من التصريح بذلك كقوله: «و أنا أقول لكم أحبوا أعداءكم، و باركوا على لاعنيكم و أحسنوا إلى من أبغضكم، و صلوا على من يطردهم و يعسفكم كيما تكونوا بنى أبيكم الذى فى السماوات لأنه المشرق شمسه على الأخيار و الأشرار و الممطر على الصديقين و الظالمين، و إذا أحببتم من يحبكم فأى أجر لكم؟ أليس العشارون يفعلون كذلك؟ و إن سلمتم على إخوتكم فقط فأى فضل لكم؟ أليس كذلك يفعل الوثنيون كونوا كاملين مثل أبيكم السماوى فهو كامل» آخر الإصحاح الخامس من إنجيل متى (١).

و قوله أيضا: فليضئ نوركم قدام الناس ليروا أعمالكم الحسنه و يمجدوا أباكم الذى فى السماوات» إنجيل متى - الإصحاح الخامس.

و قوله أيضا: «لا تصنعوا جميع مراحمكم قدام الناس كى يروكم فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السماوات».

و قوله أيضا فى الصلوه: «و هكذا تصلون أنتم يا أبانا الذى فى السماوات يتقدس اسمك» إلخ.

و قوله: أيضا «فإن غفرتم للناس خطاياهم غفر لكم أبوكم السمائى خطاياكم» كل ذلك فى الإصحاح السادس من إنجيل متى.

و قوله: «و كونوا رحماء مثل أبيكم الرحيم» إنجيل لوقا - الإصحاح السادس.

ص: ٢٨٤

وقوله لمريم المجدليه: «امضى إلى إختوتى و قولى لهم: إنى صاعد إلى أبى الذى هو أبوكم و إلهى الذى هو إلهكم» إنجيل يوحنا-الإصحاح العشرون.

فهذه و أمثالها من فقرات الأناجيل تطلق لفظ الأب على الله تعالى و تقدر بالنسبه إلى عيسى و غيره جميعا كما ترى بعنايه التشريف و نحوه.

و إن كان ما فى بعض الموارد منها يعطى أن هذه البنوه و الأبوه نوع من الاستكمال المؤدى إلى الاتحاد كقوله: «تكلم يسوع بهذا و رفع عينيه إلى السماء فقال:

يا أبه قد حضرت الساعه فمجد ابنك لمجدك ابنك ثم ذكر دعاءه لرساله من تلامذته ثم قال: «و لست أسأل فى هؤلاء فقط بل و فى الذين يؤمنون بى بقولهم ليكونوا بأجمعهم واحدا كما أنك يا أبه ثابت فى و أنا أيضا فيك ليكونوا أيضا فينا واحدا ليؤمن العالم أنك أرسلتني و أنا أعطيتهم المجد الذى أعطيتني ليكونوا واحدا كما نحن واحد أنا فيهم و أنت فى و يكونوا كاملين لواحد لكى يعلم العالم أنك أرسلتني و أننى أحببتهم كما أحببتني» إنجيل يوحنا-الإصحاح السابع عشر.

لكن وقع فيها أقاويل يتأبى ظواهرها عن تأويلها إلى التشريف و نحوه كقوله:

«قال له توما: يا سيد ما نعلم أين تذهب؟ و كيف نقدر أن نعرف الطريق؟ قال له يسوع: أنا هو الطريق و الحق و الحياه لا يأتى أحد إلى أبى إلا- بى لو كنتم تعرفوننى لعرفتم أبى أيضا و من الآن تعرفونه و قد رأيتموه أيضا، قال له فيلبس: يا سيد أرنا الأب و حسبنا، قال له يسوع: أنا معكم كل هذا الزمان و لم تعرفنى يا فيلبس؟ من رآنى فقد رأى الأب فكيف تقول أنت: أرنا الأب؟ أ ما تؤمن أنى فى أبى و أبى فى و هذا الكلام الذى أقوله لكم ليس هو من ذاتى وحدى بل أبى الحال فى هو يفعل هذه الأفعال آمنوا بى، أنا فى أبى و أبى فى» إنجيل يوحنا-الإصحاح الرابع عشر.

و قوله: «لكننى خرجت من الله و جئت و لم آت من عندى بل هو أرسلنى» إنجيل-يوحنا الإصحاح الثامن.

و قوله: أنا و أبى واحد نحن» إنجيل يوحنا-الإصحاح العاشر.

و قوله لتلامذته: «اذهبوا و تلمذوا كل الأمم و عمدوهم (1) باسم الأب و الابن

ص: ٢٨٥

١- (١) التعميد نوع من التغسيل عند النصارى يتطهر به المغتسل من الذنوب و هو من فرائض الكنيسه.

و روح القدس» إنجيل متى-الإصحاح الثامن و العشرون.

و قوله:«فى البدء كان الكلمه و الكلمه كان عند الله،و الله كان الكلمه منذ البدء كان هذا عند الله كل به كان و بغيره لم يكن شىء مما كان به كانت الحياه،و الحياه كانت نور الناس» إنجيل يوحنا-الإصحاح الأول.

فهذه الكلمات و ما يماثلها مما وقع فى الإنجيل هى التى دعت النصارى إلى القول بالتثليث فى الوحده.

و المراد به حفظ«أن المسيح بن الله»مع التحفظ على التوحيد الذى نص عليه المسيح فى تعليمه كما فى قوله:«إن أول كل الوصايا:اسمع يا إسرائيل الرب إلهك إله واحد هو»إنجيل مرقس-الإصحاح الثانى عشر.

و محصل ما قالوا به(و إن كان لا يرجع إلى محصل معقول):أن الذات جوهر واحد له أقانيم ثلاث،و المراد بالأقنوم هو الصفه التى هى ظهور الشىء و بروزه و تجليه لغيره و ليست الصفه غير الموصوف،و الأقانيم الثلاث هى:أقنوم الوجود و أقنوم العلم،و هو الكلمه،و أقنوم الحياه و هو الروح.

و هذه الأقانيم الثلاث هى:الأب و الابن و الروح القدس:و الأول أقنوم الوجود، و الثانى أقنوم العلم و الكلمه،و الثالث أقنوم الحياه،فالابن و هو الكلمه و أقنوم العلم نزل من عند أبيه و هو أقنوم الوجود بمصاحبه روح القدس و هو أقنوم الحيوه التى بها يستنير الأشياء.

ثم اختلفوا فى تفسير هذا الإجمال اختلافا عظيما أوجب تشتتهم و انشعابهم شعبا و مذاهب كثيره تجاوز السبعين،و سيأتىك نبؤها على قدر ما يلائم حال هذا الكتاب.

إذا تأملت ما قدمناه عرفت:أن ما يحكيه القرآن عنهم،أو ينسبه إليهم بقوله:«وَ قَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ،الآيه»،و قوله:«لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ،الآيه»،و قوله:«لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ،الآيه»،و قوله:«وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا،الآيه»،كل ذلك يرجع إلى معنى واحد (و هو تثليث الوحده)هو المشترك بين جميع المذاهب المستحدثه فى النصرانيه،و هو الذى قدمناه فى معنى تثليث الوحده.

و إنما اقتصر فيه على هذا المعنى المشترك لأن الذى يرد على أقوالهم فى خصوص المسيح (ع) على كثرتها و تشتتها مما يحتج به القرآن أمر واحد يرد على وتيره واحده كما سيتضح.

٤- احتجاج القرآن على مذهب التثليث

يرد القرآن فى الاحتجاج، و يرد قول المثلثه من طريقتين، أحدهما: الطريق العام، و هو بيان استحاله الابن عليه تعالى فى نفسه أى سواء كان عيسى هو الابن أو غيره، الثانى: الطريق الخاص و هو بيان أن عيسى بن مريم ليس ابنا إلهها بل عبد مخلوق.

أما الطريق الأول فتوضيحه أن حقيقه البنوه و التولد هو أن يجزئ واحد من هذه الموجودات الحيه الماديه كالإنسان و الحيوان بل النبات أيضا شيئا من ماده نفسه ثم يجعله بالتربيه التدريجيه فردا آخر من نوعه مماثلا لنفسه يترتب عليه من الخواص و الآثار ما كان يترتب على المجزأ منه كالحيوان يفصل من نفسه النطفه، و النبات يفصل من نفسه اللقاح ثم يأخذ فى تربيته تدريجا حتى يصيره حيوانا أو نباتا آخر مماثلا لنفسه، و من المعلوم أن الله سبحانه يمتنع عليه ذلك: أما أولا فلاستلزامه الجسميه الماديه، و الله سبحانه منزه من ماده و لوازمها الافتقاريه كالحركه و الزمان و المكان و غير ذلك، و أما ثانيا فلأن الله سبحانه لإطلاق ألوهيته و ربوبيته له القيوميه المطلقه على ما سواه فكل شىء سواه مفتقر الوجود إليه قائم الوجود به فكيف يمكن فرض شىء غيره يماثله فى النوعيه يستقل عنه بنفسه، و يكون له من الذات و الأوصاف و الأحكام ما له من غير افتقار إليه، و أما ثالثا فلأن جواز الإيلاد و الاستيلاد عليه تعالى يستلزم جواز الفعل التدريجى عليه تعالى، و هو يستلزم دخوله تحت ناموس ماده و الحرکه و هو خلف بل ما يقع بإرادته و مشيئته تعالى إنما يقع من غير مهله و تدريج.

و هذا البيان هو الذى يفيد قوله تعالى: «وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُتُونَ يَدْبِعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» :البقره-١١٧، و على ما قربناه فقوله: سُبْحَانَهُ برهان، و قوله: لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُتُونَ برهان آخر و قوله: يَدْبِعُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ «إلخ» برهان ثالث.

و يمكن أن يجعل قوله: يَدِيْعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ من قبيل إضافة الصفه إلى فاعلها، ويستفاد منه أن خلقه تعالى على غير مثال سابق فلا يمكن منه الإيلاذ لأنه خلق على مثال نفسه لأن مفروضهم العينيه فيكون هذه الفقره وحدها برهانا آخر.

و لو فرض قولهم: اتخذ الله ولدا كلاما ملقى لا على وجه الحقيقه بل على وجه التوسع فى معنى الابن و الولد بأن يراد به انفصال شىء عن شىء يماثله فى الحقيقه من غير تجز مادي أو تدريج زمانى (و هذا هو الذى يرومه النصارى بقولهم: المسيح بن الله بعد تنقيحه) ليتخلص بذلك عن إشكال الجسميه و الماديه و التدريج بقى إشكال المماثله.

توضيحه أن إثبات الابن و الأب إثبات للعدد بالضروره، و هو إثبات للكثيره الحقيقه و إن فرضت الوحده النوعيه بين الأب و الابن كالأب و الابن من الإنسان هما واحد فى الحقيقه الإنسانيه، و كثير من حيث إنهما فردان من الإنسان، و على هذا فلو فرض وحده الإله كان كل ما سواه و من جملةها الابن غيرا له مملوكا مفتقرا إليه فلا يكون الابن المفروض إليها مثله، و لو فرض ابن مماثل له غير مفتقر إليه بل مستقل مثله بطل التوحيد فى الإله عز اسمه.

و هذا البيان هو المدلول عليه بقوله تعالى: «وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا» : النساء- ١٧١.

و أما الطريق الثانى و هو بيان أن شخص عيسى بن مريم (ع) ليس ابنا لله مشاركا له فى الحقيقه الإلهيه فلما كان فيه من البشره و لوازمها.

و توضيحه أن المسيح (ع) حملت به مريم، و ربه جنينا فى رحمها، ثم وضعت و وضع المرأه ولدها، ثم ربه كما يتربى الولد فى حضانه أمه، ثم أخذ فى النشوء و قطع مراحل الحيوه و الارتقاء فى مدارج العمر من الصبا و الشباب و الكهوله، و فى جميع ذلك كان حاله حال إنسان طبيعى فى حيوته، يعرضه من العوارض و الحالات ما يعرض الإنسان: من جوع و شبع، و سرور و مساءه، و لذه و ألم، و أكل و شرب، و نوم و يقظه، و تعب و راحه، و غير ذلك.

فهذا ما شوهد من حال المسيح(ع) حين مكثه بين الناس، ولا يرتاب ذو عقل أن من كان هذا شأنه فهو إنسان كسائر الأناسى من نوعه و إذا كان كذلك فهو مخلوق مصنوع كسائر أفراد نوعه، و أما صدور الخوارق و تحقق المعجزات بيده كإحياء الأموات و خلق الطير و إبراء الأكمه و الأبرص، و كذا تحقق الخوارق من الآيات فى وجوده كتكونه من غير أب فإنما هى أمور خارقه للعاده المؤلفه و السنه الجاربه فى الطبيعه فإنها نادره الوجود لا مستحيلته فهذا آدم تذكر الكتب السماويه أنه خلق من تراب و لا أب له، و هؤلاء أنبياء الله كصالح و إبراهيم و موسى (ع) جرت بأيديهم آيات معجزه كثيره مذكوره فى مسفورات الوحي من غير أن تقتضى فيهم ألوهيه، و لا خروجا عن طور الإنسانيه.

و هذه الطريقه هى المسيلوكه فى قوله تعالى: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ -X إلى أن قال X- : مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ: المائده-٧٥، و قد خص أكل الطعام من بين جميع الأفعال بالذكر لكونه من أحسنها دلالة على الماديه و استلزاما للحاجه و الفاقه المنافيه للألوهيه، فمن المعلوم أن من يجوع و يظماً بطبعه ثم يشبع بأكله أو يرتوى بشربه ليس عنده غير الحاجه و الفاقه التى لا يرفعها إلا غيره، و ما معنى ألوهيه من هذا شأنه؟ فإن الذى قد أحاطت به الحاجه و احتاج فى رفعها إلى الخارج من نفسه فهو ناقص فى نفسه مدبر بغيره، و ليس بإله غنى بذاته بل هو مخلوق مدبر بربوبيه من ينتهى إليه تدبيره.

و إلى هذا يمكن أن يرجع قوله تعالى: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْكَ الرِّيحَ مِنْ السَّمَاءِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»: المائده-١٧.

و كذا قوله تعالى فى ذيل الآيه المنقوله سابقا(آيه ٧٥) خطابا للنصارى: «قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا وَ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»: المائده-٧٦.

فإن الملاك فى هذا النوع من الاحتجاجات هو أن الذى شوهد من أمر المسيح

أنه كان يعيش على الناموس الجارى فى حيوه الإنسان متصفا بجميع صفاته و أفعاله و أحواله النوعيه كالأكل و الشرب و سائر الاحتياجات الإنسانيه، و الخواص البشريه و لم يكن هذا التلبس و الاتصاف بحسب ظاهر الحس أو تسويل الخيال فحسب بل كان على الحقيقه و كان المسيح(ع) إنسانا ذا هذه الأوصاف و الأحوال و الأفعال، و الأناجيل مشحونه بتسميته نفسه إنسانا و ابن الإنسان، مملوءه بالقصص الناطقه بأكله و شربه و نومه و مشيه و مسافرتة و تعبته و تكلمه و نحو ذلك بحيث لا يقبل شىء منها صرفا و لا تأويلا، و مع تسليم هذه الأمور يجرى على المسيح ما يجرى على غيره فهو لا يملك من غيره شيئا كغيره، و يمكن أن يهلك كغيره.

و كذا حديث عبادته و دعائه بحيث لا يرتاب فى أن ما كان يأتيه من عبادته فإنما للتقرب من الله و الخضوع لقدس ساحته لا لتعليم الناس أو لأغراض آخر تشابه ذلك.

و إلى حديث العباده و الاحتجاج به يومئ قوله تعالى: «لَنْ يَشْتَكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَشْتَكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يَشْتَكِبْ فَسَيُخْشَرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا» :النساء-١٧٢، فعباده المسيح أول دليل على أنه ليس بإله، و أن الألوهيه لغيره لا- نصيب له فيها، فأى معنى لنصب الشىء نفسه فى مقام العبوديه و المملوكيه لنفسه؟ و كون الشىء قائما بنفسه من عين الجبهه التى بها يقوم نفسه و الأمر ظاهر و كذا عباده الملائكه كاشفه عن أنها ليست ببنات الله سبحانه و لا أن روح القدس إله بعد ما كانوا بأجمعهم عابدين لله طائعين له كما قال تعالى: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَ هُمْ مِنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ» :الأنبياء-٢٨.

على أن الأناجيل مشحونه بأن الروح طائع لله و رسله مؤتمر للأمر محكوم بالحكم و لا معنى لأمر الشىء نفسه و لا لطاعته لذاته، و لا لانقياده و ائتماره لمخلوق نفسه.

و نظير عباده المسيح لله سبحانه فى الدلاله على المغايره دعوته الناس إلى عباده الله كما يشير إليه قوله تعالى لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، وَ قَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَا أَوَاهُ النَّارُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ :المائده-٧٢، و سبيل الآيه و احتجاجها ظاهر.

و الأناجيل أيضا مشحونه فى دعوتة إلى الله سبحانه، و هى و إن لم تشتمل على هذا اللفظ الجامع (أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ) لكنها مشتمله على الدعوه إلى عباده الله، و على اعترافه بأنه ربه الذى بيده زمام أمره، و على اعترافه بأنه رب الناس، و لا تتضمن دعوتة إلى عباده نفسه صريحا و لا مره مع ما فيها من قوله: أنا و أبى واحد نحن» إنجيل يوحنا-الإصحاح العاشر، فمن الواجب أن يحمل على تقدير صحته على أن المراد: أن إطاعتي إطاعه الله كما قال تعالى فى كتابه الكريم: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ»: النساء- ٨٠.

٥- المسيح من الشفاء عند الله و ليس بفاد:

زعمت النصرانى: أن المسيح فداهم بدمه الكريم، و لذلك لقبوه بالفادى، قالوا:

إن آدم لما عصى الله بالأكل من الشجرة المنهيه فى الجنة أخطأ بذلك و لزمته الخطيئه، و كذلك لزمته ذريته من بعده ما توالدوا و تناسلوا، و جزاء الخطيئه العقاب فى الآخرة و الهلاك الأبدى الذى لا مخلص منه، و قد كان الله سبحانه رحيمًا عادلا.

فبدا إذ ذاك إشكال عويص لا انحلال له، و هو أنه لو عاقب آدم و ذريته بخطيئتهم كان ذلك منافيا لرحمته التى لها خلقهم، و لو غفر لهم كان ذلك منافيا لعدله فإن مقتضى العدل أن يعاقب المجرم الخاطئ بجرمه و خطيئته كما أن مقتضاه أن يثاب المحسن المطيع بإحسانه و إساءته (١).

و لم تزل هذه العويصه على حالها حتى حلها ببركه المسيح، و ذلك بأن حل المسيح (و هو ابن الله، و هو الله نفسه) رحم واحده من ذريه آدم و هو مريم البتول و تولد منها كما يتولد إنسان فكان بذلك إنسانا كاملا لأنه ابن إنسان، و إلها كاملا لأنه ابن الله، و ابن الله هو الله (تعالى) معصوما عن جميع الذنوب و الخطايا.

و بعد أن عاش بين الناس برهه يسيره من الزمان يعاشرهم و يخالطهم، و يأكل و يشرب معهم، و يكلمهم و يستأنس بهم، و يمشى فيهم تسخر لأعدائه ليقتلوه شر

ص: ٢٩١

١- ١) هذا ما عليه معظمهم و يظهر من بعضهم كالتفسير مار إسحاق أن التخلف فى مجازاه الجريمه و الخطيئه و بعبارة أخرى خلف الوعيد جائز دون خلف الوعد.

قتله، و هي قتله الصلب التي لعن صاحبها في الكتاب الإلهي فاحتمل اللعن و الصلب بما فيه من الزجر و الأذى و العذاب فقدى الناس بنفسه ليخلصوا بذلك من عقاب الآخرة و هلاك السرمد و هو كفاره لخطايا المؤمنين به بل لخطايا كل العالم (١) هذا ما قاله.

و قد جعلت النصرى هذه الكلمه أعنى مسأله الصلب و الفداء أساس دعوتهم فلا يبدءون إلا بها، و لا يختمون إلا عليها كما أن القرآن يجعل أساس الدعوه الإسلاميه هو التوحيد كما قال الله مخاطبا لرسوله (ص): «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» :يوسف-١٠٨، مع أن المسيح(على ما يصرح به الأناجيل، و قد تقدم نقله). كان يجعل أول الوصايا هو التوحيد و محبه الله سبحانه.

و قد ناقشهم غيرهم من المسلمين و سائر الباحثين فيما يشتمل عليه قولهم هذا من وجوه الفساد و البطلان، و ألفت فيها كتب و رسائل و ملئت بها صحف و طوامير ببيان منافاتها لضروره العقل، و مناقضتها لكتب العهدين. و الذى يهمننا و يوافق الغرض الموضوع له هذا الكتاب بيان جهات منافاته لأصول تعليم القرآن و ختمه ببيان الفرق بين ما يشتهه القرآن من الشفاعة و ما يثبتونه من الفداء.

على أن القرآن يذكر صراحه أنه إنما يخاطب الناس و يكلمهم ببيان ما يقرب من أفق عقولهم، و يمكن بياناته من فقههم و فهمهم، و هو الأمر الذى به يميز الإنسان الحق من الباطل فينقاد لهذا و يأبى ذاك، و يفرق بين الخير و الشر و النافع و الضار فيأخذ بهذا و يترك ذاك، و الذى ذكرناه من اعتبار القرآن فى بياناته حكم العقل السليم مما لا غبار عليه عند من راجع الكتاب العزيز.

فأما ما ذكروه ففيه أولا: أنهم ذكروا معصيه آدم(ع) بالأكل من الشجره المنهيه، و القرآن يدفع ذلك من جهتين:

الأولى: أن النهى هناك كان نهيا إرشاديا يقصد به صلاح المنهى و وجه الرشد

ص: ٢٩٢

١- ١) فى الرساله الأولى ليوحنا-الفصل الأول «يا أولادى هذه الألفاظ أكتبها إليكم لئلا تخطئوا و إن يخطئ أحدكم فلنا لدى الرب معزى عدل يسوع المسيح و ذلك هو اغتفار من أجل خطايانا فقط بل و من أجل العالم كله.

فى أمره لا إعمال المولويه و الأمر الذى هو من هذا القبيل لا يترتب على امتثاله و لا تركه ثواب و لا عقاب مولوى كأوامر المشير و نواهيه لمن يستشيريه، و أوامر الطيب و نواهيه للمريض بل إنما يترتب على امتثال التكليف الإرشادى الرشد المنظور لمصلحه المكلف، و على مخالفته الوقوع فى مفسده المخالفه و ضرر الفعل بما أنه فعل، و بالجمله لم يلحق بآدم(ع) إلا أنه أخرج من الجنة و فاته راحه القرب و سرور الرضا، و أما العقاب الأخرى فلا لأنه لم يعص معصيه مولويه حتى يستتبع عقابا، راجع تفسير الآيات ٣٥-٣٩، من سوره البقره.

و الثانيه: أنه(ع) كان نبيا و القرآن ينزه ساحه الأنبياء(ع) و يبرئ نفوسهم الشريفه عن اقتراف المعاصى و الفسق عن أمر الله سبحانه، و البرهان العقلى أيضا يؤيد ذلك، راجع ما ذكرناه فى البحث عن عصمه الأنبياء فى تفسير الآيه ٢١٣ من سوره البقره.

و ثانيا: قولهم: إن الخطيئه لزمّت آدم فإن القرآن يدفعه بقوله: «ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَىٰ» طه-١٢٢، و قوله: «فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»: البقره-٣٧.

و الاعتبار العقلى يؤيد ذلك بل بينه فإن الخطيئه و تبعه الذنب إنما هو أمر محذور مخوف منه يعتبره العقل أو المولى لازما للمخالفه و التمرد ليستحكم بذلك أمر التكليف فلو لا العقاب و الثواب لم يستقم أمر المولويه و لم يمتثل أمر و لا نهى و كما أن من شئون المولويه بسط العقاب على المجرمين فى جرائمهم كالثواب على المطيعين فى طاعتهم كذلك من شئون المولويه إطلاق التصرف فى دائره مولويته فلىمولى أن يغمض عن خطيئه المخطئين و معصيه العاصين بالعمو و المغفره فإنه نوع تصرف و حكمومه كما أن له أن يؤاخذ بها و هى نوع حكمومه، و حسن العفو و المغفره عن الموالى و أولى القوه و السطوه فى الجمله مما لا ريب فيه، و العقلاء من الإنسان يستعملونه إلى هذا الحين فكون كل خطيئه صادرة من الإنسان لازمه للإنسان مما لا وجه له البتة و إلا- لم يكن لأصل العفو و المغفره تحقق لأن المغفره و العفو إنما يكون لإمحاء الخطيئه و إبطال أثر الذنب، و مع فرض أن الخطيئه لانزمه غير منفكه لا- يبقى موضوع للعفو و المغفره، مع أن الوحي الإلهى مملو بحديث العفو و المغفره، و كتب العهدين كذلك حتى أن هذا الكلام

المنقول منهم لا- يخلو عنه، وبالجملة دعوى كون ذنب من الذنوب أو خطيئه من الخطايا لازمه غير قابله في نفسه للمغفرة و الإمحاء حتى بالتوبه و الإنابه و الرجوع و الندم مما لا يقبله عقل سليم و لا طبع مستقيم.

و ثالثا: أن قولهم: إن خطيئه آدم كما لزمته كذلك لزمته ذريته إلى يوم القيامة يستلزم أن يشمل تبعه الذنب الصادر من واحد غيره أيضا ممن لم يذنب في المعاصي المولويه. و بعبارة أخرى أن يصدر فعل عن واحد و يعم عصيانه و تبعته غير فاعله كما يشمل فاعله، و هذا غير أن يأتي قوم بالمعصيه و يرضى به آخرون من أخلافهم فتحسب المعصيه على الجميع و بالجملة هو تحمل الوزر من غير صدور الذنب و القرآن يرد ذلك كما في قوله: «أَلَا تَرَىٰ وَازِرَةً وِزْرًا أُخْرَىٰ- وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ» النجم-٣٩، و العقل يساعده عليه لقبح مؤاخذه من لم يذنب بذنب لم يصدر عنه. راجع أبحاث الأفعال في تفسير آيه ٢١٦-٢١٨ من سورة البقره.

و رابعا: أن كلامهم مبنى على كون تبعه جميع الخطايا و الذنوب هو الهلاك الأبدى من غير فرق بينها، و لازمه أن لا يختلف الخطايا و الذنوب من حيث الصغر و الكبير بل يكون جميعها كبائر موبقات، و الذى يراه القرآن الكريم فى تعليمه أن الخطايا و المعاصي مختلفه فمنها كبائر، و منها صغائر، و منها ما تناله المغفره، و منها ما لا تناله إلا بالتوبه كالشرك، قال تعالى: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ» النساء-٣١، و قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» النساء-٤٨، فجعل تعالى من المحرمات المنهى عنها و هى الخطايا و الذنوب ما هى كبائر، و ما هى سيئات أى صغائر بقريته المقابله، و جعل تعالى من الذنوب ما لا يقبل المغفره، و منها ما يقبلها فالذنوب على أى حال مختلفه، و ليس كل ذنب بموجب للخلود فى النار و الهلاك الأبدى.

على أن العقل يأبى عن نضد جميع الذنوب و نظمها فى سلك واحد فاللطم غير القتل و النظر المريب غير الزنا، و هكذا، و العقلاء من الإنسان فى جميع الأدوار لم يضعوا كل ذنب و خطيا موضع غيره، و يرون للمعاصي المختلفه تبعات و مؤاخذات مختلفه فكيف يصح إجراء الجميع مجرى واحدا مع هذا الاختلاف الفاحش بينها، و إذا فرض اختلافها لم يصح إلا جعل العقاب الخالد و الهلاك الأبدى لبعضها كالشرك بالله،

كما يقول القرآن الكريم. و من المعلوم أن مخالفه نهى ما فى الأكل من الشجره ليس يحل محل الكفر بالله العظيم و ما يشابه ذلك فلا وجه لجعل عقابه و تبعته هو العذاب المؤبد (راجع بحث الأفعال السابق الذكر).

و خامسا: ما ذكره من وقوع الإشكال، و حدوث التزاحم بين صفة الرحمه و صفة العدل ثم الاحتيال إلى رفعه بنزول المسيح و صعوده بالوجه الذى ذكره.

و المتأمل فى هذا الكلام و ما يستتبعه من اللوازم يجد أنهم يرون أن الله تعالى و تقدس موجود خالق ينسب و ينتهى إليه هذا العالم المخلوق بجميع أجزائه غير أنه إنما يفعل بإرادته و علم فى نفسه، و إرادته فى تحققها تتوقف إلى ترجيح علمى كما أن الإنسان إنما يريد شيئا إذا رجحه بعلمه، فهناك مصالح و مفسد يطبق الله أفعاله عليها فيفعلها، و ربما أخطأ فى التطبيق فندم (1) على الفعل، و ربما فكر فى أمر و لم يهتد إلى طريق صلاحه، و ربما جهل أمرا، و بالجمله هو تعالى فى أوصافه و أفعاله كالإنسان إنما يفعل ما يفعل بالتفكر و التروى و يروم فيه تطبيق فعله على المصلحه فهو محكوم بحكم المصالح و مقهور بعملها فيه من الخارج، و يمكن له الاهتداء إلى الصلاح و يمكن له الضلال و الاشتباه و الغفله فربما يعلم و ربما يجهل، و ربما يغلب و ربما يغلب عليه فقدرته محدوده كعلمه، و إذا جاز عليه هذا الذى ذكر جاز عليه سائر ما يطرأ الفاعل المتفكر المرید فى فعله من سرور و حزن و حمد و ندم و ابتهاج و انفعال و غير ذلك، و الذى هذا شأنه يكون موجودا ماديا جسمانيا واقعا تحت ناموس الحركه و التغير و الاستكمال، و الذى هو كذلك ممكن مخلوق بل إنسان مصنوع، و ليس بالواجب تعالى، الخالق لكل شىء.

و أنت بالرجوع إلى كتب العهدين تجد صدق جميع ما نسبناه إليهم فى الواجب تعالى من جسميته و اتصافه بجميع أوصاف الجسمانيات و خاصه الإنسان.

و القرآن فى جميع هذه المعانى المذكوره ينزه الله تعالى عن هذه الأوهام الخرافيه، كما يقول تعالى: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ»^{□□}
الصفات- ١٥٩، و البراهين العقلية القاطعه قائمه على أنه تعالى ذات مستجمع لجميع صفات الكمال فله الوجود من غير شائبه عدم،

ص: ٢٩٥

١ - ١) فى الإصحاح السادس من سفر التكوين من التوراه: و كره الله خلقه ولد آدم على الأرض (التوراه العربيه مطبوعه سنه ١٨١١ الميلاديه).

و القدره المطلقه من غير عجز، و العلم المطلق من غير طرو جهل، و الحيوه المطلقه من غير إمكان موت و فناء، و إذا كان كذلك لم يجز عليه تغير حال فى وجوده أو علمه أو قدرته أو حيوته.

و إذا كان كذلك لم يكن جسما و لا- جسمانيا لأن الأجسام و الجسمانيات محاط التغيرات و التحولات، و محال الإمكانيات و الافتقارات و الاحتياجات، و إذا لم يكن جسما و لا جسمانيا لم يطرأ عليه الحالات المختلفه و الطوارى المتنوعه: من غفله و سهو و غلط و ندم و تحير و تأثر و انفعال و هوان و صغر و مغلوبيه و نحوها، و قد استوفينا البحث البرهانى المتعلق بهذه المعانى فى هذا الكتاب فى موارد يناسبها، يجدها المراجع إذا راجع.

و على الناقد المتبصر و المتأمل المتدبر أن يقايس بين القولين: ما يقول به القرآن الكريم فى إله العالم فيثبت له كل صفه كمال، و ينزهه عن كل صفه نقص، و بالأخره يعده أكبر و أعظم من أن يحكم فيه أفهامنا بما صحبته من عالم الحد و التقدير، و بين ما يثبتته العهدان فى البارى تعالى بما لا يوجد إلا فى أساطير يونان، و خرافات هند القديم و الصين، و أمور كان الإنسان الأولى يتوهمها فيتأثر مما قدمه إليه وهمه.

و سادسا: قولهم إن الله أرسل ابنه المسيح و أمره أن يحل رحما من الأرحام ليتولد إنسانا و هو إله، و هذا هو القول غير المعقول الذى انتهض لبيان بطلانه القرآن الكريم على ما أوضحناه فى البيان السابق فلا نعيد.

و من المعلوم أن العقل أيضا لا يساعد عليه فإنك إذا تأملت فيما يجب من الصفات أن يقال باتصاف الواجب تعالى بها كالثبات السرمدى، و عدم التغير، و عدم تحدد الوجود، و الإحاطه بكل شىء، و التنزه عن الزمان و المكان و ما يتبعهما، و تأملت فى تكون إنسان من حين كونه نطفه فجنينا فى رحم سواء اعتبرت فى معناه تفسير الملكانيين لهذه الكلمه أو تفسير النسطوريين، أو تفسير اليعقوبيين أو غيرهم إذ لا- نسبه بين ما له الجسميه و جميع أوصاف الجسميه و آثارها و بين ما ليس فيه جسميه و لا شىء مما يتصف به من زمان أو مكان أو حركه أو غير ذلك فكيف يمكن تعقل الاتحاد بينهما بوجه.

و عدم انطباق القول المذكور على القضايا الضرورية العقلية هو السر فيما يذكره بولس وغيره من رؤسائهم القديسين من تقييح الفلسفه و الإيزراء بالأحكام العقلية، يقول بولس: «قد كتب لأهلكن حكمه الحكماء و لأخالفن فهم الفقهاء أين الحكيم أين الكاتب أين مستفحص هذا الدهر بتعمق؟ أ و ليس قد حمق الله حكمه هذا العالم- إلى أن قال:- و إذ اليهود يسألون آيه و اليونانيون يطلبون حكمه نكرز (1) نحن بالمسيح مصلوب» رساله بولس-الإصحاح الأول، و نظائر هذه الكلمات كثيره فى كلامه و كلام غيره و ليست إلا لسياسه النشر و الإذاعه و التبليغ و العظه، يوقن بذلك من أرعى نظره فى هذه الرسائل و الكتب و تعمق فى طريق تكليمها الناس و إلقاء بياناتها إليهم.

و من ما مر يظهر ما فى قولهم: إنه تعالى معصوم من الذنوب و الخطايا فإن الإله الذى صوروه غير مصون عن الخطأ أصلا بمعنى الغلط فى الإدراك و الغلط فى الفعل من غير أن ينتهى إلى مخالفه من يجب موافقته.

و أما الذنب و المعصيه بمعنى التمرد فيما يجب فيه الطاعه و الانقياد فهو غير متصور فى حقه تعالى فالعصمه أيضا غير متصوره فى حقه سبحانه.

و سابعا: قولهم: إنه بعد أن صار إنسانا عاشر الناس معاشره الإنسان للإنسان حق تسخر لأعدائه فيه تجويز اتصاف الواجب بحقيقه من حقائق الممكنات حتى يكون إلها و إنسانا فى عرض واحد، فكان من الجائز أن يصير الواجب شيئا من مخلوقاته أى يتصف بحقيقه كل نوع من هذه الأنواع الخارجيه، فتاره يكون إنسانا من الأناسى، و تاره فرسا، و تاره طائرا، و تاره حشره، و تاره غير ذلك، و تاره يكون أزيد من نوع واحد من الأنواع كالإنسان و الفرس و الحشره معا.

و هكذا يجوز أن يصدر عنه أى فعل فرض من أفعال الموجودات لجواز أن يصير هو ذلك النوع فيفعل فعله المختص به، و كذا يجوز أن يصدر عنه أفعال متقابله معا كالعدل و الظلم، و أن يتصف بصفات متقابله كالعلم و الجهل، و القدره و العجز، و الحياه و الموت و الغنى و الفقر، تعالى الملك الحق، و هذا غير المحذور المتقدم فى الأمر السادس.

ص: ٢٩٧

١-١) كرز كرزاء، وعظ و نادى.

و ثامنا: قولهم: إنه تحمل الصلب و اللعن أيضا لأن المصلوب ملعون، ما ذا يريدون بقولهم: إنه تحمل اللعن؟ و ما ذا يراد بهذا اللعن؟ أ هو هذا اللعن الذى يعرفه العرف و اللغه و هو الإبعاد من الرحمه و الكرامه أو غير ذلك؟ فإن كان هو الذى نعرفه، و تعرفه اللغه فما معنى إبعاده تعالى نفسه من الرحمه أو إبعاد غيره إياه من الرحمه؟ فهل الرحمه إلا الفيض الوجودى و موهبه النعمه و الاختصاص بمزايا الوجود فيرجع هذا الإبعاد و اللعن بحسب المعنى إلى الفقر فى المال أو الجاه أو نحو ذلك فى الدنيا أو الآخره أو كليهما، و حينئذ فما معنى لحوق اللعن بالله تعالى و تقديس بأى وجه تصوره؟ مع أنه الغنى بالذات الذى هو يسد باب الفقر عن كل شىء.

و التعليم القرآنى على خلاف هذا التعليم العجيب بتمام معنى الكلمه، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾: الفاطر-١٥، و القرآن يسميه تعالى بأسماء و يصفه بصفات يستحيل معها عروض أى فقر و فاقه و حاجه و نقيصه و فقد و عدم و سوء و قبح و ذل و هوان إلى ساحه قدسه و كبريائه.

فإن قيل: إن اتصافه بالهوان، و حمله اللعن بواسطه اتحاده بالإنسان، و إلا فهو تعالى فى نفسه و حيال ذاته أجل من أن يعرضه ذلك.

قيل لهم: هل يوجب هذا الاتحاد حمله اللعن و اتصافه بهذه الأمور الشاقه حقيقه و من غير مجاز أو لا-؟ فإن كان الأول لزم المحذور الذى ذكرناه، و إن كان الثانى عاد الإشكال، أعنى أن تولد المسيح لم يوجب انحلال إشكال تراحم الرحمه و العدل، فإن تحمل غيره تعالى للمصائب و أقسام العذاب و اللعن لا يتم أمر الفديه أى صيروره الله فديه عن أفراد الإنسان، و هو ظاهر.

و تاسعا: قولهم: إن ذلك كفره لخطايا المؤمنين بيسى بل لخطايا كل العالم، يدل ذلك على أنهم لم يحصلوا حقيقه معنى الذنوب و الخطايا و كيفيه استتباعها للعقاب الأخرى و كيف يتحقق هذا العقاب، و لم يعرفوا حقيقه الارتباط بين هذه الذنوب و الخطايا و بين التشريع، و ما هو موقف التشريع من ذلك؟ على ما يتكفله البيان القرآنى و تعليمه.

فقد بينا فى المباحث السابقه فى هذا الكتاب و من جملتها ما فى تفسير قوله تعالى:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الَّتِي هُمْ يَكْفُرُونَ» البقره-٢٦، وفي ذيل قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً» البقره-٢١٣، أن الأحكام و القوانين التي يقع فيها المخالفه و التمرد ثم الذنب و الخطيئه إنما هي أمور وضعيه اعتباريه أريد بوضعها و اعتبارها أن يحفظ مصالح المجتمع الإنساني بالعمل بها و الرقوب لها، و أن العقاب المترتب على المعصيه و المخالفه إنما هو تبعه سوء اعتبروه و وضعوه ليكون ذلك صارفا للإنسان المكلف عن اقتراف المعصيه و التمرد عن الطاعه، هذا ما عند العقلاء البانين للمجتمع الإنساني.

لكن التعليم القرآني يعطى في هذا المعنى ما هو أرقى من ذلك و أرق و يؤيده البحث العقلي على ما مر و هو أن الإنسان بانقياده للشرع المنصوب له من جانب الله و عدم انقياده له تنهياً في نفسه حقائق من الصفات الباطنه الحميده الفاضله أو الرذيله الخسيسه الخبيثه، و هذه هي التي تهيب للإنسان نعمه أخرويه أو نقمه أخرويه اللتين ممثلهما الجنه و النار و حقيقتهما القرب و البعد من الله فالحسنات أو الخطايا تتكى و تنتهي إلى أمور حقيقه لها نظام حقيقى غير اعتبارى.

و من البين أيضاً أن التشريع الإلهي إنما هو تتمه للتكميل الإلهي في الخلقه، و إنهاء الهدايه التكوينيّه إلى غايتها و هدفها من الخلقه، و بعبارة أخرى، شأنه تعالى إيصال كل نوع إلى كمال وجوده و هدف ذاته و من كمال وجود الإنسان النظام النوعي الصالح في الدنيا، و الحيوه الناعمه السعيده في الآخره، و الطريق إلى ذلك الدين الذي يتكفل قوانين صالحه لإصلاح الاجتماع و جهات من التقرب باسم العبادات يعمل بها الإنسان فينتظم بذلك معاشه و يتنهياً في نفسه و يصلح في ذاته و عمله للكرامه الإلهيه في الدار الآخره، كل ذلك من جهه النور المجعول في قلبه و الطهاره الحاصله في نفسه هذا حق الأمر.

فلإنسان قرب و بعد من الله سبحانه هما الملاكان في سعادته و شقاوته الدائمتين و لصالح اجتماعه المدني في الدنيا، و الدين هو العامل الوحيد في إيجاد هذا القرب و البعد، و جميع ذلك أمور حقيقه غير مبتنيه على اللغو و الجراف.

و إذا فرضنا أن اقتراف معصيه واحده كالأكل من الشجره المنهيه من آدم أو جب له الهلاك الدائم و لا له فحسب بل و لجميع ذريته ثم لم يكن هناك ما يعالج به الداء و يفرج به الهم إلا فداء المسيح فما فائده تشريع الدين قبل المسيح؟ و ما فائده تشريعه معه؟ و ما فائده تشريعه بعده؟!

و ذلك أنه لما فرض أن الهلاك الدائم و العقاب الأخرى محتوم من جهة صدور المعصية لا ينفع في صرفه عن الإنسان لا عمل و لا توبه إلا بنحو الفداء لم يكن معنى لتشريع الشرائع و إنزال الكتب و إرسال الرسل من عند الله سبحانه، و لم يزل الوعد و الوعيد و الإنذار و التبشير خاليه عن وجه الصحة فما ذا كاد يصلحه هذا السعى بعد وجوب العذاب و حتم الفساد.

و إذا فرض هناك من تكمل بالعمل بالشرائع السابقه (و كم من الأنبياء و الربانيين من الأمم السالفه كذلك كالنبي المكرم إبراهيم و موسى (ع) و غيرهما) و قد قضاوا و ماتوا قبل إدراك زمان الفداء فما ذا ترى أ ترى أنهم ختموا الحيوه على الشقاء أو السعاده؟ و ما الذى استقبلهم به الموت و عالم الآخرة؟ استقبلهم بالعقاب و الهلاك أم بالثواب و الحيوه السعيده؟.

مع أن المسيح يصرح بأنه إنما أرسل لتخليص المذنبين و المخطئين و أما الصلحاء و الأخيار فلا حاجه لهم إلى ذلك؟ (1) و بالجملة فلا يبقى لتشريع الشرائع الإلهيه و جعل النواميس الدينيه قبل فداء المسيح غرض صحيح يصونه عن العبث و اللغو، و لا لهذا الفعل العجيب من الله (تعالى و قدس) -محمل حق إلا أن يقال، إنه تعالى كان يعلم أن لو لم يرفع المحذور خطيئه آدم لم ينفعه شىء من هذه التشريعات قط، و إنما شرع هذه الشرائع على سبيل الاحتياط برجاء أن سيوفق يوما لرفع المحذور و يجنى ثمره تشريعه بعد ذلك، و يبلغ غايته و يظفر بأمنيته إذ ذاك فشرع ما شرع بكتمان الأمر عن الأنبياء و الناس، و إخفاء أن هاهنا محذورا لو لم يرتفع خابت مساعى الأنبياء و المؤمنين كافه، و ذهبت الشرائع سدى، و إظهار أن التشريع و الدعوه على الجد و الحقيقه.

فغر الناس و غر نفسه: أما غرور الناس فيإظهار أن العمل بالشرائع يضمن مغفرتهم و سعادتهم، و أما غرور نفسه فلأن التشريع بعد رفع المحذور بالفداء يعود

ص: ٣٠٠

١- ١) فتقمم الفريسيون و الكتبه على تلاميذه قائلين لما تأكلون و تشربون مع العشارين و الخطاه أجابهم يسوع قائلاً لا يحتاج الأصحاء إلى الطبيب لكن المرضى لم آت لأدعو الصديقين لكن الخطاه إلى التوبه إنجيل لوقا-الإصحاح الخامس.

لغوا لا- أثر له فى سعادته الناس كما أنه من غير رفع المحذور كان لا أثر له فهذا، حال تشريع الدين قبل وصول أوان الفداء و تحققة!.

و أما فى زمان الفداء و بعده فالأمر فى صيروره التشريع و الدعوه الدينيه و الهدايه الإلهيه لغوا أوضح و أبين، فما هى الفائده فى الإيمان بالمعارف الحقه و الإتيان بالأعمال الصالحه بعد ارتفاع محذور الخطيئه، و استيجاب نزول المغفره و الرحمه على الناس مؤمنهم و كافرهم، برهم و فاجرهم، من غير فرق بين أتقى الأتقياء و أشقى الأشقياء فى أنهما يشتركان فى الهلاك المؤبد مع بقاء الخطيئه، و فى الرحمه اللازمه مع ارتفاعها بالفداء و المفروض أنه لا ينفع أى عمل صالح فى رفعها لو لا الفداء.

فإن قيل: إن الفداء إنما ينفع فى حق من آمن بالمسيح فللدعوه ثمره كما يصرح به المسيح فى بشارته (١).

قيل: مضافا إلى أنه مناقض لما تقدمت الإشارة إليه من كلام يوحنا فى رسالته، أنه هدم لجميع الأصول الماضيه إذ لا يبقى من الناس- آدم فمن دونه- فى حظيره النجاه و الخلاص إلا شرذمه منهم و هم المؤمنون بالمسيح و الروح بل واحده من طوائفهم المختلفه فى الأصول و أما غيرهم فهم باقون على الهلاك الدائم، فليت شعرى إلى ما يؤول أمر الأنبياء المكرمين قبل المسيح و أمر المؤمنين من أممهم؟ و بما ذا يتصف الدعوه التى جاءوا بها من كتاب و حكم، أ بالصدق أم بالكذب؟ و الأناجيل تصدق التوراه و دعوتها، و ليس فيها دعوه إلى قصه الروح و الفداء! و هل هى تصدق ما هو صادق أو تصدق الكاذب.

فإن قيل: إن الكتب السماويه السابقه فيما نعلم تبشر بالمسيح، و هذه منهم دعوه إجماليه إلى المسيح و إن لم تفصل القول فى كيفية نزوله و فدائه فلم يزل الله يبشر أنبياءه بظهور المسيح ليؤمنوا به و يطيبوا نفسا بما سيصنعه.

قيل: أولا: إن القول به قبل موسى تخرص على الغيب، على أن البشاره لو كانت

ص: ٣٠١

١- ١) «أقول لكم إن كل من اعترف لى قدام الناس فابن الإنسان يعترف به أيضا. قدام ملائكه الله، و من أنكرنى قدام الناس أنكره أيضا قدام ملائكه الله، و كل من يقول كلمه فى ابن الإنسان يغفر له و من يجدف على روح القدس لا يغفر له» إنجيل لوقا- الإصحاح الثانى عشر.

فإنما هي بشاره بالخلاص وليست بدعوه إلى الإيمان والتدين به. وثانياً: إن ذلك لا يدفع محذور لغويه الدعوه في فروع الدين من الأخلاق والأفعال حتى من المسيح نفسه، والأناجيل مملوءه بذلك. وثالثاً: إن محذور الخطيئه وانتقاض الغرض الإلهي باق على حاله فإن الله تعالى إنما خلقهم ليرحم جميعهم ويبسط النعمه والسعاده على كافةهم وقد آل أمره إلى عقابهم والغضب عليهم وإهلاكهم للأبد إلا شردمه منهم.

فهذه نبذه من وجوه فساده عند العقل، ويؤيده ويجرى عليه القرآن الكريم، قال تعالى: «الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» طه-٥٠، فبين أن كل شيء مهدي إلى غايته وما يبتغيه بوجوده، والهدايه تعم التكوينيّه والتشريعيّه فالسنه الإلهيه جاربه على بسط الهدايه، ومنها هدايه الإنسان هدايه دينيه.

ثم قال تعالى وهو أول هدايه دينيه ألقاها إلى آدم ومن معه حين إهباطهم من الجنه: «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» البقره-٣٩، وما يشتمل عليه بمنزله التلخيص لتفاصيل الشرائع إلى يوم القيامه فففيه تشريع و وعد و وعيد عليه من غير تردد و ارتياب، وقد قال تعالى:

«الْحَقَّ أَقُولُ» -ص-٨٤، وقال تعالى: «مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»، ق-٢٩، فبين أنه لا يتردد فيما جزم به من الأمر و لا ينقض ما أنفذه من الأمر فما يقضيه، هو الذي يمضيه، وإنما يفعل ما قاله، فلا ينحرف فعله عن المجرى الذي أراد عليه لا من جهه نفسه بأن يريد شيئاً ثم يتردد في فعله، أو يريد له فلا يفعله و لا جهه غيره بأن يريد شيئاً و يقطع به و يعزم عليه ثم يمنع من العقل أو يبدو إشكال يعترض عليه في طريق الفعل فكل ذلك من قهر القاهر، و غلبه المانع الخارجى قال تعالى: «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ» يوسف-٢١، وقال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ بِأَلْبَعِ أَمْرِهِ»: الطلاق-٣، وقال تعالى حكاية عن موسى: «قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى»: طه-٥٢، وقال تعالى: «الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ»: المؤمن-١٧.

تدل هذه الآيات و ما يشابهها على أنه تعالى إنما خلق الخلق و لم يغفل عن أمره، و لم يجهل شيئاً مما سيظهر منه و لم يندم على ما فعله، ثم شرع لهم الشرائع تشريعاً

جديا فاصلا من غير هزل ولا خوف ولا رجاء، ثم إنه يجزى كل ذى عمل بعمله، إن خيرا فخير و إن شرا فشر من غير أن يغلبه تعالى غالب، أو يحكم عليه حاكم من شريك أو فديه أو خله أو شفاعه من دون إذنه فكل ذلك ينافى ملكه المطلق لما سواه من خلقه.

و عاشرا: ما ذكروه من حديث الفداء و حقيقه الفداء أن يلزم الإنسان أو ما يتعلق به من نفس أو مال أثر سيئ من قتل أو فناء فيعوض بغيره أى شىء كان ليصان بذلك من لحوق ذلك الأثر به كما يفدى الإنسان الأسير بنفس أو مال و كما تفدى الجرائم و الجنایات بالأموال و يسمى البدل فديه و فداء، فالتفديه نوع معامله ينتزع بها حق صاحب الحق و سلطنته عن المفدى عنه إلى الفداء فيستتقذ به المفدى عنه من أن يلحق به الشر.

و من هنا يظهر أن الفداء غير معقول فى ما يتعلق بالله سبحانه فإن السلطنة الإلهيه-على خلاف السلطنة الوضعيه الاعتباريه الإنسانيه-سلطنته حقيقه واقعيه غير جائزه التبديل مستحيله الصرف، فالأشياء بأعيانها و آثارها موجوده قائمه بالله سبحانه و كيف يتصور تغيير الواقع عما هو عليه فليس إلا أمرا لا يمكن تعقله فضلا عن أن يمكن وقوعه و هذا بخلاف الملك و السلطنته و الحق و أمثالها الدائر بيننا معاشر أبناء الاجتماع فإنها و أمثالها أمور وضعيه اعتباريه زامها بأيدينا، نحن المجتمعين نبطلها مره، و نبدلها أخرى على حسب تغير مصالحنا فى الحيوه و المعاش (راجع ما تقدم من البحث فى تفسير قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: الحمد-٤، و قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ﴾ الآية X: آل عمران-٢٦.

و قد نفى الله سبحانه الفديه بالخصوص فى قوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾: الحديد-١٥، و قد تقدم فيما مر أن من هذا القبيل قول المسيح فيما يحكيه الله تعالى عنه: «وَ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ -X إلى أن قال X- مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»: المائده-١١٨

فإن قوله: «وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ» إلخ» فى معنى أنه لم يكن لى شأن فىهم إلا ما أنت وظفته على و عينته و هو تبليغ الرساله و الشهاده على الأعمال ما دمت فىهم، و أما هلاكهم و نجاتهم و عذابهم و مغفرتهم فإنما ذلك إليك من غير أن يرتبط بى شىء من ذلك أو يكون لى شأن فىه فأملك لهم شيئاً منك أخرجهم به من عذابك أو تسلطك عليهم، و فى ذلك نفى الفداء إذ لو كان هناك فداء لم يصح تبريه من أعمالهم و إرجاع العذاب و المغفرة معا إلى الله سبحانه بنفى ارتباطهما به أصلاً.

و فى معنى هذه الآيات قوله تعالى: «وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عِدْلٌ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ» البقره- ٤٨، و كذا قوله تعالى: «يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ فِيهِ وَ لَا حُلَّةٌ وَ لَا شَفَاعَةٌ» البقره- ٢٥٤، و قوله تعالى: «يَوْمٌ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مِمَّا كُنْتُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ» المؤمن- ٣٣، فإن العدل فى الآيه الأولى و البيع فى الآيه الثانية و العصمه من الله فى الآيه الثالثة مما ينطبق عليه الفداء فنفيها نفى الفداء.

نعم أثبت القرآن الشريف فى مورد المسيح الشفاعة بدل ما يثبتونه من الفداء و الفرق بينهما أن الشفاعة (كما تقدم البحث عنها فى قوله تعالى: «وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي» البقره- ٤٨، نوع من ظهور قرب الشفيع و مكانته لدى المشفوع عنده من غير أن يملك الشفيع منه شيئاً أو يسلب عنه ملك أو سلطنه، أو يبطل حكمه الذى خالفه المجرم أو يبطل قانون المجازاه بل إنما هو نوع دعاء و استدعاء من الشفيع لتصرف المشفوع عنده و هو الرب ما يجوز له من التصرف فى ملكه، و هذا التصرف الجائر مع وجود الحق هو العفو الجائر للمولى مع كونه ذا حق أن يعذبه لمكان المعصيه و قانون العقوبه.

فالشفيع يحضه و يستدعى منه أن يعمل بالعفو و المغفرة فى مورد استحقاق العذاب للمعصيه من غير أن يسلب من المولى ملك أو سلطان بخلاف الفداء فإنه كما مر معامله يتبدل به سلطنه من شىء إلى شىء آخر هو الفداء و يخرج المفدى عنه عن سلطان القابل الآخذ للفداء.

و يدل على هذا الذى ذكرناه قوله تعالى: «وَ لَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» الزخرف- ٨٦، فإنه صريح فى وقوع الشفاعة من المستثنى، و المسيح (ع) ممن كانوا يدعونهم من دون الله، و قد نص القرآن بأن

الله علمه الكتاب و الحكمه، و بأنه من الشهداء يوم القيامة، قال تعالى: «و يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ» آل عمران-٤٨، و قال تعالى حكاية عنه: «و كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ» المائدة-١١٧، و قال تعالى: «و يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا» النساء-١٥٩، فالآيات كما ترى تدل على كون المسيح(ع) من الشفعاء، و قد تقدم تفصيل القول في هذا المعنى في تفسير قوله تعالى: «و اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا X الآيه X البقره-٤٨».

٦ من أين نشأ هذه الآراء؟

القرآن ينفي أن يكون المسيح(ع) هو الملقى لهذه الآراء و العقائد إليهم و المروج لها فيما بينهم بل إنهم تعبدوا لرؤسائهم في الدين و سلموا الأمر إليهم و هم نقلوا إليهم عقائد الماضين من الوثنيين كما قال تعالى: «و قَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَ قَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا آخْبَارَهُمْ وَ رُءُوسَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» X الآيات X:

التوبه-٣١.

و هؤلاء الكافرون الذين يشير تعالى إليهم بقوله: يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ، ليسوا هم عرب الجاهليه في وثنتهم حيث قالوا: إن الملائكة بنات الله فإن قولهم بأن الله ابنا أقدم تاريخاً من تماسهم مع العرب و اختلاطهم بهم و خاصه قول اليهود بذلك مع أن ظاهر قوله: مِنْ قَبْلُ، أنهم سابقون فيه على اليهود و النصارى، على أن اتخاذ الأصنام في الجاهليه مما نقل إليهم من غيرهم و لم يكونوا بمبتكرين في ذلك (١).

ص: ٣٠٥

١- ١) ذكروا أن أول من وضع الأصنام على الكعبه و دعا الناس إليها عمرو بن لحي و كان في زمان سابور ذى الأكتاف ساد قومه بمكه و استولى على سدانه البيت ثم سافر إلى مدينه بلقاء بأرض الشام فرأى قوما يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلويه و الأشخاص البشرية نستنصر بها فننصر، و نستمطر بها فنمطر فطلب منهم صنما من أصنامهم فدفعوا إليه هبل فرجع إلى مكه و وضعه على الكعبه و دعا الناس إلى عبادتها، و كان معه إساف و نائله على شكل زوجين فدعا الناس إليهما و التقرب إلى الله بهما- ذكره في الملل و النحل و غيره. و من عجيب الأمر أن القرآن يذكر أسماء من أصنام العرب في قصه نوح و شكواه من قومه قال تعالى حكاية عنه: «و قالوا لا تذرنا آلهتكم و لا تذرنا ودا و لا سواعا و لا يغوث و يعوق و نسر» نوح-٢٣.

على أن الوثنيه من الروم و يونان و مصر و سوريه و الهند كانوا أقرب إلى أهل الكتاب القاطنين بفلسطين و حوالمه، و انتقال العقائد و المزاعم الدينيه إليهم منهم أسهل، و الأسباب بذلك أوفق.

فليس المراد بالذين كفروا الذين ضاهاهم أهل الكتاب فى القول بالبنوه إلا قدماء و ثنيه الهند و الصين و وثنيه الغرب من الروم و يونان و شمال إفريقيا كما أن التاريخ يحكى عنهم نظائر هذه المزاعم الموجوده فى أهل الكتاب من اليهود و النصرى من البنوه و الأبوه و التثليث و حديث الصلب و الفداء و غير ذلك، و هذا من الحقائق التاريخيه التى ينبه عليها القرآن الشريف.

و نظير الآيات السابقه فى الدلاله على هذه الحقيقه قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَ ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ» :المائده-٧٧، فإن الآيه تبين أن غلوهم فى الدين بغير الحق إنما طرأ عليهم بالتقليد و اتباع أهواء قوم ضالين من قبلهم.

و ليس المراد بهؤلاء القوم أحبارهم و رهبانهم، فإن الكلام مطلق غير مقيد و لم يقل: قوم منكم، و أضلوا كثيرا منكم، و ليس المراد بهم عرب الجاهليه كما تقدم، على أنه وصف هؤلاء القوم بأنهم أضلوا كثيرا أى كانوا أئمه ضلال مقلدين متبعين (بصيغه المفعول فيهما) و لم يكن العرب يومئذ إلا شرذمه مضطهدين أميين ليس عندهم من العلم و الحضاره و التقدم ما يتبعهم به و فيه غيرهم من الأمم كفارس و الروم و الهند و غيرهم.

فليس المراد بهؤلاء القوم المذكورين إلا وثنيه الصين و الهند و الغرب كما تقدم.

٧- ما هو الكتاب الذى ينتسب إليه أهل الكتاب و كيف هو؟

الروايه و إن عدت المجوس من أهل الكتاب، و لازم ذلك أن يكون لهم كتاب خاص أو ينتموا إلى واحد من الكتب التى يذكرها القرآن ككتاب، نوح و صحف إبراهيم، و توراه موسى، و إنجيل عيسى، و زبور داود، لكن القرآن لا يذكر شأنهم، و لا يذكر كتابا لهم، و الذى عندهم من «أوستا» لا ذكر منه فيه، و ليس عندهم من سائر الكتب اسم.

و إنما يطلق القرآن «أهل الكتاب» فيما يطلق، و يريد بهم اليهود و النصارى لكان الكتاب الذى أنزله الله عليهم.

و الذى عند اليهود من الكتب المقدسه خمس و ثلاثون كتابا منها تورا موسى مشتمله على خمس أسفار (١)، و منها كتب المؤرخين اثنا عشر كتابا (٢)، و منها كتاب أيوب، و منها زبور داود، و منها ثلاثه كتب لسليمان (٣)، و منها كتب النبوات سبعة عشر كتابا (٤).

و لم يذكر القرآن من بينها إلا تورا موسى و زبور داود (٤).

و الذى عند النصارى من مقدسات الكتب، الأناجيل الأربعة: و هى إنجيل متى، و إنجيل مرقس، و إنجيل لوقا، و إنجيل يوحنا، و منها كتاب أعمال الرسل، و منها عدده من الرسائل (٥)، و منها رؤيا يوحنا.

و لم يذكر القرآن شيئا من هذه الكتب المقدسه المختصه بالنصارى إلا أنه ذكر أن هناك كتابا سماويا أنزله الله على عيسى بن مريم يسمى بالإنجيل، و هو إنجيل واحد ليس بالأناجيل، و النصارى و إن كانوا لا يعرفونه و لا يعترفون به إلا أن فى كلمات

ص: ٣٠٧

١- ١) و هى سفر الخلقه، و سفر الخروج، و سفر الأحبار، و سفر العدد، و سفر الاستثناء.

٢- ٢) و هى كتاب يوشع، و كتاب قضاة بنى إسرائيل، و كتاب راعوث، و السفر الأول من أسفار صموئيل، و الثانى منها، و السفر الأول من أسفار الملوك، و الثانى منها. و السفر الأول من أخبار الأيام، و السفر الثانى منها، و السفر الأول لعزرا، و الثانى له، و سفر إستير.

٣- ٣) و هى كتاب الأمثال، و كتاب تسيح التسايح

٤- ٤) و هى كتاب نبوه أشعيا، و كتاب نبوه أرميا، و مراتى أرميا، و كتاب حزقيال، و كتاب نبوه دانيال، و كتاب نبوه هوشع، و كتاب نبوه يوييل، و كتاب نبوه عاموص، و كتاب نبوه عويديا، و كتاب نبوه يونان، و كتاب نبوه ميخا، و كتاب نبوه ناحوم، و كتاب نبوه حيقوق، و كتاب نبوه صفونيا، و كتاب نبوه حجى، و كتاب نبوه زكريا، و كتاب نبوه ملاخيا.

٥- ٥) و هى أربع عشره رساله لبولس، و رساله ليعقوب، و رسالتان لبطرس، و ثلاث رسائل ليوحنا، و رساله ليهودا

رؤسائهم لقيطات تتضمن الاعتراف بأنه كان للمسيح كتاب اسمه إنجيل (١).

و القرآن مع ذلك لا يخلو من إشعار بأن بعضا من التوراه الحقه موجود فيما عند اليهود، وكذا بعض من الإنجيل الحق موجود في أيدي النصارى، قال تعالى: «وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ» :المائدة-٤٣، وقال تعالى: «وَ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ» :المائدة-١٤، والدلاله ظاهره.

بحث تاريخي

١- قصة التوراه الحاضر:

بنو إسرائيل هم الأسباط من آل يعقوب كانوا يعيشون أولا عيشه القبائل البدويين ثم أشخصهم الفراعنه إلى مصر و كانوا يعامل معهم معامله الأسراء المملوكين حتى نجاهم الله بموسى من فرعون و عمله.

و كانوا فى زمن موسى يسيرون مسير الحيوه بالإمام و هو موسى و بعده يوشع (ع) ثم كانوا برهه من الزمان يدبر أمرهم القضاء مثل إيهود و جدعون و غيرهما.

و بعد ذلك يشرع فيهم عصر الملك و أول الملوك فيهم شاءول و هو الذى يسميه القرآن الشريف بطالوت ثم داود ثم سليمان.

ثم انقسمت المملكه و انشعبت القدره و مع ذلك ملك فيهم ملوك كثيرين كرجعام و أيبام و يربعام و يهوشافاط و يهورام و غيرهم بضعه و ثلاثون ملكا.

و لم تزل تضعف القدره بعد الانقسام حتى تغلبت عليهم ملوك بابل و تصرفوا فى أورشليم و هو بيت المقدس، و ذلك فى حدود سنه ستمائه قبل المسيح، و ملك بابل يومئذ بخت نصر(نوكد نصر) ثم تمردت اليهود عن طاعته فأرسل إليهم عساكره

ص: ٣٠٨

١- ١) فى رساله بولس إلى أهل غلاطيه-الإصحاح الأول: «إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعا عن الذى دعاكم بنعمه المسيح إلى إنجيل آخر ليس هو آخر غير أنه يوجد قوم يزعمونكم و يريدون أن يحولوه أى يغيروه. و قد استشهد النجار فى قصص الانبياء بما مر و بموارد من كلمات بولس فى رسائله على أنه كان هناك إنخمل غير الاربعه يسمى إنجيل المسيح.

فحاصروهم ثم فتحوا البلده، ونهبوا خزائن الملك، و خزائن الهيكل (المسجد الأقصى) و جمعوا من أغنيائهم و أقويائهم و صناعاتهم ما يقرب من عشره آلاف نفسا و ساروا بهم إلى بابل، و ما أبقوا فى المحل إلا الضعفاء و الصعاليك، و نصب بخت نصر «صديقا» و هو آخر ملوك بنى إسرائيل ملكا عليهم، و عليه الطاعه لبخت نصر.

و كان الأمر على ذلك قريبا من عشر سنين حتى وجد صدقيا بعض القوه و الشده، و اتصل بعض الاتصال بواحد من فراعنه مصر فاستكبر و تمرد عن طاعه بخت نصر.

فأغضب ذلك بخت نصر غضبا شديدا فساق إليهم الجيوش و حاصر بلادهم فتحصنوا عنه بالحصون، و تمادى بهم التحصن قريبا من سنه و نصف حتى ظهر فيهم القحط و الوباء.

و أصبر بخت نصر على المحاصره حتى فتح الحصون، و ذلك فى سنه خمسمائه و ست و ثمانين قبل المسيح، و قتل نفوسهم، و خرب ديارهم و خربوا بيت الله، و أفنوا كل آيه و علامه دينيه، و بدلوا هيكلهم تلا من تراب، و فقدت عند ذلك التوراه و التابوت الذى كانت تجعل فيه.

و بقى الأمر على هذا الحال خمسين سنه تقريبا و هم قاطنون ببابل و ليس من كتابهم عين و لا أثر، و لا من مسجدهم و ديارهم إلا تلال و ريع.

ثم لما جلس كورش من ملوك فارس على سرير الملك، و كان من أمره مع البابليين ما كان، و فتح بابل و دخله أطلق أسراء بابل من بنى إسرائيل، و كان عزرا المعروف من المقربين عنده فأمره عليهم، و أجاز له أن يكتب لهم كتابهم التوراه، و يبنى لهم الهيكل، و يعيدهم إلى سيرتهم الأولى و كان رجوع عزرا بهم إلى بيت المقدس سنه أربعمائه و سبعة و خمسين قبل المسيح، و بعد ذلك جمع عزرا كتب العهد العتيق و صححها، و هى التوراه الدائره اليوم (1).

و أنت ترى بعد التدبر فى القصه أن سنه التوراه الدائره اليوم مقطوعه غير

ص: ٣٠٩

١- ١) مأخوذه من قاموس الكتاب تأليف مستر هاكس الأمريكائى الهمدانى و مأخذ أخرى من التواريخ.

متصله بموسى(ع)إلا- بواحد(و هو عزرا)،لا- نعرفه أولا و لا نعرف كيفيه اطلاعه و تعمقه ثانيا،و لا نعرف مقدار أمانته ثالثا،و لا نعرف من أين أخذ ما جمعه من أسفار التوراه رابعا،و لا ندرى بالاستناد إلى أى مستند صحح الأغلط الواقعه أو الدائره خامسا.

و قد أعقبت هذه الحادته المشؤومه أثرا مشؤوما آخر و هو إنكار عدده من باحثى المؤرخين من الغربيين وجود موسى و ما يتبعه،و قولهم:إنه شخص خيالى كما قيل نظيره فى المسيح عيسى بن مريم(ع)،لكن ذلك لا يسع لمسلم فإن القرآن الشريف يصرح بوجوده(ع)و ينص عليه.

٢- قصة المسيح و الإنجيل:

إشاره

اليهود مهتمون بتاريخ قوميتهم،و ضبط الحوادث الظاهره فى الأعصار التى مرت بهم،و مع ذلك فإنك لو تتبعت كتبهم و مسفوراتهم لم تعثر فيها على ذكر المسيح عيسى بن مريم(ع):لا على كيفيه ولادته،و لا على ظهوره و دعوته و لا على سيرته و الآيات التى أظهرها الله على يديه،و لا على خاتمه حيوته من موت أو قتل أو صلب أو غير ذلك،فما هو السبب فى ذلك؟و ما هو الذى أوجب خفاء أمره عليهم أو إخفاءهم أمره.

و القرآن يذكر عنهم أنهم قذفوا مريم و رموها بالبهتان فى ولاده عيسى، و أنهم ادعوا قتل عيسى،قال تعالى: «و يكفّرهم و قولهم على مريم بُهتاناً عظيماً و قولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله و ما قتلوه و ما صلبوه و لكن شبه لهم و إن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا الجبّ الظنّ و ما قتلوه يقيناً»:النساء-١٥٧.

فهل كانت دعواهم تلك مستنده إلى حديث دائر بينهم كانوا يذكرونه بين قصصهم القوميه من غير أن يكون مودعا فى كتاب؟و عند كل أمه أحاديث دائره من واقعيات و أساطير لا اعتبار بها ما لم تنته إلى ماخذ صحيحه قويمه.

أو أنهم سمعوا من النصارى الذكر المكرر من المسيح و ولادته و ظهوره و دعوته أخذوا ذلك من أفواههم و باهتوا مريم و ادعوا قتل المسيح؟لا طريق إلى استبانه شىء

من ذلك غير أن القرآن- كما يظهر بالتدبر في الآيه السابقه- لا ينسب إليهم صريحا إلا دعوى القتل دون الصلب، و يذكر أنهم على ريب من الأمر، و أن هناك اختلافا! (١).

[الأنجيل الأربعة]

و أما حقيقه ما عند النصارى من قصه المسيح و أمر الإنجيل و البشاره فهى أن قصته (ع) و ما يتعلق بها تنتهى عندهم إلى الكتب المقدسه عندهم و هى الأنجيل الأربعة التى هى أنجيل متى و مرقس و لوقا و يوحنا، و كتاب أعمال الرسل للوقا، و عدده رسائل لبولس و بطرس و يعقوب و يوحنا و يهوذا، و اعتبار الجميع ينتهى إلى اعتبار الأنجيل فلنشتغل بها:

أما إنجيل متى فهو أقدم الأنجيل فى تصنيفه و انتشاره ذكر بعضهم أنه صنف سنه ٣٨ الميلاديه، و ذكر آخرون أنه كتب ما بين سنه ٥٠ إلى سنه ٦٠ (٢). فهو مؤلف بعد المسيح.

و المحققون من قدمائهم و متأخريهم على أنه كان أصله مكتوبا بالعبرانيه ثم ترجم إلى اليونانيه و غيرها أما النسخه الأصلية العبرانيه فمفقوده، و أما ترجمه فلا يدري حالها، و لا يعرف مترجمها (٣).

و أما إنجيل مرقس: فمرقس هذا كان تلميذا لبطرس، و لم يكن من الحواريين و ربما ذكروا أنه إنما كتب إنجيله بإشاره بطرس و أمره، و كان لا يرى إلهيه المسيح (٤)، و لذلك ذكر بعضهم أنه إنما كتب إنجيله للعشائر و أهل القرى فعرف المسيح تعريف رسول إلهى مبلغ لشرائع الله (٥)، و كيف كان فقد كتب إنجيله سنه ٦١ ميلاديه.

و أما إنجيل لوقا فلوقا هذا لم يكن حواريا و لا رأى المسيح و إنما تلقن النصرانيه من بولس، و بولس كان يهوديا متعصبا على النصرانيه يؤذى المؤمنين بالمسيح و يقلب

ص: ٣١١

١-١) قاموس الكتاب المقدس للمسترها كس ماده-متى

٢-٢) قاموس الكتاب المقدس للمسترها كس ماده-متى

٣-٣) كتاب ميزان الحق، و اعترف به على تردد فى قاموس الكتاب المقدس.

٤-٤) نقل ذلك عبد الوهاب النجار فى قصص الأنبياء عن كتاب مروج الأخبار فى تراجم الأخيار لبطرس قرامج.

٥-٥) ذكره فى قاموس الكتاب المقدس، يقول فيه: إن نص تواتر السلف على أن مرقس كتب إنجيله بروميه، و انتشر بعد وفاه بطرس و بولس لكنه ليس له كثير اعتبار لأن ظاهر إنجيله أنه كتبه لأهل القبائل و القرويين لا لأهل البلاد و خاصه الروميه، فتدبر فى كلامه!

الأمر عليهم، ثم اتفق مفاجأه أن ادعى أنه صرع و في حال الصرع لمسسه المسيح و لأمه و زجره عن الإساءه إلى متبعيه و أنه آمن بالمسيح و أرسله المسيح ليشر بإنجيله.

و بولس هذا هو الذى شيد أركان النصرانيه الحاضره على ما هى عليها (1) فبنى التعليم على أن الإيمان بالمسيح كاف فى النجاه من دون عمل، و أباح لهم أكل الميته و لحم الخنزير و نهى عن الختنه و كثيرا مما فى التوراه (2) مع أن الإنجيل لم يأت إلا مصدقا لما بين يديه من التوراه، و لم يحلل إلا أشياء معدوده، و بالجمله إنما جاء عيسى ليقوم شريعته التوراه و يرد إليها المنحرفين و الفاسقين لا ليطل العمل و يقصر السعاده على الإيمان الخالى.

و قد كتب لوقا إنجيله بعد إنجيل مرقس. و ذلك بعد موت بطرس و بولس، و قد صرح جمع بأن إنجيله ليس كتابا إلهاميا كسائر الأناجيل (3) كما يدل عليه ما وقع فى مبتدأ إنجيله.

و أما إنجيل يوحنا فقد ذكر كثير من النصارى أن يوحنا هذا هو يوحنا بن زبدي الصياد أحد التلاميذ الاثنى عشر (الحوارين) الذى كان يحبه المسيح حبا شديدا (4).

و ذكروا أن «شيرينطوس» و «أبيسون» و جماعتهما لما كانوا يرون أن المسيح ليس إلا- إنسانا مخلوقا لا يسبق وجوده وجود أمه اجتمعت أساقفه آسيا و غيرهم فى

ص: ٣١٢

١-١) راجع ماده بولس من قاموس الكتاب المقدس.

٢-٢) راجع كتاب أعمال الرسل و رسائل بولس.

٣-٣) قال فى أول إنجيل لوقا: «لأجل أن كثيرين راموا كتب قصص الأمور التى نحن بها عارفون كما عهد إلينا أولئك الأولون الذين كانوا من قبل معانين و كانوا خداما للكلمه رأيت أنا أيضا إذ كنت تابعا لكل شىء بتحقيق أن أكتب إليك أيها العزيز تأويلا»، و دلالتة على كون الكتاب نظريا غير إلهامى ظاهره و قد نقل ذلك أيضا عن مستر كدل فى رساله الإلهام و صرح جيروم أن بعض القدماء كانوا يشكون فى البابين الأولين من إنجيل لوقا و أنهما ما كانا فى نسخه فرقه مارسيونى، و جزم إكهارن فى كتابه ص ٩٥ أن من ف ٤٣ إلى ٤٧ من الباب ٢٢ من إنجيل لوقا إلحاقه، و ذكر إكهارن أيضا فى ص ٦١ من كتابه: قد اختلط الكذب الروائى ببيان المعجزات التى نقلها لوقا و الكاتب ضمه على طريق المبالغه الشاعرية لكن تمييز الصدق عن الكذب فى هذا الزمان عسير، و قول «كلى مى شيس أن متى و مرقس يتخالفان فى التحرير و إذا اتفقا ترجح قولهما على قول لوقا» نقل عن قصص الأنبياء للنجار- ص ٤٧٧.

٤-٤) راجع قاموس الكتاب المقدس ماده يوحنا.

سنة ٩٦ ميلاديه عند يوحنا و التمسوا منه أن يكتب ما لم يكتبه الآخرون في أناجيلهم، و يبين بنوع خصوصى لاهوت المسيح فلم يسعه أن ينكر إجابته طلبهم (١).

و قد اختلفت كلماتهم فى السنه التى ألف فيها هذا الإنجيل فمن قائل إنها سنة ٦٥، و قائل إنها سنة ٩٦، و قائل إنها سنة ٩٨.

و قال جمع منهم إنه ليس تأليف يوحنا التلميذ: فبعضهم على أنه تأليف طالب من طلبه المدرسه الإسكندريه (٢)، و بعضهم على أن هذا الإنجيل كله و كذا رسائل يوحنا ليست من تصنيفه بل إنما صنفه بعضهم فى ابتداء القرن الثانى، و نسبه إلى يوحنا ليعتبره الناس (٣)، و بعضهم على أن إنجيل يوحنا كان فى الأصل عشرين بابا فألحقت كنيسه «أفاس» الباب الحادى و العشرين بعد موت يوحنا (٤)، فهذه حال هذه الأناجيل الأربعة، و إذا أخذنا بالقدر المتيقن من هذه الطرق انتهت إلى سبعة رجال هم: متى، مرقس، لوقا، يوحنا، بطرس، بولس، يهوذا، ينتهى ركونهم كله إلى هذه الأناجيل الأربعة و ينتهى الأربعة إلى واحد هو أقدمها و أسبقها و هو إنجيل متى، و قد مر أنه ترجمه مفقود الأصل لا يدرى من الذى ترجمه؟ و كيف كان أصله و على ما ذا كان بينى تعليمه، أ برسالة المسيح أم بالوهيته.

و هذا الإنجيل الموجود يترجم أنه ظهر فى بنى إسرائيل رجل يدعى عيسى بن يوسف النجار و أقام الدعوه إلى الله، و كان يدعى أنه ابن الله مولود من غير أب بشرى و أن أباه أرسله ليفدى به الناس عن ذنوبهم بالصلب و القتل، و أنه أحيا الميت، و أبرأ الأكمه و الأبرص، و شفى المجانين بإخراج الجن من أبدانهم، و أنه كان له اثنا عشر تلميذا: أحدهم متى صاحب الإنجيل بارك لهم و أرسلهم للدعوه و تبليغ الدين المسيحى «إلخ».

ص: ٣١٣

١-١) نقله فى قصص الأنبياء عن جرجس زوين الفتوحى اللبنانى فى كتابه.

٢-٢) نقل ذلك من كتاب «كاتلك هرالد» فى المجلد السابع المطبوع سنة ١٨٤٤ ص ٢٠٥، نقله عن استادلن (عن القصص)، و أشار إليه فى القاموس فى ماده يوحنا.

٣-٣) قال ذلك «برطشيدر» على ما نقل عن كتاب الفاروق المجلد الأول (عن القصص).

٤-٤) المدرك السابق.

فهذا ملخص ما تنتهى إليه الدعوه المسيحيه على انبساطها على شرق الأرض و غربها،و هو لا يزيد على خبر واحد مجهول الاسم و الرسم،مبهم العين و الوصف.

و هذا الوهن العجيب فى مبدأ القصة هو الذى أوجب لبعض أحرار الباحثين من أوروبا أن ادعى أن المسيح عيسى بن مريم شخص خيالى صورته بعض النزعات الدينيه على حكومات الوقت أو لها و تأيد ذلك بموضوع خرافى آخر يشبهه كل الشبه فى جميع شئون القصة،و هو موضوع «كرشنا»الذى تدعى وثنيه الهند القديمه أنه ابن الله نزل عن لاهوته،و فدى الناس بنفسه صلبا ليخلصهم من الأوزار و الخطايا كما يدعى فى عيسى المسيح حذو النعل بالنعل (كما سيجىء ذكره).

و أوجب لآخرين من منتقدى الباحثين أن يذهبوا إلى أن هناك شخصين مسميين بالمسيح:المسيح غير المصلوب،و المسيح المصلوب،و بينهما من الزمان ما يزيد على خمسه قرون.

و أن التاريخ الميلاد الذى سنتنا هذه سنه ألف و تسعمائه و سته و خمسين منه لا ينطبق على واحد منهما بل المسيح الأول غير المصلوب يتقدم عليه بما يزيد على مائتين و خمسين سنه و قد عاش نحو من ستين سنه،و المسيح الثانى المصلوب يتأخر عنه بما يزيد على مائتين و تسعين سنه و قد عاش نحو من ثلاث و ثلاثين سنه (1).

على أن عدم انطباق التاريخ الميلاد على ميلاد المسيح فى الجملة مما لم يسع للنصارى إنكاره (2)و هو سكتة تاريخيه.

على أن هاهنا أمورا مريبه موهمه أخرى فقد ذكروا أنه كتب فى القرنين الأولين من الميلاد أناجيل كثيره أخرى ربما أنهوها إلى نيف و مائه من الأناجيل،و الأناجيل الأربعة منها ثم حرمت الكنيسه جميع تلك الأناجيل إلا الأناجيل الأربعة التى عرفت

ص: ٣١٤

١- ١) و قد فصل القول فى ذلك الزعيم الفاضل «بهروز»فى كتاب ألفه جديدا.فى البشارات النبويه. و أرجو أن أوفق لإيداع شذره منه فى تفسير آخر سوره النساء من هذا الكتاب،و القدر المتيقن (الذى يهمننا منه)اختلال التاريخ المسيحي.

٢- ٢) راجع ماده مسيح من قاموس الكتاب المقدس.

[إنجيل برنابا]

و من جمله الأناجيل المتروكه إنجيل برنابا الذى ظهرت نسخه منها منذ سنين فترجمت إلى العربيه و الفارسيه و هو يوافق فى عامه قصصه ما قصه القرآن فى المسيح عيسى بن مريم (٢).

و من العجيب أن المواد التاريخيه المأثوره عن غير اليهود أيضا ساكته عن تفاصيل ما ينسبه الإنجيل إلى الدعوه المسيحيه من حديث البنوه و الفداء و غيرهما ذكر المؤرخ الأمريكى الشهير هندريك ويلم وان لون فى تأليفه فى تاريخ البشر كتابا كتبه الطبيب إسكولاييوس كولتلوس الرومى سنه ٦٢ الميلاديه إلى ابن أخيه جلاديوس أنسا و كان جنديا فى عسكر الروم بفلسطين يذكر فيه أنه عاد مريضا بروميه يسمى بولس فأعجبه كلامه و قد كان بولس كلمه بالدعوه المسيحيه و ذكر له طرفا من أخبار المسيح و دعوته.

ثم يذكر أنه ترك بولس و لم يره حتى سمع بعد حين أنه قتل فى طريق أوستى ثم يسأل ابن أخيه أن يبحث عن أخبار هذا النبى الإسرائيلى الذى كان يذكره بولس و عن أخبار بولس نفسه و يكتب إليه ما بلغه من ذلك.

فكتب إليه جلاديوس أنسا بعد ستة أسابيع من معسكر الروم بأورشليم

ص: ٣١٥

١ - ١) و لقد لام «شيلسوس» الفيلسوف فى القرن الثانى النصارى فى كتابه «الخطاب الحقيقى» على تلاعبهم بالأناجيل، و محوهم بالغد ما أدرجوه بالأمس، و فى سنه ٣٨٤ م، أمر البابا داماسيوس أن تحرر ترجمه لاتينيه جديده من العهدين القديم و الحديث تعتبر قانونيه فى الكنائس و كان تيودوسيوس الملك قد ضجر من المخاصمات الجدليه بين الأساقفه، و تمت تلك الترجمه التى تسمى (فولكانا) و كان ذلك خاصا بالأناجيل الأربعة: متى و مرقس و لوقا و يوحنا، و قد قال مرتب تلك الأناجيل: (بعد أن قابلنا عددا من النسخ اليونانيه القديمه رتبناها بمعنى أننا نقحنا ما كان فيها مغايرا للمعنى، و أبقينا الباقي على ما كان عليه)، ثم إن هذه الترجمه قد ثبتها المجمع «التريدنتى» سنه ١٥٤٦ أى بعدها بأحد عشر قرنا، ثم خطأها سيستوس الخامس سنه ١٥٩٠ و أمر بطبع نسخ جديده، ثم خطأ كليمنطوس الثامن هذه النسخه الثانيه أيضا، و أمر بطبعه جديده منقحه هى الدارجه اليوم عند الكاثوليكين (تفسير الجواهر - الجزء الثانى - ص ١٢١ الطبعة الثانيه).

٢ - ٢) و قد وجد هذا الانجيل بالخط الايطالى منذ سنين و ترجمه إلى العربيه الدكتور خليل سعاده بمصر و ترجمه إلى الفارسيه الحبر الفاضل «سردار كابل» بإيران.

أنى سألت عده من شيوخ البلد و معمرهم عن عيسى المسيح فوجدتهم لا يحسنون مجاوبتى فيما أسألهم هذا و السنه سنه ٦٢ ميلاديه و هم شيوخ.

حتى لقيت بيع زيتون فسألته هل يعرفه فأنعم لى فى الجواب ثم دلنى على رجل اسمه يوسف و ذكر أنه كان من أتباعه و محبيه و أنه خبير بقصصه بصير بأخباره يستطيع أن يجيبك فيما تسأله عنه.

فلقيت يوسف اليوم بعد ما تفحصت أياما فوجدته شيخا هرما و قد كان قديما يصطاد السمك فى بعض البحيرات من هذه الناحيه.

كان الرجل على كبر سنه صحيح المشاعر جيد الحافظه و قص لى جميع الأخبار و القضايا الحادثه فى ذلك الأوان أو ان الاغتاش و الفتنه.

ذكر أن فونتيوس فيلاطوس كان حاكما على سامرا و يهوديه فى عهد القيصر تى بريوس.

فاتفق أن وقع أيام حكومته فتنه فى أورشليم فسافر فونتيوس فيلاطوس إليه لإخماد ما فيه من نار الفتنه و كانت الفتنه هى ما شاع يومئذ أن ابن نجار من أهل الناصره يدعو الناس و يستنهضهم على الحكومه.

فلما تحققوا أمره تبين أن ابن النجار المتهم شاب عاقل متين لم يرتكب ما يوجب عليه سياسه غير أن رؤساء المذهب من اليهود كانوا يخالفونه و يباغضونه بأشد ما يكون و قد قالوا لفيلاطوس إن هذا الشاب الناصرى يقول لو أن يونانيا أو روميا أو فلسطينيا عامل الناس و عاشرهم بالعداله و الشفقه كان عند الله كمن صرف عمره فى مطالعه كتاب الله و تلاوه آياته.

و كان هذه التعرضات و الاقتراحات لم تؤثر فى فيلاطوس أثرها لكنه لما سمع ازدحام الناس قبال المعبد و هم يريدون أن يقبضوا على عيسى و أصحابه و يقطعوهم إربا إربا رأى أن الأصلح أن يقبض هو على هذا الشاب النجار و يسجنه حتى لا يقتل بأيدي الناس فى غوغائهم.

و كان فيلاطوس لم يتضح له سبب ما ينقمه الناس من عيسى كل الاتضاح و كلما

كلم الناس فى أمره و سألهم و استوضحهم علت أصواتهم و تنادوا هو كافر هو ملحد هو خائن فلم ينته الأمر إلى طائل.

حتى استقر رأى فيلاطوس أن يكلم عيسى بنفسه فأشخصه و كلمه و سأله عما يقصده بما يبلغه من الدين فأجابه عيسى أنه لا يهتم بأمر الحكومه و السياسه و لا له فى ذلك غرض و أنه يهتم بالحياه الروحانيه أكثر مما يهتم بأمر الحياه الجسمانيه و أنه يعتقد أن الإنسان يجب أن يحسن إلى الناس و يعبد الله الفرد الواحد وحده الذى هو فى حكم الأب لجميع أرباب الحياه من المخلوقات.

و كان فيلاطوس ذا خبره فى مذاهب الرواقيين و سائر فلاسفه يونان فكأنه لم ير فى ما كلمه به عيسى موضع غمضه و لا محل مؤاخذه و لذلك عزم ثانياً أن يخلص هذا النبى السليم المتين من شر اليهود و سوف فى حكم قتله و إنجازه.

لكن اليهود لم يرضوا بذلك و لم يتركوه على حاله بل أشاعوا عليه أنه فتن بأكاذيب عيسى و أقاويله و أن فيلاطوس يريد الخيانه على قيصر و أخذوا يستشهدون عليه و يسجلون الطوامير على ذلك يريدون به عزله من الحكومه و قد كان برز قبل ذلك فتن و انقلابات فى فلسطين و القوى المؤمنه القيصريه قليله العده لا تقوى على إسكات الناس فيها كل القوه.

و كان على الحكام و سائر المأمورين من ناحيه قيصر أن لا يعاملوا الناس بما يجلب شكواهم و عدم رضائهم.

فلهذه الأسباب لم ير فيلاطوس بداً من أن يفدى هذا الشاب المسجون للأمن العام و يجيب الناس فيما سألوه من قتله.

و أما عيسى فإنه لم يجزع من الموت بل استقبله على شهامه من نفسه و قد عفا قبل موته عمن تسبب إلى قتله من اليهود ثم قضى به على الصليب و الناس يسخرون منه و يشتمونه و يسبوناه.

قال جلاد يوس أنسا هذا ما قص لى يوسف من قصه عيسى و دموعه تجرى على خديه و حين ودعنى للمفارقة قدمت إليه شيئاً من المسكوك الذهبى لكنه أبى أن يأخذه و قال لى يوجد هاهنا من هو أفقر منى فأعطه إياه.

و سألته عن بولس رفيقك المعهود فما كان يعرفه معرفه تامه و القدر الذى تبين من أمره أنه كان رجلا خياما ثم ترك شغله و اشتغل بالتبليغ لهذا المذهب الجديد مذهب الرب الرؤوف الرحيم الإله الذى بينه و بين يهوه إله يهود الذى لا نزال نسمعه من علماء اليهود من الفرق ما هو أبعد مما بين السماء و الأرض.

و الظاهر أن بولس سافر أولا- إلى آسيا الصغرى ثم إلى يونان و أنه كان يقول للعبيد و الأرقاء إنهم جميعا أبناء لأب يحبهم و يرأف بهم و أن السعاده ليست تخص بعض الناس دون بعض بل تعم جميع الناس من فقير و غنى بشرط أن يعاشروا على المؤاخاه و يعيشوا على الطهاره و الصداقه انتهى ملخصا.

هذه عامه فقرات هذا الكتاب مما يرتبط بما نحن فيه من البحث.

و بالتأمل فى جمل مضامين هذا الكتاب يتحصل للمتأمل أن ظهور الدعوه المسيحيه كيف كان فى بنى إسرائيل بعيد عيسى (ع) و أنه لم يكن إلا ظهور دعوه نبويه بالرساله من عند الله لا ظهور دعوه إلهيه بظهور اللاهوت و نزولها إليهم و تخليصهم بالفداء ثم إن عده من تلامذه عيسى أو المنتسبين إليه كبولس و تلامذه تلامذتهم سافروا بعد وقعه الصلب إلى مختلف أقطار الأرض من الهند و إفريقيا و روميه و غيرها و بسطوا الدعوه المسيحيه لكنهم لم يلبثوا دون أن اختلفوا فى مسائل أصلية من التعليم كلاهوت المسيح و كفايه الإيمان بالمسيح عن العمل بشريعه موسى و كون دين الإنجيل دينا أصيلا ناسخا لدين موسى أو كونه تابعا لشريعه التوراه مكملا إياها (1) فافترقوا عند ذلك فرقا.

و الذى يجب الإمعان فيه أن الأمم التى بسطت الدعوه المسيحيه و ظهرت فيها أول ظهورها كالروم و الهند و غيرها كانوا قبلها متحلين بالوثنيه الصابئه أو البرهمنيه أو البوذائيه و فيها أصول من مذاق التصوف من جهه و الفلسفه البرهمنيه من جهه و فيها جميعا شطر وافر من ظهور اللاهوت فى مظهر الناسوت على أن القول بتثليث

ص: ٣١٨

١-١) يشير إليه كتاب أعمال الرمل و وسائل بولس، و قد اعترضت به النصارى.

الوحده و نزول اللاهوت فى لباس الناسوت و تحملها الصلب (١) و العذاب فداء كان دائرا بين القدماء من وثنيه الهند و الصين و مصر و كلدان و الآشور و الفرس، و كذا قدماء وثنيه الغرب كالرومان و الإسكندناويين و غيرهم على ما يوجد فى الكتب المؤلفه فى الأديان و المذاهب القديمه.

ذكر «دوان» فى كتابه «خرافات التوراه و ما يماثلها فى الأديان الأخرى» إذا رجعنا البصر إلى الهند نرى أن أعظم و أشهر عبادتهم اللاهوتيه هو التثليث، و يسمون هذا التعليم بلغتهم «ترى مورتى» و هى عبارته مركبه من كلمتين بلغتهم السنسكريتية « ترى » و معناها الثلاثه و « مورتى » و معناها هيئات أو أقانيم، و هى «برهما»، و فشنو، و سيفا» ثلاثه أقانيم متحده لا ينفك عن الوحده فهى إله واحد بزعمهم.

ثم ذكر: أن برهما عندهم هو الأب و فشنو هو الابن و سيفا هو روح القدس.

ثم ذكر أنهم يدعون سيفا «كرشنا (٢)» الرب المخلص و الروح العظيم الذى ولد منه «فشنو» الإله الذى ظهر بالناسوت على الأرض ليخلص الناس فهو أحد الأقانيم الثلاثه التى هى الإله الواحد.

و ذكر أيضا: أنهم يرمزون للأقنوم الثالث بصوره حمامه كما يقوله النصارى.

و قال مستر «فابر» فى كتابه «أصل الوثنيه» كما نجد عند الهنود ثالوثا مؤلفا من «برهما» و «فشنو» و «سيفا» نجد عند البوذيين ثالوثا فإنهم يقولون: إن «بوذ» إله له ثلاثه أقانيم، و كذلك بوذيو (جينست) يقولون: إن «جيفا» مثلث الأقانيم.

ص: ٣١٩

١- ١) القتل بالصلب على الصليب من القواعد القديمه جدا فقد كانوا يقتلون من اشتد جرمه و فطع ذنبه بالصلب الذى هو من أشد أسباب القتل عذابا و أسوئها ذكرا، و كانت الطريقه فيه أن يصنع من خشبتين تقاطع إحداهما الأخرى ما هو على شكل الصليب المعروف بحيث ينطبق عليه إنسان لو حمل عليه ثم يوضع المجرم عليه مبسوط اليدين و يدق من باطن راحتيه على طرفى الخشبه المتعرضه بالمسامير، و كذا تدق قدماه على الخشبه و ربما شدتا من غير دق ثم تقام الخشبه بنصب طرفها على الأرض بحيث يكون ما بين قدمه إلى الأرض ما يقرب من ذراعين فيبقى الصليب على ذلك يوما أو أياما ثم تكسر قدماه من السافين و يقتل على الصليب أو ينزل فيقتل بعد الإنزال، و كان المصلوب يعذب قبل الصلب بالجلد أو المثله، و كان من العار الشنيع على قوم أن يقتل واحد منهم بالصلب.

٢- ٢) و هو المعبر عنه بالإنكليزيه «كرس» و هو المسيح المخلص.

قال: و الصينيون يعبدون بوذه و يسمونه «فو» و يقولون إنه ثلاثة أقانيم كما تقول الهنود.

و قال دوان فى كتابه المتقدم ذكره: و كان قسيسو هيكل منفيس بمصر يعبرون عن الثالث المقدس للمبتدئين بتعلم الدين بقولهم: إن الأول خلق الثانى و الثانى خلق الثالث، و بذلك تم الثالث المقدس.

و سأل توليسو ملك مصر الكاهن تنيشوكى أن يخبره: هل كان قبله أحد أعظم منه؟ و هل يكون بعده أحد أعظم منه؟ فأجابه الكاهن: نعم يوجد من هو أعظم و هو الله قبل كل شىء ثم الكلمه و معهما روح القدس، و لهذه الثلاثة طبيعه واحده، و هم واحد بالذات و عنهم صدرت القوه الأبدية، فاذهب يا فانى يا صاحب الحياه القصيره.

و قال بونويك فى كتابه «عقائد قدماء المصريين» أغرب كلمه عم انتشارها فى ديانه المصريين هى قولهم بلاهوت الكلمه، و أن كل شىء حصل بواسطتها، و أنها منبثقه من الله، و أنها هى الله، انتهى، و هذا عين العبارة التى يتدى بها إنجيل يوحنا.

و قال «هيجين» فى كتاب «الإنكلوساكسون» كان الفرس يدعون متروسا الكلمه و الوسيط و مخلص الفرس.

و نقل عن كتاب سكان أوروبا الأولين: أنه كان الوثنيون القدماء يقولون:

إن الإله مثلث الأقانيم.

و نقل عن اليونان و الرومان و الفنلنديين و الإسكندناويين قضيه الثالث السابق الذكر، و كذا القول بالكلمه عن الكلدانين و الآشوريين و الفينيقيين.

و قال دوان فى كتابه «خرافات التوراه و ما يقابلها من الديانات الأخرى» (ص ١٨١ ١٨٢) ما ترجمته بالتلخيص:

«إن تصور الخلاص بواسطه تقديم أحد الآلهه ذبيحه فداء عن الخطيئه قديم العهد جدا عند الهنود الوثنيين و غيرهم» و ذكر شواهد على ذلك:

منها قوله: يعتقد الهنود أن كرشنا المولود البكر-الذى هو نفس الآلهه فشنو الذى لا ابتداء له و لا انتهاء على رأيهم-تحرك حنوا كى يخلص الأرض من ثقل حملها

فأتاها و خلص الإنسان بتقديم ذبيحه عنه.

و ذكر أن «مستر مور» قد صور كرشنا مصلوبا كما هو مصور في كتب الهنود مثقوب اليدين و الرجلين، و على قميصه صورته قلب الإنسان معلقا، و وجدت له صورته مصلوبا و على رأسه إكليل من الذهب، و النصرى تقول: إن يسوع صلب و على رأسه إكليل من الشوك.

و قال «هوك» فى ص ٣٢٦ من المجلد الأول من رحلته: و يعتقد الهنود الوثنيون بتجسد بعض الآلهة، و تقديم ذبيحه فداء للناس من الخطيئه.

و قال «موريفورليمس» فى ص ٢٦ من كتابه (الهنود) و يعتقد الهنود الوثنيون بالخطيئه الأصليه، و مما يدل على ذلك ما جاء فى مناجاتهم و توسلاتهم التى يتوسلون بها بعد «الكياترى» و هو، إنى مذنب و مرتكب الخطيئه، و طبيعتى شريره، و حملتنى أمى بالإثم فخلصنى يا ذا العين الحندقويه يا مخلص الخاطئين من الآثام و الذنوب.

و قال القس «جورج كوكس» فى كتابه (الديانات القديمه) فى سياق الكلام عن الهنود: و يصفون كرشنا بالبطل الوديع المملوء لاهوتا لأنه قدم شخصه ذبيحه.

و نقل «هيجين» عن «اندارادا الكروزوبوس» و هو أول أوروبى دخل بلاد التيبال و التبت: أنه قال فى الإله «اندراد» الذى يعبدونه: أنه سفك دمه بالصلب و ثقب المسامير لكى يخلص البشر من ذنوبهم، و أن صورته الصلب موجوده فى كتبهم.

و فى كتاب «جورج جوس» الراهب صورته الإله «اندراد» هذا مصلوبا، و هو بشكل صليب أضلاعه متساويه العرض متفاوتة الطول فالرأسى أقصرها- و فيه صورته وجهه- و السفلى أطولها، و لولا صورته الوجه لما خطر لمن يرى الصوره أنها تمثل شخصا، هذا.

و أما ما يروى عن البوذيين فى بوذا فهو أكثر انطباقا على ما يرويه النصرى عن المسيح من جميع الوجوه حتى أنهم يسمونه المسيح، و المولود الوحيد، و مخلص العالم، و يقولون إنه إنسان كامل و إله كامل تجسد بالناسوت، و أنه قدم نفسه ذبيحه ليكفر ذنوب البشر و يخلصهم من ذنوبهم فلا يعاقبوا عليها، و يجعلهم وارثين لملكوت السماوات،

ص: ٣٢١

بين ذلك كثير من علماء الغرب: منهم «بيل» فى كتابه، و«هوك» فى رحلته، و«موالر» فى كتابه تاريخ الآداب السنسكريتيه، وغيرهم (١).

فهذه نبذه أو أنموذجه من عقيدته تلبس اللاهوت بالناسوت، و حديث الصلب و الفداء فى الديانات القديمه التى كانت الأمم متمسكين بها منكين عليها يوم شرعت الديانه النصرانيه تنبسط على الأرض، و أخذت الدعوه المسيحيه تأخذ بمجامع القلوب فى المناطق التى جال الدعاه المسيحيون فيها، فهل هذا إلا أن الدعاه المسيحيين أخذوا أصول المسيحيه و أفرغوها فى قالب الوثنيه و استمالوا بذلك قلوب الناس فى تقبل دعوتهم و هضم تعليمهم؟.

و يؤيد ذلك ما ترى فى كلمات بولس و غيره من الطعن فى حكمه الحكماء و فلسفتهم و الإزراء بطرق الاستدلالات العقلية، و أن الإله الرب يرجح بلاهه الأبله على عقل العاقل.

و ليس ذلك إلا- لأنهم قابلوا بتعليمهم مكاتب التعقل و الاستدلال فرده أهله بأنه لا طريق إلى قبوله بل إلى تعقله الصحيح من جهه الاستدلال فوضعوا الأساس على المكاشفه و الامتلاء بالروح المقدس فشاكلوا بذلك ما يصر به جهله المتصوفه أن طريقهم طور وراء طور العقل.

ثم إن الدعاه منهم ترهبوا و جالوا فى البلاد (على ما يحكيه كتاب أعمال الرسل و التواريخ) و بسطوا الدعوه المسيحيه و استقبلتهم فى ذلك العامه فى شتات البلاد، كان من سر موفقيتهم و خاصه فى إمبراطوريه الروم هى الضغظه الروحيه التى عمت البلاد من فشو الظلم و التعدى، و شمول أحكام الاسترقاق و الاستعباد، و البون البعيد فى حيوه الطبقة الحاكمه و المحكوميه و الأمره و المأموره و الفصل الشاسع بين عيشه الأغنياء و أهل الإتراف و الفقراء و المساكين و الأرقاء.

و قد كانت الدعاه تدعو إلى المؤاخاه و المحابه و التساوى و المعاشره الجميله بين الناس، و رفض الدنيا و عيشتها الكدره الفانيه، و الإقبال على الحيوه الصافيه السعيده التى فى ملكوت السماء، و لهذا بعينه ما كان يعنى بحالهم الطبقة الحاكمه من الملوك

ص: ٣٢٢

١- ١) يجد القارئ هذه المنقولات فى تفسير المنار- الجزء السادس فى تفسير سوره النساء و فى دوائر المعارف، و فى كتاب العقائد الوثنيه فى الديائنه النصرانيه و غيرها.

و القياصره كل العنايه، و لا يقصدونهم بالأذى و السياسه و الطرد.

فلم يزالوا يزيدون عددا من غير تظاهر و تنافس و ينمون قوه و شده حتى حصل لهم جم غفير فى إمبراطوريه الروم و إفريقيه و الهند و غيرها من البلاد، و لم يزالوا كلما بنوا كنيسه و فتحوا بابها على وجوه الناس هدموا بذلك واحدا من بيوت الأوثان أغلقوا بابها.

و كانوا لا يعتنون بمزاحمه رؤساء الوثنيه فى هدم أساسهم، و لا بملوك الوقت و حكامه فى التعالى عن خضوعهم و فى مخالفه أحكامهم و دساتيرهم، و ربما كان ذلك يؤديهم إلى الهلاك و القتل و الحبس و العذاب فكان لا تزال تقتل طائفه و تسجن أخرى و تشرذم ثالثه.

و كان الأمر على هذه الصفه إلى أوان ملك القيصر «كنستانتين» فآمن بالمله المسيحيه و أعلن بها فأخذ التنصر بالرسميه و بنيت الكنائس فى الروم و ما يتبع إمبراطوريته من الممالك، و ذلك فى النصف الأخير من القرن الرابع الميلادى.

تمركزت النصرانيه يومئذ فى كنيسه الروم و أخذت تبعث القسيسين إلى أكناف الأرض من البلاد التابعه بينون الكنائس و الديريات و مدارس يدرسون بها التعليم الإنجيلى.

و الذى يجب إلفات النظر إليه أنهم وضعوا البحث على أصول مسلمه إنجيليه فأخذوا التعاليم الإنجيليه كمسأله الأب و الابن و الروح، و مسأله الصلب و الفداء و غير ذلك أصولا مسلمه و بنوا البحث و التنقير عليها.

و هذا أول ما ورد على أبحاثهم الدينيه من الوهن و الوهاء فإن استحكام البناء المبنى و إن بلغ ما بلغ و استقامته لا يغنى عن وهن الأساس المبنى عليه شيئا، و ما بنوا عليه من مسأله تثليث الوحده و الصلب و الفداء أمر غير معقول.

و قد اعترف عدده من باحثهم فى التثليث بأنه أمر غير معقول لكنهم اعتذروا عنه بأنه من المسائل الدينيه التى يجب أن تقبل تعبدا فكم فى الأديان من مسأله تعبدية تحيلها العقول.

و هو من الظنون الفاسده المتفرعه على أصلهم الفاسد، و كيف يتصور وقوع مسأله مستحيله فى دين حق؟ و نحن إنما نقبل الدين و نميز كونه دين حق بالعقل و كيف يمكن

عند العقل أن تشمل العقيدة الحقه على أمر يبطله العقل و يحيله؟ و هل هذا إلا تناقض صريح؟.

نعم يمكن أن يشتمل الدين على ممكن يخرق العاده الجاربه، و السنه الطبيعيه القائمه، و أما المحال الذاتى فلا البته.

و هذا الطريق المذكور من البحث هو الذى أوجب وقوع الخلاف و المشاجره بين الباحثين المتفكرين منهم فى أوائل انتشار صيت النصرانيه و انكباب المحصلين على الأبحاث المذهبيه فى مدارس الروم و الإسكندريه و غيرهما.

فكانت الكنيسه تزيد كل يوم فى مراقبتها لوحده الكلمه و تهيب مجمعاً مشكلاً عند ظهور كل قول حديث و بدعه جديده من البطارقه و الأساقفه لإقناعهم بالمذهب العام و تكفيرهم و نفيهم و طردهم و قتلهم إذا لم يقنعوا.

و أول مجمع عقوده مجمع نيقيه لما قال أريوس: إن أقنوم الابن غير مساو لأقنوم الأب، و إن القديم هو الله و المسيح مخلوق.

اجتمعت البطارقه و المطارقه و الأساقفه فى قسطنطينيه بمحضر من القيصر كنستانتين و كانوا ثلاثمائة و ثلاثه عشر رجلاً، و اتفقوا على هذه الكلمه «نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شىء، و صانع ما يرى و ما لا يرى، و بالابن الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد، بكر الخلاق كلها، و ليس بمصنوع؛ إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذى بيده أتقنت العوالم و كل شىء، الذى من أجلنا و من أجل خلاصنا نزل من السماء، و تجسد من روح القدس، و ولد من مريم البتول، و صلب أيام فيلاطوس، و دفن ثم قام فى اليوم الثالث، و صعد إلى السماء، و جلس عن يمين أبيه، و هو مستعد للمجىء تاره أخرى للقضاء بين الأموات و الأحياء، و نؤمن بروح القدس الواحد، روح الحق الذى يخرج من أبيه، و بمعموديه (1) واحده لغفران الخطايا، و بجماعه واحده قدسيه

ص: ٣٢٤

١-١) المراد بالمعموديه طهاره الباطن و قداسته.

مسيحيه-جاثليقيه،و بقيام أبداننا (١)و الحيوه أبد الأبدين (٢)».

هذا هو المجمع الأول و كم من مجمع بعد ذلك عقوده للتبرى عن المذاهب المستحدثه كمذهب النسطوريه و يعقوبيه و الأليانيه و اليليارسيه و المقدانوسيه و السباليوسيه و النوثوسيه و البولسيه و غيرها.

و مع هذا كانت الكنيسه تقوم بالواجب من مراقبتها و لا تتوانى و لا تهن فى دعوتها و تزيد كل يوم فى قوتها و سيطرتها حتى وفقت لجلب سائر دول أوروبا إلى التنصر كفرنسا و الإنجليز و النمسا و البروس و الإسبانيا و البرتغال و البلجيك و هولندا و غيرهم إلا الروسيا أواخر القرن الخامس الميلاد سنه ٤٩٦.

و لم تزل تتقدم و ترتقى الكنيسه من جانب و من جانب آخر كانت تهاجم الأمم الشماليه و العشائر البدويه على الروم و الحروب و الفتن تضعف سلطنه القياصره و آل الأمر إلى أن أجمعت أهل الروم و الأمم المتغلبه على إلقاء زمام أمور المملكه إلى الكنيسه كما كانت زمام أمور الدين بيدها فاجتمعت السلطنه الروحانيه و الجسمانيه لرئيس الكنيسه اليوم و هو البابا جريجوار و كان ذلك سنه ٥٩٠ الميلاديه.

و صارت كنيسه الروم لها الرئاسة المطلقه للعالم المسيحي غير أن الروم لما كانت انشعبت إمبراطوريته إلى الروم الغربى الذى عاصمتها روما و الروم الشرقى الذى عاصمتها قسطنطينيه كانت قياصره الروم الشرقى يعدون أنفسهم رؤساء دينيين لمملكتهم من غير أن يتبعوا كنيسه روما و هذا مبدأ انشعب المسيحيه إلى الكاثوليك أتباع كنيسه روما و الأورثوذكس و هم غيرهم.

و كان الأمر على ذلك حتى إذا فتحت قسطنطينيه بيد آل عثمان و قتل القيصر بالى اولوكوس و هو آخر قياصره الروم الشرقى و قسيس الكنيسه اليوم قتل فى

ص: ٣٢٥

١ - ١) أورد عليه أنه يستلزم القول بالمعاد الجسماني و النصارى تقول بالمعاد الروحاني كما يدل عليه الإنجيل. و أظن أن الإنجيل إنما يدل على عدم وجود اللذائذ الجسمانيه الدنيويه فى القيامة،و أما كون الإنسان روحا مجردا من غير جسم فلا دلالة فيه عليه بل يدل على أن الإنسان يصير فى المعاد كالملائكه لا ازدواج بينهم و ظاهر العهدين أن الله سبحانه و ملائكته جميعا أجسام فضلا عن الإنسان يوم القيامة.

٢ - ٢) الملل و النحل للشهرستاني.

[انشعاب الكنائس]

و ادعى وراثه هذا المنصب الدينى أعنى رئاسه الكنيسه قياصره روسيا لقرابه سببيه كانت بينهم و بين قياصره الروم و كانت الروس تنصرت فى القرن العاشر الميلاد فصارت ملوك روسيا قسيسى كنيسه أرضهم غير تابعه لكنيسه روما و كان ذلك سنه ١٤٥٤ الميلاديه.

و بقى الأمر على هذا الحال نحو من خمس قرون حتى قتل تزار نيكولا و هو آخر قياصره الروسيا قتل هو و جميع أهل بيته سنه ١٩١٨ الميلاديه بيد الشيوعيين فعادت كنيسه روما تقريبا إلى حالها قبل الانشعاب.

لكن الكنيسه فى أثر ما كانت تحاول رؤساؤها السلطه على جميع جهات حيوه الناس فى القرون الوسطى التى كانت الكنيسه فيها فى أوج ارتفاعها و ارتفاعها ثار عليها جماهير من المتدينين تخلصا من القيود التى كانت تحملها عليهم الكنيسه.

فخرجت طائفه عن تبعيه أحكام رؤساء الكنيسه و الباباوات و طاعتهم مع البقاء على طاعه التعليم الإنجيلى على ما يفهمه مجامعهم و يقرره اتفاق علمائهم و قسيسهم و هؤلاء هم الأورثوذكس.

و طائفه خرجت عن متابعه كنيسه روما أصلا فليسوا بتابعين فى التعليم الإنجيلى لكنيسه روما و لا معتنين للأوامر الصادره منها و هؤلاء هم البروتستانت.

فانشعب العالم المسيحى اليوم إلى ثلاث فرق الكاثوليك و هى التابعه لكنيسه روما و تعليمها و الأورثوذكس و هى التابعه لتعليم الكنيسه دون نفسها و قد حدثت شعبتهم بحدوث الانشعاب فى الكنيسه و خاصه بعد انتقال كنيسه قسطنطينيه إلى مسكو بروسيا كما تقدم و البروتستانت و هى الخارجه عن تبعيه الكنيسه و تعليمها جميعا و قد استقلت طريقتهم و تظاهرت فى القرن الخامس عشر الميلاد.

هذا إجمال ما جرى عليه أمر الدعوه المسيحيه فى زمان يقرب من عشرين قرنا و البصير بالغرض الموضوع له هذا الكتاب يعلم أن القصد من ذكر جمل تاريخهم أولا أن يكون الباحث على بصيره من التحولات التاريخيه فى مذهبهم و المعانى التى يمكن أن تنتقل إلى عقائدهم الدينيه بنحو التوارث أو السرايه أو الانفعال بالامتزاج

أو الألف و العاده من عقائد الوثنيه و الأفكار الموروثة منهم أو المأخوذه عنهم.

و ثانيا أن اقتدار الكنيسه و خاصه كنيسه روما بلغ بالتدريج فى القرون الوسطى الميلاديه إلى نهايه أوجه حتى كانت لهم سيطره الدين و الدنيا و انقادت لهم كراسى الملك بأوربا فكان لهم عزل من شاءوا و نصب من شاءوا (١).

يروى أن البابا مره أمر إمبراطور ألمانيا أن يقف ثلاثه أيام حافيا على باب قصره فى فصل الشتاء لزله صدرت منه يريد أن يغفرها له (٢).

و رفس البابا مره تاج الملك برجله حيث جاءه جاثيا يطلب المغفره (٣).

و قد كانوا وصفوا المسلمين لأتباعهم وصفا لم يدعهم إلا أن يروا دين الإسلام دين الوثنيه يستفاد ذلك من الشعارات و الأشعار التى نظموها فى استنهاض النصارى و تهيجهم على المسلمين فى الحروب الصليبيه التى نشبت بينهم و بين المسلمين سنين متطاوله.

فإنهم كانوا (٤) يرون أن المسلمين يعبدون الأصنام و أن لهم آلهه ثلاثه أسماؤها على الترتيب ماهوم و يسمى بافوميد و ماهومند و هو أول الآلهه و هو محمد و بعده ايلين و هو الثانى و بعده ترفاجان و هو الثالث و ربما يظهر من بعض كلماتهم أن للمسلمين إلهين آخرين و هما مارتوان و جويين و لكنهما بعد الثلاثه المتقدمه رتبه و كانوا يقولون إن محمدا بنى دعوته على دعوى الألوهيه و ربما قالوا إنه كان اتخذ لنفسه صنما من ذهب.

و فى أشعار ريشار التى قالها لاستنهاض الإفرنج على المسلمين قوموا و قلبوا ماهومند و ترفاجان و ألقوهما فى النار تقربا من إلهكم.

و فى أشعار رولان فى وصف ماهوم إله المسلمين أنه مصنوع تاما من الذهب و الفضة و لو رأيته أيقنت أنه لا يمكن لصانع أن يصور فى خياله أجمل منه ثم

ص: ٣٢٧

١-١) الفتوحات الاسلاميه.

٢-٢) المدرک السابق.

٣-٣) المدرک السابق.

٤-٤) هذا و ما بعده الى آخر الفصل منقول عن ترجمه كتاب (هنرى در كالسترى) الديائنه الإسلاميه، الفصل الأول منه.

يصنعه عظيمه جثته جيده صنعته و فى سيمائه آثار الجلاله ظاهره ماهوم مصنوع من الذهب و الفضة يكاد سنا برقه يذهب بالبصر و قد أقعد على فيل هو من أحسن المصنوعات و أجودها بطنه خال و ربما أحس الناظر من بطنه ضوءا هو مرصعه بالأحجار الثمينه المتلألئه يرى باطنه من ظاهره و لا يوجد له فى جوده الصنعه نظير.

و لما كانت آلهه المسلمين يوحون إليهم فى مواقع الشده و قد انهزم المسلمون فى بعض حروبهم بعث قائد القوم واحدا فى طلب إلههم الذى كان بمكه يعنى محمدا ص يروى بعض من شاهد الواقعة أن الإله يعنى محمدا جاءهم و قد أحاط به جم غفير من أتباعه و هم يضربون الطبول و العيدان و المزامير و البوقات المعموله من فضه و يتغنون و يرقصون حتى أتوا به إلى المعسكر بسرور و ترح و مرح و قد كان خليفته منتظرا لقدمه فلما رآه قام على ساقه و اشتغل بعبادته بخشوع و خشوع.

و يذكر «ريشار» أيضا فى وصف وحى الإله (ماهوم) الذى سمعت وصفه فيقول: «إن السحره سخروا واحدا من الجن و جعلوه فى بطن ذلك الصنم، و كان ذلك الجنى يرعد و يعربد أولا ثم يأخذ فى تكليم المسلمين و هم ينصتون له».

و أمثال هذه الطرف توجد كثيرا ٠٠٤ فى بطن ذلك الصنم و كان ذلك الجنى يرعد و يعربد أولا ثم يأخذ فى كتبهم المؤلفه فى سنى الحروب الصليبيه أو المتعرضه لثئونها و إن كان ربما أبهت القارئ و أدهشته تعجبا و حيره، و كاد أن لا يصدق صحه النقل حين يحدث له أمور لم يشاهدها مسلم فى يقظه و لا رآها فى نومه أو نعسه.

و ثالثا: أن يتحقق الباحث المتدبر كيفيه طرق التطور على الدعوه المسيحيه فى مسيرها خلال القرون الماضيه حتى اليوم، فإن العقائد الوثنيه وردت فيها بخفى ديبها أولا بالغلو فى حق المسيح (ع) ثم تمكنت فأفرغت الدعوه فى قالب التثليث:

الأب و الابن و الروح، و القول بالصلب و الفداء، و استنزم ذلك القول برفض العمل و الاكتفاء بالاعتقاد.

و كان ذلك أولا فى صوره الدين و كان يعقد أزمتهم بالكنيسه بإتيان أشياء من صوم و صلاه و تعميد لكن لم يزل الإلحاد ينمو جسمه و يقوى روحه و يبرز الانشعابات حتى ظهرت البروتستانت، و قامت القوانين الرسميه مقام الهرج و المرج فى السياسات مدونه على أساس الحريه فى ما وراء القانون (الأحكام العمليه المضمونه الإجراء) فلم يزل

التعليم الدينى يضعف أثرا و يخيب سعيها حتى انثلت تدريجا أركان الأخلاق و الفضائل الإنسانيه عقيب شيوع الماديه التى استتبعتها الحريه التامه.

و ظهرت الشيوعيه و الاشتراك بالبناء على فلسفه ماترياليسم ديالكتيك و رفض القول باللاهوت و الأخلاق الفاضله الثابته و الأعمال الدينيه فانهدمت الإنسانيه المعنويه، و ورثتها الحيوانيه الماديه مؤلفه من سبعيه و بهيميه، و انتهضت الدنيا تسير إليها سيرا حثيثا.

و أما النهضات الدينيه التى عمت الدنيا أخيرا فليست إلا-ملاعب سياسيه يلعب بها رجال السياسه للتوسل بها إلى غاياتهم و أمانهم فالسياسه الفنيه اليوم تدق كل باب و تدب كل حجر و ثقب.

ذكر الدكتور جوزف شيتلر«أستاذ العلوم الدينيه فى كليه لوتران فى شيكاغو:

«أن النهضه الدينيه الجديده فى أمريكا ليست إلا تطبيق الدين على المجموعه من شئون الحيوه فى المدينه الحديثه، و تثبيت أن المدينه الحاضره لا تضاد الدين.

و أن فيه خطر أن يعتقد عامه الناس أنهم متدينون بالدين الحق بما فى أيديهم من نتائج المدينه الحاضره حتى يستغنوا عن الالتحاق إلى النهضه الحقيقيه الدينيه لو ظهرت يوما بينهم فلا يلتفتوا إليها» (١).

و ذكر الدكتور جرج فلوروفسكى أكبر مدافع أرثوذكس روسيا بأمريكا أن التعليمات الدينيه بأمريكا ليست إلا سلوه كاذبه للقلوب لأنها لو كانت نهضه حيه حقيقيه دينيه لكان من الواجب أن تتكئ على تعليمات عميقه واقعيه (٢).

فانظر من أين خرج وفد الدين و فى أين نزل. بدأت الدعوه باسم إحياء الدين (العقيده) و الأخلاق (الملكات) الحسنه و الشريعه (الأعمال) و اختتمت بإلغاء الجميع و وضع التمتع الحيوانى موضعها.

و ليس ذلك كله إلا تطور الانحراف الأولى الواقع من بولس المدعو بالقديس،

ص: ٣٢٩

١- (١) المجله الإمبريكيه «لايف» الجزء المؤرخ ٦ فوريه ١٩٥٦.

٢- (٢) كسابقه.

بولس الحواري و أعضاده فلو أنهم سموا هذه المدينة الحاضره التي تعترف الدنيا بأنها تهدد الإنسانيه بالفناء «مدنيه بولسيه» كان أحق بالتصديق من قولهم: إن المسيح هو قائد الحضاره و المدنيه الحاضره و حامل لوائها.

بحث روائى

فى تفسير القمى، " فى قوله تعالى: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ الْآيَةَ: إن عيسى لم يقل للناس: إنى خلقتكم فكونوا عبادا لى من دون الله، و لكن قال لهم:

كُونُوا رَبَّائِيْنَ

أى علماء.

أقول: و قد مر فى البيان السابق ما يؤيده من القرائن، و قوله: لم يقل للناس:

إنى خلقتكم، بمنزله الاحتجاج على عدم قوله ذلك أى لو كان قال لهم ذلك لوجب أن يخبرهم بأنه خلقهم و لم يخبر و لم يفعل.

و فيه، أيضا: " فى قوله تعالى: وَ لَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَ النَّبِيِّْنَ أَرْبَاباً الْآيَةَ، قال: كان قوم يعبدون الملائكه، و قوم من النصرارى زعموا أن عيسى رب، و اليهود قالوا: عَزِيْزُ ابْنِ اللَّهِ فَقَالَ اللَّهُ: وَ لَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَ النَّبِيِّْنَ أَرْبَاباً .

أقول: و قد تقدم بيانه.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظى حين اجتمعت الأجبارة من اليهود، و النصرارى من أهل نجران عند رسول الله ص، و دعاهم إلى الإسلام: أ تريد يا محمد أن نعبدك - كما تعبد النصرارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصرانى، يقال له الرئيس: أ و ذاك تريد منا يا محمد؟.

فقال رسول الله ص: معاذ الله أن نعبد غير الله - أو نأمر بعباده غيره ما بذلك بعثنى و لا بذلك أمرنى، فأنزل الله من قولهما: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ - إلى قوله: - بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

و فيه، أيضا و أخرج عبد بن حميد عن الحسن، قال: بلغنى أن رجلا قال: يا رسول الله - نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أ فلا نسجد لك؟ قال: لا و لكن أكرموا

نبيكم و اعرفوا الحق لأهله- فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله فأُنزل الله- **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ** -إلى قوله **بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** .

أقول و قد روى فى سبب النزول غير هذين السببين و الظاهر أن ذلك من الاستنباط النظرى و قد تقدم تفصيل الكلام فى ذلك و من الممكن أن تجتمع عدة أسباب فى نزول آيه و الله أعلم

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٨١ الى ٨٥]

اشاره

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَعَيِّرُ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَ عِيسَىٰ وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)

بيان

الآيات غير خاليه عن الارتباط بما قبلها و السياق سياق واحد مستمر جار على وحدته و كأنه تعالى لما بين أن أهل الكتاب لم يزالوا يبعثون فيما حملوه من علم الكتاب

و الدين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويستغشون بتلبيس الأمر على الناس و التفرقه بين النبيين و إنكار آيات نبوه رسول الله ص، و نفى أن يكون نبى من الأنبياء كموسى و عيسى(ع) يأمرهم باتخاذ نفسه أو غيره من النبيين و الملائكه أربابا على ما هو صريح قول النصارى، و ظاهر قول اليهود.

شدد النكير عليهم فى ذلك بأنه كيف يتأتى ذلك و قد أخذ الله الميثاق من النبيين أن يؤمنوا بكل نبى يأتيهم ممن تقدمهم أو تأخر عنهم و ينصروه، و ذلك بتصديق كل منهم لمن تقدم عليه من الأنبياء، و تبشيره بمن تأخر عنه كتصديق عيسى(ع) لموسى و شريعته، و تبشيره بمحمد ص و كذا أخذه تعالى الميثاق منهم أن يأخذوا العهد على ذلك من أممهم و أشهدهم عليهم، و بين أن هذا هو الإسلام الذى شمل حكمه من فى السماوات و الأرض.

ثم أمر نبيه أن يجرى على هذا الميثاق جرى قبول و طاعه فيؤمن بالله و بجميع ما أنزله على أنبيائه من غير تفرقه بينهم، و أن يسلم لله سبحانه، و أن يأتي بذلك عن نفسه و عن أمته، و هو معنى أخذ الميثاق منه بلا واسطه و من أمته بواسطته كما سيجىء بيان.

قوله تعالى: **وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ**، الآية تنبئ عن ميثاق مأخوذ، و قد أخذ الله هذا الميثاق للنبيين كما يدل عليه قوله تعالى: **ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ** «إلخ» كما أنه تعالى أخذه من النبيين على ما يدل عليه قوله: **أَقْرَبْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكَمْ** «إلخ»، و قوله بعد: **قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ** إلى آخر الآية فالميثاق ميثاق مأخوذ للنبيين و مأخوذ منهم و إن كان مأخوذا من غيرهم أيضا بواسطتهم.

و على هذا فمن الجائز أن يراد بقوله تعالى: **مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ** الميثاق المأخوذ منهم أو المأخوذ لهم و الميثاق واحد، و بعبارة أخرى يجوز أن يراد بالنبيين، المأخوذ لهم الميثاق و المأخوذ منهم الميثاق إلا أن سياق قوله تعالى: **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ** إلى آخر الآيتين فى اتصاله بهذه الآية يؤيد كون المراد بالنبيين هم الذين أخذ منهم الميثاق فإن وحده السياق تعطى أن المراد: أن النبيين بعد ما آتاهم الله الكتاب و الحكم و النبوه لا يتأتى لهم أن يدعوا إلى الشريك و كيف يتأتى لهم ذلك؟ و قد أخذ منهم الميثاق

على الإيمان و النصره لغيرهم من النبيين الذين يدعون إلى توحيد الله سبحانه، فالأنسب أن يبدأ بذكر الميثاق من حيث أخذه من النبيين.

و قوله: ﴿لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ الْقِرَاءَةَ الْمَشْهُورَةَ، وَ هِيَ قِرَاءَةُ غَيْرِ حَمْزِهِ بِفَتْحِ اللَّامِ وَ التَّخْفِيفِ فِي لَمَّا وَ عَلَيْهَا فَمَا مَوْصُولُهُ وَ آتَيْتُكُمْ، - وَ قَرَأَ آتَيْنَاكُمْ - صَلَاتِهِ، وَ الضَّمِيرُ مَحذُوفٌ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ، وَ الْمَوْصُولُ مُبْتَدَأٌ خَبَرَهُ قَوْلُهُ: لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ «إِلخ» وَ اللَّامُ فِي لَمَّا ابْتِدَائِيَّةٌ، وَ فِي لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ لَامُ الْقَسَمِ، وَ الْمَجْمُوعُ بَيَانٌ لِلْمِيثَاقِ الْمَأْخُوذِ، وَ الْمَعْنَى: لِلذِّي آتَيْتُكُمْ بِهِ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثَمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ آمَنْتُمْ بِهِ وَ نَصَرْتُمُوهُ الْبَتَّةَ.

و يمكن أن يكون ما شرطيه و جزاؤها قوله لتؤمنن به، و المعنى مهما آتيتكم من كتاب و حكمه ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به و لتنصرنه، و هذا أحسن لأن دخول اللام المحذوف قسمها في الجزاء أشهر، و المعنى عليه أسلس و أوضح، و الشرط في موارد المواثيق أعرف، و أما قراءه كسر اللام في «لما» فاللام فيها للتعليل و ما موصوله، و الترجيح لقراءه الفتح.

و الخطاب في قوله: آتَيْتُكُمْ، و قوله: جَاءَكُمْ، و إن كان بحسب النظر البدوي للنبيين لكن قوله بعد: أَأَقْرَزْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكُمْ إِضْرِي، قرينه على أن الخطاب للنبيين و أمهم جميعا أى أن الخطاب مختص بهم و حكمه شامل لهم و لأممهم جميعا فعلى الأمم أن يؤمنوا و ينصروا كما على النبيين أن يؤمنوا و ينصروا.

و ظاهر قوله: ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ، التراخي الزماني أى إن على النبي السابق أن يؤمن و ينصر النبي اللاحق، و أما ما يظهر من قوله: قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ «إِلخ» أن الميثاق مأخوذ من كل من السابق و اللاحق للآخر، و أن على اللاحق أن يؤمن و ينصر السابق كالعكس فإنما هو أمر يشعر به فحوى الخطاب دون لفظ الآية كما سيجيء إن شاء الله العزيز.

و قوله: لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ، الضمير الأول و إن كان من الجائز أن يرجع إلى الرسول كالضمير الثاني إذ لا ضمير في إيمان نبي لنبي آخر، قال تعالى: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ» X الآية X: البقره - ٢٨٥،

لكن الظاهر من قوله: قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيَّ إِلَّا حِكْمًا وَرُحْمًا وَأَنَا فَطْرُ النَّاسِ كَمَا فَطَرَنِي اللَّهُ رَبِّي فَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنِّي لِلذَّالِمِينَ أَذِينٌ ﴿١٠٦﴾ رجوعه إلى ما أوتوا من كتاب و حكمه، و رجوع الضمير الثاني إلى الرسول، و المعنى لتؤمنن بما آتيتكم من كتاب و حكمه و لتنصرن الرسول الذي جاءكم مصدقا لما معكم.

قوله تعالى: قَالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا، الاستفهام للتقرير، و الإقرار معروف، و- الإصر -هو العهد، و هو مفعول أخذتم، و أخذ العهد يستلزم مأخوذا منه غير الأخذ و ليس إلا أمم الأنبياء، فالمعنى أ أقررتكم أنتم بالميثاق، و أخذتم على ذلكم عهدي من أممكم قالوا: أقررنا.

و قيل: المراد بأخذ العهد قبول الأنبياء ذلك لأنفسهم فيكون قوله: وَأَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكُمْ إِصْرِي عطف بيان لقوله أَقْرَرْتُمْ، و يؤيده قوله: قَالُوا أَقْرَرْنَا من غير أن يذكر الأخذ في الجواب، و على هذا يكون الميثاق لا يتعدى الأنبياء إلى غيرهم من الأمم و يبعده قوله: قَالَ فَاسْهَدُوا، لظهور الشهادة في أنها على الغير، و كذا قوله بعد:

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ

«إلخ» من غير أن يقول: قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِنْ ظَاهِرُهُ أَنَّهُ إِيمَانٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ وَ أُمَّتِهِ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنْ اشْتَرَاكَ الْأُمَّمُ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّمَا يَسْتَفَادُ مِنْ هَاتَيْنِ الْجُمْلَتَيْنِ: أَعْنَى قَوْلِهِ: فَاسْهَدُوا، وَ قَوْلِهِ: قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُفِيدَ قَوْلُهُ:

وَ أَخَذْتُمْ

، في ذلك شيئا.

قوله تعالى: قَالَ فَاسْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ، ظاهر الشهادة كما مر أن يكون على الغير فهي شهادة من الأنبياء و أممهم جميعا، و يشهد لذلك كما مر قوله: قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ، و يشهد لذلك السياق أيضا، فإن الآيات مسوقة للاحتجاج على أهل الكتاب في تركهم إجابته دعوة رسول الله ص كما أنها تحتج عليهم في ما نسبوه إلى عيسى و موسى (ع) و غيرهما كما يدل عليه قوله تعالى: أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ دِينَ الْإِسْلَامَ الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ قَبْلُ وَأَنْتُمْ تُكْفِرُونَ، و غيره.

و ربما يقال: إن المراد بقوله: فَاسْهَدُوا، شهادة بعض الأنبياء على بعض كما ربما يقال: إن المخاطبين بقوله: فَاسْهَدُوا، هم الملائكة دون الأنبياء.

و المعنيان و إن كانا جائزين في نفسهما غير أن اللفظ غير ظاهر في شيء منهما بغير قرينه، و قد عرفت أن القرينه على الخلاف.

و من اللطائف الواقعة في الآية أن الميثاق مأخوذ من النبيين للرسول على ما يعطيه

قوله: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ -إلى قوله:- ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ، وقد مر في ذيل قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً»
X الآيه X: البقره-213، الفرق بين النبوه و الرساله و أن الرسول أخص مصداقا من النبى.

فعلى ظاهر ما يفيد اللفظ يكون الميثاق مأخوذا من مقام النبوه لمقام الرساله من غير دلالة على العكس.

و بذلك يمكن المناقشه فيما ذكر بعضهم أن المحصل من معنى الآيه أن الميثاق مأخوذ من عامه النبيين أن يصدق بعضهم بعضا، و يأمر بعضهم بالإيمان ببعض، أى إن الدين واحد يدعو إليه جميع الأنبياء، و هو ظاهر.

فمحصل معنى الآيه على ما مر: أن الله أخذ الميثاق من الأنبياء و أممهم أن لو آتاهم الله الكتاب و الحكمة و جاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن بما آتاهم و ينصرن الرسول و ذلك من الأنبياء تصديق من المتأخر للمتقدم و المعاصر، و بشاره من المتقدم بالتأخر و توصيه الأمه، و من الأمه الإيمان و التصديق و النصرة، و لازم ذلك وحده الدين الإلهى.

و ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالآيه أن الله أخذ الميثاق من النبيين أن يصدقوا محمدا ص، و يبشروا أممهم بمبعثه، فهو و إن كان صحيحا إلا أنه أمر يدل عليه سياق الآيات كما مرت الإشارة إليه دون الآيه فى نفسها لعموم اللفظ بل من حيث وقوع الآيه ضمن الاحتجاج على أهل الكتاب و لومهم و عتابهم على انكبابهم على تحريف كتبهم و كتمان آيات النبوه و العناد و العتو مع صريح الحق.

قوله تعالى: فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ [□] «إلخ» تأكيد للميثاق المأخوذ المذكور، و المعنى واضح.

قوله تعالى: أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ وَ لَهُ أَسْمَاءٌ [□]، تفريع على الآيه السابقه المتضمنه لأخذ ميثاق النبيين، و المعنى فإذا كان دين الله واحدا و هو الذى أخذ عليه الميثاق من عامه النبيين و أممهم و كان على المتقدم من الأنبياء و الأمم أن يبشروا بالرسول المتأخر و يؤمنوا بما عنده و يصدقوه فما ذا يقصده هؤلاء معاصر أهل الكتاب و قد كفروا بك و ظاهر حالهم أنهم ييغون الدين فهل ييغون غير الإسلام الذى هو دين الله الوحيد؟

و لذلك لا يصدقونك و لا يتمسكون بدين الإسلام مع أنه كان يجب عليهم الاعتصام بالإسلام لأنه الدين الذى يبتنى على الفطره،و كذلك يجب أن يكون الدين،و الدليل عليه أن من فى السماوات و الأرض من أولى العقل و الشعور مسلمون لله فى مقام التكوين فيجب أن يسلموا عليه فى مقام التشريع.

قوله تعالى: وَ لَهُ أَسْلِمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً، هذا الإسلام الذى يعم من فى السماوات و الأرض و منهم أهل الكتاب الذين يذكر أنهم غير مسلمين، و لفظ أسلم صيغه ماض ظاهره المضى و التحقق لا محاله و هو التسليم التكويني لأمر الله دون الإسلام بمعنى الخضوع العبودى،و يؤيده أو يدل عليه قوله طَوْعاً وَ كَرْهاً .

و على هذا فقوله: وَ لَهُ أَسْلِمَ، من قبيل الاكتفاء بذكر الدليل و السبب عن ذكر المدلول و المسبب،و تقدير الكلام:أ فغير الإسلام يبغون؟و هو دين الله لأن من فى السماوات و الأرض مسلمون له منقادون لأمره،فإن رضوا به كان انقيادهم طوعاً من أنفسهم،و إن كرهوا ما شاءه و أرادوا غيره كان الأمر أمره و جرى عليهم كرها من غير طوع.

و من هنا يظهر أن الواو فى قوله: طَوْعاً وَ كَرْهاً،للتقسيم،و أن المراد بالطوع و الكره رضاهم بما أراد الله فيهم مما يحبونه،و كراحتهم لما أراد الله فيهم مما لا يحبونه كالموت و الفقر و المرض و نحوها.

قوله تعالى: وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ هذا سبب آخر لوجوب ابتغاء الإسلام دينا فإن مرجعهم إلى الله مولاهم الحق لا إلى ما يهديهم إليه كفرهم و شركهم.

قوله تعالى: قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا، أمر النبى أن يجرى على الميثاق الذى أخذ منه و من غيره فيقول عن نفسه و عن المؤمنين من أمته: آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا «إلخ».

و هذا من الشواهد على أن الميثاق مأخوذ من الأنبياء و أممهم جميعاً كما مرت الإشارة إليه آنفاً.

قوله تعالى: وَ مَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ،هؤلاء المذكورون بأسمائهم هم الأنبياء من آل إبراهيم،و لا تخلو الآية من إشعار بأن المراد بالأسباط

هم الأنبياء من ذريه يعقوب أو من أسباط بنى إسرائيل كداود و سليمان و يونس و أيوب و غيرهم.

و قوله: وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، تعميم للكلام ليشمل آدم و نوحا و من دونهما، ثم جمع الجميع بقوله: لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

قوله تعالى: وَ مَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ «إلخ» نفى لغير مورد الإثبات من الميثاق المأخوذ، و فيه تأكيد لوجوب الجرى على الميثاق.

بحث روائى

فى المجمع، عن أمير المؤمنين (ع): أن الله أخذ الميثاق على الأنبياء قبل نبينا- أن يخبروا أممهم بمبعثه و نعته، و يبشروهم به و يأمرهم بتصديقه.

و فى الدر المشهور، أخرج ابن جرير عن على بن أبى طالب رضى الله عنه، قال:

لم يبعث الله نبيا آدم فمن بعده- إلا أخذ عليه العهد فى محمد- لئن بعث و هو حى ليؤمنن به و لينصرنه، و يأمره فيأخذ العهد على قومه ثم تلا: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ الْآيَةِ.

أقول: و الروايتان تفسران الآية بمجموع ما يدل عليه اللفظ و السياق كما مر.

و فى المجمع، و الجوامع، عن الصادق (ع): فى الآية معناه و إذ أخذ الله ميثاق أمم النبيين- كل أمه بتصديق نبيها، و العمل بما جاءهم به- فما وفوا به و تركوا كثيرا من شرائعهم و حرفوا كثيرا.

أقول: و ما ذكر فى الروايه من قبيل ذكر المصداق المنطبقه عليه الآية فلا ينافى شمول المراد بالآيه الأنبياء و أممهم جميعا.

و فى المجمع، أيضا عن أمير المؤمنين (ع): فى قوله تعالى: أَأَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ الْآيَةَ، قال: أأقررتم و أخذتم العهد بذلك على أممكم، قالوا أى قال الأنبياء و أممهم: أقرنا بما أمرتنا

بالإقرار به قال الله: فاشهدوا بذلك على أممكم، و أنا معكم من الشاهدين عليكم و على أممكم.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن جرير عن على بن أبى طالب: فى قوله قَالَ فَاشْهَدُوا يَقُول: فاشهدوا على أممكم بذلك، و أنا معكم من الشاهدين عليكم و عليهم- فمن تولى عنك يا محمد بعد هذا العهد من جميع الأمم- فأولئك هم الفاسقون، هم العاصون فى الكفر.

أقول: و قد مر توجيه معنى الروايه.

و فى تفسير القمى، عن الصادق(ع): قال لهم فى الدر: أَأَقْرَزْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكَمِ إِضْرِي أَى عَهْدِي- قَالُوا: أَقْرَزْنَا، قال الله للملائكه فَاشْهَدُوا .

أقول: لفظ الآية لا ياباه و إن كان لا يستفاد من ظاهره كما تقدم.

و فى الدر المنثور،: فى قوله تعالى: وَ مَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا الْآيَه:، أخرج أحمد و الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريره، قال: قال رسول الله ص: تجيء الأعمال يوم القيامة فتجىء الصلوه فتقول: يا رب أنا الصلوه فيقول: إنك على خير، و تجىء الصدقه فتقول يا رب أنا الصدقه- فيقول: إنك على خير، ثم يجىء الصيام فيقول: أنا الصيام فيقول: إنك على خير، ثم تجىء الأعمال كل ذلك يقول الله: إنك على خير، بك اليوم آخذ، و بك أعطى. قال الله فى كتابه: وَ مَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ- وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ..

و فى التوحيد، و تفسير العياشى،: فى الآية عن الصادق(ع): هو توحيدهم الله عز و جل.

أقول: التوحيد المذكور يلازم التسليم فى جميع ما يريد الله تعالى من عباده فيرجع إلى المعنى الذى قدمناه فى البيان.

و لو أريد به مجرد نفى الشريك كان الطوع و الكره هما الدلاله الاختياريه و الاضطراريه.

و اعلم: أن هاهنا عدده روايات أخر رواها العياشى و القمى فى تفسيريهما، و غيرهما

فى معنى قوله: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ الْآيَةَ، و فيها لتؤمنن برسول الله، و لتنصرن أمير المؤمنين (ع)، و ظاهرها تفسير الآيه بإرجاع ضمير لتؤمنن به إلى رسول الله ص، و ضمير و لتنصرنه إلى أمير المؤمنين (ع) من غير دليل يدل عليه من اللفظ.

لكن فى

ما رواه العياشى ما رواه عن سلام بن المستنير عن أبى عبد الله (ع) قال: لقد تسموا باسم ما سسمى الله به أحدا- إلا على بن أبى طالب و ما جاء تأويله.

قلت: جعلت فداك متى يجىء تأويله؟ قال: إذا جاء جمع الله أمامه النبيين و المؤمنين حتى ينصروه و هو قول الله: - وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ- لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ- إلى قوله- وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ .

و بذلك يهون أمر الإشكال فإنه إنما يرد لو كانت الروايات وارده مورد التفسير و أما التأويل فقد عرفت أنه ليس من قبيل المعنى، و لا مرتبطا باللفظ فى ما تقدم من تفسير قوله: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ» X الآيه X: آل عمران- ٧.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٨٦ الى ٩١]

إشارة

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَرَّأُوهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ النَّاسُ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَ لَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَضَلُّوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ إِزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَ لَوْ أَقْبَدِي بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)

ص: ٣٣٩

الآيات ممكنه الارتباط بما تقدمها من الكلام على أهل الكتاب و إن كان يمكن أن تستقل بنفسها و تنفصل عما تقدمها، و هو ظاهر.

قوله تعالى: كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، الاستفهام يفيد الاستبعاد و الإنكار، و المراد به استحاله الهدايه، و قد ختم الآيه بقوله: وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، و قد مر في نظير هذه الجملة أن الوصف مشعر بالعليه أى لا يهديهم مع وجود هذا الوصف فيهم، و ذلك لا ينافى هدايته لهم على تقدير رجوعهم و توبتهم منه.

و أما قوله: وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ، فإن كان المراد بهم أهل الكتاب فشهادتهم هو مشاهدتهم أن آيات النبوه التى عندهم منطبقه على رسول الله ص كما يفيدده قوله:

وَ جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ

، و إن كان المراد بهم أهل الرده من المسلمين فشهادتهم هى إقرارهم بالرساله لا- إقرارا صوريا مبنيا على الجهاله و الحميه و نحوهما بل إقرارا مستندا إلى ظهور الأمر كما يفيدده قوله: وَ جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ .

و كيف كان الأمر فانضمام قوله: وَ شَهِدُوا «إلخ» إلى أول الكلام يفيد أن المراد بالكفر هو الكفر بعد ظهور الحق و تمام الحججه فيكون كفرا عن عناد مع الحق و لجاج مع أهله و هو البغى بغير الحق و الظلم الذى لا يهتدى صاحبه إلى النجاه و الفلاح.

و قد قيل فى قوله: وَ شَهِدُوا «إلخ» إنه معطوف على قوله: إِيمَانِهِمْ لما فيه من معنى الفعل، و التقدير كفروا بعد أن آمنوا و شهدوا «إلخ» أو أن الواو للحال، و الجملة حالیه بتقدير «قد».

قوله تعالى: أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ - إلى قوله: - وَ لَا هُمْ يُنظَرُونَ، قد مر الكلام فى معنى عود جميع اللعنه عليهم فى تفسير قوله تعالى: «أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ»: البقره- ١٥٩.

قوله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَصْلَحُوا «إلخ» أى دخلوا فى الصلاح، و المراد به كون توبتهم نصوحا تغسل عنهم درن الكفر و تطهر باطنهم بالإيمان، و أما

الإتيان بالأعمال الصالحة فهو وإن كان مما يتفرع على ذلك و يلزمه غير أنه ليس بمقوم لهذه التوبه و لا ركنا منها، و لا فى الآيه دلالة عليه.

و فى قوله: فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ و وضع العله موضع المعلول و التقدير فيغفر الله له و يرحمه فإن الله غفور رحيم.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ تَعْلِيلٌ لِّمَا يَشْتَمَلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ أَوْلَا. كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا «إلخ» و هو من قبيل التعليل بتطبيق الكلى العام على الفرد الخاص، و المعنى أن الذى يكفر بعد ظهور الحق و تمام الحججه عليه، و لا يتوب بعده توبه مصلحه إنما هو أحد رجلين إما كافر يكفر ثم يزيد كفرا فيطغى، و لا سبيل للصالح إليه فهذا لا يهديه الله و لا يقبل توبته لأنه لا يرجع بالحقيقه بل هو منغمر فى الضلال، و لا مطمع فى اهتدائه.

و إما كافر يموت على كفره و عناده من غير توبه يتوبها فلا يهديه الله فى الآخره بأن يدخله الجنة إذ لم يرجع إلى ربه و لا بدل لذلك حتى يفتدى به، و لا شفيع و لا ناصر حتى يشفع له أو ينصره.

و من هنا يظهر أن قوله: وَ أُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ بِاشْتِمَالِهِ عَلَىٰ اسْمِيهِ الْجَمَلِ، و الإشاره البعيده فى أولئك، و ضمير الفصل، و الاسميه و اللام فى الخبر يدل على تأكيد الضلال فيهم بحيث لا ترجى هدايتهم.

و كذا يظهر أن المراد بقوله: وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ نفى انتفاعهم بالشفعاء الذين هم الناصرون يوم القيامة فإن الإتيان بصيغه الجمع يدل على تحقق ناصرين يوم القيامة كما مر نظيره فى الاستدلال على الشفاعة بقوله تعالى: فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ الْآيَةَ فِي مَبِثِّ الشَّفَاعَةِ (آيه ٤٨ من سوره البقره) فارجع إليه.

و قد اشتملت الآيه الثانيه على ذكر نفى الفداء و الناصرين لكونهما كالبدل، و البدل إنما يكون من فائت يفوت الإنسان و قد فاتتهم التوبه فى الدنيا و لا بدل لها يحل محلها فى الآخره.

و من هنا يظهر أن قوله: وَ مَا تَأْتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فى معنى: و فاتتهم التوبه فلا ينتقض هذا البيان الظاهر فى الحصر بما ذكره الله تعالى فى قوله: «وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَفَارٌ أَوْلِيكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا: النساء- ١٨ فإن المراد بحضور الموت ظهور آثار الآخرة و انقطاع الدنيا و تفوت عند ذلك التوبه.

و الملء فى قوله: مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا مقدار ما يسعه الإناء من شىء فاعتبر الأرض إناء يملؤه الذهب فالجمله من قبيل الاستعاره التخيليه و الاستعاره بالكنايه.

بحث روائى

□ فى المجمع: فى قوله تعالى كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا الْآيَةَ: قيل نزلت الآيات فى رجل من الأنصار-يقال له حارث بن سويد بن الصامت، و كان قتل المجدر بن زياد البلوى غدرا، و هرب و ارتد عن الإسلام، و لحق بمكه-ثم ندم فأرسل إلى قومه أن يسألوا لرسول الله ص-هل لى من توبه؟فسألوا فنزلت الآية-إلى قوله:-إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا، فحملها إليه رجل من قومه فقال:إنى لأعلم أنك لصدوق، و رسول الله أصدق منك، و إن الله أصدق الثلاثة، و رجع إلى المدينة و تاب و حسن إسلامه:، عن مجاهد و السدى و هو المروى عن أبى عبد الله(ع):

و فى الدر المنثور، أخرج ابن إسحاق و ابن المنذر عن ابن عباس": أن الحارث بن سويد قتل المجدر بن زياد-و قيس بن زيد أحد بنى ضبيعه يوم أحد-ثم لحق بقريش فكان بمكه ثم بعث إلى أخيه الجلاس-يطلب التوبه ليرجع إلى قومه فأنزل الله فيه:- كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا إِلَى آخِرِ الْقَصَةِ.

أقول: و روى القصة بطرق أخرى و فيها اختلافات، و من جملتها

ما رواه عن عكرمه": أنها نزلت فى أبى عامر الراهب-و الحارث بن سويد بن الصامت و وحوح بن الأسلت-فى اثنى عشر رجلا رجعوا عن الإسلام و لحقوا بقريش، ثم كتبوا إلى أهلهم هل لنا من توبه؟ فنزلت إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْآيَاتِ.

و منها ما فى المجمع،": فى قوله تعالى:-إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعِيدَ إِيْمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا الْآيَةَ، أنها نزلت فى أحد عشر من أصحاب الحارث بن سويد-لما رجع الحارث قالوا نقيم بمكه على الكفر ما بدا لنا-فمتى ما أردنا الرجعه رجعنا فينزل فينا-ما نزل فى الحارث فلما

افتتح رسول الله ص مكة دخل في الإسلام-من دخل منهم فقبلت توبته فنزل فيمن مات منهم كافرا-، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَا تُوا وَ هُمْ كُفَارُ الْآيَةِ،نسبها إلى بعضهم.

وقيل إنها نزلت في أهل الكتاب، وقيل: إن قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا الْآيَةَ نزلت في اليهود خاصة حيث آمنوا ثم كفروا بعيسى ثم ازدادوا كفرا بمحمد ص، وقيل غير ذلك.

و التأمل في هذه الأقوال و الروايات يعطى أن جميعها من الأنظار الاجتهاديه من سلف المفسرين كما تنبه له بعضهم.

و أما الروايه عن الصادق(ع)فمرسله ضعيفه،على أن من الممكن أن يتعدد أسباب النزول في آيه أو آيات،و الله أعلم.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٢ الى ٩٥]

اشاره

لَنْ تَدَّأُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَ مِمَّا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢) كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاَّ لِيْنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَيَّ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)

بيان

ارتباط الآيه الأولى بما قبلها غير واضح و من الممكن أن لا تكون نازله في ضمن بقية الآيات التي لا غبار على ارتباط بعضها ببعض، و قد عرفت نظير هذا الإشكال في قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا» X الآيه X: آل عمران-٦٤، من حيث تاريخ النزول.

و ربما يقال: إن الخطاب فى الآيه موجه إلى بنى إسرائيل، و لا يزال موجهاً إليهم، و محصل المعنى بعد ما مر من توبيخهم و لومهم على حب الدنيا و إظهار المال و المنال على دين الله: أنكم كاذبون فى دعواكم أنكم منسوبون إلى الله سبحانه و أنبيائه و أنكم أهل البر و التقوى، فإنكم تحبون كرائم أموالكم و تبخلون فى بذلها و لا تنفقون منها إلا الردى الذى لا تتعلق به النفوس مما لا يعبأ بزواله و فقده مع أنه لا ينال البر إلا بإنفاق الإنسان ما يحبه من كرائم ماله، و لا يفوت الله سبحانه حفظه، هذا محصل ما قيل: و فيه تمحل ظاهر!

و أما بقيه الآيات فارتباطها بالبيانات السابقه ظاهر لا غبار عليه.

قوله تعالى: لَنْ تَدَّأُلُوا الْعَبْرَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ ، النيل هو الوصول، و البر هو التوسع فى فعل الخير، قال الراغب: البر خلاف البحر، و تصور منه التوسع فاشتق منه البر أى التوسع فى فعل الخير، انتهى.

و مراده من فعل الخير أعم مما هو فعل القلب كالاعتقاد الحق و النيه الطاهره أو فعل الجوارح كالعباده لله و الإنفاق فى سبيل الله تعالى، و قد اشتمل على القسمين جميعاً قوله تعالى: لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ الْكِتَابِ وَ النَّبِيِّينَ وَ آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ السَّائِلِينَ وَ فِي الرِّقَابِ وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ وَ الْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَاءِ وَ حِينَ الْأَسْرِ»
X الآيه: البقره- ١٧٧.

و من انضمام الآيه إلى قوله: لَنْ تَدَّأُلُوا الْبِرَّ الْآيه، يتبين أن المراد بها أن إنفاق المال على حبه، أحد أركان البر التى لا يتم إلا باجتماعها نعم جعل الإنفاق غايه لنيل البر لا يخلو عن العنايه و الاهتمام بأمر هذا الجزء بخصوصه لما فى غريزه الإنسان من التعلق القلبى بما جمعه من المال، و عده كأنه جزء من نفسه إذا فقده فكأنه فقد جزء من حيوه نفسه بخلاف سائر العبادات و الأعمال التى لا يظهر معها فوت و لا زوال منه.

و من هنا يظهر ما فى قول بعضهم إن البر هو الإنفاق مما تحبون، و كان هذا القائل جعلها من قبيل قول القائل: لا تنجو من ألم الجوع حتى تأكل، و نحو ذلك، لكنه محجوج بما مر من الآيه.

و يتبين من آيه البقره المذكوره أيضا أن المراد بالبر هو ظاهر معناه اللغوى أعنى التوسع فى الخير فإنها بينته بمجامع الخيرات الاعتقاديه و العمليه، و منه يظهر ما فى قول بعضهم: إن المراد بالبر هو إحسان الله و إنعامه، و ما فى قول آخرين: إن المراد به الجنه.

قوله تعالى: **وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**، تطيب لنفوس المنفقين أن ما ينفقونه من المال المحبوب عندهم لا يذهب مهدورا من غير أجر فإن الله الذى يأمرهم به عليم بإنفاقهم و ما ينفقونه.

قوله تعالى: **كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ**، الطعام كل ما يطعم و يتغذى به و كان يطلق عند أهل الحجاز على البر خاصه و ينصرف إليه عندهم لدى الإطلاق، و الحل مقابل الحرمة، و كأنه مأخوذ من الحل مقابل العقد و العقل فيفيد معنى الإطلاق، و إسرائيل هو يعقوب النبی (ع) سمي به لأنه كان مجاهدا فى الله مظفرا به، و يقول أهل الكتاب: إن معناه المظفر الغالب على الله سبحانه لأنه صارع الله فى موضع يسمى فيثيل فغلبه (على ما فى التوراه) و هو مما يكذبه القرآن و يحيله العقل.

و قوله: **إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ** استثناء من الطعام المذكور آنفا، و قوله:

مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ

متعلق بكان فى الجملة الأولى، و المعنى لم يحرم الله قبل نزول التوراه شيئا من الطعام على بنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه.

و فى قوله تعالى: **قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا**، إن كُنتُمْ صَادِقِينَ، دلالة على أنهم كانوا ينكرون ذلك، أعنى حليه كل الطعام عليهم قبل التوراه، و يدل عليه أنهم كانوا ينكرون النسخ فى الشرائع و يحيلون ذلك كما مر ذكره فى ذيل قوله تعالى: **«مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا»** X الآيه X: البقره- 106، فهم كانوا ينكرون بالطبع قوله تعالى:

«فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ»: النساء- 160.

و كذا يدل قوله تعالى بعد: **قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**، أنهم كانوا يجعلون ما ينكرونه (من حليه كل الطعام عليهم قبل التوراه، و كون التحريم إنما نزل عليهم لظلمهم بنسخ الحل بالحرمة) و سيله إلى إلقاء الشبهه على المسلمين، و الاعتراض على ما كان يخبر به رسول الله ص عن ربه أن دينه هو مله إبراهيم الحنيف، و هى مله فطريه لا- إفراط فيها و لا- تفريط، كيف؟ و هم كانوا يقولون: إن إبراهيم كان

يهوديا على شريعته التوراه، فكيف يمكن أن تشتمل ملته على حليه ما حرمتها التوراه، و النسخ غير جائز؟.

فقد تبين أن الآيه إنما تتعرض لدفع شبهه أوردتها اليهود، و يظهر من عدم تعرض الآيه لنقل الشبهه عنهم كما يجرى عليه القرآن في غالب الموارد كقوله تعالى:

﴿وَ قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ﴾: المائده-٦٤، و قوله: ﴿وَ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا الذَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾: البقره-٨٠، و قوله ﴿وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: البقره-٨٨ إلى غير ذلك من الآيات الكثيره.

و كذا قوله تعالى بعد عده آيات: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ -X إلى أن قال X-: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَزِدُّوكُمْ بَغْدًا إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ X الآيات X: آل عمران ٩٨-١٠٠.

و بالجملة يظهر من ذلك أنها كانت شبهه تلقية اليهود لا- على رسول الله ص بل على المؤمنين في ضمن ما كانوا يتلاقون و يتحاورون.

و حاصلها: أنه كيف يكون النبي صادقاً و هو يخبر بالنسخ، و أن الله إنما حرم الطيبات على بنى إسرائيل لظلمهم، و هذا نسخ لحل سابق لا- يجوز على الله سبحانه بل المحرمات محرمة دائماً من غير إمكان تغيير لحكم الله، و حاصل الجواب من النبي ص بتعليم من الله تعالى: أن التوراه ناطقه بكون كل الطعام حلال- قبل نزولها فأتوا بالتوراه و اتلوها إن كنتم صادقين في قولكم، و هو قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ -إلى قوله-: إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

فإن أبيتם الإتيان بالتوراه و تلاوتها فاعترفوا بأنكم المفترون على الله الكذب و أنكم الظالمون، و ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن افْتَرَى - إلى قوله الظالمون .

و قد تبين بذلك أنى صادق في دعوتى فاتبعوا ملتى و هى مله إبراهيم حنيفاً، و ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ صِدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

و للمفسرين فى توضيح معنى الآيه بيانات مختلفه لكنهم على أى حال ذكروا أن الآيه متعرضه لبيان شبهه أوردتها اليهود مرتبطه بالنسخ كما مر.

و أعجب ما قيل فى المقام ما ذكره بعضهم: أن الآيه متعرضه لجواب شبهه

أوردتها اليهود في النسخ، و تقريرها: أن اليهود كأنها قالت: إذا كنت يا محمد على مله إبراهيم و النبيين بعده- كما تدعى - فكيف تستحل ما كان محرما عليه و عليهم كلحم الإبل؟ أما و قد استبحت ما كان محرما عليهم فلا ينبغي لك أن تدعى أنك مصدق لهم، و موافق في الدين، و لا أن تخص إبراهيم بالذكر فتقول: إني أولى به.

و محصل الجواب: أن كل الطعام كان حلالا لعامة الناس و منهم بنو إسرائيل لكن بنى إسرائيل حرموا أشياء على أنفسهم بما ارتكبوا من المعاصي، و السيئات كما قال تعالى: «فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ» X الآية X: النساء- ١٦٠، فالمراد بإسرائيل شعب إسرائيل كما هو مستعمل عندهم، لا يعقوب وحده، و معنى تحريمهم ذلك على أنفسهم: أنهم ارتكبوا الظلم و اجترحوا السيئات فكانت سببا للتحريم، و قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ متعلق بقوله: حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ، و لو كان المراد بقوله: إسرائيل هو يعقوب نفسه لكان قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ لغوا زائدا من الكلام لبداهه أن يعقوب كان قبل التوراه زمانا فلا وجه لذكره.

هذا محصل ما ذكره و ذكر بعض آخر نظير ما ذكره إلا أنه قال: إن المراد من تحريم بنى إسرائيل على أنفسهم تحريمهم ذلك تشريعا من عند أنفسهم من غير أن يستند إلى وحي من الله سبحانه إلى بعض أنبيائهم كما كانت عرب الجاهليه تفعل ذلك على ما قصه الله تعالى في كتابه.

و قد ارتكبا جميعا من التكلف ما لا- يرتضيه ذو خبره فأخرجنا الكلام من مجراه، و عمدته ما حملهما على ذلك حملهما قوله تعالى: مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ على أنه متعلق بقوله: حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ، مع كونه متعلقا بقوله: كَانَ حِلًّا، في صدر الكلام و قوله إِلَّا مَا حَرَّمَ، استثناء معترض.

و من ذلك يظهر أن لا حاجه إلى أخذ إسرائيل بمعنى بنى إسرائيل كما توهم مستندين إلى عدم استقامه المعنى دونه.

على أن إطلاق إسرائيل و إرادته بنى إسرائيل و إن كان جائزا على حد قولهم:

بكر و تغلب و نزار و عدنان يريدون بنى بكر و بنى تغلب و بنى نزار و بنى عدنان لكنه في بنى إسرائيل من حيث الوقوع استعمال غير معهود عند العرب في عهد النزول، و لا

أن القرآن سلك هذا المسلك في هذه الكلمة (في غير هذا المورد الذي يدعيانه) مع أن بنى إسرائيل مذكور فيه فيما يقرب من أربعين موضعاً، و من جملتها نفس هذه الآية:

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ

، فما هو الفرق على قولهما بين الموضوعين في الآية؟ حيث عبر عنهم أولاً بنى إسرائيل، ثم أردف ذلك بقوله:

إِسْرَائِيلَ

مع أن المقام من أوضح مقامات الالتباس، و ناهيك في ذلك أن الجم الغفير من المفسرين فهموا منه أن المراد به يعقوب لا بنوه.

و من أحسن الشواهد على أن المراد به يعقوب قوله تعالى: عَلِي نَفْسِهِ يَارْجَاعِ ضَمِيرِ الْمَفْرَدِ الْمَذْكَرِ إِلَى إِسْرَائِيلِ وَ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَكَانَ مِنَ الْإِلْزَامِ أَنْ يُقَالَ: عَلِي نَفْسِهَا أَوْ عَلِي أَنْفُسِهِمْ.

قوله تعالى: قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَي حَتَّى يَتَبَيَّنَ أَنَّ أَي الْفَرِيقَيْنِ عَلِي الْحَقُّ، أَنَا أَمْ أَنْتُمْ، وَ هَذَا إِلْفَاءُ جَوَابٍ مِنْهُ تَعَالَى عَلِي نَبِيهِ ص.

قوله تعالى: فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ، ظاهره أنه كلام الله سبحانه يخاطب به نبيه ص، و على هذا ففيه تطيب لنفس النبي ص بأن أعداءه من اليهود هم الظالمون بعد هذا البيان لافتراءهم الكذب على الله، و تعريض لليهود، و الكلام يجري مجرى الكناية.

و أما احتمال كون الكلام من تنمته كلام النبي ص فلا- يلائمه ظاهر أفراد خطاب الإشاره في قوله: مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، و على هذا أيضاً يجري الكلام مجرى الكناية و الستر على الخصم المغلوب ليقع الكلام موقعه من القبول كما في قوله تعالى: «إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلِي هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» : سبأ- ٢٤، و المشار إليه بذلك هو البيان و الحجج.

و إنما قال: من بعد ذلك مع أن المفترى ظالم على أي حال لأن الظلم لا يتحقق قبل التبين كما قيل، و القصر في قوله: فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ قصر قلب على أي حال.

قوله تعالى: قُلْ صِدْقَ اللَّهِ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا «إلخ» أي فإذا كان الحق معي فيما أخبرتكم به و دعوتكم إليه فاتبعوا ديني و اعترفوا بحليه لحم الإبل و غيره من الطيبات التي أحلها الله، و إنما كان حرمها عليكم عقوبه لاعتدائكم و ظلمكم كما أخبر تعالى به.

فَقَوْلُهُ: فَسَاتَّبِعُوا «إِلَخ» كَالكُنَايَةِ عَنْ اتِّبَاعِ دِينِهِ، وَ إِنَّمَا لَمْ يَذْكُرْهُ بِعَيْنِهِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُعْتَرِفِينَ بِمَلِهِ إِبرَاهِيمَ، لِيَكُونَ إِشَارَةً إِلَى كَوْنِ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الدِّينِ حَنِيفًا فَطَرِيًّا لِأَنَّ الْفِطْرَةَ لَا تَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ أَكْلِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ اللَّحْمِ وَ سَائِرِ الرِّزْقِ.

(بحث روائى)

فِي الْكَافِي، وَ تَفْسِيرِ الْعِيَاشِيِّ، عَنِ الصَّادِقِ (ع): أَنَّ إِسْرَائِيلَ كَانَ إِذَا أَكَلَ لَحْمَ الْإِبْلِ -هَيْجَ عَلَيْهِ وَجَعُ الْخَاصِرَةِ فَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ لَحْمَ الْإِبْلِ- وَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ- فَلَمَّا نَزَلَتِ التَّوْرَةُ لَمْ يَحْرَمْهُ وَ لَمْ يَأْكُلْهُ.

أَقُولُ: وَ مَا يَقْرَبُ مِنْهُ مَرُورِي مِنْ طَرَفِ أَهْلِ السُّنَنِ وَ الْجَمَاعَةِ.

وَ قَوْلُهُ فِي الرَّوَايَةِ: لَمْ يَحْرَمْهُ وَ لَمْ يَأْكُلْهُ ضَمِيرًا الْفَاعِلِ رَاجِعًا إِلَى مُوسَى لِذِلَالَةِ الْمَقَامِ عَلَيْهِ، وَ الْمَعْنَى لَمْ يَحْرَمْهُ مُوسَى وَ لَمْ يَأْكُلْهُ، وَ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لَمْ يَأْكُلْهُ مِنَ التَّأْكِيلِ بِمَعْنَى التَّمَكِينِ مِنَ الْأَكْلِ، وَ يَظْهَرُ مِنَ النَّجَاحِ، أَنَّ التَّفْعِيلَ وَ الْمَفَاعَلَةَ فِيهِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ

[سوره آل عمران (۳): الآيات ۹۶ إلى ۹۷]

اشاره

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ (۹۶) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (۹۷)

بيان

الآيتان جواب عن شبهه أخرى كانت اليهود توردها على المؤمنين من جهة النسخ، و هي ما حدث في أمر القبلة بتحويلها من بيت المقدس إلى الكعبة، و قد مر في تفسير قوله تعالى: «قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» X الآيه X: البقره- ۱۴۴ أن تحويل،

القبله كان من الأمور الهامه التي كانت له تأثيرات عميقه ماديه و معنويه فى حيوه أهل الكتاب- و خاصه اليهود-مضافا إلى كونه مخالفا لمذهبهم من النسخ، و لذلك طالت المشاجرات و المشاغبات بينهم و بين المسلمين بعد نزول حكم القبله إلى أمد بعيد.

و المستفاد من الآيه- إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَكَّةَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، البيت معروف، و المراد بوضع البيت للناس وضعه لعبادتهم و هو أن يجعلوه ذريعه يتوسل به إلى عباده الله سبحانه، و يستعان به فيها بأن يعبد الله فيه، و بقصده و المسير إليه و غير ذلك، و الدليل على ذلك ما يشتمل عليه الكلام من كونه مباركا و هدى للعالمين و غير ذلك، و يشعر به التعبير عن الكعبه بالذى بكه فإن فيه تلويحا إلى ازدحام الناس عنده فى الطواف و الصلوه و غيرهما من العبادات و المناسك، و أما كونه أول بيت بنى على الأرض و وضع لينتفع به الناس فلا دلالة على ذلك من جهة اللفظ.

و الجواب: أن الكعبه موضوعه للعباده قبل غيرها كبيت المقدس فلقد بناها إبراهيم من غير شك و وضعها للعباده، و فيها آيات بينات تدل على ذلك كمقام إبراهيم، و أما بيت المقدس فبانيه سليمان و هو بعد إبراهيم بقرون.

قوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَكَّةَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، البيت معروف، و المراد بوضع البيت للناس وضعه لعبادتهم و هو أن يجعلوه ذريعه يتوسل به إلى عباده الله سبحانه، و يستعان به فيها بأن يعبد الله فيه، و بقصده و المسير إليه و غير ذلك، و الدليل على ذلك ما يشتمل عليه الكلام من كونه مباركا و هدى للعالمين و غير ذلك، و يشعر به التعبير عن الكعبه بالذى بكه فإن فيه تلويحا إلى ازدحام الناس عنده فى الطواف و الصلوه و غيرهما من العبادات و المناسك، و أما كونه أول بيت بنى على الأرض و وضع لينتفع به الناس فلا دلالة على ذلك من جهة اللفظ.

و المراد بكه أرض البيت سميت بكه لازدحام الناس فيها، و ربما قيل إن بكه هى مكه، و أنه من تبديل الميم باء كما فى قولهم لازم و لازب و راتم و راتب و نحو ذلك، و قيل: هو اسم للحرم، و قيل: المسجد، و قيل: المطاف.

و المباركه مفاعله من البركه و هى الخير الكثير، فالمباركه إفاضه الخير الكثير عليه و جعله فيه، و هى و إن كانت تشمل البركات الدنيويه و الأخرويه، إلا أن ظاهر مقابلتها مع قوله: هُدًى لِّلْعَالَمِينَ أن المراد بها إفاضه البركات الدنيويه و عمدتها وفور الأرزاق و توفر الهمم و الدواعى إلى عمرانها بالحج إليه و الحضور عنده و الاحترام له و إكرامه فيقول المعنى إلى ما يتضمنه قوله تعالى فى دعوه إبراهيم: «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي

بِعَوَادٍ غَيْرِ ذِي زُرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَشْكُرُونَ» : إبراهيم-٣٧.

و كونه هدى هو إراءته للناس سعادته آخرتهم، و إيصاله إياهم إلى الكرامة و القرب و الزلفى بما وضعه الله للعباده، و بما شرع
عنده من أقسام الطاعات و النسك و لم يزل منذ بناه إبراهيم مقصدا للقاصدين و مقبدا للعبادين.

و قد دل القرآن على أن الحج شرع أول ما شرع فى زمن إبراهيم (ع) بعد الفراغ من بنائه، قال تعالى: «وَ عَاهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ
إِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ» : البقره-١٢٥، و قال: خطابا لإبراهيم: «وَ أَدِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ
رِجَالًا وَ عَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» : الحج-٢٧، و الآية كما ترى تدل على أن هذا الأذان و الدعوه سيقابل بتبليبه عامه
من الناس الأقربين و الأبعدين من العشائر و القبائل.

و دل أيضا على أن هذا الشعار الإلهى كان على استقراره و معروفيته فى زمن شعيب عند الناس كما حكاه الله عنه فى قوله
لموسى (ع): «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ» : القصص-
٢٧، فقد أراد بالحج سنه و ليس إلا لكون السنين تعد بالحج لتكررها بتكرره.

و كذا فى دعوه إبراهيم (ع) شىء كثير يدل على كون البيت لم يزل معمورا بالعباده آيه فى الهدايه (راجع سوره إبراهيم).

و كان عرب الجاهليه يعظمونه و يأتون بالحج بعنوان أنه من شرع إبراهيم، و قد ذكر التاريخ أن سائر الناس أيضا كانوا يعظمونه، و
هذا فى نفسه نوع من الهدايه لما فيه من التوجه إلى الله سبحانه و ذكره، و أما بعد ظهور الإسلام فالأمر أوضح، و قد ملاً ذكره
مشارك الأرض و مغاربا، و هو يعرض نفسه لأفهام الناس و قلوبهم بنفسه و بذكره، و فى عبادات المسلمين و طاعاتهم و قيامهم و
قعودهم و مذابحهم و سائر شئونهم.

فهو هدى بجميع مراتب الهدايه آخذه من الخطور الذهنى إلى الانقطاع التام الذى لا يمسه إلا المطهرون من عباد الله المخلصين.

على أنه يهدى عالم المسلمين إلى سعادتهم الدنيوية التي هي وحده الكلمه و ائتلاف الأمه و شهاده منافعهم،و يهدى عالم غيرهم بإيقاظهم و تنبيههم إلى ثمرات هذه الوحده و ائتلاف القوى المختلفه المتشثته.

و من هنا يظهر أولاً: أنه هدى إلى سعادته الدنيا و الآخره كما أنه هدى بجميع مراتب الهدايه،فالهدايه مطلقه.

و ثانياً: أنه هدى للعالمين لا لعالم خاص و جماعه مخصوصه كآل إبراهيم أو العرب أو المسلمين و ذلك لما فيه من سعه الهدايه.

قوله تعالى: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ، الآيات و إن وصفت بالبينات، و أفاد ذلك تخصصاً ما فى الموصوف إلا أنها مع ذلك لا- تخرج عن الإبهام،و المقام مقام بيان مزايا البيت و مفاخره التى بها يتقدم على غيره فى الشرف و لا يناسب ذلك إلا الإتيان ببيان واضح،و الوصف بما لا غبار عليه بالإبهام و الإجمال،و هذا من الشواهد على كون قوله: مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ بَيِّنَاتٌ لِقَوْلِهِ: آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فَالآيات هى: مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، و تقرير الأمن فيه،و إيجاب حجه على الناس المستطيعين.

لكن لا- كما يترأى من بعض التفاسير من كون الجمل الثلاث بدلا أو عطف بيان من قوله: آيَاتٌ لوضوح أن ذلك يحتاج إلى رجوع الكلام بحسب التقدير إلى مثل قولنا:

هى مقام إبراهيم،و الأمن لمن دخله،و حجه لمن استطاع إليه سبيلا،و فى ذلك إرجاع قوله: وَ مَنْ دَخَلَهُ،سواء كان إنشاء أو إخباراً إلى المفرد بتقدير أن و إرجاع قوله:

وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ

،و هى جملة إنشائية إلى الخبرية ثم عطفه على الجملة السابقه و تأويلها إلى المفرد بذلك أو بتقدير أن فيها أيضاً،و كل ذلك مما لا يساعد عليه الكلام البته.

و إنما سيقت هذه الجمل الثلاث أعنى قوله: مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ «إلخ»،كل لغرض خاص من إخبار أو إنشاء حكم ثم تتبين بها الآيات فتعطى فائده البيان كما يقال:فلان رجل شريف هو ابن فلان و يقرى الضيف و يجب علينا أن نتبعه.

قوله تعالى: مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ مبتدأ لخبر محذوف و التقدير فيه مقام إبراهيم،و هو الحجر الذى عليه أثر قدمى إبراهيم الخليل (ع)،و قد استفاض النقل بأن الحجر مدفون

فى المكان الذى يدعى اليوم بمقام إبراهيم على حافه المطاف حىال الملتزم، و قد أشار إليه أبو طالب عم النبى فى قصيدته اللاميه:

و موطئ إبراهيم فى الصخر رطبه

على قدميه حافيا غير ناعل

و ربما يفهم من قوله: **مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ** أن البيت أو فى البيت موضع قيام إبراهيم بعباده الله سبحانه.

و يمكن أن يكون تقدير الكلام: هى مقام إبراهيم و الأمن و الحج ثم وضع قوله:

وَمَنْ دَخَلَهُ

و قوله: **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ**، و هما جملتان مشتملتان على حكم إنشائى موضع الخبرين، و هذا من أعاجيب أسلوب القرآن حيث يستخدم الكلام المسوق لغرض فى سبيل غرض آخر فيضعه موضعه لينتقل منه إليه فيفيد فائدتين، و يحفظ الجهتين كحكاية الكلام فى موضع الإخبار كقوله: «كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتِبَ وَ رُسُلِهِ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» :البقره-٢٨٥، و كما مر فى قوله تعالى «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ» **الآيه X**:البقره-٢٥٨، و قوله: «أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ» **الآيه X**:البقره - ٢٥٩، و قد بينا النكته فى ذلك فى تفسير الثانية، و كما فى قوله تعالى: «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» :الشعراء-٨٩، و كما فى قوله تعالى: «وَ لِكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ» **الآيه X**:البقره-١٧٧، حيث وضع صاحب البر، مكان البر، و كما فى قوله تعالى: «وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ» **الآيه X**:البقره-١٧١ و مثله غالب الأمثال الوارده فى القرآن الكريم.

و على هذا فوزان قوله: فيه آياتٌ بيّناَتُ مقام إبراهيم - إلى قوله- **عَنِ الْعَالَمِينَ** فى التردد بين الإنشاء و الإخبار، ووزان قوله: «وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَ عَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَ شَرَابٌ وَ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَ لَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» :ص-٤٤.

و هذا الذى ذكرناه غير ما ذكره بعضهم من حديث البديله، و إن كان بدلا و لا بد فالأولى جعل قوله: **مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ** بدلا و جعل الجملتين التاليتين مستأنفتين

دالتين على بدلين محذوفين. و التقدير فيه آيات بينات مقام إبراهيم و أمن الداخل و حج المستطيع للبيت.

و لا ريب فى كون كل واحد من هذه الأمور آيه بينه داله بوقوعها على الله سبحانه مذكوره لمقامه إذ ليست الآيه إلا العلامه الداله على الشىء بوجهه، و أى علامه داله عليه تعالى مذكوره لمقامه أعظم و أجلى فى نظر أهل الدنيا من موقف إبراهيم و من حرم آمن يأمن من دخله و من مناسك و عبادات يأتى بها الألوف بعد الألوف من الناس تتكرر بتكرر السنين، و لا تنسخ بانتساخ الليالى و الأيام، و أما كون كل آيه أمرا خارقا للعادة ناقضا لسنه الطبيعه فليس من الواجب، و لا لفظ الآيه بمفهومه يدل عليه، و لا استعماله فى القرآن ينحصر فيه. قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخْهَا﴾ X الآيه X: البقره - ١٠٦، و هى تشمل الأحكام المنسوخه فى الشرع قطعا، و قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾: الشعراء - ١٢٨، إلى غير ذلك من الآيات.

و من هنا يظهر ما فى إصرار بعض المفسرين على توجيه كون المقام آيه خارقه، و كون الأمن و الحج مذكورين لغير غرض بيان الآيه.

و كذا إصرار آخرين على أن المراد بالآيات بينات أمور آخر من خواص الكعبه (و قد أغمضنا عن ذكرها، و من أرادها فليراجع بعض مطولات التفاسير) فإن ذلك مبنى على كون المراد من الآيات المعجزه و خوارق العاده، و لا دليل على ذلك كما مر.

فالحق أن قوله: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا: مسوق لبيان حكم تشريعى لا خاصه تكوينيه غير أن الظاهر أن يكون الجمله إخباريه يخبر بها عن تشريع سابق للأمن كما ربما استفيد ذلك من دعوه إبراهيم المذكوره فى سورتى إبراهيم و البقره و قد كان هذا الحق محفوظا للبيت قبل البعثه بين عرب الجاهليه و يتصل بزمن إبراهيم (ع).

و أما كون المراد من حديث الأمن هو الإخبار بأن الفتن و الحوادث العظام لا تقع و لا ينسحب ذيلها إلى الحرم فيدفعه وقوع ما وقع من الحروب و المقاتلات و اختلال الأمن فيه، و خاصه ما وقع منها قبل نزول هذه الآيه، و قوله تعالى «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ»: العنكبوت - ٦٧، لا يدل على مزيد من استقرار الأمن و استمراره فى الحرم، و ليس ذلك إلا لما يراه الناس من

حرمه هذا البيت و وجوب تعظيمه الثابت فى شريعته إبراهيم(ع) و ينتهى بالأخره إلى جعله سبحانه و تشريعہ.

و كذا ما وقع فى دعاء إبراهيم المحكى فى قوله تعالى: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا»: إبراهيم-٣٥، و قوله: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا» البقره-١٢٦، حيث سأل الأمن لبلد مكة فأجابه الله بتشريع الأمن و سوق الناس سوقا قلبيا إلى تسليم ذلك و قبوله زمانا بعد زمان.

قوله تعالى: وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، الحج بالكسر (و قرئ بالفتح) هو القصد ثم اختص استعماله بقصد البيت على نهج مخصوص بينه الشرع، و قوله: سَبِيلًا تمييز من قوله: اسْتَطَاعَ .

و الآيه تتضمن تشريع الحج إمضاء لما شرع لإبراهيم(ع) كما يدل عليه قوله تعالى حكاية لما خوطب به إبراهيم: «وَ أذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ»: الآية X الحج-٢٧، و من هنا يظهر أن وزان قوله: وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ «إلخ» ووزان قوله تعالى: وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا فى كونه إخبارا عن تشريع سابق و إن كان من الممكن أن يكون إنشاء على نحو الإمضاء لكن الأظهر من السياق هو الأول كما لا يخفى.

قوله تعالى: وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ، الكفر هاهنا من الكفر بالفروع نظير الكفر بترك الصلوه و الزكاه فالمراد بالكفر الترك. و الكلام من قبيل وضع المسبب أو الأثر مقام السبب أو المنشأ كما أن قوله: فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ «إلخ» من قبيل وضع العله موضع المعلول، و التقدير: و من ترك الحج فلا يضر الله شيئا فإن الله غنى عن العالمين.

(بحث روائى)

عن ابن شهر آشوب عن أمير المؤمنين(ع): فى قوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ : الآية-فقال له رجل أ هو أول بيت؟ قال لا قد كان قبله بيوت، و لكنه أول بيت وضع للناس مباركا، فيه الهدى و الرحمه و البركه. و أول من بناه إبراهيم، ثم بناه قوم من العرب من جرهم-ثم هدم فبنته العمالقه ثم هدم فبناه قريش.

و فى الدر المثور، أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق الشعبى عن على بن أبى طالب: فى قوله «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ قَالَ: كانت البيوت قبله و لكنه كان أول بيت وضع لعباده الله).

أقول: و رواه أيضا عن ابن جرير عن مطر مثله،

و الروايات فى هذه المعانى كثيرة.

و فى العلل، عن الصادق(ع): موضع البيت بكه، و القرية مكه.

و فيه، أيضا عنه(ع): إنما سميت بكه بكه لأن الناس يبكون فيها.

أقول: يعنى يزدحمون.

و فيه، عن الباقر(ع): إنما سميت مكه بكه لأنه يبك بها الرجال و النساء، و المرأة تصلى بين يديك، و عن يمينك، و عن شمالك و معك- و لا بأس بذلك إنما يكره ذلك فى سائر البلدان.

و فيه، عن الباقر(ع)قال: لما أراد الله أن يخلق الأرض أمر الرياح-فضربن متن الماء حتى صار موجا ثم أزيد فصار زيدا واحدا- فجمعه فى موضع البيت ثم جعله جبلا- من زيد- ثم دحى الأرض من تحته و هو قول الله:- «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا، فَأُولَ بَقْعَهُ خَلقت من الأرض الكعبة- ثم مدت الأرض منها.

أقول: و الأخبار فى دحو الأرض من تحت الكعبة كثيرة، و ليست مخالفة للكتاب، و لا أن هناك برهانا يدفع ذلك غير ما كانت تزعمه القدماء من علماء الطبيعة أن الأرض عنصر بسيط قديم، و قد بان بطلان هذا القول بما لا يحتاج إلى بيان.

و هذا تفسير ما ورد من الروايات فى أن الكعبة أول بيت(أى بقعه) فى الأرض و إن كان الظاهر من الآيه ما تشتمل عليه الروايتان الأوليان.

و فى الكافى، و تفسير العياشى، عن الصادق(ع): فى قوله تعالى: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ :

أنه سئل ما هذه الآيات البينات؟ قال: مقام إبراهيم حيث قام على الحجر فأثرت فيه قدماه، و الحجر الأسود، و منزل إسماعيل.

أقول: و فى هذا المعنى روايات أخرى، و لعل ذكره هذه الأمور من باب العد و إن لم تشتمل على بعضها الآيه.

و فى تفسير العياشى، عن عبد الصمد، قال: طلب أبو جعفر أن يشتري من أهل مكة بيوتهم- أن يزيد فى المسجد فأبوا فأرغبهم فامتنعوا- فضاقت بذلك فأتى أبا عبد الله (ع) فقال له: إني سألت هؤلاء شيئا من منازلهم و أفنيتهم- لنزيد فى المسجد و قد منعوا فى ذلك فقد غمى غما شديدا، فقال أبو عبد الله (ع): لم يغمك ذلك و حجتك عليهم فيه ظاهره، فقال: و بما أحتج عليهم؟ فقال: بكتاب الله، فقال: فى أى موضع؟ فقال: قول الله: - إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِيَكَّةَ، و قد أخبرك الله:

أن أول بيت وضع للناس هو الذى بيكه- فإن كانوا هم تولوا قبل البيت فلهم أفنيتهم، و إن كان البيت قديما فيهم فله فئاؤه، فدعاهم أبو جعفر فاحتج عليهم بهذا فقالوا له:

اصنع ما أحببت.

و فيه، عن الحسن بن على بن النعمان، قال: لما بنى المهدي فى المسجد الحرام- بقيت دار فى تربيعة المسجد فطلبها من أربابها فامتنعوا- فسأل عن ذلك الفقهاء فكل قال له:

إنه لا- ينبغى أن تدخل شيئا فى المسجد الحرام غصبا، فقال له على بن يقطين: يا أمير المؤمنين- إني أكتب إلى موسى بن جعفر (ع) لأخبرك بوجه الأمر فى ذلك- فكتب إلى والى المدينة أن يسأل موسى بن جعفر (ع)- عن دار أردنا أن ندخلها فى المسجد الحرام- فامتنع عليها صاحبها، فكيف المخرج من ذلك؟.

فقال ذلك لأبى الحسن (ع)، فقال أبو الحسن (ع): فلا- بد من الجواب فى هذا؟ فقال له: الأمر لا بد منه، فقال له: اكتب- بسم الله الرحمن الرحيم- إن كانت الكعبة هى النازلة بالناس فالناس أولى بفنائها، و إن كان الناس هم النازلون بفناء الكعبة- فالكعبة أولى بفنائها.

فلما أتى الكتاب إلى المهدي أخذ الكتاب قبله- ثم أمر بهدم الدار فأتى أهل الدار أبا الحسن (ع)- فسأله أن يكتب إلى المهدي كتابا فى ثمن دارهم- فكتب إليه أن أوضح (1) لهم شيئا فأرضاهم.

أقول: و الروايتان مشتملتان على استدلال لطيف، و كان أبو جعفر المنصور كان هو البادئ بتوسعة المسجد الحرام ثم تم الأمر للمهدي.

ص: ٣٥٧

(١- ١) ارضخ (خ).

و فى الكافى، عن الصادق (ع): فى قوله تعالى: وَ لِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ «إلخ»، يعنى به الحج و العمره جميعا لأنهما مفروضان.

أقول: و رواه العياشى فى تفسيره، و قد فسر الحج فيه بمعناه اللغوى و هو القصد.

و فى تفسير العياشى، عن الصادق (ع):

وَ مَنْ كَفَرَ

قال: ترك.

أقول: و رواه الشيخ فى التهذيب، و قد عرفت أن الكفر ذو مراتب كالإيمان، و أن المراد منه الكفر بالفروع.

و فى الكافى، عن على بن جعفر عن أخيه موسى (ع) فى حديث قال: قلت:

فمن لم يحج منا فقد كفر؟ قال: لا، و لكن من قال: ليس هذا هكذا فقد كفر.

أقول: و الروايات فى هذه المعانى كثيره، و الكفر فى الروايه بمعنى الرد، و الآيه تحتمله، فالكفر فيها بمعناه اللغوى و هو الستر على الحق، و على حسب الموارد تتعين له مصاديق.

(بحث تاريخى) [ملخص تاريخ الكعبه]

من المتواتر المقطوع به أن الذى بنى الكعبه إبراهيم الخليل (ع) و كان القاطنون حولها يومئذ ابنه إسماعيل و جرهم من قبائل اليمن و هى بناء مربع تقريبا و زواياها الأربع إلى الجهات الأربع تتكسر عليها الرياح و لا تضرها مهما اشتدت.

ما زالت الكعبه على بناء إبراهيم حتى جددها العمالقه ثم بنو جرهم (أو بالعكس) كما مر فى الروايه عن أمير المؤمنين (ع).

ثم لما آل أمر الكعبه إلى قصى بن كلاب أحد أجداد النبى ص (القرن الثانى قبل الهجره) هدمها و بناها فأحكم بناءها، و سقفها بخشب الدوم و جذوع النخل و بنى إلى جانبها دار الندوه، و كان فى هذه الدار حكومته و شوره مع أصحابه، ثم قسم جهات الكعبه بين طوائف قريش فبنوا دورهم على المطاف حول الكعبه، و فتحوا عليه أبواب دورهم.

[بناء الكعبه]

و قبل البعته بخمس سنين هدم السيل الكعبه فاقتسمت الطوائف العمل لبنائها

و كان الذى يبنها ياقوم الرومى، و يساعده عليه نجار مصرى، و لما انتهوا إلى وضع الحجر الأسود تنازعوا بينهم فى أن أيها يختص بشرف وضعه فأوا أن يحكموا محمدا ص، و سنه إذ ذاك خمس و ثلاثون سنه لما عرفوا من وفور عقله و سداد رأيه، فطلب رداء و وضع عليه الحجر، و أمر القبائل فأمسكوا بأطرافه و رفعوه حتى إذا وصل إلى مكانه من البناء فى الركن الشرقى أخذه هو فوضعه بيده فى موضعه.

و كانت النفقه قد بهظتهم فقصرها بناءها على ما هى عليه الآن و قد بقى بعض ساحته خارج البناء من طرف الحجر حجر إسماعيل لاستصغارهم البناء.

و كان البناء على هذا الحال حتى تسلط عبد الله بن الزبير على الحجاز فى عهد يزيد بن معاويه فحاربه الحصين قائد يزيد بمكه، و أصاب الكعبه بالمنجنق فانهدمت و أحرقت كسوتها و بعض أخشابها، ثم انكشف عنها لموت يزيد، فأرى ابن الزبير أن يهدم الكعبه و يعيد بناءها فأتى لها بالجص النقى من اليمن، و بناها به و أدخل الحجر فى البيت، و ألصق الباب بالأرض، و جعل قبالته بابا آخر ليدخل الناس من باب و يخرجوا من آخر، و جعل ارتفاع البيت سبعة و عشرين ذراعا و لما فرغ من بنائها ضمخها بالمسك و العبير داخلا و خارجا، و كساها بالديباج، و كان فراغه من بنائها ١٧ رجب سنه ٦٤ هجرية.

ثم لما تولى عبد الملك بن مروان الخلفه بعث الحجاج بن يوسف قائده فحارب ابن الزبير حتى غلبه فقتله، و دخل البيت فأخبر عبد الملك بما أحدثه ابن الزبير فى الكعبه، فأمره بإرجاعها إلى شكلها الأول، فهدم الحجاج من جانبها الشمالى سته أذرع و شبرا، و بنى ذلك الجدار على أساس قريش، و رفع الباب الشرقى و سد الغربى ثم كبس أرضها بالحجاره التى فضلت منها.

و لما تولى السلطان سليمان العثمانى الملك سنه ستين و تسعمائه غير سقفها، و لما تولى السلطان أحمد العثمانى سنه إحدى و عشرين بعد الألف أحدث فيها ترميما و لما حدث السيل العظيم سنه تسع و ثلاثين بعد الألف هدم بعض حوائطها الشماليه و الشرقيه و الغربيه فأمر السلطان مراد الرابع من ملوك آل عثمان بترميمها و لم يزل على ذلك حتى اليوم و هو سنه ألف و ثلاث مائه و سبعين هجرية قمرية و سنه ألف و ثلاثمائه و ثمانيه و ثلاثين هجرية شمسيه.

شكل الكعبه مربع تقريبا و هي مبنيه بالحجاره الزرقاء الصلبه و يبلغ ارتفاعها سته عشر مترا،و قد كانت فى زمن النبى ص أخفض منه بكثير على ما يستفاد من حديث رفع النبى ص عليا(ع)على عاتقه يوم الفتح لأخذ الأصنام التى كانت على الكعبه و كسرها.

و طول الضلع الذى فيه الميزاب و الذى قبالته عشره أمتار و عشره سانتيمترات، و طول الضلع الذى فيه الباب و الذى قبالته اثنا عشر مترا،و الباب على ارتفاع مترين من الأرض،و فى الركن الذى على يسار الباب للداخل،الحجر الأسود على ارتفاع متر و نصف من أرض المطاف،و الحجر الأسود حجر ثقيل بيضى الشكل غير منتظم لونه أسود ضارب إلى الحمرة،و فيه نقط حمراء،و تعاريج صفراء،و هي أثر لحام القطع التى كانت تكسرت منه،قطره نحو ثلاثين سانتى مترا.

و تسمى زوايا الكعبه من قديم أيامها بالأركان فيسمى الشمالى بالركن العراقى، و الغربى بالشامى و الجنوبى باليمانى،و الشرقى الذى فيه الحجر الأسود بالأسود،و تسمى المسافه التى بين الباب و ركن الحجر بالملتزم لالتزام الطائف إياه فى دعائه و استغاثته، و أما الميزاب على الحائط الشمالى و يسمى ميزاب الرحمه فمما أحدثه الحجاج بن يوسف ثم غيره السلطان سليمان سنه ٩٥٤ إلى ميزاب من الفضة ثم أبدله السلطان أحمد سنه ١٠٢١ بآخر من فضه منقوشه بالميناء الزرقاء يتخللها نقوش ذهبية،ثم أرسل السلطان عبد المجيد من آل عثمان سنه ١٢٧٣ ميزابا من الذهب فنصب مكانه و هو الموجود الآن.

و قباله الميزاب حائط قوسى يسمى بالحطيم،و هو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتى البيت الشماليه و الغربيه،و يبعدان عنهما مقدار مترين و ثلاثه سانتيمترات، و يبلغ ارتفاعه مترا،و سمكه مترا و نصف متر،و هو مبطن بالرخام المنقوش، و المسافه بين منتصف هذا القوس من داخله إلى منتصف ضلع الكعبه ثمانيه أمتار و أربعه و أربعون سانتى مترا.

و الفضاء الواقع بين الحطيم و بين حائط البيت هو المسمى بحجر إسماعيل،و قد كان يدخل منه ثلاثه أمتار تقريبا فى الكعبه فى بناء إبراهيم،و الباقي كان زريبه لغنم هاجر و ولدها،و يقال:إن هاجر و إسماعيل مدفونان فى الحجر.

و أما تفصيل ما وقع فى داخل البيت من تغيير و ترميم،و ما للبيت من السنن

كسوه الكعبه:

قد تقدم فى ما نقلناه من الروایات فى سورة البقره فى قصه هاجر و إسماعیل و نزولهما أرض مكه أن هاجر علق كساءها على باب الكعبه بعد تمام بنائها.

و أما كسوه البيت نفسه فيقال: إن أول من كساها تبع أبو بكر أسعد كساها بالبرود المطرزه بأسلاك الفضة، و تبعه خلفاؤه ثم أخذ الناس يكسونها بأردیه مختلفه فيضعونها بعضها على بعض، و كلما بلى منها ثوب وضع عليها آخر إلى زمن قصى، و وضع قصى على العرب رفاده لكسوتها سنويا و استمر ذلك فى بنیه و كان أبو ربيعه بن المغيره يكسوها سنه و قبائل قريش سنه.

و قد كساها النبي ص بالثياب اليمانيه، و كان على ذلك حتى إذا حج الخليفه العباسى المهدي شكى إليه سدنه الكعبه من تراكم الأكسيه على سطح الكعبه، و ذكروا أنه يخشى سقوطه فأمر برفع تلك الأكسيه، و إبدالها بكسوه واحده كل سنه، و جرى العمل على ذلك حتى اليوم، و للكعبه كسوه من داخل، و أول من كساها من داخل أم العباس بن عبد المطلب لنذر نذرته فى ابنها العباس.

منزله الكعبه:

كانت الكعبه مقدسه معظمه عند الأمم المختلفه فكانت الهنود يعظمونها، و يقولون: إن روح «سيفا» و هو الأقوم الثالث عندهم حلت فى الحجر الأسود حين زار مع زوجته بلاد الحجاز.

و كانت الصابئه من الفرس و الكلدانيين يعدونها أحد البيوت السبعه المعظمه (1)، و ربما قيل: إنه بيت زحل لقدم عهده و طول بقائه.

و كانت الفرس يحترمون الكعبه أيضا زاعمين أن روح هرمز حلت فيها، و ربما حجوا إليها زائرين.

و كانت اليهود يعظمونها و يعبدون الله فيها على دين إبراهيم، و كان بها صور

ص: ٣٤١

١- (١) البيوت المعظمه هي: ١- الكعبه، ٢- مارس على رأس جبل بأصفهان، ٣- مندوسان ببلاد الهند، ٤- نوبهار بمدينه بلخ، ٥- بيت غمدان بمدينه صنعاء، ٦- كاوسان بمدينه فرغانه من خراسان، ٧- بيت بأعلى بلاد الصين.

و تماثيل منها تمثال إبراهيم و إسماعيل، و بأيديهما الأزام، و منها صورتا العذراء و المسيح، و يشهد ذلك على تعظيم النصارى لأمرها أيضا كاليهود.

و كانت العرب أيضا تعظمها كل التعظيم، و تعدها بيتا لله تعالى، و كانوا يحجون إليها من كل جهة و هم يعدون البيت بناء لإبراهيم، و الحج من دينه الباقي بينهم بالتوارث.

ولاية الكعبة:

كانت الولاية على الكعبة لإسماعيل ثم لولده من بعده حتى تغلبت عليهم جرهم فقبضوا بولايتها ثم ملكتها العماليق و هم طائفه من بنى كركر بعد حروب وقعت بينهم، و قد كانوا ينزلون أسفل مكة كما أن جرهم كانت تنزل أعلى مكة و فيهم ملوكهم.

ثم كانت الدائرة لجرهم على العماليق فعادت الولاية إليهم فتولوها نحو من ثلاثمائة سنه، و زادوا في بناء البيت و رفعته على ما كان في بناء إبراهيم.

ثم لما نشأت ولد إسماعيل و كثروا و صاروا ذوى قوه و منعه و ضاقت بهم الدار حاربوا جرهم فغلبوهم و أخرجوهم من مكة و مقدم الإسماعيليين يومئذ عمرو بن لحي، و هو كبير خزاعه فاستولى على مكة و تولى أمر البيت، و هو الذى وضع الأصنام على الكعبة و دعا الناس إلى عبادتها، و أول صنم وضعه عليها هو «هبل»، حمله معه من الشام إلى مكة و وضعه عليها ثم أتبعه بغيره حتى كثرت و شاعت عبادتها بين العرب، و هجرت الحنيفيه.

و فى ذلك يقول شحنه بن خلف الجرهمى يخاطب عمرو بن لحي.

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهه

شتى بمكه حول البيت أنصبا

و كان للبيت رب واحد أبدا

فقد جعلت له فى الناس أربابا

لتعرفن بأن الله فى مهل

سيصطفى دونكم للبيت حجابا

و كانت الولاية فى خزاعه إلى زمن حليل الخزاعى فجعلها حليل من بعده لابنته و كانت تحت قصى بن كلاب، و جعل فتح الباب و غلقها لرجل من خزاعه يسمى أبا غبشان الخزاعى فباعه أبو غبشان من قصى بن كلاب ببيعير و زق خمر، و فى ذلك يضرب المثل السائر «أخسر ممن صفقه أبى غبشان».

فانتقلت الولاية إلى قريش، و جدد قصى بناء البيت كما قدمناه و كان الأمر على

ص: ٣٦٢

ذلك حتى فتح النبي ص مكة، ودخل الكعبة و أمر بالصور و التماثيل فمحييت، و أمر بالأصنام فهدمت و كسرت، و قد كان مقام إبراهيم و هو الحجر الذي عليه أثر قدمي إبراهيم موضوعا بمعجن في جوار الكعبة ثم دفن في محله الذي يعرف به الآن، و هو قبه قائمه على أربعة أعمده يقصدها الطائفون للصلاه.

و أخبار الكعبة و ما يتعلق بها من المعاهد الدينيه كثيره طويله الذيل اقتصرنا منها على ما تمسه حاجه الباحث المتدبر في آيات الحج و الكعبه.

و من خواص هذا البيت الذي بارك الله فيه و جعله هدى أنه لم يختلف في شأنه أحد من طوائف الإسلام .

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٨ الى ١٠١]

اشاره

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)

بيان

الآيات كما ترى باتصال السياق تدل على أن أهل الكتاب(فريق منهم و هم اليهود أو فريق من اليهود) كانوا يكفرون بآيات الله، و يصدون المؤمنين عن سبيل الله بإراءته إياهم عوجا غير مستقيم، و تمثيل سبيل الضلال المعوج المنحرف سبيلا لله،

و ذلك بإلقاء شبهات إلى المؤمنين يرون بها الحق باطلا، و الباطل الذي يدعونهم إليه حقا، و الآيات السابقة تدل على ما انحرفوا فيه من إنكار حليه كل الطعام قبل التوراه، و إنكار نسخ استقبال بيت المقدس، فهذه الآيات متمات للآيات السابقة المتعرضه لحل الطعام قبل التوراه، و كون الكعبه أول بيت وضع للناس فهي تشتمل على الإنكار و التوبيخ لليهود في إلقاءهم الشبهات و تفتينهم المؤمنين في دينهم، و تحذير للمؤمنين أن يطيعوهم فيما يدعون إليه فيكفروا بالدين، و ترغيب و تحريص لهم أن يعتصموا بالله فيهدتوا إلى صراط الإيمان و تدوم هدايتهم.

و قد ورد عن زيد بن أسلم كما رواه السيوطي في لباب النقول، على ما قيل (1): أن شاش بن قيس -و كان يهوديا- مر على نفر من الأوس و الخزرج يتحدثون -فغاظه ما رأى من تألفهم بعد العداوه- فأمر شابا معه من اليهود أن يجلس بينهم -فيذكرهم يوم بعث ففعل، فتنازعوا و تفاخروا- حتى وثب رجلا من الأوس، و جبار بن صخر من الخزرج فتقاولا و غضب الفريقان، و توثبوا للقتال فبلغ ذلك رسول الله ص فجاء -حتى و عظمهم و أصلح بينهم فسمعوا و أطاعوا- فأنزل الله في أوس و جبار:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا -مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ

الآيه، و في شاش بن قيس:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ

الآيه.

و الروايه مختصره مستخرجه مما رواه في الدر المنثور، عن زيد بن أسلم مفصلا و روى ما يقرب منها عن ابن عباس و غيره.

و كيف كان، الآيات أقرب انطباقا على ما ذكرنا منها على الروايه كما هو ظاهر، على أن الآيات يذكر الكفر و الإيمان، و شهاده اليهود، و تلاوه آيات الله على المؤمنين، و نحو ذلك، و كل ذلك لما ذكرناه أنسب، و يؤيد ذلك قوله تعالى: «وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسِيدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ» X الآيه X البقره - ١٠٩ فالحق كما ذكرنا أن الآيات متممه لسابقتها.

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ «إلخ»، المراد بالآيات بقرينه وحده السياق حليه الطعام قبل نزول التوراه، و كون القبله هي الكعبه في الإسلام.

ص: ٣٦٤

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصِيءُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ: عِوَجًا ، الصد الصرف، وقوله: تَبْغُونَهَا أَى تطلبون السبيل، وقوله: عِوَجًا : العوج المعطوف المحرف، والمراد طلب سبيل الله معوجا من غير استقامه.

قوله تعالى: وَ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ، أى تعلمون أن الطعام كان حلا قبل نزول التوراه و أن من خصائص النبوه تحويل القبله إلى الكعبه، و قد حاذى فى عداهم شهداء فى هذه الآيه ما فى الآيه السابقه من عد نفسه تعالى شهيدا على فعلهم و كفرهم، و فيه من اللطف ما لا يخفى فهم شهداء على حقيقه ما ينكرونه و الله شهيد على إنكارهم و كفرهم.

و لما نسب الشهاده إليهم فى هذه الآيه أبدل ما ذيل به الآيه السابقه أعنى قوله: وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَيَّ مَا تَعْمَلُونَ من قوله فى ذيل هذه الآيه. وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ فأفاد ذلك أنهم شهداء على الحقيقه، و الله سبحانه شهيد على الجميع.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا - إلى قوله: - وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ، المراد بالفريق كما تقدم هم اليهود أو فريق منهم، وقوله تعالى: وَ أَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ أى يمكنكم أن تعتصموا بالحق الذى يظهر لكم بالإنصات إلى آيات الله و التدبر فيها ثم الرجوع فيما خفى عليكم منها لقله التدبر أو الرجوع ابتداء إلى رسوله الذى هو فيكم غير محتجب عنكم و لا بعيد عنكم، و استظهار الحق بالرجوع إليه ثم إبطال شبهه ألقتها اليهود إليكم و التمسك بآيات الله و برسوله و الاعتصام بهما اعتصام بالله، وَ مَنْ يَعْتَصِمَ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

فالمراد بالكفر فى قوله: وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ، الكفر بعد الإيمان، وقوله: وَ أَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ، كناية من إمكان الاعتصام فى الاجتناب عن الكفر بآيات الله و برسوله، و قوله: وَ مَنْ يَعْتَصِمَ بِاللَّهِ، بمنزله الكبرى الكليه لذلك و المراد بالهدايه إلى صراط مستقيم الاهتداء إلى إيمان ثابت و هو الصراط الذى لا يختلف و لا يتخلف أمره، و يجمع سالقيه فى مستواه و لا يدعهم يخرجون عن الطريق فيضلوا.

و فى تحقيق الماضى فى قوله: فَقَدْ هُدِيَ، مع حذف الفاعل دلالة على تحقق الفعل من غير شعور بفاعله.

و يتبين من الآيه أن الكتاب و السنه كافيان فى الدلالة على كل حق يمكن أن يضل فيه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۰۲) وَإِعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۰۳) وَتَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۰۴) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (۱۰۵) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۱۰۶) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۱۰۷) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (۱۰۸) وَاللَّهُ مَلِكٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۱۰۹) كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (۱۱۰)

الآيات من تتمه ما خاطب به المؤمنين بالتحذير من أهل الكتاب و تفتينهم، و أن عندهم ما يمكنهم أن يعتصموا به فلا يضلوا و لا يسقطوا فى حفر المهالك، و هى مع ذلك كلام اعتقبه كلام، و لا- تغير السياق السابق أعنى أن التعرض لحال أهل الكتاب لم يختتم بعد، و الدليل على ذلك قوله تعالى بعد هذه الآيات: لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذى «إلخ».

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، قد مر فيما مر أن التقوى و هو نوع من الاحتراز إذا كان تقوى الله سبحانه كان تجنباً و تحرزا من عذابه كما قال تعالى: «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ»: البقره- ٢٤، و ذلك إنما يتحقق بالجرى على ما يريد و يرتضيه فهو امتثال أوامره تعالى، و الانتهاء عن نواهيها، و الشكر لنعمة، و الصبر عند بلائه، و يرجع الأخيران جميعا إلى الشكر بمعنى وضع الشىء موضعه و بالجمله تقوى الله سبحانه أن يطاع و لا يعصى و يخضع له فيما أعطى أو منع.

لكنه إذا أخذ التقوى حق التقوى الذى لا- يشوبه باطل فاسد من سنخه كان محض العبوديه التى لا- تشوبها إنيه و غفله و هى الطاعه من غير معصيه، و الشكر من غير كفر، و الذكر من غير نسيان، و هو الإسلام الحق أعنى الدرجة العليا من درجاته، و على هذا يرجع معنى قوله: وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ إلى نحو قولنا: و دوموا على هذه الحال (حق التقوى) حتى تموتوا.

و هذا المعنى غير ما يستفاد من قوله تعالى: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ»: التغابن- ١٦، فإن هذه الآيه فى معنى أن لا تذرُوا التقوى فى شىء مما تستطيعونه غير أن الاستطاعه تختلف باختلاف قوى الأشخاص و أفهامهم و هممهم، و لا ريب أن حق التقوى بالمعنى الذى ذكرناه ليس فى وسع كثير من الناس، فإن فى هذا المسير الباطنى مواقف و معاهد و مخاطر لا يعقلها إلا العالمون، و دقائق و لطائف لا- يتنبه لها إلا- المخلصون، فرب مرحله من مراحل التقوى لا يصدق الفهم العامى بكونها مما تستطيعه النفس الإنسانيه فيجزم بكونها غير مستطاعه و إن كان أهل التقوى الحقه خلفوها وراء ظهورهم، و أقبلوا بهمهمهم على ما هو أشق و أصعب.

فقوله: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ الآيه كلام يتلقاه الأنفهام المختلفه بمعان مختلفه على

حسب ما يطبقه كل فهم على ما يستطيعه صاحبه ثم يكون ذلك وسيله ليفهم من هذه الآيه أعنى قوله، اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أن المراد أن يقعوا في صراط حق التقوى، ويقصدوا نيل هذا المقام والشخص و المثل فيه، وذلك نظير الاهتداء إلى الصراط المستقيم الذي لا- يتمكن منه إلا- الأوحديون، ومع ذلك يدعى إليه جميع الناس، فيكون محصل الآيتين: (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ - فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) أن يندب جميع الناس و يدعوا إلى حق التقوى ثم يؤمروا بالسير إلى هذا المقصد ما قدروا و استطاعوا، و ينتج ذلك أن يقع الجميع في صراط التقوى إلا أنهم في مراحل مختلفه، و على درجات مختلفه على طبق ما عندهم من الأفهام و الهمم، و على ما يفاض عليهم من توفيق الله و تأييده و تسديده، فهذا ما يعطيه التدبر في معنى الآيتين.

و منه يظهر: أن الآيتين غير مختلفتين بحسب المضمون، و لا أن الآيه الأولى أعنى قوله: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ الآيه، أريد بها عين ما أريد من قوله: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ الآيه، بل الآيه الأولى تدعو إلى المقصد و الثانيه تبين كيفية السلوك.

قوله تعالى: وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ الموت من الأمور التكوينية التي هي خارجه عن حومه اختيارنا، و لذلك يكون الأمر و النهي المتعلقان به و بأمثاله أمرا و نهيا تكوينيين كقوله: «فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا»: البقره-٢٤٣، و قوله: «أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»: يس-٨٢، إلا- أنه ربما يجعل الأمر غير الاختياري مضافا إلى أمر اختياري فيتركبان بنحو و ينسب المركب إلى الاختيار فيتأتى الأمر و النهي الاعتباري حينئذ كقوله تعالى: «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»: البقره-١٤٧، و قوله: «وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ»: هود-٤٢، و قوله: «وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ»: التوبه-١١٩، و غير ذلك، فإن أصل الكون لازم تكويني للإنسان لا أثر لاختياره فيه لكنه بارتباطه بأمر اختياري كالامتراء و الكفر و التزام الصدق مثلا يعد أمرا اختياريًا فيؤمر به و ينهى عنه أمرا و نهيا مولويين.

و بالجمله النهي عن الموت إلا مع الإسلام إنما هو لمكان عدته اختياريًا و يرجع بالأخره إلى الكنايه عن لزوم التزام الإسلام في جميع الحالات حتى يقع الموت في واحده من هذه الحالات، فيكون الميت مات في حال الإسلام.

قوله تعالى: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، ذكر سبحانه فيما مر

من قوله: وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنِ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ الْآيَةِ أَنْ التَّمسِكَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ (الكتاب و السنه) اعتصام بالله مأمون معه التمسك المعتصم، مضمون له الهدى، و التمسك بذيل الرسول تمسك بذيل الكتاب فإن الكتاب هو الذى يأمر بذلك فى مثل قوله وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا: الحشر-٧.

و قد بدل فى هذه الآيه الاعتصام المندوب إليه فى تلك الآيه بالاعتصام بحبل الله فأتج ذلك أن حبل الله هو الكتاب المنزل من عند الله، و هو الذى يصل ما بين العبد و الرب و يربط السماء بالأرض، و إن شئت قلت: إن حبل الله هو القرآن و النبى ص فقد عرفت أن مآل الجميع واحد.

و القرآن و إن لم يدع إلا- إلى حق التقوى و الإسلام الثابت لكن غرض هذه الآيه غير غرض الآيه السابقه الأمره بحق التقوى و الموت على الإسلام فإن الآيه السابقه تتعرض لحكم الفرد، و هذه الآيه تتعرض لحكم الجماعه المجتمعه و الدليل عليه قوله:

« جَمِيعاً » و قوله: « وَ لَا تَفَرَّقُوا فَاآيَاتِ تَأْمُرُ الْمُجْتَمِعَ الْإِسْلَامِي بِالْإِعْتِصَامِ بِالْكِتَابِ وَ السُّنَنِ كَمَا تَأْمُرُ الْفَرْدَ بِذَلِكَ.

قوله تعالى: « وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً » جملة إِذْ كُنْتُمْ، بيان لما ذكر من النعمه، و عليه يعطف قوله: « وَ كُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا .

و الأمر بذكر هذه النعمه مبنى على ما عليه دأب القرآن أن يضع تعليمه على بيان العلل و الأسباب، و يدعو إلى الخير و الهدى من وجهه من غير أن يأمر بالتقليد العامى المعمى، و حاشا التعليم الإلهى أن يهدى الناس إلى السعاده و هى العلم النافع و العمل الصالح ثم يأمر بالوقوع فى تيه التقليد و ظلمه الجهل.

لكن يجب أن لا يشتبه الأمر و لا يختلط الحال على المتدبر الباحث، فالله سبحانه يعلم الناس حقيقه سعادتهم، و يعلم الوجه فيها ليتصروا بارتباط الحقائق بعضها ببعض، و أن الجميع فائضه من منبع التوحيد مع وجوب إسلامهم لله لأنه الله رب العالمين

و اعتصامهم بحبله لأنه حبل الله رب العالمين كما يومئ إليه ما فى آخر الآيات من قوله:

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ

،الآيتان.

و بالجمله هو أمرهم أن لا يقبلوا قولاً، و لا يطيعوا أمراً إلا عن علم بوجهه، ثم أمرهم بالتسليم المطلق لنفسه و بين وجهه أنه هو الله الذى يملكهم على الإطلاق فليس لهم إلا ما أراه فىهم و تصرف فيه منهم، و أمرهم بالطاعة المطلقة لما يبلغه رسوله و بين وجهه بأنه رسول لا شأن له إلا البلاغ، ثم يكلمهم بحقائق المعارف، و بيان طرق السعادة، و بين الوجه العام فى جميع ذلك ليهدوا إلى روابط المعارف و طرق السعادة فيتحققوا أصل التوحيد، و ليتأدبوا بهذا الأدب الإلهى فيتسلطوا على سبيل التفكير الصحيح، و يعرفوا طريق التكلم الحق فيكونوا أحياء بالعلم أحراراً من التقليد، و نتيجة ذلك أنهم لو عرفوا وجه الأمر فى شىء من المعارف الثابتة الدينيه أو ما يلحق بها أخذوا به، و لو لم يعرفوا وقفوا عن الرد و رجعوا نيلاً بالبحث و التدبر من غير رد أو اعتراض بعد ثبوته.

و هذا غير أن يقال: إن الدين موضوع على أن لا يقبل شىء حتى من الله و رسوله إلا عن دليل فإن ذلك من أسفه الرأى و أردإ القول، و مرجعه إلى أن الله يريد من عباده أن يطالبوا الدليل بعد وجوده فإن ربوبيته و ملكه أصل كل دليل على وجوب التسليم و نفوذ الحكم. و رساله رسوله هو الدليل على أن ما يؤديه عن الله سبحانه فافهم ذلك، أو مرجعه إلى إلغاء ربوبيته فيما يتصرف فيه بربوبيته و ليس إلا-التناقض، و الحاصل أن المسلك الإسلامى و الطريق النبوى ليس إلا الدعوه إلى العلم دون التقليد على ما يزعمه هؤلاء المقلده المتسمون بالناقدين.

و لعل الوجه فى ذكر أن هذا المذكور نعمه (نِعَمَتُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) هو الإشاره إلى ما ذكرناه أى إن الدليل على ما ندبناكم إليه من الاتحاد و الاجتماع هو ما شاهدتموه من مراره العداوه و حلاوه المحبه و الألفه و الأخوه و الإشراف على حفره النار و التخلص منها، و إنما نذكركم بهذا الدليل لا- لأن علينا أن نؤيد قولنا بما لولاه لم يكن حقاً فإنما قولنا حق سواء دللنا عليه أو لا، بل لأن تعلموا أن ذلك نعمه منا عليكم فتعرفوا أن فى هذا الاجتماع كسائر ما ندبكم إليه سعادتكم و راحتكم و مفازتكم.

و ما ذكره تعالى من الدليلين أحدهما و هو قوله: إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً، مبتن على أصل

التجربه، و الثانى و هو قوله: وَ كُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرِهِ، على طريقه البيان العقلى كما هو ظاهر.

و فى قوله: فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا تكرر للامتنان الذى يدل عليه قوله:

وَ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

، و المراد بالنعمة هو التأليف فالمراد بالأخوه التى توجد و تحققه هذه النعمة أيضا تألف القلوب فالأخوه هاهنا حقيقه ادعائه.

و يمكن أن يكون إشاره إلى ما يشتمل عليه قوله: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» X الآية X: الحجرات-١٠، من تشريع الأخوه بينهم فإن بين المؤمنين أخوه مشرعه تتعلق بها حقوق هامه.

قوله تعالى: وَ كُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرِهِ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا، شفا الحفره طرفها الذى يشرف على السقوط فيها من كان به.

و المراد من النار إن كان نار الآخره فالمراد بكونهم على شفا حفرتها أنهم كانوا كافرين ليس بينهم و بين الوقوع فيها إلا الموت الذى هو أقرب إلى الإنسان من سواد العين إلى بياضها فأنقذهم الله منها بالإيمان.

و إن كان المراد بيان حالهم فى مجتمعهم الفاسد الذى كانوا فيه قبل إيمانهم و تألف قلوبهم، و كان المراد بالنار هى الحروب و المنازعات- و هو من الاستعمالات الشائعه بطريق الاستعاره- فالمراد أن المجتمع الذى بنى على تشتت القلوب و اختلاف المقاصد و الأهواء، و لا محاله لا يسير مثل هذا المجتمع بدليل واحد يهديهم إلى غايه واحده بل بأدله شتى تختلف باختلاف الميول الشخصيه و التحكمات الفرديه اللاغيه التى تهديهم إلى أشد الخلاف و الاختلاف- يشرفهم إلى أردإ التنازع، و يهددهم دائما بالقتال و النزال، و يعددهم الفناء و الزوال، و هى النار التى لا- تبقى و لا- تذر على حفره الجهاله التى لا منجا و لا مخلص للساقط فيها.

فهؤلاء هم طائفه من المسلمين كانوا آمنوا قبل نزول الآيه بعد كفرهم، و هم المخاطبون الأقربون بهذه الآيات لم يكونوا يعيشون مدى حياتهم قبل الإسلام إلا- فى حال تهددهم الحروب و المقاتلات أنا بعد آن، فلا أمن و لا راحه و لا فراغ، و لم يكونوا يفقهون ما حقيقه الأمن العام الذى يعم المجتمع بجميع جهاتها من جاه و مال و عرض و نفس و غير ذلك.

ثم لما اجتمعوا على الاعتصام بحبل الله، ولاحث لهم آيات السعادة، وذاقوا شيئاً من حلاوه النعم وجدوا صدق ما يذكرهم به الله من هنيء النعمة و لذيذ السعادة فكان الخطاب أوقع في نفوسهم و نفوس غيرهم.

و لذلك بنى الكلام و وضعت الدعوه على أساس المشاهده و الوجدان دون مجرد التقدير و الفرض فليس العيان كالبيان، و لا التجارب كالفرض و التقدير، و لذلك بعينه أشار في التحذير الآتى في قوله: **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا «إِلَٰخ» إِلَىٰ حَالٍ مِّن قَبْلِهِمْ فَإِن مَّآل حَالِهِمْ بِمَرَأَىٰ و مسمع من المؤمنين فعليهم أن يعتبروا بهم و بما آل إليه أمرهم فلا يجروا مجراهم و لا يسلكوا مسلكهم.**

ثم نبههم الله على خصوصيه هذا البيان فقال: **كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .**

قوله تعالى: **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَايَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَايَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ «إِلَٰخ»**، التجربه القطعيه تدل على أن المعلومات التى يهيئها الإنسان لنفسه فى حياته- و لا يهيئ و لا يدخر لنفسه إلا ما ينتفع به- من أى طريق هيأها و بأى وجه ادخرها تزول عنه إذا لم يذكرها و لم يدم على تكرارها بالعمل، و لا نشك أن العمل فى جميع شئونه يدور مدار العلم يقوى بقوته، و يضعف بضعفه و يصلح بصلاحه، و يفسد بفساده، و قد مثل الله سبحانه حالهما فى قوله: **«الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ لِبَاتِهِ بَاذِنِ رَبِّهِ وَاَلَّذِي خَبَثَ لَآ يَخْرِجُ إِلَّا نَكَدًا، X «X الآيه X: الأعراف- ٥٨.**

و لا نشك أن العلم و العمل متعاكسان فى التأثير فالعلم أقوى داع إلى العمل و العمل الواقع المشهود أقوى معلم يعلم الإنسان.

و هذا الذى ذكر هو الذى يدعو المجتمع الصالح الذى عندهم العلم النافع و العمل الصالح أن يتحفظوا على معرفتهم و ثقافتهم، و أن يردوا المتخلف عن طريق الخير المعروف عندهم إليه، و أن لا- يدعوا المائل عن طريق الخير المعروف و هو الواقع فى مهبط الشر المنكر عندهم أن يقع فى مهلكه الشر و ينهوه عنه.

و هذه هى الدعوه بالتعليم و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و هى التى يذكرها الله فى هذه الآيه بقوله: **يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَايَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَايَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .**

و من هنا يظهر السر في تعبيره تعالى عن الخير و الشر بالمعروف و المنكر فإن الكلام مبني على ما في الآية السابقة من قوله: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا إِيَّاهُ.

و من المعلوم أن المجتمع الذي هذا شأنه يكون المعروف فيه هو الخير، و المنكر فيه هو الشر، و لو لا- العبره بهذه النكته لكان الوجه في تسميه الخير و الشر بالمعروف و المنكر كون الخير و الشر معروفًا و منكراً بحسب نظر الدين لا- بحسب العمل الخارجي.

و أما قوله: «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ، فَقَدْ قِيلَ: «إِنْ» مِنَ التَّبَعِيضِ بِنَاءٍ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ كَذَا الدَّعْوَى مِنَ الْوَاجِبَاتِ الْكِفَائِيَةِ.

و ربما قيل: إن «من» بيانيه و المراد منه و لتكونوا بهذا الاجتماع الصالح أمه يدعون إلى الخير فيجري الكلام على هذا مجرى قولنا: ليكن لي منك صديق أي كن صديقاً لي. و الظاهر أن المراد بكون «من» بيانيه كونها نشؤيه ابتدائية.

و الذي ينبغي أن يقال: أن البحث في كون من تبعيضيه أو بيانيه لا يرجع إلى ثمره محصله فإن الدعوه و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر أمور لو وجبت لكانت بحسب طبعها واجبات كفائيه إذ لا- معنى للدعوه و الأمر و النهي المذكورات بعد حصول الغرض فلو فرضت الأمة بأجمعهم داعيه إلى الخير أمره بالمعروف ناهيه عن المنكر كان معناه أن فيهم من يقوم بهذه الوظائف فالأمر قائم ببعض على أي حال، و الخطاب إن كان للبعض فهو ذاك، و إن كان للكل كان أيضاً باعتبار البعض، و بعبارة أخرى المسئول بها الكل و المثاب بها البعض، و لذلك عقبه بقوله: وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ فالظاهر أن من تبعيضيه، و هو الظاهر من مثل هذا التركيب في لسان المحاورين و لا يصار إلى غيره إلا بدليل.

و اعلم أن هذه الموضوعات الثلاثة أعنى الدعوه و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ذوات أبحاث تفسيريه طويله عميقه ستعرض لها في موضع آخر يناسبها إن شاء الله تعالى.

و كذا ما يتعلق بها من الأبحاث العلميه و النفسيه و الاجتماعيه.

قوله تعالى: وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ .

لا- يبعد أن يكون قوله: مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ متعلقاً بقوله: وَ اخْتَلَفُوا فقط و حينئذ كان المراد بالاختلاف التفرق من حيث الاعتقاد و بالتفرق الاختلاف و التشتت

من حيث الأبدان و قدم التفرق على الاختلاف لأنه كالمقدمه المؤديه إليه لأن القوم مهما كانوا مجتمعين متواصلين اتصلت عقائد بعضهم ببعض و اتحدت بالتماس و التفاعل، و حفظهم ذلك من الاختلاف فإذا تفرقوا و انقطع بعضهم عن بعض أدهم ذلك إلى اختلاف المشارب و المسالك، و لم يلبثوا دون أن يستقل أفكارهم و آراؤهم بعضها عن بعض، و برز فيهم الفرقة، و انشق عصا الوحده فكأنه تعالى يقول: و لا تكونوا كالذين تفرقوا بالأبدان أولاً، و خرجوا من الجماعه، و أفضاهم ذلك إلى اختلاف العقائد و الآراء أخيراً.

و قد نسب تعالى هذا الاختلاف في موارد من كلامه إلى البغى. قال تعالى:

«وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ»: البقره- ٢١٣، مع أن ظهور الاختلاف في العقائد و الآراء ضرورى بين الأفراد لاختلاف الأفهام لكن كما أن ظهور هذا الاختلاف ضرورى كذلك دفع الاجتماع لذلك، و رده المختلفين إلى ساحة الاتحاد أيضا ضرورى فرفع الاختلاف ممكن مقدور بالواسطه، و إعراض الأمه عن ذلك بغى منهم، و إلقاء لأنفسهم في تهلكه الاختلاف.

و قد أكد القرآن الدعوه إلى الاتحاد، و بالغ في النهى عن الاختلاف، و ليس ذلك إلا لما كان يتفرس من أمر هذه الأمه، أنهم سيختلفون كالذين من قبلهم بل يزيدون عليهم في ذلك، و قد تقدم مرارا أن من دأب القرآن أنه إذا بالغ في التحذير عن شىء و النهى عن اقترافه كان ذلك آيه و وقوعه و ارتكابه، و هذا أمر أخبر به النبي ص أيضا كما أخبر به القرآن، و أن الاختلاف سيدب في أمته ثم يظهر في صوره الفرق المتنوعه، و أن أمته ستختلف كما اختلفت اليهود و النصارى من قبل و سيجىء الروايه في البحث الروائى.

و قد صدق جريان الحوادث هذه الملحمه القرآنيه فلم تلبث الأمه بعد رسول الله ص دون أن تفرقوا شذر مدر، و اختلفوا في مذاهب شتى بعضهم يكفر بعضا من لدن عصر الصحابه إلى يومنا هذا، و كلما رام أحد أن يوفق بين مختلفين منها أولد ذلك مذهبا ثالثا.

و الذى يهدينا إليه البحث بالتحليل و التجزيه أن أصل هذا الاختلاف ينتهى إلى المنافقين الذين يغلط القرآن القول فيهم و عليهم و يستعظم مكرهم و كيدهم فإنك لو

تدبرت ما يذكره الله تعالى في حقهم في سور البقره و التوبه و الأحزاب و المنافقين و غيرها لرأيت عجبا، و كان هذا حالهم في عهد رسول الله ص و لما ينقطع الوحي ثم لما توفاه الله غاب ذكرهم و سكنت أجراسهم دفعه.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا

أنيس و لم يسمر بمكه سامر

و لم يلبث الناس دون أن وجدوا أنفسهم و قد تفرقوا أيادي سببا، و باعدت بينهم شتى المذاهب، و استعبدتهم حكومات التحكم و الاستبداد، و أبدلوا سعادته الحيوه بشقاء الضلال و الغي. و الله المستعان، و المرجو من فضل الله أن يوفقنا لاستيفاء هذا البحث في تفسير سورة البراءه إن شاء الله.

قوله تعالى: **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ**، لما كان المقام مقام الكفر بالنعمة و هو نظير الخيانه مما يوجب حسه الانفعال و الخجل ذكر سبحانه من بين أنواع عذاب الآخرة ما يناسبها بحسب التمثيل و هو سواد الوجه الذي يكنى به في الدنيا عن الانفعال و الخجل و نحوهما كما يشعر أو يدل على ذلك قوله تعالى: **فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** .

و كذا ذكر من ثواب الشاكرين لهذه النعمة ما يناسب الشكر و هو بياض الوجه الممكنى به في الدنيا عن الارتضاء و الرضا.

قوله تعالى: **تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ**، الظرف متعلق بقوله: **تَنْلُوهَا**، و المراد كون التلاوه تلاوه حق من غير أن يكون باطلا شيطانيا، أو متعلق بالآيات باستشمام معنى الوصف فيه أو مستقر متعلق بمقدر، و المعنى أن هذه الآيات الكاشفه عن ما يصنع الله بالطائفتين: الكافرين و الشاكرين مصاحبه للحق من غير أن تجرى على نحو الباطل و الظلم، و هذا الوجه أوفق لما يتعقبه من قوله: **وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا** .

قوله تعالى: **وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ**، تنكير الظلم و هو في سياق النفي يفيد الاستغراق، و ظاهر قوله: **لِلْعَالَمِينَ** و هو جمع محلى باللام أن يفيد الاستغراق، و المعنى على هذا أن الله لا يريد ظلما أى ظلم فرض لجميع العالمين، و كافه الجماعات، و هو كذلك فإنما التفرق بين الناس أمر يعود أثره المشؤم إلى جميع العالمين و كافه الناس.

قوله تعالى: **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**، لما ذكر أن

الله لا يريد الظلم علل ذلك بما يزول معه توهم صدور الظلم فذكر أن الله تعالى يملك جميع الأشياء من جميع الجهات فله أن يتصرف فيها كيف يشاء فلا يتصور في حقه التصرف فيما لا يملكه حتى يكون ظلما و تعديا.

على أن الشخص إنما ينحو الظلم إذا كان له حاجة لا يتمكن من رفعها إلا بالتعدي على ما لا يملكه، والله الغنى الذى له ما فى السماوات و الأرض هذا ما قرره بعضهم لكنه لا يلائم ظاهر الآيه فإن هذا الجواب يبتنى بالحقيقه على غناه تعالى دون ملكه، و المذكور فى الآيه هو الملك دون الغنى، و كيف كان فملكه دليل أنه تعالى ليس بظالم.

و هناك دليل آخر و هو أن مرجع جميع الأمور أيا ما كانت إليه تعالى فليس لغيره تعالى من الأمر شىء حتى يسلبه الله عنه و ينتزعه من يده و يجرى فيه إرادته نفسه فيكون بذلك ظالما، و هذا هو الذى يشير إليه قوله: **وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**.

و الوجهان كما ترى متلازمان أحدهما مبنى على أن كل شىء له تعالى و الثانى مبنى على أن شيئا من الأمور ليس لغيره تعالى.

قوله تعالى: **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**، المراد بإخراج الأمم للناس (و الله أعلم) إظهارها لهم، و مزيه هذه اللفظه (الإخراج) أن فيها إشعارا بالحدوث و التكون قال تعالى: **«الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى»**: الأعلى-٤، و الخطاب للمؤمنين فيكون قرينه على أن المراد بالناس عامه البشر و الفعل أعنى قوله: **كُنْتُمْ** منسلخ عن الزمان-على ما قيل-و الأمة إنما تطلق على الجماعة و الفرد لكونهم ذوى هدف و مقصد يؤمرونه و يقصدونه، و ذكر الإيمان بالله بعد الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر من قبيل ذكر الكل بعد الجزء أو الأصل بعد الفرع.

فمعنى الآيه أنكم معاشر المسلمين خير أمه أظهرها الله للناس بهدايتها لأنكم على الجماعة تؤمنون بالله و تأتون بفرىضتى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و من المعلوم أن انبساط هذا التشريف على جميع الأمم لكون البعض متصفين بحقيقه الإيمان و القيام بحق الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر هذا محصل ما ذكره فى المقام.

و الظاهر (و الله أعلم) أن قوله: **كُنْتُمْ** غير منسلخ عن الزمان و الآيه تمدح حال

المؤمنين في أول ظهور الإسلام من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والمراد بالإيمان هو الإيمان بدعوه الاجتماع على الاعتصام بحبل الله و عدم التفرق فيه في مقابل الكفر به على ما يدل عليه قوله قبل: أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمُ الْآيَةَ، وكذا المراد بإيمان أهل الكتاب ذلك أيضا فيقول المعنى إلى أنكم معاشر أمه الإسلام كنتم في أول ما تكونتم وظهرتم للناس خير أمه ظهرت لكونكم تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تعتصمون بحبل الله متفقين متحدين كنفس واحده، ولو كان أهل الكتاب على هذا الوصف أيضا لكان خيرا لهم لكنهم اختلفوا منهم أمه مؤمنون و أكثرهم فاسقون.

و اعلم أن في الآيات موارد من التفات من الغيبه إلى الخطاب و من خطاب الجمع إلى خطاب المفرد و بالعكس، و فيها موارد من وضع الظاهر موضع الضمير كتكرر لفظ الجلاله في عدة مواضع، و النكته في الجميع ظاهره للمتأمل.

(بحث روائي)

في المعاني، و تفسير العياشي، عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز و جل: **إِتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ** - قال يطاع فلا يعصى، و يذكر فلا ينسى، و يشكر فلا يكفر.

و في الدر المنثور، أخرج الحاكم و ابن مردويه من وجه آخر عن ابن مسعود قال:

قال رسول الله ص:

إِتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ

- أن يطاع فلا يعصى، و يذكر فلا ينسى.

و فيه، أخرج الخطيب عن أنس قال: قال رسول الله ص: لا يتقى الله عبد حق تقاته حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، و ما أخطأه لم يكن ليصيبه.

أقول: قد مر في البيان المتقدم كيفية استفاده معنى الحديثين الأولين من الآية، و أما الحديث الثالث فإنما هو تفسير بلازم المعنى، و هو ظاهر.

و في تفسير البرهان، عن ابن شهر آشوب عن تفسير و كيع، عن عبد خير قال:

سألت علي بن أبي طالب عن قوله: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ** قال: و الله ما عمل بها غير بيت رسول الله - نحن ذكرناه فلا ننسأه، و نحن شكرناه فلن نكفره، و نحن أظعنناه فلم نعصه. فلما نزلت هذه الآية قال الصحابه - لا نطبق ذلك فأنزل الله:

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ - قال وكيع: ما أطقتم الحديث.

و في تفسير العياشى، عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله: - [□] [□] اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، قال: منسوخه، قلت و ما نسختها؟ قال: قول الله: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .

أقول: و يستفاد من روايه وكيع أن المراد بالنسخ في روايه العياشى بيان مراتب التقوى، و أما النسخ بمعناه المصطلح كما نقل عن بعض المفسرين فهو معنى يرده ظاهر الكتاب.

و في المجمع، عن الصادق (ع): في الآية: و أنتم مسلمون بالتشديد.

و في الدر المنثور: في قوله تعالى: [□] وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً الآية: أخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير عن أبي سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ص: كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض.

و فيه، أخرج ابن أبي شيبة عن أبي شريح الخزاعى قال: قال رسول الله ص:

إن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله، و طرفه بأيديكم فتمسكوا به - فإنكم لن تزالوا و لن تضلوا بعده أبدا.

و في المعانى، عن السجاد (ع) في حديث: و حبل الله هو القرآن.

أقول: و في هذا المعنى روايات أخرى من طرق الفريقين.

و في تفسير العياشى، عن الباقر (ع): آل محمد هم حبل الله الذى أمر بالاعتصام به فقال: - [□] [□] وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لَا تَفَرُّقُوا .

أقول: و في هذا المعنى روايات أخرى، و قد تقدم فى البيان ما يتأيد به معناها، و يؤيدها أيضا ما يأتى من الروايات.

و في الدر المنثور، أخرج الطبرانى عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ص:

إنى لكم فرط، و إنكم واردون على الحوض - فانظروا كيف تخلفونى فى الثقلين؟ قيل:

و ما الثقلان يا رسول الله؟ قال: الأكبر كتاب الله عز و جل سبب طرفه بيد الله، و طرفه بأيديكم فتمسكوا به لن تزالوا و لن تضلوا، و الأصغر عترتى، و إنهما لن يفترقا

حتى يردا على الحوض. و سألت لهما ذاك ربي فلا تقدموهما فتهلكوا، و لا تعلموهما فإنهما أعلم منكم.

أقول: و حديث الثقلين من المتواترات التي أجمع على روايتها الفريقان، و قد تقدم في أول السوره أن بعض علماء الحديث أنهى رواته من الصحابه إلى خمس و ثلاثين راويا من الرجال و النساء، و قد رواه عنهم جم غفير من الرواه و أهل الحديث.

و في الدر المنثور، أيضا أخرج ابن ماجه و ابن جرير و ابن أبي حاتم عن، أنس قال: قال رسول الله ص: افتقرت بنو إسرائيل على إحدى و سبعين فرقه، و إن أمتي ستفترق على اثنتين و سبعين فرقه - كلهم في النار إلا - واحده - قالوا: يا رسول الله و من هذه الواحده؟ قال: الجماعة، ثم قال: - اِعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا :

أقول: و الروايه أيضا من المشهورات، و قد روتها الشيعة بنحو آخر كما في الخصال، و المعاني، و الاحتجاج، و الأمالي، و كتاب سليم بن قيس، و تفسير العياشي، و اللفظ كما في الخصال، بإسناده إلى سليمان بن مهران عن جعفر بن محمد عن آبائه عن أمير المؤمنين ((ع)) قال: سمعت رسول الله ص يقول: إن أمه موسى افتقرت بعده على إحدى و سبعين فرقه، فرقه منها ناجيه، و سبعون في النار، و افتقرت أمه عيسى بعده على اثنتين و سبعين فرقه، فرقه منها ناجيه، و إحدى و سبعون في النار، و إن أمتي ستفترق بعدى على ثلاث و سبعين فرقه، فرقه منها ناجيه، و اثنتان و سبعون في النار.

أقول: و هي الموافقه لما يأتي.

و في الدر المنثور، أخرج أبو داود و الترمذي و ابن ماجه و الحاكم و صححه عن أبي هريره، قال: قال رسول الله (ع): افتقرت اليهود على إحدى و سبعين فرقه، و تفرقت النصارى على اثنتين و سبعين فرقه، و تفترق أمتي على ثلاث و سبعين فرقه.

أقول: و هذا المعنى مروى بطرق أخرى عن معاويه و غيره.

و فيه، أخرج الحاكم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ص: يأتي على أمتي ما أتى على بني إسرائيل - حذو النعل بالنعل - حتى لو كان فيهم من نكح أمه علانيه كان في أمتي مثله - إن بني إسرائيل افترقوا على إحدى و سبعين مله، و تفترق أمتي على

ثلاث و سبعين مله، كلها فى النار إلا مله واحده، فقيل له: ما الواحده؟ قال: ما أنا عليه اليوم و أصحابى).

أقول و عن جامع الأصول، لابن الأثير عن الترمذى عن ابن عمرو بن العاص عن النبى ص: مثله

و فى كمال الدين، بإسناده عن غياث بن إبراهيم عن الصادق عن آباءه (ع) قال: قال رسول الله ص: كل ما كان فى الأمم السالفه فإنه يكون فى هذه الأمة - مثله حذو النعل بالنعل، و القذه بالقذه.

و فى تفسير القمى، عن النبى ص: لتركبن سنه من كان قبلكم حذو النعل بالنعل، و القذه بالقذه، لا - تخطئون طريقهم - و لا يخطأ، شبر بشبر، و ذراع بذراع، و باع بباع، حتى أن لو كان من قبلكم دخل جحر ضب لدخلموه، قالوا: اليهود و النصارى تعنى يا رسول الله؟ قال: فمن أعنى؟ لتقضن عرى الإسلام عروه عروه - فيكون أول ما تنقضون من دينكم الأمانه، و آخره الصلوه.

و عن جامع الأصول، فيما استخرجه من الصحاح، و عن صحيح الترمذى، عن النبى ص أنه قال: و الذى نفسى بيده لتركبن سنن من كان قبلكم (و زاد رزين) حذو النعل بالنعل و القذه بالقذه - حتى إن كان فيهم من أتى أمه يكون فيكم - فلا أدرى أ تعبدون العجل أم لا؟.

أقول: و هذه الروايه أيضا من المشهورات، رواها أهل السنه فى صحاحهم و غيرهم، و روتها الشيعة فى جوامعهم.

و فى الصحيحين، عن أنس: أن رسول الله ص قال: ليردن على الحوض رجال ممن صاحبنى - حتى إذا رفعوا اختلجوا دونى، فلاقولن: أى رب أصحابى - فليقالن إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك.

و فى الصحيحين، أيضا عن أبى هريره أن رسول الله ص قال: يرد على يوم القيامة رهط من أصحابى - أو قال من أمتى - فيحلتون عن الحوض فأقول: يا رب أصحابى فيقول: لا علم لك بما أحدثوا بعدك - ارتدوا على أعقابهم القهقرى فيحلتون.

أقول: و هذا الحديث أيضا من المشهورات، رواها الفريقان فى صحاحهم

و جوامعهم عن عده من الصحابه كابن مسعود و أنس و سهل بن ساعد و أبي هريره و أبي سعيد الخدرى و عائشه و أم سلمه و أسماء بنت أبي بكر و غيرهم و عن بعض أئمه أهل البيت(ع).

و الروايات على كثرتها و تفننها تصدق ما استفدناه من ظاهر الآيات الكريمة، و توالى الحوادث و الفتن يصدق الروايات.

و فى الدر المنثور، أخرج الحاكم و صححه عن ابن عمر أن رسول الله ص قال:

من خرج من الجماعه قيد شبر-فقد خلع ربه الإسلام من عنقه حتى يراجعه، و من مات و ليس عليه إمام جماعه فإن موته ميتة جاهليه.

أقول: و الروايه أيضا من المشهورات مضمونا،

و قد روى الفريقان عنه(ص) أنه قال: من مات و لم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليه.

و عن جامع الأصول، من الترمذى و سنن أبي داود عن النبي ص: لا تزال طائفه من أمتى على الحق.

و فى المجمع: فى قوله تعالى:- أ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ الْآيَه: عن أمير المؤمنين(ع):

هم أهل البدع و الأهواء و الآراء الباطله من هذه الأمه.

و فيه، و فى تفسير العياشى: فى قوله تعالى:- كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ الْآيَه: □

عن أبي عمرو الزبيرى عن الصادق(ع) قال: يعنى الأمه التى وجبت لها دعوه إبراهيم، و هم الأمه التى بعث الله فيها و منها و إليها، و هم الأمه الوسطى، و هم خير أمه أخرجت للناس.

أقول: و قد مر الكلام فى توضيح معنى الروايه فى تفسير قوله تعالى: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ» :البقره-١٢٨.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر:

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ □

قال: أهل بيت النبي ص.

و فيه، أخرج أحمد بسند حسن عن على، قال: قال رسول الله ص: أعطيت ما لم

يعط أحد من الأنبياء نصرت بالرعب، و أعطيت مفاتيح الأرض، و سميت أحمد، و جعل التراب لى طهورا، و جعلت أمتى خير الأمم

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١١١ الى ١٢٠]

اشاره

لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدَىٰ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوْكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ (١١١) ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّهْنُ أَيَّنَ مَا تُقْفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلِ مِنَ الدَّاسِ وَ بِأَوْ بَغْضَبِ مِنَ اللَّهِ وَ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسِيكَةَ ذَلِكُكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْتَجِدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يُؤْمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ أَوْلَيْكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَ مَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ وَ مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَ دُوا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَ مَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَ لَا يُحِبُّونَكُمْ وَ تُوْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَ إِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَ إِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنْامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمَسَسْتُمْ بِكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تَصَبَّ بِكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَ إِنْ تَصَبَّرُوا وَ تَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنْ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

الآيات الكريمة- كما ترى- تنعطف إلى ما كان الكلام فيه قبل من التعرض لحال أهل الكتاب و خاصة اليهود في كفرهم بآيات الله و إغوائهم أنفسهم، و صداهم المؤمنين عن سبيل الله، و إنما كانت الآيات العشر المتقدمة من قبيل الكلام في طي الكلام، فاتصال الآيات على حاله.

قوله تعالى: لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَىٰ «إلخ» الأذى ما يصل إلى الحيوان من الضرر: إما في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيويا كان أو أخرويا على ما ذكره الراغب مفردات القرآن.

قوله تعالى: ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيَّنَ مَا تُقْفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ، الذلّه بناء نوع من الذل، و الذل بالضم ما كان عن قهر، و بالكسر ما كان عن تصعب و شماس على ما ذكره الراغب، و معناه العام حال الانكسار و المطاوعه، و يقابله العز و هو الامتناع.

و قوله: تُقْفُوا أَي وجدوا، و الحبل السبب الذي يوجب التمسك به العصمه، و قد أستعير لكل ما يوجب نوعا من الأمن و العصمه و الوقايه كالعهد و الذمه و الأمان، و المراد(و الله أعلم): أن الذله مضروبه عليهم كضرب السكه على الفاز أو كضرب

الخيمه على الإنسان فهم مكتوب عليهم أو مسلط عليهم الذله إلا بحبل و سبب من الله، و حبل و سبب من الناس.

و قد كرر لفظ الحبل بإضافته إلى الله و إلى الناس لاختلاف المعنى بالإضافة فإنه من الله القضاء و الحكم تكويناً أو تشريعاً، و من الناس البناء و العمل.

و المراد بضرب الذله عليهم القضاء التشريعي بذلتهم، و الدليل على ذلك قوله:

أَيْنَ مَا تُقِفُوا

فإن ظاهر معناه أينما وجدهم المؤمنون أى تسلطوا عليهم، و هو إنما يناسب الذله التشريعيه التى من آثارها الجزية.

فيثول معنى الآية إلى أنهم أذلاء بحسب حكم الشرع الإسلامى إلا أن يدخلوا تحت الذمه أو أمان من الناس بنحو من الأنحاء.

و ظاهر بعض المفسرين أن قوله: ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ، ليس فى مقام تشريع الحكم بل إخبار عن ما جرى عليه أمرهم بقضاء من الله و قدر فإن الإسلام أدرك اليهود و هم يؤدون الجزية إلى المجوس، و بعض شعبهم كانوا تحت سلطه النصارى.

و هذا المعنى لا بأس به و ربما أيده ذيل الكلام إلى آخر الآية فإنه ظاهر فى أن السبب فى ضرب الذله و المسكنه عليهم ما كسبته أيديهم من الكفر بآيات الله، و قتل الأنبياء، و الاعتداء المستمر إلا أن لازم هذا المعنى اختصاص الكلام فى الآية باليهود و لا مخصص ظاهراً، و سيجىء فى ذلك كلام فى تفسير قوله تعالى: «وَأَلْفَيْنا بَيْنَهُمُ الْعُدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ»: المائدة-٦٤.

قوله تعالى: وَبِأَوْ بَغْضِبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ، باءوا أى اتخذوا مباءه و مكاناً، أو رجعوا، و المسكنه أشد الفقر، و الظاهر أن المسكنه أن لا يجد الإنسان سيلاً إلى النجاه و الخلاص عما يهدده من فقر أو أى عدم، و على هذا فيتلاءم معنى الآية صدراً و ذيلاً.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ، و المعنى أنهم عصوا و كانوا قبل ذلك يستمرون على الاعتداء.

قوله تعالى: لَيْسُوا سَوَاءً - إلى قوله: -بِالْمُتَّقِينَ السَّوَاءَ مصدر أريد به معنى

الوصف أى ليسوا مستوين فى الوصف و الحكم فإن منهم أمه قائمه يتلون آيات الله «إلخ»، و من هنا يظهر أن قوله: مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ «إلخ» فى مقام التعليل يبين به وجه عدم استواء أهل الكتاب.

و قد اختلف فى قوله: قَائِمَةٌ فَقِيلَ: أى ثابتة على أمر الله، و قيل: أى عادله، و قيل: أى ذو أمه قائمه أى ذو طريقه مستقيمه، و الحق أن اللفظ مطلق يحتمل الجميع غير أن ذكر الكتاب و ذكر أعمالهم الصالحة يعين أن المراد هو القيام على الإيمان و الطاعة.

و الآن جمع إنى بكسر الهمزة أو فتحها، و قيل: إنو و هو الوقت.

و المسارعة المبادره و هى مفاعله من السرعة قال فى المجمع: و الفرق بين السرعة و العجلة أن السرعة هى التقدم فيما يجوز أن يتقدم فيه، و هى محموده و ضدها الإبطاء، و هو مذموم، و العجلة هى التقدم فيما لا ينبغى أن يتقدم فيه و هى مذمومه، و ضدها الأناة و هى محموده، انتهى، و الظاهر أن السرعة فى الأصل وصف للحركة، و العجلة وصف للمتحرك.

و الخيرات مطلق الأعمال الصالحة من عباده أو إنفاق أو عدل أو قضاء حاجه، و هو جمع محلى باللام، و معناه الاستغراق، و يكثر إطلاقه على الخيرات المالىه كما أن الخير يكثر إطلاقه على المال.

و قد عد الله سبحانه لهم جمل مهمات الصالحات، و هى الإيمان، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و المسارعة فى كل خير، ثم وصفهم بأنهم صالحون فهم أهل الصراط المستقيم و زملاء النبيين و الصديقين و الشهداء لقوله تعالى: «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ»: الحمد-7، و قوله تعالى:

«فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصُّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ» X الآيه X: لنساء-69، قيل: المراد بهؤلاء الممدوحين عبد الله بن سلام و أصحابه.

قوله تعالى: وَ مَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ، من الكفران مقابل الشكر أى يشكر الله لهم فيرده إليهم من غير ضيعه كما قال تعالى: «وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ

شَاكِرٌ عَلِيمٌ» :البقره-١٥٨، وقال: «وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ -X إلى أن قال X- وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظَلِّمُونَ» :البقره-٢٧٢.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ، ظاهر وحده السياق أن المراد بهؤلاء، الَّذِينَ كَفَرُوا هم الطائفه الأخرى من أهل الكتاب الذين لم يستجيبوا دعوه النبوه، وكانوا يوطئون على الإسلام، ولا يألون جهدا في إطفاء نوره.

و ربما قيل: إن الآية ناظره إلى حال المشركين فتكون التوطئه لما سيشير إليه من قصه أحد لكن لا يلائمه ما سيأتى من قوله: وَ تُوْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا «إلخ» فإن ذلك بيان لحال اليهود مع المسلمين دون حال المشركين، و من هناك يظهر أن اتصال السياق لم ينقطع بعد.

و ربما جمع بعض المفسرين بين حمل هذه الآية على المشركين و حمل تلك على اليهود، و هو خطأ.

قوله تعالى: مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الآية الصر البرد الشديد، و إنما قيد الممثل بقوله: فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ليدل على أنهم منقطعون عن الدار الآخرة فلا يتعلق إنفاقهم إلا بهذه الحيوه، و قيد حرث القوم بقوله: ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ليحسن ارتباطه بقوله بعده: وَ مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ .

و محصل الكلام أن إنفاقهم فى هذه الحيوه و هم يريدون به إصلاح شأنهم و نيل مقاصدهم الفاسده لا يثمر لهم إلا الشقاء، و فساد ما يريدونه و يحسبونه سعادته لأنفسهم كالريح التى فيها صر تهلك حرث الظالمين، و ليس ذلك إلا ظلما منهم لأنفسهم فإن العمل الفاسد لا يأتى إلا بالأثر الفاسد.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونِكُمْ الآية سميت الوليجه بطانه و هى ما يلى البدن من الثوب و هى خلاف الظهاره لكونها تطلع على باطن الإنسان و ما يضمه و يستسره، و قوله: لَا يَأْلُونَكُمْ أَى لا يقصرون فيكم، و قوله: خَبَالًا أَى شرا و فسادا، و منه الخبل للجنون لأنه فساد العقل، و قوله: وَدُّوا مَا عَتَّتُمْ، ما مصدرية أى ودوا و أحبوا عنتكم و شده ضرركم، و قوله: قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ أريد به ظهور البغضاء و العداوه من لحن قولهم و فلتات لسانهم ففيه استعاره

لطيفه و كنايه، و لم يبين ما فى صدورهم بل أبهم قوله: **وَ مَا تُخْفَىٰ صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ لِلْإِيمَاءِ إِلَىٰ أَنَّهُ لَا يُوصَفُ لِنُوعِهِ وَ عَظَمَتِهِ وَ** به يتأكد قوله: **أَكْبَرُ** .

قوله تعالى: **هَآ أَنتُمْ أَولَاءِ تُحِبُّونَهُمُ الْآيَةَ، الظاهر أن أولاء اسم إشاره و لفظه ها للتبيه، و قد تخلل لفظه أنتم بين ها و أولاء، و المعنى أنتم هؤلاء على حد قولهم:**

زيد هذا و هند هذه كذا و كذا.

و قوله: **وَ تُوْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ، اللام للجنس أى و أنتم تؤمنون بجميع الكتب السماويه النازله من عند الله: كتابهم و كتابكم، و هم لا يؤمنون بكتابكم، و قوله، وَ إِذَا لَقُّوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا، أى إنهم منافقون، و قوله: وَ إِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ الْعَضُّ** هو الأخذ بالأسنان مع ضغط، و الأنامل جمع أنمله و هى طرف الإصبع. و الغيظ هو الحنق، و عض الأنامل على شىء مثل يضرب للتحسر و التأسف غضبا و حنقا.

و قوله: **قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ** دعاء عليهم فى صورته الأمر و بذلك تتصل الجملة بقوله: **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** أى اللهم أمتهم بغيظهم إنك عليم بذات الصدور أى القلوب أى النفوس.

قوله تعالى: **إِنْ تَمَسَسِيْكُمْ حَسِيْنَةٌ تَسُوْهُمْ، المساءه خلاف السرور، و فى الآيه دلالة على أن الأمن من كيدهم مشروط بالصبر و التقوى.**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

